تجليات الأدب العربي

في عصر الحروب الصليبية

الدكتور عمر عبدالله العنبر

مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة

جامعة الإسراء



أمواج للنشر والتوزيع

تجليات الأدب العربي

في

عصر الحروب الصليبية

الطبعة الأولى

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021 / 1 / 468)

810.9

تجليات الادب العربي في عصر الحروب الصليبية / عمر عبدالله العنبر .- المؤلف - عمان، 2021

( ) ص.

ر. إ. : 468 / 1 / 2021 .

الواصفات : / الادب العربي // الحياة السياسية والاجتماعية // الحروب الصليبية // القادة المسلمون // تراجم الشعراء // العصر الاسلامي /

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978 - 9957 - 67 - 798 - 5

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة



تجليات الأدب العربي
في عصر الحروب الصليبية

الدكتور عمر عبدالله العنبر

مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة

جامعة الإسراء



طُبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 2 1

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ
أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ
كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن
رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن
نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ
لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٨٦) ﴾

صدق الله العظيم

المقدمة

إنَّ الأدب العربي في مرحلة الحروب الصليبية حمل لواء الجهاد، وقد كان الشعراء والكتاب يواجهون جنباً إلى جنب الصليبيين بالكلمة الجامعة، والقوّة المانعة، والصبر والتضحية، ووقف إلى جانبهم الشعب بصدق مع حكامه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في مواقفهم المشرّفة.

وإنَّ الشعود الديني الراسخ، ومكانته العميقة في نفوس المؤمنين، جعلت أقلام الشعراء تتجه إلى الإطار الديني تنتفع بما تضمنه من أفكار تتصل بالجهاد، والمجد الإسلامي، والشهادة، والجنة، والظفر ؛ وقد ركّز الشعراء في إنتاجهم الشعري – الذي لم يعرف عنه أنَّه تراجع أو تهادن أو استكان – على بيت المقدس بلد الإسراء، وقلب العروبة والإسلام، وهو شديد الصلة بعقيدة المسلمين، ويقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ...﴾ [1] ويقول الرسول "ﷺ" :(لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد، إلى المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[2].

ولقد كاد الصليبيون ينالون من الدّين لولا مواقفُ مشرفةٌ من الزنكيين (الأتابكة) وبني أيوب في مصر والشام، ممّا جعل الشعوب الإسلامية تنفر للجهار المقدس، وتجعل الصليبيين يفرّون مذعورين خائبين بعد أن استماتوا تشبّثاً بالبقاء، وقد هزّ انتصار المسلمين على الصليبيين واسترجاع أجزاء من البلاد الإسلامية أرجاء العالم الإسلامي، ففاضت أقلام الشعراء، ووضع الشعر – بشكل خاص– نفسه في خدمة المعارك الإسلامية، فأخذ يصوّر: الدفاع عن حمى الدين، والذود عن حياض الأوطان، وتصوير بلاء المحاربين، وتتويج كفاحهم بالتهنئات التي تخلّد أعمالهم.

1 القرآن الكريم آية 1 سورة الإسراء.

2 مسند الإمام أحمد بن حنبل234/2.

لذلك، تناول هذا الكتاب موضوعات شتّى تبلورت في ستة فصول وخاتمة، وكانت على النحو الآتي:

الفصل الأول: " البيئة السياسية، والاجتماعية، والثقافية " وركّزت في صفحات قليلة على وضع المجتمع الإسلامي قبل الغزو الصليبي في مصر والشّام والعراق، وبواعث الحركة الصليبية، والمراحل التي مرّت بها هذه الحركة، وأما "البيئة الإجتماعية فتناولت تركيبة المجتمع المتعددة الجنسيات والقوميات والأهواء حينذاك، وصوّرت التمزق السياسي في العالم الإسلامي، وأثر الحكام والسلاطين في ازدهار الحياة السياسية.

والفصل الثاني : " حول سقوط بيت المقدس وغيره من البلاد الإسلامية " تناول الأشعار التي وصفت هذه المأساة التي عمّت العالم الإسلامي أجمع.

والفصل الثالث :" استنهاض الهمم، والحضّ على الجهاد " عَرَضَ أشعار الشعراء التي عالجت الحثّ على جمع الكلمة، ووضع حدّ للخلافات الاقليمية،وتسخير النفس والمال والجاه من أجل المعركة، والتهديد والوعيد والتذكير ببطولات العرب والمسلمين على مرّ العصور، والحثّ على الأخذ بالثأر واسترجاع بيت المقدس.

وأما الفصل الرابع فكان: (مديح القادة وهجاء الأعداء) تناول شعر الشعراء الذين مجّدول قوّادهم، وعدّدوا مناقبهم، فيما أحرزوه من نصر وبلاء في معاركهم الجهاديّة البطوليّة على الفرنج، متهكمين ساخرين من هؤلاء الأعداء، وقد لحقت بهم الهزيمة تلو الأخرى.

والفصل الخامس: (رثاء الأبطال والقادة) يصوّر هؤلاء الذين خاضوا تلك الحروب، ونالوا الشهادة متقرّبين إلى الله فيها.

والفصل السادس: فيه بيان مقدرة الشعراء على (وصف المعارك والحروب)

ثم أتبعنا هذه الفصول بخاتمة، وضّحت أهم النتائج التي توصّل إليها البحث. وأردفناها بفهارس وتراجم للشعراء، وملاحق متنوعة أشرنا إليها في "ثبت الموضوعات".

وختاماً، أرجو أن أكون قد قدمت ما ينفع ويذكّر ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، سائلا المولى (عزّ وجلّ) أن ينفعنا بهذا الكتاب، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يسجلها في خواتيم أعمالنا، راجياً أن تشحت هم من الباحثين لمتابعة الاهتمام بأدب هذه المدّة.

وأخيراً، الشكر موصول لكل من قدم كل مساعدة ممكنة لانجاز هذا الكتاب، وإجابة عن استفسار أو نقد، جزاهم الله عني خير الجزاء، والله الموفق، ﴿يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[2]

1 القرآن الكريم آية 55 سورة الذاريات.

2 القرآن الكريم آية 4 سورة الأحزاب

الفصل الأول:
البيئة السياسية والإجتماعية والثقافية للأدب في مرحلة الحروب الصليبية

أولاً: البيئة السياسية للأدب في عصر الحروب الصليبية:

وضع المجتمع الإسلامي قبل الغزو الصليبي:

إنّ حالة كحالة المجتمع الإسلامي في القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي- كانت تغري الأمراء والقوّاد بالسيطرة على الخلافة الإسلامية، فقد كانت لقمة سائغة لمشتهيها ممّا دفع بالقوى الأوروبية النصرانية الصليبية أنْ توجّه أنظارها إليها، لأسباب اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، ودينية. ويسوقنا هذا، إلى الحديث بإيجاز عن الظروف السياسية -قبيل الغزو الصليبي- في الدولة الإسلامية.

1- الخلافة العباسية في بغداد:

كانت استعانةُ المعتصم بالله (ت 227هـ/ 842م) الجنود الأتراك إيذاناً بضعف الخلافة العباسية[1]، إذ نجدُّ أنّ المتوكل على الله (ت 247هـ/ 861م)جنى ما زرعه والده المعتصم حين حاول نقل عاصمته من بغداد إلى دمشق، غير أنّه عاد إلى سامراء[2] إذ كان قصره بالقاطول[3]، فاغتاله القادة الاتراك بالتعاون مع ابنه المنتصر[4]، وبذلك كان موته بداية النهاية للخلافة العباسية.

وتزداد الحالة سوءاً حين سيطر (بنو بويه) على بغداد سنة(334هـ/ 945م)، وعمّت المجاعة، وتفشّت الأمراض، وكثر القتل، واشتعلت الفتن والثورات[5]، وكان

---

1 مروج الذهب 35/4. وتاريخ الخلفاء،ص 335

2 مدينة كانت بين بغداد وتكريت شرقي دجلة، وقد خربت.(معجم البلدان 173/3)

3 القاطول: كأنه مقطوع من دجلة، وهو نهر كان في موضوع سامراً قبل أن تَعَمّر، وكان الرشيد أول من حفر هذا النهر، وبنى على فوهته قصرا. (معجم البلدان297/4)

4 مروج الذهب(85/4) و115 وما بعدها. وتاريخ الخلفاء، ص350.

5 انظر: الجزء الثامن من الكامل في التاريخ،ومسكويه، تجارب الأمم ٢/٩٤ وما بعدها.

الخليفة قابعاً في القصر، لا يملك من أمره شيئاً[1]؛ ممّا دفع الأمراء الآخرين إلى الاستهانة بهذه الخلافة.

والسلجوقيون[2] من أولئك الأمراء الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة البويهيين سنة (447هـ/ 1055م) واستطاعوا جمع شتات المشرق الإسلامي، وتَمَكَّن السلطان ألب أرسلان من الانتصار على الروم في معركة (ملازكرد) وأسر ملكهم، وذلك سنة (463هـ/ 1071م)[3]. وقد انهارت هذه الدولة بعد أنْ مات السلطان ملكشاه السلجوقي سنة (485هـ/ 1092م) وانقسمت على نفسها بعد أنْ كانت تسيطر على مساحة تمتد من بلاد الصين إلى سواحل الشام، ومن بلاد القوقاز إلى اليمن[4].

2-الفاطميون في مصر والشام:

لا يخفى على أحد أنَّ الإخشيديين[5] حكمو مصر والشام في أعقاب الدولة الطولونية، وقد أنهى حكم الإخشيديين الفاطميون الذين أسسوا دولتهم في بداية الأمر في تونس، ثم سيطروا على الشمال الإفريقي، ثم مصر في عهد المعزّ لدين الله الفاطميّ سنة(362هـ/ 1069م)[6]. وملكوا القدس وفلسطين ودمشق وغيرها، إلى أنْ تولّى الخلافة المستعلي بالله (487-495هـ/ 1094-1101م) الذي ظهرت في عهده الحروب الصليبية[7].

---

1 تجارب الأمم(1 /395-396).

2 هم تركمانيون: جدهم سلجوق، وقامت دولتهم باصفهان سنة (429هـ/1038م) ودخلوا بغداد سنة(447هـ/1055م) واستمّرت إلى سنة(639هـ/1220م)

3 الكامل في التاريخ (437/9) وما بعدها، و(65/10) وما بعدها. وتاريخ الخلفاء، ص419 وما بعدها. وملازكرد: من أعمال خلاط(بكسر الخاء)، هي قصبة أرمينية الوسطى. (الكامل (65/10). ومعجم البلدان 381/2).

4 الكامل في التاريخ (210/10) وما بعدها، وتاريخ الخلفاء، ص422 وما بعدها.

5 الإخشيديون: نسبة إلى الإخشيد، والإخشيد لقب كل ملك بفرغانة من بلاد الترك، وأول من ملك منهم في بلاد العرب الإخشيد محمد بن طغج (ت334هـ) مؤسس الدولة الإخشيدية في مصروالشام.

6 تاريخ مختصر الدول، ص294 وما بعدها.

7 المصدر السابق، ص340 وما بعدها.

الحركة الصليبية:

اختلف المؤرخون في تحديد تعريف هذه الحركة، فمنهم من نظر إلى أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب، ومنهم من رأى أنَّها محاولات كبرى ومشاريع لغزو الوطن العربي، بمعنى أنها حلقة تقوم على الهجرة الجماعية التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس، والفريق الثالث يرى أنها كانت حركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الأسلوب، وهو أنَّ الحج الجماعي صار حربياً بعد أنْ كان سلمياً، والفريق الأخير يرى أنَّ الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين ليجمعوا في ظنّهم بين الخلاص في الدنيا، والثواب في الآخرة[1].

والصليبيون: أهل انجلترا، وفرنسا، وجرمانية، وقد أطلق أهل الشرق عليهم اسم (الإفرنج) بعد الحروب الصليبية[2].

ويقوم الدكتور سعيد عاشور بتعريف الحركة الصليبية وتحديد ماهيتها، فيقول: "حركة كبرى نبعث من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى"[3]، واتخذت شكل هجوم حربي استعماريّ على بلاد المسلمين ولاسيّما الشرق الأدنى بقصد امتلاكها، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية؛ التي سادت غرب أوربة في القرن الحادي عشر، واتخذت من استغاثت المسيحيين في الشرق ضدّ المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً علمياً واسع النطاق"[4].

وفي هذا التعريف تحدّدت أمامنا بواعث ودوافع هذه الحركة، وسنحاول بإيجاز عرضها؛ للوقوف على طبيعتها:

---

1 د.سعيد عاشور، الحركة الصليبية (1/22-26)

2 الحروب الصليبية تسمية اجنبية، وأما العرب فقد عرفوا الصليبيين باسم الإفرنج (انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ(3/144). والإفرنج: قبائل جرمانية استوطنت فرنسا، وأسست فيها الممالك الأولى. وجرمانية منطقة واسعة في أواسط أوروبا.

3 العصور الوسطى: تطلق على القرون التي سبقت عصر النهضة الأوروبية الذي بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي.

4 الحركة الصليبية (1/26).

1 -الباعث الديني:

إنَّ الحافز الأساسيّ للاستيلاء على الأراضي المقدّسة بالشّام، ويذهب فريق إلى القول: إنَّ الحروب الصّليبيّة أتت ردّ فعل على الاضطهاد الذي تعرّض له المسيحيّون الشرقيّون، والغربيّون في البلدان الإسلامية إلى جانب ادعاء زوّار بيت المقدس النّصارى مضايقة المسلمين لهم، وانتهاكهم حرمات الأماكن المسيحيّة المقدّسة.

ولكن هذا الباعث ذَابَ وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص، كما أنَّ هذا الادعاء لا يتّفق وروح الإسلام و طبيعة الدّعوة إليه، وما شمل القرآن أهل الكتاب من عناية، وما جاء به القرآن من دعوة إلى دين الله بالحكمة، والموعظة الحسنة.

وما كان أيضاً من موقف عمر ابن الخطاب (ﷺ) تجاه أهل الكتاب في بلاد الشام، ويقول بعض المؤرخين الأوروبيين: "إنَّ المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحريّة الدينية، وغير الدينية في ظلّ الحكم الإسلامي،فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنّما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتباً دينيّة متنوعة في اللاهوت"[1].

ويقول مؤرخ مسيحي آخر في الردّ على من ادّعى أنَّ أحوال المسيحيين في أواخر القرن الحادي عشر -في آسيا الصّغرى والشّام- قد ساءت تحت حكم السلاجقة: "إنَّ المسيحيين الذين خضعوا لحكم السّلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم اللذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها... وإنَّه لا يوجد أيُّ دليل على قيام السّلاجقة باضطهاد المسيحيين لهم"[2].

2-الباعث الاقتصادي:

يُعَدّ هذا الباعث من أهم الأسباب التي أدّت إلى الحروب الصليبيّة، فقد ساءت الأحوال الاقتصادية، وانتشرت الأمراض، وعمّت الفوضى، وكثرت الضرائب،

1 الحركة الصليبية 1/30-31.

2 المرجع السابق (1/31).

وحلّت المجاعة، وساد الفقر، ويؤكد هذه الظروف المؤرخون ولاسيما في فرنسة، فقد: "كانت تعاني من مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى، فندر وجود الغلال، وارتفعت اثمانها ارتفاعاً فاحشاً ممّا ترتّب عليه حدوث أزمة في الخبز..."مما"ألجأ الناس الى أكل الأعشاب والحشائش..." ثم كثرت "الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين، وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها، ممّا أضرّ بالتجارة وطرقها، والزراعة وحقولها أبلغ الضرر..." إذا لا عجب أنْ نرى في تلك الجموع الغفيرة"من المعدمين، والفقراء، والمساكين، وطريدي القانون، وجميعهم كانوا يفكّرون بوحي من بطونهم لا بوحي من دينهم، بدليل ما أتوه على طول طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان، والسّلب، والنّهب ضدّ الشعوب المسيحية التي مرّوا بأراضيها ممّا يتعارض مع أيِّ وازع ديني"[1]

ويؤكد هذا احتلالهم لمدينة دمياط[2] -على نهر النيل- وسواحل مصر، وغيرها من البلدان العربية المهمة التي تتمتّع بموقع إستراتيجي، ولاسيّما التجاري منها.

3-**الباعث الاجتماعي**:

كان المجتمع الأوروبي يتألف في العصور الوسطى(القرن الحادي عشر الميلادي) من طبقات ثلاث: طبقة رجال الدّين(وتضم: الكنيسيين، والديريين)، وطبقة المحاربين (وتضم: النبلاء، والفرسان)، وطبقة الفلاحين (وتضم: الأقنان، ورقيق الأرض).

فالطبقة الأخيرة تعمل لتسدّ حاجة الطبقتين الأوليين، تحت ظروف قاسية، وضعة في الحياة، وشظف في العيش، وضرائب باهظة، وعمل دائم ومستمر، ويقوم بعمله وخدماته للسيّد الإقطاعي، فهذه الطبقة الكبيرة في قاعدتها وخدماتها، القليلة في نفوذها، كانت صغيرة تحيا حياة الذلّ والشّقاء والهوان، ومن هنا كانوا هم الجيوش المحاربة التي انطلقت من بلادها مغامرة للبحث عن لقمة العيش والحياة الأفضل، وللتخلّص من العبودية.

---

1 المرجع السابق (35-34/1). وانظر مزيداً من التفصيل في تاريخ مختصر الدول،ص396 وما بعدها.

2 مدينة قديمة بين البحر المتوسط والنيل (معجم البدان 473/2).

4- الباعث السياسي:

لم يخرج ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية"مثل: فرديك بربروسا، وريتشارد قلب الأسد، وفيليب وغيرهم) إلّا تحت ضغط البابوية وإلحاحها، بل تهديدها، وأما الأمراء فكانوا يبحثون عن مطامع سياسية...ولا يخفى على أحد الدّور الكبير الذي تقوم به البابوبية والسلطة العظيمة التي تتمتّع بها، وما من ملك من ملوك الغرب كان يستطيع أن يعصي للبابوبية أمراً أو يردّ لها طلباً، فإنْ فعل، تعرّض للحرمان، والطّرد من الكنيسة ورحمتها، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه[1] أصبح السلاجقة يهددّون القسطنطينية بالاحتلال بعد أنْ كانوا على مقربة منها، ممّا دفع ملك الرّوم إلى طلب النجدة من العالم المسيحي ضدّ المسلمين[2].

5-باعث الفروسية:

إنّ النظام الإقطاعي ارتباط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب وإظهار الشجاعة، وإنَّ حياة السلم كانت تعني البطالة للمحاربين، وعندما كثرت الحروب الإقطاعية وهدّدت المجتمع الغربي، وتدخلت البابويّة بما يعرف باسم(هدنة الله) وهي أوقات معلومة يحرّم فيها القتال، حينئذ أخذ الفرسان يبحثون عن ميدان جديد لإبراز عضلاتهم، فابتكروا المبارزة التي لم تكن إلا عبارة عن تمثيليّة استعراضية، ولكنهم وجدوا في الحروب الصليبية فرصة لإظهار قوتهم لكسب المال، وتحقيق الذات[3].

6- موقف الفاطميين بمصر:

عندما تحرّكت جموع الصليبيين من موطنهم إلى بلاد المسلمين نزلوا (نيقيَةَ)[4] وهي أول بلد اخذوه وصلوا إلى (كفر طاب)[5]، فكان هذا أول مظهر للفرنج بالشام، وقيل: "إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوّة الدولة السلجوقية، وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام حتّى غزّة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم... خافوا، وأرسلوا

1 المرجع السابق(1/39-42).

2 الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية (1/93-96).

3 الحركة الصليبية (1/42).

4 مدينة من أعمال استنبول على البر الشرقي(معجم البلدان 5/333).

5 بلدة بين المعرة ومدينة حلب(معجم البلدان4/470).

إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين"[1].
والذي يؤكّد هذا الخبر استغلال الفاطميين زحف الصليبيين على الشّام؛ للقيام باسترداد بيت المقدس من السّلاجقة، وقد نجحوا في محاولتهم هذه ولكنهم سرعان ما تركوه للصليبيين[2].

7-**التنافس السياسي** بين الدويلات والإمارات الإسلامية، وضعفها الشديد مع عدم وجود الرغبة في صدّ العدوان، بل على العكس من هذا كان ينتظر بعضهم الاستفادة من وجود الصليبيين لتقوية مراكزهم.

أطوار الحروب الصليبية:

مرّت الحروب الصليبية بثلاثة أطوار، وامتدت نحو مئتي عام أو تزيد قليلاً وذلك من سنة (488هـ/ 1095م إلى سنة 691هـ/ 1291م).

1- الطّور الأول من هذه الحروب:

تمكّن فيه الصليبيون من احتلال أنطاكية [3](سنة 391هـ/ 1098م)، ومعَرة النُعْمان، وحصن الأكراد، وطَرْطُوس[4]... وفي رجب من سنة 492هـ/ حزيران1099م حصروا مدينة القدس ثم اقتحموها في شعبان من العام نفسه، واستطاعوا تأسيس الإمارات أو الممالك التالية في شرق البحر الأبيض المتوسط:

أ-إمارة أنطاكية: دخلها الصليبيون سنة(491هـ/ 1098م) بمؤامرة دبّرها حاكم أرمني، واستمرت هذه الإمارة حتى سنة (667هـ/ 1268م).

ب-إمارة الرُّها[5] (شماليّ سورية وراء الفرات): دخلها الصليبيون سنة 492هـ/ 1098م بناءً على طلب من صاحبها الأرمني الذي استنصر بهم، فلبّوا دعوته وقتلوه، وبقيت هذه الإمارة إلى أن أزالها آل زنكي سنة (539هـ/ 1144م).

1 الكامل في التاريخ (273/10). وتاريخ الخلفاء، ص427.

2 الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية (76-75/1).

3 كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، ملكها الروم سنة353هـ، واستنقذها منهم سليمان بن قُتلمش السلجوقي سنة477هـ، ثم الفرنج سنة 492هـ. ويقول ياقوت: وهي في ايديهم إلى الآن(معجم البلدان1/266-270).

4 معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة كانت من أعمال حمص، وهي الآن تابعة لمدينة إدلب(معجم البلدان 165/5). وطرطوس: بلد في الشام مشرفة على البحر(معجم البلدان 30/4). وحصن الأكراد: في بلاد الشام(الكامل في التاريخ218/11 و294 و327 و354).

5 الرها: مدينة في الجزيرة بين الموصل والشام (معجم البلدان 106/3).

ج-مملكةُ القدس، أو بيت المقدس: وهي أكبر الممالك الصليبية، وكانت تمتد من خليج العقبة عند الطرف الشمالي للبحر الأحمر إلى شماليّ مدينة بيروت، كما أنها كانت تشمل جميع الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، ولم تمتد هذه المملكة إلى ما وراء نهر الأردن؛ لأنّ المنطقة الواقعة شرقي الأردن تعرف بإمارة الكَرَك[1]، وكان والي القدس يلقب الملك، وأما بقية الإمارات فهي تابعة لها.

د- إمارة طَرَابُلُس[2]: تكونت سنة (496هـ/ 1102م) واستمرت إلى سنة (688هـ/ 1289م).

إذ يلاحظ أنَّ المخطط الصليبي كان يهدف إلى إبعاد المسلمين عن الشواطئ، حتى إنّه لم يبقى للسلاجقة الاتراك ولا للعرب مكانٌ يطلّون منه على الجانبين الشمالي، والشرقي من الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

2-الطّور الثاني من الحروب الصليبية:

أسس عماد الدين زنكي السلجوقي في سنة (521هـ/ 1127م) إمارة في المَوْصل[3]، وبدأ بمحاربة الإفرنج الصليبيين فأخذ المدّ الصليبي بالتقهقر، ثمّ خلفه ابنه نور الدين في سنة ٥٤١هـ في الشام وحاربهم.

وأخذت الدولة الفاطمية -في هذه المرحلة-تضعف ويتضعضع أمرها ممّا وفّر للصليبيين الفرصة للوصول إلى القاهرة في سنة(564هـ/ 1168م).[4]

وقد تراجعوا عنها حين دفع وزير العاضد لدين الله الفاطمي مليون دينار، واستغاث هذا الوزير بنور الدين زنكي الذي أرسل له جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، وقد استطاع هذا القائد أنْ يتولى وزارة العاضد لدين الله، ولم يدم في وزارته، فقد وافته المنية بعد شهرين، خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذي استطاع توطيد مكانته، والمحافظة على علاقاته بنور الدين زنكي، إلّا أنَّ صلاح الدين تمكن من خلع العاضد لدين الله الفاطمي

---

1 قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء(معجم البلدان 453/4).

2 طرابلس: مدينة معروفة على شاطئ البحر المتوسط، وعليها سور صخر البنيان(معجم البلدان25/4).

3 يقال: أنها باب العراق، ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان، وسميت الموصل بهذا الاسم: لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين دجلة والفرات(معجم البلدان223/5).

4 بليدة مطلة على بحيرة طبرية، وهي من أعمال الأردن من طرف الغور(معجم البلدان17/4).

في المحرم سنة(566هـ/ 1171م)، وبذلك قضى على الدولة الفاطمية، ثمّ أعلن استقلاله بمصر بعد وفاة نور الدين سنة(569هـ/ 1173م).

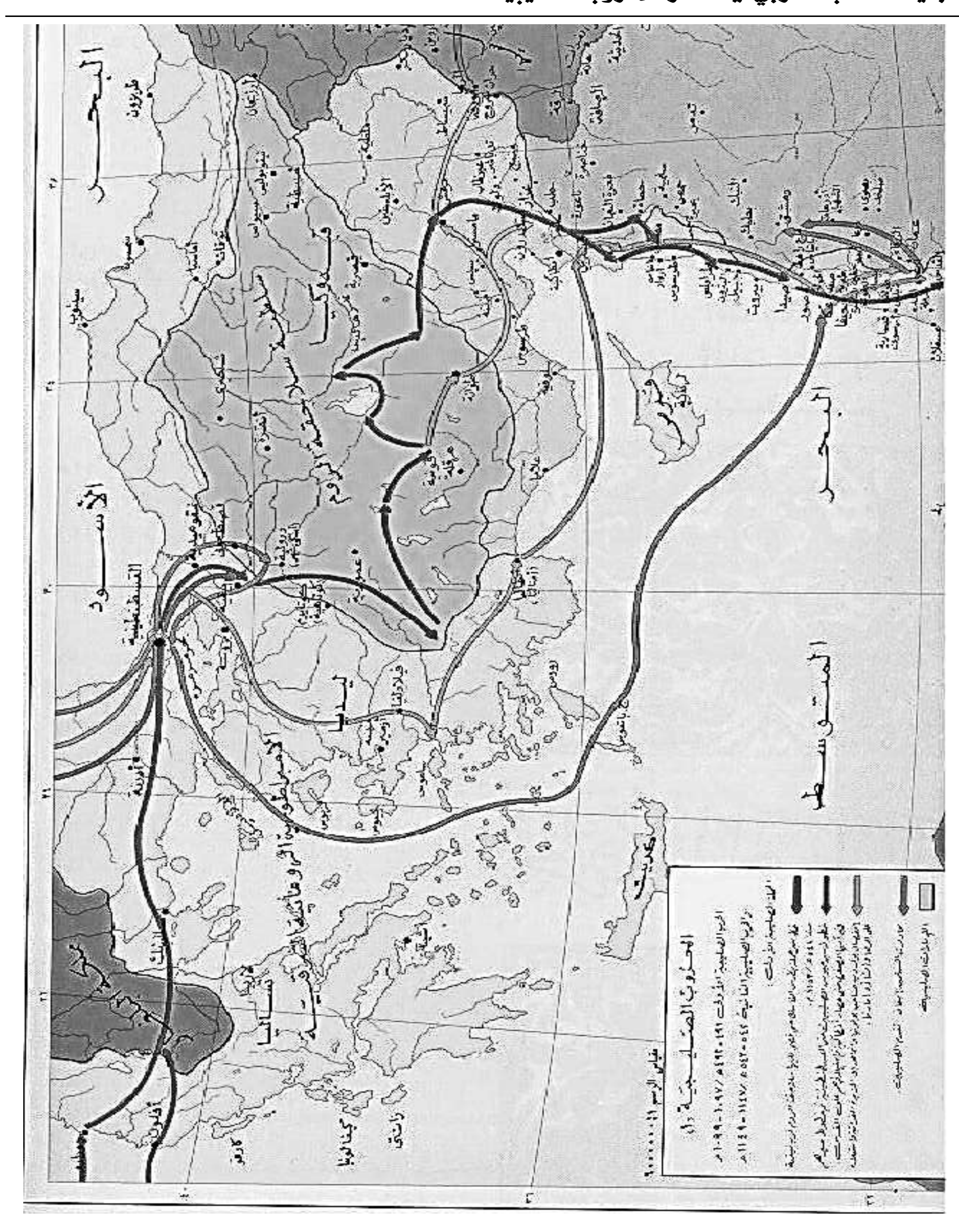
واستطاع صلاح الدين الأيوبي توحيد مصر، والشام، والعراق في مدة سنتين (570/ 572هـ/ 1174-1176م)، ثمّ بدأ بمحاربة الصليبيين، واسترداد البلدان، فقد فتح طبرية في(22ربيع الآخر 583هـ/ 1كانون الثاني 1187م) وبعد يومين التَقَاهُم في سهل حطين[1] وانتصر عليهم، واسترد بيت المقدس في يوم الإسراء والمعراج (27رجب583هـ-1187/ 10/ 3م)، وقد توفي صلاح الدين سنة (589هـ/ 1193م) قبل إنْ يتمّم استرداد البلاد جميعها من الصليبيين.

3-الطّور الثالث: طور الانتكاس

بعد وفاة صلاح الدين انقسمت المملكة الأيوبية سبعة أقسام بين أبنائه، وأخيه الملك العادل، وسائر أقاربه، وبدأ النزاع بينهم، واستطاع الصليبيون استرداد ما خسروه، فاحتلوا بيروت، وصفد، وطبرية، والقدس، ثمّ احتلوا دمياط إلّا أنَّ الملك العادل اخرجهم منها، ثمَّ إنَّ الصليبيين عادوا بحملة على مصر قام بها لويس التاسع ملك فرنسا، واستولى على دمياط مرّة ثانية سنة (647هـ/ 1249م)، أيّ: بعد نحو خمسين عاماً من احتلالهم الأول لها، ولكن المصريين تمكنوا من القضاء على حملة لويس في العام التالي، واسروا لويس التاسع في معركة المنصورة الشهيرة[2].

1 قرية بين أرسوف وقيسارية، وبها قبر شعيب عليه السلام(معجم البلدان2/273).

2 تاريخ الأدب العربي، د.عمر فروخ(3/144-146). وانظر: الكامل في التاريخ(10/272) وما بعدها، والجزء الحادي عشر. وتاريخ الخلفاء، ص426 وما بعدها. وتاريخ مختصر الدول، ص340 وما بعدها. والحركة الصليبية،(ج1و2). وحامد غنيم، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، (ج1و2و3). وصفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان(معجم البلدان3/412). وهي الآن من أرض فلسطين.



ثانياً: البيئة الاجتماعية للأدب في عصر الحروب الصليبية

قبل إنْ تبدأ الحروب الصليبية لاحظنا أنَّ حكام أهل البلاد-في العراق، والشام، ومصر- لم يكونوا في الغالب عرباً، وإنما هم من شعوب مختلفة، فمنهم الفرس، والترك، والروم، والأكراد، والأرمن، وغيرهم. وقد ابتدأ هذا الأمر حين قامت الدولة العباسية على أكتاف الموالي، وأهمل-حينذاك- العباسيون العنصر العربي، ممّا خلق الصراع بين العنصريين الفارسي والعربي... ولما تولى المعتصم الخلافة اهمل العنصرين السابقين واستعان بالعنصر التركي الذي آثره في كلِّ شيء بل اسند إليه مناصب الدولة[1]، ومن هنا أصبح الخليفة القابع بقصره في بغداد رضياً بما قسمه له الحكام والأمراء، وقد رأى بعض الشعراء أنّ الخليفة المستعين (ت252هـ/ 866م) ببغاء في قفص يردّد ما يقوله له حاجباه التركيّان، وصيف وبِغاء:(من مجزوء الرجز)

خليفـةٌ في قَفَـص	بـينَ وصـيف وبُغـا
يقـولُ مـا قـالا لـه	كمـا يقـولُ الببَّغَـا[2]

ولسنا نظن أنّ حال الخلفاء من بعده بأفضل من حال هذا الخليفة، بل على العكس من ذلك، فقد كانوا لبعض الشعراء مجالاً خصباً التهكم والسخرية، فهذا ابن الحجاج الشاعر يقول في الخليفة الطائع (ت381هـ/ 991م): (من السريع)

فانفـه أكـبر مـن ملكـهِ	في الطّـولِ والعـرضِ إذا قُـدِّرا
يحـطّ في المنـديل خيشـومه	ضـفادعاً خضـراً إذا اسـتنثرا
قـد كَتَـب الشـؤمُ علـى وجهِـهِ	هـذا أخـو الغفـلاءِ قـد أَدْبَـرا[3]

1 تاريخ الخلفاء، ص235.

2 مروج الذهب(145/4).

3 ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص179-180.

فأهل البلاد مزيج من عرب، وترك، وأكراد، وروم، وغير ذلك، وكان العرب أكثر ذلك المزيج عدداً وأضيق أولئك الأجناس نفوذاً، وكان النفوذ الأول في السياسة والحرب للأتراك، ولما بدأت الحروب الصليبية[1]، استطاع هؤلاء السيطرة التامة على بلاد العراق والشام ومصر، وكانوا خلال هذه المدة الزمنية منعزلين عن عامة الشعب، وذلك للحفاظ على شخصيتهم، وترفعاً واستعلاء على أهل البلاد.

ولما امتدت الحروب الصليبية وطالت، وكثر القتل، وتشتَّت شمل المسلمين ملّ الناس، وتخلّوا عن الجهاد، وأخذوا يبحثون عن أماكن أكثر أمناً وسلاماً، ولا سيما مصر ومكة، واخذوا يعتزلون في المساجد والزوايا، وأخذ الموقف يتبلور، وأخذت ظاهرة التصوف تزداد، حتى ظهرت بوضوح في العصر الأيوبي، واستطاع أصحاب التصوف بناء منازل للصوفية عرفت باسم((الخانقاوات))، ويقال: إن صلاح الدين الأيوبي إنشأ أول خانقاه بمصر سنة(569هـ/ 1173م) وولّى عليها شيخاً عرف بشيخ الشيوخ[2]، وكان هؤلاء المتصوفون على صلة كبيرة بالجهاد والمجاهدين.

إنَّ الشعوب التي تحكمها اقليات من مختلف الجنسيات، عاشت حياتها ذلّ وفقر ومجاعة وتشرّد، لم تعرف طعم الحريّة أو الراحة، إذ كان همّ السلاطين جمع الثروة والجاه، وتثبيت السلطة، ولسنا بحاجة إلى تتبع حياة البذخ عندهم فكُتب التاريخ امتلأت بطونها بمثل هذه الأخبار.

ومن الأمانة أن نشير إلى الدولة الأيوبية التي قامت بين دولتين عرفتا البذخ هما: الفاطمية والمملوكية إذ امتازت الحياة الاجتماعية فيهما بالإسراف والمبالغة في إحياء الحفلات، ناهيك عن انتشار الفساد والظلم، وكثرة الفتن والقتل، والسلب والنهب، وصدق قول الشاعر: (من الخفيف)

---

1 د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (146/3).

2 د. سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبي والمماليك، ص116.

باضـــطراب الزّمـــان ترتفـــعُ الأنـــْ ذال فيـــه حتّـــى يعـــمّ الـــبلاءُ[1]

وكـــذا المـــاءُ ســـاكنا فـــإذا حُـــرْ ركَ ثـــارت مِـــنْ قَعْـــرِهِ الأقـــذاءُ

وشاء القدر أن تنشأ الدولة الأيوبية في ظلّ ظروف تختلف عن ظروف الدولتين: الفاطمية والمملوكية، فهذه نشأت وقامت في ظرف قاس، وهو وجود الصليبيين بالشام، وتهديدهم المستمر بالسيطرة على بقية أجزاء الدولة الإسلامية؛ لذا برزت لديهم فكرة الجهاد أكثر من أيّة فكرة أخرى، ممّا حال دون اهتمامهم كسابقيهم أو لاحقيهم بالاحتفالات وحياة الترف... فبناء السفن والاساطيل، وإعداد الجيوش، وتحصين المدن و صناعة الآلات الحربية كانت كفيلاً باستنفاد خزائن دولة بني أيوب، ويروى أنّه ما من سلطان مات إلّا وترك في خزائنه أكوام المال، وعديد التحف، في حين نجد أنَّ صلاح الدين مات، ولم يترك في خزائنه سوى سبعة وأربعين درهماً من الفضة، وغراماً واحداً من الذهب، ولم يخلف مُلْكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة[2].

وممّا لا شك فيه أنَّ وجود الإفرنج في البلاد الإسلامية أسهم في نشر دور اللهو في المناطق التي يسيطرون عليها، وأسهم في نشر تجارة الرقيق التي كان يقوم بها الأوربيون عامة، والإيطاليون خاصة، فكانوا يحملون من أوروبة النساء، والفتيان، والغلمان إلى الشرق الإفرنج أو للشرقيين في أسواق النخاسة... إلى جانب أنهم اثّروا في الحياة الاجتماعية و الثقافية تأثيراً طفيفاً، ناهيك عن الأمراض المعدية التي جلبها معهم الرقيق وغيرهم.

والجدير بالذكر أنَّ الأوروبيين تأثروا بالمقابل بالبيئة المحيطة بهم حتّى إنَّ بعضهم تَرَكَ شرب الخمر وأَكْلَ لحم الخنزير، بل إنَّ منهم مَنْ أسلم، ويعود ذلك إلى المناظرات التي كانت تجري بين رجال من الصليبيين، ورجال من المسلمين؛ ويقال: إنّ صاحب

1 النجوم الزاهرة (594/6)

2 وفيات الأعيان(204/7).

حصن (أرنون) كان يتردّد على صلاح الدين يناظر المسلمين في صحّة دينه، ويناظرونه في بطلانه[1].

ثالثاً: البيئة الثقافية للأدب في عصر الحروب الصليبية

يعدُّ العصر العباسي من أرقى العصور الثقافية التي مرّت بها الأمة الإسلامية، ونخصّ بالذكر رقي الحركة الأدبية. وأما الدوافع والأسباب الكثيرة التي كانت وراء ذلك، فأهمها نشوء الدويلات في جسم الخلافة الإسلامية، وتنافس الأدباء والعلماء على أبواب السلاطين، والأمراء، والوزراء، ولئن كانت الدويلات: السلجوقية، والفاطمية، والأيوبية التي تدخل أساساً في العصر العباسي الذي تُحدّد نهايته دخول التتار بغداد سنة (656هـ/ 1258م)، فإنها تعدُّ بداية النهاية للعصر العباسي، وهي -في الوقت ذاته- همزة الوصل بين العصر العباسي والمملوكي.

ولقد تنافس الخلفاء والملوك والحكام في الاهتمام بالعلم، فقام باجتذاب الشعراء إلى أبوابهم، وبناء المدارس، والمعاهد، ودور العلم، وإنشاء المكتبات، وشراء الكتب واقتناء النفيس منها إلى خزائنهم الخاصة، وإعداد الفهارس لها، بل إنه يحكى عن المجهود الذاتي للشاعر الشريف الرضي (ت406هـ/ 1085م) فيقال: إنّه قام بتأسيس الأكاديمية التي اطلق عليها اسم (دار العلم)، وحرص على تزويدها بكل ما تحتاجه من كتب وفهرسة، ووسائل علمية، وإيضاحية حتّى الأقلام، والأوراق، وزوّد كلّ طالب راغب في المراجعة بمفتاح، حتّى يدخل الدار متى شاء دون انتظار للهازن الذي عين أميناً للمكتبة فيها[2].

1 تاريخ الأدب العربي (148/3). والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي، ص21. والحروب الصليبية لحسين أحمد أمين، ص 112-113.

2 Abd ‘Ali Isam, al-Sharif al-Radi,His Life and Poetry. ph.D.Thesis, Durham University, 1974. (vol.1.P.5); Islamic Culture, art., “Libraries and Acadimies During the Buwayhid Period”, by Mafizulla Kabir , vol. 33, no.1.January,1959,P.33.

وحين نصل إلى نظام المُلْك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (ت486هـ/ 1093م) صاحب فكرة إنشاء المدارس نكون قد شارفنا على بداية حركة إرساء التعليم في البلاد الإسلامية، ويقول ابن خلكان: "وبنى -نظام الملك- المدارس، والرُّبُط، والمساجد في البلاد، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس، وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربعمئة... "[1]. ولا عجب أنْ نرى الأتابكة في العراق والشام يقلدون سلاطينهم السلاجقة في إنشاء المدارس، وإقامة دور العلم[2]. ولعل ذلك لم يكن مجرد تقليد، بل كان بتوجيه من الحكام بسبب وعيهم لأهمية المدارس.

ولا بدّ أن نجد صلاح الدين الأيوبي يدفع عجلة الحركة العلمية إلى الأمام متبعاً نهجَ سلطانه نور الدين زنكي في إنشاء المدارس، ومؤمناً في بترسيخ هذه الحركة الثقافية من أجل حياة أفضل، فها هو يبدأ مسيرته في سنة(556هـ/ 1161م) في حياة الخليفة العاضد الفاطمي بهدم (دار المعونة) التي كانت مكاناً للحبس، وبنى مكانها مدرسة للشافعية[3]، وفي السنة نفسها اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه (587هـ/ 1191م) منازل بمصر، وبنى مكانها مدرسة للشافعية[4]. ويقال: (إنّ الفيوم كانت بلاده وإقطاعه، وله بها مدرستان: شافعية، ومالكية، وعليهما وقف جيد أيضاً، وبنى بمدينة الرُّها مدرسة لمّا كان صاحب البلاد الشرقية، وكان كثير الإحسان إلى العلماء...)[5].

ويخبرنا ابن جبير في رحلته عن الإسكندرية في عهد صلاح الدين الأيوبي بقوله: (ومن مناقب هذا البلد، ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس، والمحارس

1 وفيات الأعيان(2/128-131). وانظر: (3/168) و(4/218) و223و 246. والكامل في التاريخ(10/185).

2 انظر: وفيات الأعيان (1/193) و194 و(7/85) و 100. وكتاب الروضتين (1/65).

3 الكامل في التاريخ(11/366).

4 ووفيات الأعيان(3/455). والروضتين (1/191).

5 وفيات الأعيان (3/456).

الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كلّ واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرّساً يعلّمه الفن الذي يريد تعلّمه، وإجراء يقوم به في جميع الأحوال)[1].

والمدارس التي أنشئت في القرنين السادس، والسابع الهجريين في بيت المقدس في العصر الأيوبي كثيرة، منها: المدرسة الصّلاحية، والأفضلية، والميمونية، والنحوية، والنصرية، والبدرية، والأمجدية، وغيرها[2].

ومن أهم هذه المدارس المدرسة الصلاحية، سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى صلاح الدين، وكانت هذه المدارس أشبه ما تكون بجامعات عصرنا الحاضر، أما المدارس في دمشق وغيرها فكثيرة[3].

وعرف عن نور الدين زنكي أنَّه خصص لمدرسته في دمشق كتباً كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم[4]. ولعلّ هذا ما يكون سبباً كافياً لينتهج صلاح الدين نهج سلطانه كما أنّ ولع الفاطميين بالكتب وخبرتهم بالفهرسة، وترتيب جعله صلاح الدين يسلك مسلكهم في تأسيس المكتبات، وما من أحد في هذا العصر إلّا كان مغرماً في اقتناء الكتب، فهذا أمين الدولة أبو الحسن السامري الوزير، يقتني عشرة آلاف مجلد، كلها بخطوط منسوبة، وكتب نفيسة، وهذا أفرائيم خلّف من الكتب ما يزيد عن عشرين ألف مجلد[5]. وذاك العماد الكاتب الأصفهاني جمع من الكتب النفيسة الآلاف، حتّى صارت ثروته هذه لا تقدّر بثمن[6].

---

1 رحلة ابن جبير، ص46. وانظر: حسن المحاضرة (256/2) وما بعدها.

2 المدارس في بيت المقدس، للدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي(179/1-399). وانظر: حسن المحاضرة (256/2) وما بعدها.

3 انظر: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، للدكتور حسن شميساني، ص53-258.

4 مصر والشام في عصر الأيوبين والمماليك، ص121.

5 الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص86. (ولم يشر المرجع إلى ترجمة أفرائيم هذا).

6 الروضتين (268/1)

وأما أسواق الكتب فهي كثيرة وعامرة، ويُقال: إنّ حريقا شبّ في سوق دمشق للكتب سنة (681هـ)، فأحرق لشمس الدين إبراهيم الجزري خمسة عشر ألف مجلد[1].

كما أنَّ حريقاً شيّ في سنة(691هـ) بقلعة الجبل في مصر فأحرق كثيراً من الكتب[2]. كما أننا نجدُ في هذه المدة الزمنية نشاطاً بارزاً للمؤرخين اللذين انهمكوا في تسجيل أحداث هذه المدة الزمنية، ولاسيما الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، ومن أشهرهم: النسابة أبو علي محمد بن أسعد الحسيني الجّوانّي بمصر (ت558هـ/ 1161م)[3].

والمؤرخ الشهير بهاء الدين بن شدّاد(ت632هـ/ 1235م) صاحب النوادر السلطانية، والمحاسن اليوسفية[4] والمؤرخ الرّحالة المشهور محمد بن أحمد أبو الحسين ابن جبير البلنسي(ت614هـ/ 1217م) صاحب كتاب"رحلة ابن جبير"[5]، وأبو شامة المقدسي الدمشقي(ت665/ 1267م) صاحب كتاب"الروضتين في أخبار الدولتين"[6]، والمؤرخ الشهير ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي المكارم(ت630هـ/ 1233م) صاحب الكامل في التاريخ[7]، وجمال الدين علي بن يوسف القفطي(ت646هـ/ 1248م) صاحب إخبار العلماء بأخبار الحكماء[8]، وابن خلكان(ت681هـ/ 1282م) صاحب وفيات الأعيان[9]، وغيرهم كثير.

1 الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص86 نقلاً عن نهاية الأرب(28/21أ).

2 النجوم الزاهرة (8/33)

3 النجوم الزاهرة (119/6).

4 انظر:مقدمة "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" أو "سيرة صلاح الدين" ص٣-١٢.

5 النجوم الزاهرة (221/6). وانظر: مقدمة محقق كتاب"رحلة ابن جبير" ص٥-٣٧

6 انظر: فوات الوفيات (269/2-271). والذيب على الروضتين(مقدمة المحقق).

7 وفيات الأعيان (348/3-350).

8 النجوم الزاهرة (361/6). وحسن المحاضرة (265/1).

9 انظر مقدمة المحقق لهذا الكتاب (5/1-13).

وفي مجال دراسات علوم اللغة والنحو برز مجموعة من العلماء أشهرهم: أبو عمر عثمان بن الحاجب(ت646هـ/ 1248م)[1].

ولا يفوتنا أن نذكر الفيلسوف المعروف: أبا عبد الله فخر الدين الرازي (ت606هـ/ 1209م)[2] والأديب الجغرافي ياقوتاً الحموي(626هـ/ 1228م) مؤلف: معجم الأدباء، ومعجم البلدان[3].

وقد اشتهر في هذا العصر بعض علماء البلاغة والنقد، من أمثال: ابن سنان الخفاقي عبد الله بن محمد بن سعيد(ت446هـ/ 1073م) صاحب كتاب سرّ الفصاحة[4]، وأسامة بن منقذ(ت584هـ/ 1188م) صاحب "لشعر"[5]، والزَّمَلْكاني الدمشقي عبد الواحد بن عبد الكريم(ت651هـ/ 1253م) مؤلف كتاب "التبيان في علم البيان"[6]، والناقد المعروف ضياء الدين نصر الله(ابن الأثير) (ت637هـ/ 1239م) صاحب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"[7].

وقد شهد عصر الحروب الصليبية نشاطاً أدبياً وفكرياً بارزاً، وأثر تأثيراً كبيراً في الأدب، شعره ونثره، وترك بصماته الواضحة، وبالمقابل فقد أثر الأدب في السياسة، وحافظ الشاعر على مكانته الأدبية، وأَخَذَ يوظف الكلمة من أجل البقاء والمحافظة على التراث وربط القديم بالحديث، وأصبح الأدب ينبع من فكر ديني، ولاسيما حين تقهقر العالم الإسلامي أمام الغزو الصليبي، وسلّم لهم اقدس المقدسات، حينئذ راح الشعراء ينظمون أشعارهم التي تصور الدماء والخراب، ويؤلفون قصائدهم للحثّ على

1 وفيات الأعيان (3/248-250). والنجوم الزاهرة (6/360-361). وشذرات الذهب (5/234).

2 وفيات الأعيان (4/248-252). وشذرات الذهب (5/21).

3 وفيات الأعيان (6/127-139). وشذرات الذهب (5/121). والنجوم الزاهرة (5/283)

4 كتاب: "سرّ الفصاحة" مقدمة المحقق، ص7-12. والأعلام (4/122).

5 وفيات الأعيان(1/195-199). ومعجم الأدباء (5/188-245). وانظر: مقدمة الديوان أسامة ابن منقذ (بتحقيقنا)، ص11-41.

6 شذرات الذهب (5/254). والأعلام (4/176).

7 وفيات الأعيان (5/389-397).

الجهاد، والتحريض على القتال، وشارك الشعرُ فنَّ الخطابة الدينية؛ وما إنْ بدأ المسلمون في إعادة تجميع قواهم، وبدأ التجهيز والإعداد يعطي ثماره حتّى تحوّلت الكلمة الى الحثّ على مزيد من التضحية، وتصوير الشهداء، ومدح الأبطال، ويظهر صلاح الدين على الساحة الإسلامية، ويعلن الجهاد في سبيل الله، فتشعل الكلمة، وتثور الألفاظ، وتتحد المعاني؛ لتزيّن لأبطال المسلمين: حلاوة النصر، والشهادة، ونيل الأجر، والثواب في الآخرة.

وفي ظلّ هذه الظروف ظهر عدد كبير من الشعراء، والخطباء، والكتّاب، والتفّوا حول قادتهم، وسكبوا بين إيديهم غُرر قصائدهم، وفيض قرائحهم التي تعبق بالمعاني الدينية.

فمن هؤلاء الشعراء على سبيل المثال -لا الحصر- الأبيوردي(ت507هـ/ 1113م)، وابن القيسراني (ت548هـ/ 1153م)، وابن قسيم الحموي (ت542هـ/ 1113م)، وطلائع بن رزّيك (ت556هـ/ 1160م)، وأسامة بن منقذ (ت584هـ/ 1187م)، والعماد الكاتب الأصفهاني(ت597هـ/ 1200م)، وابن الساعاتي (ت604هـ/ 1208م)، وابن سناء الملك (ت608هـ/ 1211م)، وفتيان الشاغوري (ت615هـ/ 1218م)، وابن النبيه المصري(ت619هـ/ 1222م)، وابن مطروح الأسيوطي(ت649هـ/ 1251م)، وبهاء الدبن زهير(ت656هـ/ 1258م)وغيرهم كثير.

ويذهب فريق إلى القول: لقد نشطت الحياة الأدبية في العصر الأيوبيين، وإنْ كانت الأحداث التي ألمت بالعالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وما أصاب المسلمين على إيدي الصليبيين خاصة، فقد صبغت الأدب صبغة مُعيّنة،فكسدت سوق الشعر، واتجهت القرائح إلى الأدعية،ومدح النبي (ﷺ) وكذلك المعاني الدينية[1].

1 مصروالشام في عصرالأيوبيين والمماليك، ص١٢٣. وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان3 /13-14.

ونقول: إنَّ للشعر أغراضاً عديدة، وعلى الشاعر ألا يحصر نفسه في غرض واحد، بل عليه أنْ يقول في الأغراض كلّها حتّى تثبت شاعريته، فمن هنا نجد أنَّ الشعراء عالجوا كثيراً من قضايا مجتمعهم وحياتهم دون تقصير، وإذا كان عمر بن الفارض (ت632هـ/ 1234م) قد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف دون أنْ يخوض المعترك السياسي، فإنّ الشعراء الذين ذكرناهم شاركوا في الأحداث بالكلمة، ورفعوا راية الجهاد بنظمهم، وخلّدوا ذكر الابطال بأشعارهم، وسجّلوا الانتصارات بقصائدهم، وحقّقوا الذات بقريضهم.

وأما النثر الذي عرف بإتقان الصنعة اللفظية، والميل إلى الأساليب البلاغية، والعناية بالتنسيق، والتفنن في توظيف المحسنات البديعية واستخدامها، فمن أشهر كتابه: القاضي الفاضل(ت596هـ/ 1200م) وزير صلاح الدين، وعماد الدين الأصفهاني (ت597هـ/ 1200م).

المؤلفان للفصل الأول

الأستاذ الدكتور هاشم صالح مناع
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب
جامعة الإسراء

الدكتور عمر عبدالله العنبر
مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة
جامعة الإسراء

الفصل الثاني:
سقوط بيت المقدس وغيره من البلاد الإسلامية

سقوط بيت المقدس وغيره من البلاد الإسلامية بأيدي الصليبيين سنة (492هـ / 1098م) وما بعدها

(1)

نَجَحَ قادة الإفرنج من ملوك ورجال دين في تحريض رعاياهم على غزو بلاد المسلمين بحجة مساعدة المسيحيين في المشرق، وتخليصهم من ظلم المسلمين من جهة، وكانوا حريصين على الوقوف في وجه الفتوحات الإسلامية التي كانت تهدد عواصمهم بعد أنْ وصلت إلى القسطنطينية.

وقد بدأ ظهور دولة الإفرنج على أرض المسلمين سنة ثمان وسبعين وأربعمئة، واستطاعوا الاستيلاء على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس، ثمّ ملكوا جزيرة صقلية سنة أربع وثمانين وأربعمئة، واتجهوا إلى أطراف أفريقية[1].

وفي سنة تسعين وأربعمئة تمّ الاتفاق بين ملك الإفرنج (بردويل) و (رُجار) ملك صقلية، على أنْ يتوجه الأول إلى الشام بناء على ما قال الآخر له: "إذا عزمتهم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر، وأمَّا إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود"[2]. وذلك لإقصائه عن إفريقية، وتوجيه نظره إلى بلاد أخرى، وهي بلاد الشام.

فتجهزوا، وانطلقوا، وعبروا الخليج من جهة القسطنطينية سنة تسعين وأربعمئة بالاتفاق مع ملك الروم طمعاً في حصول الأخير على أنطاكية، فاستولوا عليها في السنة نفسها، وأخذوا يراسلون صاحب حلب ودمشق، وقد حاول المسلمون السيرّ لقتالهم

1 الكامل في التاريخ (10/142-143) و(193-198).
2 المصدر السابق(10/273).

دون جدوى، وبعد فوات الأوان، إذ قَتَلَ الإفرنج من المسلمين ألوفاً، وغنموا الأقوات، والأموال، والأثاث،والدواب،والأسلحة فصلحت حالهم، وعادت إليهم قُوَّتَهُم بعد أنْ كانت حالهم إلى الدمار والهزيمة أسرع، وساروا إلى معرّة النعمان في سنة إحدى وتسعين وأربعمئة، وحاصروها، ووضعوا السيف فيها ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مئة ألف، وسبوا الكثير، وملكوا الديار.

ولم يستطع الشاعر وجيه بن عبد الله بن أبو المقدام التنوخي أنْ يخفي شعوره وانفعاله حين رأى ما قامت به أيدي الإفرنج من الدمار والخراب في معرّة النعمان، فأنشد: (من الخفيف)

هـذه صـاح بلـدةٌ قَـدْ قَضَـى اللـّـ ـــهُ عَلَيْهَـا كَمَـا تَـرَىَ بـالخَرَاب

وَقِّـف العـيسَ وَقْفَـةٌ وَابْـك مَـنْ كَـا نَ بِهَـا مِـنْ شُـيُوخها وَالشَّـبَاب[1]

وَاعْتَبِـرْ إنْ دَخَلْـتَ يَوْمَـاً إلَيْهَـا فَهْـيَ كَانَـتْ مَنَـازِلَ الأَحْبَـابِ[2]

وهذا العميد أبو بشر بن الحوّاريّ عاد إلى دياره في المعرّة بعد هجوم الفرنج، فهاله منظرها، وقد تبدّلت مساكنها بمسارب الوحش، وكذا لا يتثبت من التعرف على هذه الديار إلّا أنّ ملاعب الصّبا ظهرت له، فأثارت ذكرياته وأحاسيسه، فأخذ يذرف الدمع، ويسألها بحرقة ولوعة، متهماً الأيام بحكمها الجائر، جاعلاً إيَّاها سبب النكبة التي حلّت بديارِهِ، ولكنه يعزّي نفسَه، ويلتمس العظة والتأسي في قيام الدول والمدائن ثمّ زوالها، ويقول: (من البسيط)

أهـذه بـينَ إنكـاري وَعرفَـاني مسـاربُ الـوحش أمْ داري وأوطـاني؟

جَهلْتُهـا وَلَقَـدْ أَبْـدَتْ ملاعبُهـا عهـدَ الصِّـبا بـينَ إخـواني وخـلاَّني

فَعُجْـتُ أَسْـأَلُها والـدَّمْع مُنْسـكبٌ والقلـبُ في لوعـة مـن وَجْـده عـان

1 العيس: الإبل البيض، وهي من كرائم الإبل.

2 النجوم الزاهرة (200/5).

يـا دارُ! مـالي أرى الأيَـامَ قـد حكمـت … فينـــا وفيـــك بحكـــم الجـــائر الجـــاني

فلـو أجابـتْ لقالـت: هكـذا فعلـت … قـــدْماً بحِيـــرةِ نعمـــان ونعمـــان[1]

وفي مـــدائن نُـــو شـــروانَ مُعْتَبَـــرٌ … للســـائلين وفي سَـــيْف وغُمْـــدان[2]

فاذهـــبْ لشـــأنك فالـــدّنيا لهـــا دُوَلٌ … تمضـــي وتـــأتي وكـــلٌّ بينهـــا فـــانِ[3]

فهذه الأبيات تدخل في باب رثاء المدن الذي يغلب عليه العاطفة الحزينة الناقمة التي تضفي جواً من الكآبة على الأبيات، وتقدر على إشاعة الألم في النفوس، وتعتمد على بكاء تلك المدن المنهارة، وإثارة الهمم النائمة، وتصوير الغد الكئيب الذي يحمل معه الموت والدّمار، وكان ذلك ببث الحركة والروح في هذه الديار، تمهيداً لاستنطاقها، والدعوة إلى اليقظة والتحريض على استردادها، وحمايتها.

وسار الصليبيون إلى حمص وملكوها ثمّ بدأت المدن تتهاوى أمامهم، حتّى وصلوا إلى دمشق، ثمّ عبروا الفرات إلى الرُّها، وذلك سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة، وأقاموا مملكتهم[4]، وهي السنة التي توجهوا فيها إلى بيت المقدس.

ويقال: إنّ الفرنج انطلقوا من أنطاكية بقوة قوامها مليون مقاتل، نصفهم فرسان والباقون رجّالة، وأرباب آلات من مجانيق وغيرها، وجعلوا طريقهم على الساحل، وكان بالقدس حينذاك (افتخار الدولة) من قبل (المستعلي) خليفة مصر، وقد حاصرها الفرنجة، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً... إلى أنْ انهزم المسلمون، ودخل الصليبيون البلد نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان -وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى، فهجموا عليهم،

---

1 يشير بذلك إلى النعمان بن المنذر، ومدينة الحيرة التي كان من ملوكها، ثمّ إنها هُجرت بعد الإسلام حين بنى المسلمون بالقرب منها مدينة الكوفة، فخربت الحيرة.

2 مدائن أنوشروان: مدائن كسرى ملك الفرس قرب بغداد(معجم البلدان 74/5-75).

وسيف: هو سيف بن ذي يزن صاحب قصر غمدان في اليمن، آخر ملوك اليمن من قحطان، ائتمر به بقايا الأحباش، فقتلوه بصنعاء، وبعد ملك دام خمس وعشرين سنة (معجم البلدان 210/4. والأعلام 149/3).

3 الخريدة (قسم شعراء الشام) 87/2.

4 انظر في كتابنا هذا: البحث نفسه، فصل: "الحياة السياسية"، الكامل في التاريخ ١٠ /٢٧٢-٢٨٢٨.

ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين فقتلوا مئة ألف، وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ، والعجائز، والنساء، والأطفال، وأئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وسلبوا ما في الصخرة والأقصى من قناديل غيرها[1].

ولم نجد النصوص الأدبية الكافية التي تصور هذه المأساة، وأمّا المادة التاريخية، فقد اكتفت بذكر المأساة وتصويرها بعدة أسطر، ويبدو أنَّ يدّ الزّمان قد لعبت بها، وعلى كلّ حال؛ فإنّ ما تنقله لنا كتب التاريخ عن تصوير حال المسلمين بعد سقوط بيت المقدس، يعطينا صورة موجزة عن الوضع الحزين المأساوي.

قصيدة الأَبيوردي في سقوط القدس:

يذكر لنا صاحب النجوم الزاهرة وابن الأثير في تاريخه هذه الحادثة:

ولما سقط بيت المقدس خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها: زين الدين أبي سعد الهرويّ، فوصلوا إلى بغداد وحضروا في الدّيون، وقطّعوا شعورهم واستغاثوا، وبكوا وأبكو، وقام القاضي في الدّيوان يوم الجمعة، وأورد كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وندب من الديوان من يمضي إلى العسكر السلطانيّ ويعرّفهم بهذه المصيبة، ويذكر لهم ما دهم المسلمين في ذلك البلد الشّريف المعظّم من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فوقع التقاعس... ويقال: إنّ أفضل ما يصوّر هذه المأساة قصيدة أبي المظفّر الأبيورديّ[2] التي يقول في مطلعها: (من الطّويل)

مَزَجْنَا دماءً بالدُّموعِ السّوَاجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عُرْضَةٌ لَلْمَراحِمِ

فها هو يعلن للعالم أجمع الحداد، ويصرح أنه لم يبق أحد بمنجاة من أسلحة الغزاه، ويصور انهمار الدموع الممزوجة بالدماء، حتى أنّه لم يبق منهم شيء يعرضونه

1 الكامل في التاريخ ١٠ /٢٨٤-٢٨٢٨. والنجوم الزاهرة ٥ /١٤٩-١٤٨. والبداية والنهاية ١٢/١٥٦.

2 الكامل في التاريخ (284/10). والنجوم الزاهرة (150/5-151). والبداية والنهاية (156/12).

طلباً للعون والرحمة، وكما نعرف أن الرجل العربي يتماسك في وقت الأحزان ووقوع المصائب، ويوكّل أمره إلى الله، ثمّ يبدأ في حلّ مشكلته للتخلص ممّا لحق به، ولكننا نلاحظ أن شاعرنا يصرّح ويعلن للملأ هذا البكاء وذلك بسبب اليأس، والحزن، والألم، وهول المصيبة، ولعل هذا الأسلوب الذي انتهجه الشاعر أسلوب الاستعطاف وشدّ العزيمة، كان يرمي إلى تهييج أصحاب الضمائر الحيّة، وتحريضهم على العون والمساعدة، ثمّ يتابع قوله:

وشرُّ سِلاحِ المرءِ دَمْعٌ يُفيضُهُ ... إذا الحربُ شُبَّتْ نارُها بالصَّوَارِمِ

فها فهو ينكر على نفسه البكاء، ويقول: إنّ أسوأ أسلحة المرء في الحروب الضارية إذا تحمل القتال وحمي الوطيس أن يلجأ إلى البكاء سلاح الضعفاء الذي لا يجدي شيئاً، ويستسلم للهزيمة، فهو بهذا يتبع أسلوب طرح الحكمة والمثل، ولعله في هذين البيتين يذكرنا بشعرائنا القدامى من أمثال امرئ القيس الذي يقول:

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) و (فهل عنده رسم دارس من مُعَوِّل)

ثمّ يتكئ على رافد آخر من روافد الشعر العربي في العصر العباسي، حين نشاهد فحول الشعراء يقررون مبدأ الكفّ عن البكاء مهما كان الخطب جللاً، فهذا أبو العلاء المعّري يقول:

غيرُ مجدٍ في ملّتي واعتقادي ... نوح باكٍ ولا ترنم شادي

فالأبيوردي يشحذُ بقصيدته هذه الهمم، ويثير العزيمة، ويقرّر أنه إذا شبّت المعارك، واشتعلت فلا يحسم موقفها، ولا يؤجج نيرانها إلّا السّيوف الصّوارم، إذ يقول:

فَإيهاً بني الإسلام إنَّ وراءَكُمْ ... وقائعَ يُلْحقْنَ الذُّرا بالمناسم!

أتهويمةً في ظلِّ أَمْنٍ وغبْطَةٍ ... وَعَيش كَنُوّار الخميلة ناعم؟

وكيــفَ تنــامُ العــينُ مَــلءَ جفونِهــا　　علــى هَفَــوَاتٍ أيقظــتْ كُــلَّ نــائم؟[1]

ورأينا الشاعر وقد رأى مصيبة استحقت منه كلمة رثاء، فرثى، وذرف الدمع؛ ولكنه يفيق من حزنه؛ ليواجه الموقف بعقلانية، ويرفض الإستسلام للأحزان والمآسي، ولهذا، وأخذ يهتف ويصرخ ويستغيث وينادي: كفاكم عويلاً أيها المسلمون، وعليكم بالتماسك ولمّ الشمل والاستعداد والإعداد، فإن أمامكم مصائب ووقائع سوف تجعل عاليَكم سافلكم، فلا تبقي ولا تذر، وخاطبهم متعجباً منهم: كيف تدفنون أنفسكم في المتع واللذائذ، وتستسلمون، قائلاً: فواعجبي لعين تُغْمِضُ الطَّرفَ وتستسيغ النوم، ساكتةً عن أخطاء جسام، وتوقظ النيام بل تبعث من في القبور، فيالها من هفوات عظام، لا تمكن ذوي الضمائر والإحساس أنْ تهدأ لهم عينٌ أو يَقَرَّ بهم مقام:

وَإخــوَانُكُمْ بالشَّــام يُضْــحي مقــيلُهُمْ　　ظهــوَر المَــذَاكي أَو بُطــونَ القَشَــاعم

تَسُــــومُهُمُ الــــرُّومُ الهَــــوانَ وَأَنــــتُمُ　　تَجُــرُّونَ ذَيْــلَ الخَفْــضِ فعْــلَ المُسَــالِمِ

ثمّ يكمل حديثه بقوله: كيف تستسيغون المنام وتستمرئون النعيم، إخوانكم في بلاد الشام لا ينامون إلا على ظهور الخيل باستعداد دائم للقتال أو يستشهدون، فتنوش جثثهم النسور الوحوش المفترسة -إشارة منه إلى انخراط هؤلاء في القتال، وتصميمهم على النصر- فكأنه لم يبق في ضمائركم إحساس، ولا في النفوس كرامة، يهزمكم الرّوم، ويذيقونكم ألوان الهوان، وأنتم مستسلمون لغير ذات الشوكة فعل المسالم الذليل، وترضون الهون، وتطأطئون رؤرسكم للذل والصَّغار:

وكـمْ مـن دمـاء قـد أُبيحـتْ ومـنْ دُمـى　　تُــواري حيــاءً حُسْــنها بالمَعَاصــم

بِحيثُ السّيوفُ البيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبا　　وَسُــمْرُ العَــوَالي داميــاتُ اللَّهــاذم

وبين اختلاس الطّعن والضَّرْب وَقفةٌ　　تَظَــلُّ لهــا الوالــدانُ شــيبَ القَــوَادم

وتلكَ حـروبٌ مَـنْ يَغِـبْ عَـنْ غمَارهَـا　　ليَسْــلَمَ يَقْــرَعْ بَعْــدَهَا ســنَّ نَــادم

1 الهفوات: جمع الهفوة والزّلة، ولعلّها: (الهنوات) جمع الهناة، أي: الداهية لما فيها من الشروروالفساد.

سَـــلَلْنَ بأيـــدي المُشْـــركينَ قَواضـــباً   ســـتغمدُ مـــنهمْ في الطَّـــلا وَالجَمَـــاجم
يكـــــادُ لهـــــنَّ المســـــتَجِنُّ بِطَيْبَـــــةٍ   يُنَـادِي بـأعلى الصَّـوْتِ: يَـا آلَ هَاشِـمِ!

وهنا، يتأجج الحزن، فيخبرنا عن المصائب التي حلّت بالمسلمين، وعن الدماء التي سالت قائلا: واخجلتاه! كم استبيحت دماءٌ، وكم هتكت أعراض فلم تتحرك نخوةٌ، ولم يُسْتَثَرْ شرف، وأنتم تنظرون نساءَكم يوارين عوراتهن حياءً بالمعاصمِ والأكفّ البريئة الطّاهرة، في وقت كانت فيه السيوف قد انكرت لونها الأبيضَ الناصع ،وَعَدَلَتْ عنه إلى حمرة ضرجتها الدّماء، فها هي ذي ظباها تسيل دماً، والرّماح العوالي إلى جانبي تفيض بطُهْر الدّماء، وبين ضرب السّيوف وطعن الرّماح وقفة تتزلزل منها القلوب، وترتعد منها الفرائص، وتشيب لها نواصي الولدان، وهو في أسلوبه هذا يصوّر الأهوال والمخاطر، ويجسّم البشاعة الناتجة عن شدة المعركة، ويجسّد الرهبة والفزع والخوف. ومع ذلك، فإنّه يقرّر أنها مواقع فتح لها التاريخُ سجلَّ الخالدين، مَنْ ينأ عنها يسقط في الأرذلين، ويثبت في سجل الظالمين النادمين؛ لأنها معارك الشرف، والكرامة، والإباء.

وبراعة الشاعر تظهر في وضوح، فهو يطلّ علينا؛ ليضرب لنا مثلاً أو ليعطينا حكمة، دون أنْ يغادر جوَّ القصيدة العام، وهو الجو الحزين المليء بالحسرة والألم والندم، وبعد هذا التهويل والتخويف، رأيناه يخفّف ويهوّن على المسلمين من أمر الأعداء الصليبيين ومن شأن أسلحتهم؛ ليشجعهم على التصديّ لهم، قائلاً لقد استلّ الأعداء سيوفاً يشهرونها في وجوه المؤمنين، سوف تُردّ إلى نحورهم، وتغمد في جماجمهم، وتُقطعُ أوصالهم، وتشتتُ شملهم، وتذيقهم مرارة اليأس والهوان، ثم يعود ليشير إلى صعوبة الموقف المتأزم، بأنه كان عصيباً مريراً، حتى ليكاد المستجير بالمدينة المحتمي بحرمة مسجد النبوة ينادي مستغيثاً: يا آل هاشم! يا آل محمد! يا آل النبي الكرام![1]

---

1 وقد يرجع الضمير في قوله: (ستعمد منهم) إلى قوله: (وإخوانكم بالشام). أي: أن السيوف التي سلّها المشركون ستعمد في رقاب إخوانكم بالشام.

أرى أُمَّتي لا يُشرعون إلى العدا رماحَهُمُ والدِّينُ واهي الدَّعَائم
ويجتنبونَ النارَ خوفاً منَ الرَّدى ولا يَحْسَبُونَ العَارَ ضَرْبَةَ لاَزِمِ

ويظهر الشاعر في هذين البيتين تحسّره وألمه، ويقول: أوّاه يا أمتي! أيُّ شيء أصاب إحساسكم فبلّد مشاعركم؟ ألا تشرعون رماحكم في قلوب الأعداء؟ ألا تشهرون سيوفكم في وجوه الأوغاد؟ أين الدين؟ وأين دعائمُ الإيمان؟ أتبتعدون عن نار الوغى خوفاً من الرّدى، ولا تحسبون للعار حساباً؟ ولو أنه سوف يلازمكم أبد الآبدين! وبعد أنْ ضرب هذا المثل: "ولا يحسبون العارَ ضربة لازم" الذي جرى مجرى الحكمة ويتابع قصيدته بقوله:

أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ويغضي على ذلٍّ: كُمَاةُ الأعاجم
فليتهمُ إذ لَمْ يَذُودُوا حَميّةً عَن الدِّين ضَنُّوا غَيْرَةً بالمَحَارِمِ
وإنْ زَهدُوا في الأجْر إذْ حَمسَ الوغَى فَهَلاَّ أَتَوْهُ رغبةً في الغَنائم؟
لئن أذعنتْ تلكَ الخياشيم لِلْبُرى فلا عَطَسوا إلاَّ بأجدعَ راغِمِ[1]

ويستنكر موقف هؤلاء قائلاً: كيف ترضي صناديد الأمة الإسلامية؟ وكيف يُقرُّ أبطالُها الخالدون من عرب وعجم هذا الذلّ؟ والهوانُ يحُلُّ بإخوانهم، وينزل بساحاتهم، ويتابع تعجبه من خلال إطلاق الحكم: ليتكم يا أبطال امتي تغارون على محارمكم، وتدفعون الأذى عن نسائكم! فإذا كنتم لا تذودون عن الدين، ولا تدافعون عن الفضيلة، وإذا كنتم زاهدين في الأجر معرضين عن الشهادة أفلا تغريكم الغنائم والأموال يصرفها العدو، ويبذر فيها أيمّا تبذير، درءاً عن نفسه للمخاطر المحدقة به؟ فإذا طأطأتم رؤوسكم ذلاً، وخنعت أنوفكم جبناً، فإنه يسأل الله أنْ يقطع هذه الأنوف، ويخضع ويفني تلك الهامات الذليلة:

1 البرى: جمع البُرة، وهي الحلقة التي توضع في أنف البعير، وهنا كناية عن الذّل.

دعونـــاكمُ والحـــربُ ترنُـــو ملحّـــةً ... إلينـــا بألحـــاظ النســـور القَشَـــاعم

تُراقـــبُ فينـــا غـــارةً عربيَّـــةً ... تُطيـــلُ عليهـــا الـــرُّومُ عـــضَّ الأَبـــاهمِ

فـــإنْ أنـــتمُ لـــمْ تغضـــبوا بعـــدَ هـــذهِ ... رَمينـــا إلـــى أعـــدائِنا بـــالحَرَائِمِ[1]

ويلـح الأبيـوردي في دعـوة قومـه للمشـاركة في هـذه الحـرب المقدسـة، وقـد تجمّـع فيهـا وحـوش الأرض وقشـاعم السـماء: إنّ هـذه السباع في الأرض، وتلـك الجـوارح في السماء تصاحب جيوشكم الباسلة؛ لأنها تعتقد جازمة أنَّ زادها منها وفير، وطعامها غزير كما عهدت فيكم فيما مضى، ولسوف تجعل هـذه الحـروب أعدائكم الـروم يعضّـون نـدماً على أصابعهم بعد هزيمة تطيّر صوابهم، وتضيّع رشدهم، وهداهم، ثـمّ يختـتم قصيدته كما لاحظنا ببلاغ وبيان لبني الإسلام، ويقـول فيـه: إن أفقـتم -يا بنـي الإسـلام- إلـى الهـدى، وغضـبتم لـدينكم غضـبة مضـريّة تعيـد الحـقّ لأصـحابه، وتضـع لأعـدائنا وأعـدائكم حـدّاً ويخافونـه ويرهبونـه،وإلّا فسـتكون أعراضـكم، وأطفـالكم، ونسـاؤكم، البديل الوحيد، والفداء الأكيد.

فهذه القصيدة تمثـل الخصـائص الأدبيـة لهـذا العصـر الـذي هـو همـزة الوصـل بـين أرقـى العصـور الأدبيـة، وهـو العصـر العباسـي، وأضـعفها الـذي هـو العصـر المملـوكي، ففيهـا، إظهـار الحـزن والأسـى، والـدعوة إلـى الجهـاد، واسـتنهاض الهمـم، وتوحيـد الصـفوف، وجمـع القلـوب للوقـوف صـفاً واحـداً تجـاه الصـليبيين والـروم الحاقدين، ومعانيها حماسية تدور في فلك المعارك والحروب، وقد امتزجت هذه المعاني المعاني الدينية، واكتست بعاطفة فياضة صادقة تتفاعل مع الأحداث، فتعمـل على إثارة

1 انظر القصيدة في: الكامل في التاريخ (10/285-286). والنجوم الزاهرة (5/150-151). والبداية والنهاية (12/156-157). هو تاريخ الخلفاء، ص427-428. وديوان الأبيوردي (2/156-157). وفي الديوان رواية (الجرائم) جمع الجريمة، آخر ولد الرجل. وأراد به أطفالهم عامة، وقد أطلق الأطفال وأراد بهم كل أفراد الأسرة من حريم وغيره.

الغضب للكرامة المهدورة في نفوس أبناء قومه، ويتأجج في نفسه الثائرة الحقد على الأعداء، والتحرق لأخذ الثأر منهم، مصطبغاً بالأسى واللوعة في أجلى صورهما.

وأما الأسلوب فقد تميزت ألفاظ القصيدة وتراكيبها بحسن السبك، وجودة الصياغة، وأداء المعاني المقصودة منها بإشراق، ووضوح، وجزالة ألفاظ، وقوة إيحاء، وتعددت في النص الكلمات الدّالة على القوة والقتال كما رأينا؛ لتناسب موضوع الحماسة الذي يهتمّ به الشاعر.

ويغلب على الأبيات الأسلوب الخبري الذي يصور الفجائع، وتتوزع فيه الصور البيانية التي تزيده وضوحاً وجمالاً، وهي قليلة محدودة، غير متكلفة، ويوشي الشاعر أبياته أحياناً ببعض المحسنات البديعية والزخارف، وهذا شأن الشعر الذي يعالج مثل هذه القضايا، ولاسيما حين ينظمه شاعر له خبرته، وتجربته.

ويورد ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة قصيدة شعرية آخر دون أنْ يعزوه إلى صاحبه، في فبقي الناظم مجهولاً، ويصور النصّ ما حلّ بالأمة الإسلامية من المآسي، والاحزان، والدّمار: (من الوافر)

أَحلَّ الكفرُ بالإسلام ضَيْماً ... يطولُ عليهِ للدّين النَّحيبُ

فحقٌّ ضائعٌ، وحمىً مُباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ، ودمٌ صَبيبُ

وكمْ من مُسْلم أمسى سَليباً ... ومسلمة لها حَرَمٌ سَليبُ

وكمْ من مسجد جعلوه دَيْراً ... على محْرابه نُصبَ الصَّليبُ

دمُ الخنْزير فيه لَهُمْ خَلُوقٌ ... وَتَحْريقُ المصاحف فيه طيبُ[1]

أمورٌ لو تأملهنَّ طفلٌ ... لطفَّلَ في عَوَارضه المَشيبُ[2]

أَتُسْبى المسلماتُ بكلِّ ثَغْر ... وَعَيْشُ المسلمين إذاً يَطيبُ؟

1 الخلوق والخلاق: نوع من الطّيب معظمه من الزعفران.

2 طفّل: أقبل وأظل.

أمَــــــا لله والإســـــــلام حـــــــقٌّ يُـــــدافعُ عنــــه شُـــبَّانٌ وَشــــيبُ؟
فَقُــلْ لــذوي البصــائرِ حيــث كــانُوا: أجيبــــوا الله، وَيْحَكُـــمُ أَجِيبُــــوا؟[1]

ويخبرنـا الشـاعر عـن الظلـم الـذي لحـق بالمسـلمين، وأحـلّ بـديارهم جميـع ألـوان الذلّ والهوان والصَّغار، ممّا جعل الموقف يستحقّ كلمة رثاء، وصبّ دموع، وعويلاً وبكاء، فالحق ضائع، والحمى مستباح، والسيف يعمل في رقاب النّاس، والدّم مسفوح سائل، وقد وقع المسلمون في الأسر،وانتهكت أعراض المسلمات، وتحوّلت المساجد إلى أديرة، إذ تقام في محاريبها الطقوس الدينية المسيحية، وقد اصطف أمامها القساوسة يتقدمهم الصليب، وتوقف الأذان، وحُرّم على المؤذن إقامة الصلاة، ومُنع المصلون من أداء صلاتهم، فلا تسمع للمسلمين تهليلاً ولا صوتاً، وأدخلت الخنازير إلى المساجد، وذُبحت وسالت دماؤها، وفاحت رائحتها، وأصبحت هي العبير العابق يتلذذ المعتدون بشمِّ رائحته، وكان المصاب أدهى وأمّر في حرق المصاحف، وكأنهم استخدموها وقوداً لشيِّ لحم الخنزير في المساجد، وبذلك حققوا أهدافهم في تدنيس مقدسات المسلمين، وكأَنّ الشاعر عجز عن وصف أمور كثيرة، لشدة هول المصيبة، فقال: لو تأملها الطفل لشاب رأسه، ثمّ أخذ الشاعر يتسائل وهو في حيرة من أمره: كيف تسبى المسلمات في كلّ مكان، والمسلمون يطيب عيشهم؟ أليس الجهاد فرضاً على كلّ مسلم؟ فلا مجيب لدعوته، ولا مُلَبّي لصرخته، وعندئذ، سيطر اليأس عليه، فأخذ يدعو ذوي البصائر، ويستصرخهم، ويستنجدهم لعل فيهم نهضة إيمان، وجهاداً في سبيل الله، دعوة خير لنيل الأجر والثواب.

1 النجوم الزاهرة (5/151-152).

ويمكننا أنْ نلاحظ، أنّ معاني هذا النص تدور في فلك المعاني التي رأيناها عند الأبيوردي، وهذا شأن هذا النوع من الشعر، فإنّه يكاد لا يغادر الحثّ على الجهاد، واستنهاض الهمم من خلال الترهيب الترغيب، وما إلى ذلك من هذه الموضوعات.

ونجد الملك الصالح طلائع بن زُرّيك يصف جوّ القدس الحزين، وبيت المقدس، إذ وأصبح للصليبيين مكاناً لإقامة طقوسهم الدينية، بأبيات يقول فيها: (من الخفيف)

إنَّ ظنّي، والظَّنُّ مثلُ سهام الرَّ (م) مي: منها المُخْطي، ومنها المُصيبُ
إنَّ هذا لأَنْ غَدتْ سَاحَةُ القُدْ س، وما للإسلام فيها نَصيبُ
منزلُ الوحي قبلَ بَعْث رسول اللّـ ـه، فهو المَحْجُوجُ، وَالمحْجُوبُ
نَزَلَتْ وَسْطَهُ الخَنَازيرُ وَالخَمْـ ـرُ، وَبَارى النَّاقُوسَ فيها الصَّليبُ
لو رآه المسيحُ لم يَرْضَ فعْلاً ذَكَروا أَنَّهُ لَهُ مَنْسُوبُ
أَبْعَدُ النّاسِ عَنْ عِبَادةِ ربِّ النَّا (م) سِ قَوْمٌ إلاهُهُمْ مَصْلُوبُ[1]

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قريبة في معناها من القصيدة السابقة التي أوردناها، وتسير على القافية نفسها، فإنها تختلف في وزنها وبحرها، فهذه من الخفيف وتلك من الوافر.

ولا نكاد نعثر -في هذه المرحلة- على نصوص نثرية تدّل على المشاركة الفعلية لهذا الفن، وتستحق الدراسة، وهذا غير مستبعد؛ لأنَّ الأدب بنوعيه -الشعر والنثر- لم ينهض بمستوى المصيبة التي حلّت بالعالم الإسلامي الذي لم يكن يتوقّع مثل هذه المآسي؛ لأن بيت المقدس كان منذ افتتحه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في سنة ستّ عشرة من الهجرة لم يزل بأيدي المسلمين إلى سنة ثنتين وتسعين وأربعمئة معزّزاً آمناً مكرّماً لجميع أبناء الديانات السماوية بلا استثناء.

1 ديوان أسامة بن منقذ، ص208. وديوان طلائع، ص60. وعيون التواريخ (495/2).

(2)

وتمرّ السّنون، وتبدأ نهضة آل زنكي، ويحرّر قائدهم الرُّها من الصليبيين، سنة (539هـ/ 1144م)، وكان هذا التحرير إيذاناً ببدء الحرب الصليبية الثانية، ويحرر نور الدين دمشق سنة (548هـ/ 1153م) ويبدأ النزاع على مصر بينه وبين الصليبيين؛ ولكنه يحسم الموقف لصالحه، إذ يستولي صلاح الدين على مصر، ويدخل صلاح الدين القدس سنة(583هـ/ 1187م)، وتعاقب السلطة بين أفراد أسرته، حتّى نصل إلى سنة(616هـ/ 1219م) إذ كان الملك المعظم عيسى بن محمد الملك العادل أبي بكر ابن أيوب على الشام والقدس، وحين علم هذا الملك أنَّ الصليبيين سيتوجّهون إلى بيت المقدس، اتفق الأمراء على خرابها لضعفهم وعدم قدرتهم على الوقوف في وجه المعتدين، وقالوا: قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذنا الفرنج القدس حكموا الشام جميعاً، وقتلوا أهله، وحكموا بلاد المسلمين، فشرعوا في خراب السّور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجّة عظيمة، وخرجت النساء والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصّخرة والأقصى، وقطعوا شعورهم ومزّقوا ثيابهم، ثمّ خرجوا هاربين، وتركوا اموالهم وأهاليهم، وما شكّوا أنَّ الفرنج تُصبِّحهم، وامتلأت بهم الطرقات، فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات يُمزِّقْنَ ثيابهم، ويربطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس، وارتفع الثمن، وغلت الأسعار، وذمّ الناس الملك المعظم على فعله هذا، إذ كانا داعياً إلى بعث الفزع والخوف في القلوب[1]،وهو فعل لا يتناسب مع قائد مسلم يرعى حمى المسلمين، وقد أتى ذلك كله من حيث يأملون منه غير ذلك، ولا يستغرب هذا منه إذا صحّ أنه أظهر من الفواحش في العام السابق للفجيعة حتى قال بعض الشعراء في هجائه: (من مخلع البسيط)

1 الروضتين في أخبار الدولتين (205/2). والذيل على الروضتين، ص116. والبداية والنهاية (83/13). والنجوم الزاهرة (245/6).

في رَجَـــــب حلَّـــــلَ الحُمَيَّـــــا وَأخْـــــرَبَ القُـــــدْسَ في المُحَـــــرَّمْ
واســــتخدمَ القـــبطَ والنَّصـــارى وبعـــــــدَ ذا وزر المكـــــــرَّمْ[1]

وهذا القاضي مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي قاضي الطّور شاهد خرابَ القدس، فساءه ذلك، فأنشد قائلاً: (من الطويل)

مَرَرْتُ على القدسِ الشّريف مُسَلِّماً على مـا تَبَقَّـى مـنْ رُبُـوع كـأنجُمِ
"ففاضتْ دموعُ العين منِّي صبابةً" على مـا مضى مـنْ عصـرنا المُتَقَـدِّمَ
وقـــد رامَ عِلْـــجٌ أَنْ يُعَفِّـــي رسُـــومَهُ وشـــمَّرَ عـــن كفّـــي لئـــيم مُـــذَمَّمِ[2]
وقلـتُ لـه: شُـلَّتْ يمينُـكَ خَلّهـا لـــــمُعْتَبر أَوْ ســـائل أَوْ مُسَـــلِّمِ
فلـو كـانَ يُفْـدَى بـالنفوسِ فديتُـه بنفسـي، وهـذا الظـنُّ في كُـلِّ مُسْـلِمِ[3]

وفي هذه الأبيات يخبرنا الشاعر عن صلته القوية بالقدس الشريف، وقد حلّ الدمار والخراب في ربوعه، فبدّد تلك الصورة الجميلة التي عرفها من خلال ذكرياته فيه، فأخذ الدمع يسيل وينهمر أسىً على ما فات من مجد الإسلام الغابر في بيت المقدس؛ ورأى الشاعر (عليّ) من علوج الفرنجة يعيث فساداً ويهدّم، تحمله على ذلك نفسٌ لئيمةٌ حاقدة؛ فدعا عليه الشاعر بأنْ تُشَلَّ يدّه، إذ لم يترك هذه المعاهد ليعتبر بها المعتبرون، أو يستدل بها السائلون عن مجدنا؛ أو يسلّم عليها القاصدون، ثم عبّر عن وجده بهذه الديار وذكر أنّه عزّ على الملك وهو في حالة ضعيفة أن يسلّم القدس الشريف إلى الصليبيين، وهو على حالته بعد إصلاحه من الغزو الأول، فأخذ يدمّره، حتّى لا يجدوا فيه ما يسرهم، ولكن هذا العمل كان سبباً في سوء الأحوال والحياة في جميع جوانبها: فالدمار، والخراب، والسلب، والنهب، والرعب والخوف، والفزع، والفوضى،

1 البداية والنهاية (83/13). والنجوم الزاهرة (245/6). والذيل على الروضتين،ص116.وشذرات الذهب(66/5).وكنز الدرر (202/7). والحميا: الخمرة.

2 العلج: مفرد العلوج: الرجل القوي الضخم من الكفار. ويعفي: يمحو ويزيل ويبلي. والمذمم: المذموم.

3 النجوم الزاهرة (245/6). والبداية والنهاية (83/13). والذيل على الروضتين، ص116. وشذرات الذهب(66/5).وكنز الدرر(202/7).

والغلاء، والهرب، والتشرد، والجوع، والعطش، والقتل، والموت استحق كلمة من الشاعر شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن محمد المجاور، فعبّر عمّا شاهده بأسلوب حزين، فقال: (من الطويل)

أعينيَ لا تَرْقَيْ منَ العَبَرَات ... صلي في البُكَا الآصالَ بالبكرات![1]

لَعَلَّ سيولَ الدَّمْع يطفئُ فيضُها ... تَوَقُّدَ ما في القلب منْ جَمَرَات

وَيَا قلبُ أسْعرْ نَارَ وَجْدكَ كُلَّمَا ... خَبَتْ بادِّكار يَبْعَثُ الحَسَرَات![2]

وَيَا فَمُ بُحْ بالشَّجْو منْكَ لَعَلَّهُ ... يروِّحُ ما أَلْقَى منَ الكُرُبَات!

على المسجد الأقصى الذي جَلَّ قدْرُهُ ... على موطن الإخبات، وَالصَّلَوَات[3]

على منزلِ الأملاكِ والوحي وَالهُدى ... علَى مَشْهَدِ الأبدالِ وَالبَدَلَاتِ[4]

عَلى سُلَّم المعْراج والصَّخرة التي ... أنافتْ بما في الأرض منْ صَخَرَات[5]

عَلى القبْلَة الأولى التي اتَّجَهَتْ لها ... صلاةُ البرايا في اخْتلاف جهَات[6]

علَى خَيْر معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبنيّ لخَيْر بُنَاة

وما زالَ فيهِ للنَّبيين معبدٌ ... يوالونَ في أرجَائِهِ السَّجَدَاتِ[7]

ونرى أنَّ الشاعر يبدأُ قصيدته بأسلوب يتكئ على الروافد والمعاني الدينية، ويعدد مآثر بيت المقدس، ويشير إلى منزلته الدينية، ومكانته في قلوب المسلمين، الأمر الذي يجعله يسيطر على عقول الناس، ويستميل عواطفهم، ولاسيما في عصر ساده الصراع بين:

---

1 ترقي: من رقأ الدمع: أي سكن وانقطع بعد سيلانه. والآصال: جمع أصيل: الوقت المبكر الذي قبل الغروب. والبكرات: جمع بكرة وهي الصباح الباكر.

2 أسعر: أشعل. والادكار: التذكر. وخبت: هدأت.

3 الخبت من الأرض: ما اطمأن منها واتسع؛ والإخبات: الخشوع والتواضع، وأصله من الخبت(اللسان.خبت).

4 الأبدال والبدلات: الصالحون والصالحات، ويقال: إنهم قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم. فإذا مات واحد أبدل الله مكانه آخر. الأملاك: الملائكة.

5 أنافت الصخرة: أشرفت، وعلت فخراً.

6 البرايا: جمع البريَّة، وهي الخَلْقُ.

7 الروضتين في أخبار الدولتين 2/205-206.

الحقّ والباطل، والخير والشر، والقويّ والضعيف، والشاعر لم يبدأ بعد في وصف ما حلّ بالقدس، غير أنّه بكى واستبكى، وذرف الدموع وأسالها، تأثر وانفعل ليؤثر، منظر ومشهد مَأْسَوِيٍّ حزين، واكتملت فيه العناصر و توفرت: المصاب(مدينة القدس)،والمعزون(البرايا)،ويعزون أنفسهم لفقدهم القدسَ المصاب الجلل، والحزن يغلف أرجاء المدينة بل العالم الإسلامي بأكمله، وندب الشاعر نفسه، وأخذ يحدثنا عن سبب الحزن قائلاً:

عَفَا المسجدُ الأقصى المباركُ حَوْلَهُ الرَّ (م) فيعُ العماد العاليُ الشُّرُفَات[1]

عَفَا بَعْدَ مَا قَدْ كَانَ للخير مَوْسماً وللبرِّ وَالإحسان وَالقُرُبَات[2]

يُوافي إليه كُلُّ أَشْعَثَ قانت لمولاهُ بَرٍّ دَائم الخَلَوَات[3]

خَلَا مِنْ صلاة لا يملّ مقيمُها تَوَشَّحَ بالآيات والسُّوَرات

خَلا مِنْ حَنين التّائبين وحزنهمْ فَمِنْ بَيْن نُوَّاح وَبَيْن بُكَاة[4]

وهذه صورة بيت المقدس: خراب بعد عمران، خِلْوٌ من المصلّين بعد أن كان مزدحماً يؤمّه الناس من جميع أنحاء المعمورة، عفا وزال بعد أنْ كان شامخاً، ولا ترى للخير والبر والإحسان مكاناً بعد أن كان موئلاً لها، خلا من المصلين، وتوقفت الحياة الدينية في هذه المدينة، وبعد هذا كله ألا تستحق كلمة رثاء؟ أليس من حقّ أخواتها البكاء؟ أليس من حقّ العالم أجمع أنْ يذرف الدموع السواجم؟

لتبْك على القدس البلادُ بأسْرِهَا وَتُعْلِنَ بالأَحْزان وَالتَّرَحات[5]

لتبك عليها مكة فهي أُخْتُهَا وتشكُو الذي لاَقَتْ إلى عَرَفَات

1 عفا: محي ودرس، والرفيع العماد: أي المسجد العالي الرفيع، القوي الأساس، الثابت الأركان، والجمع العَمَد والعُمُد. ولو استخدم الشاعر لفظة(السامق) عوضاً عن العالي لنجا من الثقل في ضم الياء لضرورة الشعر.

2 والقربات: جمع قربة، وهي ما يتقرب بها إلى الله.

3 الأشعث الشعر: من كانَ شعره مُغْبَرّاً متلبداً، والمؤنث: شعثاء، والجمع: شُعْث. وقانت: خاشع.

4 الروضتين في أخبار الدولتين (206/2).

5 الترحات والأتراح: جمع التَّرَحَةِ، نقيض الفرحة.

لتبـك علَـى مَـا حَـلَّ بالقـدس طَيْبَـةٌ ... وتَشْـــرَحَهُ في أكـــرم الحجـــرات[1]

لَقَـدْ أشْـمَتُوا عَكَّـا وَصُـورَ بهَـدْمها ... وَيَـــا طَالَمـــا غَادَتْهُمَـــا بشـــمَات[2]

لَقَـدْ شَـتَّتُوا عنهـا جماعــةَ أهلهـا ... وَكُـــلُّ اجتمـــاع مُـــؤْذنٌ بشَـــتَات[3]

وقـد هَـدَموا مَجْـدَ الصَّـلاح بهـدمها ... وقــد كـــانَ مجــداً بــاذخ الغُرُفَــات

وَقَـدْ أَخْمَـدُوا صَـوْتاً وَصـيتاً أَثَـارَهُ ... لَهُــمْ عظْــمُ مــا وَالَــوْا مــنَ الغَــزَوات

أَمـــا عَلمَـــتْ أَبْنَـــاءُ أيـــوبَ أَنَّهُـــمْ ... بمَسْـــعَاته عُـــدُّوا مـــنَ السَّـــرَوَات[4]

وأَن افْتتَـاحَ القُـدسِ زَهْـرةُ مُلْكِهـمْ ... وهـــلْ ثَمَـــرٌ إلَّا مـــنَ الزَهَـــرَاتِ؟[5]

فالشاعر هنا يرى ما آل إليه أمر المسلمين، إذ أضحوا لا حول لهم، ولا قوّة، ولا قدرة على دفع ما ألم بهم من المصائب والخطوب، ولا مخفّف لآلامهم سوى الدمع يرسلونه على الخدود، فيبكي وينوح ويذرف الدموع بحرارة، ويأس ويدعو العالم بأسره إلى البكاء على بيت المقدس ولاسيما مكة المكرمة، وهو لا يقنع من المدينة المنورة بالبكاء على ما حلّ بمدينة القدس فحسب، بل يُطلبُ إليها أنْ تعلن الشكوى في المسجد النبوي الشريف، وتشرح قصة ضياع أختها القدس وخرابها ودمارها، وما لحق بها من أهوال تشيب لها الولدان، فلعلّه يلقى بعض الآذان الصاغية التي تسمع فتجيب، وتهبّ للنجدة والدفاع عن الحرمات، والمقدسات.

ثمّ ينقلنا الشاعر نقلة يتحدّث فيها عن شماتة عكا وصور، إذ كان الصليبيون يسيطرون عليها، بعد أنْ كانت هي السابقة دائماً في الشماتة؛ لأنها تحيا في ظلّ الإسلام، وفي أحضان

1 طيبة: المدينة المنورة. وأكرم الحجرات: المسجد النبوي الشريف.

2 غادتها: باكرتها، أي سبقتها. وتقول: غادى الرجل مغاداةً: باكره. وصور: مدينة مشرفة على بحر الشام، داخلة في البحر، يحيط بها من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها. وهي حصينة جداً، لا سبيل إليها إلا بالخذلان (معجم البلدان 433/3). وعكا: اسم بلد على الساحل من أعمال الأردن، وهي من أحسن بلاد الساحل (معجم البلدان 143/4) وهي الآن من أرض فلسطين.

3 الشتات: التفرق والضياع.

4 السروات: جمع السَرَاة، وسَرَوات القوم: سادتهم ورؤساؤهم.

5 الروضتين في أخبار الدولتين 206/2.

المسلمين؛ ولكنّه يعزّي نفسه -من هذا الشتات والضياع- بحكمة إذ تقول: (وكلُّ اجتماع مؤذنٌ بشَتَات)، وكأن هذه الحكمة كانت هي الدافع القوي للشاعر، لأن يصرح صراحة لا يعتريها شكّ، أو يخامرها لبس أو ريب، أو يسيطر عليها خوف، أن أبناء أيوب هم السبب في كلّ ما حصل ببيت المقدس، وما لحق من الدّمار، وأنَّ عملهم هذا أضاع كلّ ما حقّقوه أيام صلاح الدين من نصرٍ، ورفعة، وجاه، وصيت، ومجد.

وإنَّ حديث الشاعر عن اتهام الأيوبيين بهذا التدمير في هذا الموضع ذاته من القصيدة يُعدُ إستدراكًا مهماً كان لا بدّ من التصريح به، وكأنّ سائلاً يسأله عن بكاءه وحزنه فيجيبه على سؤاله، ثمّ يعود لاستكمال موضوعه، وهو البكاء والدعوة إليه، ويقول:

فَمَنْ لي بنُوَّاح يَنُحْنَ على الذي ... شَجَاني بأَصْوات لَهُنَّ شُجَاة[1]

يُرَدِّدْنَ بيْتاً للْخُزَاعِيِّ قَالَهُ ... يُؤَبِّنُ فيه خيْرَةَ الخَيرَات[2]

"مَدارسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاوَةٍ ... وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقفِرُ العَرَصَاتِ"[3]

فالشعر أخذ يبحث ويفتش عن نائحات متخصصات بالنوح والبكاء واللطم؛ ليثرن الشجن بأصوات شجيّة، وهنّ يردّدن بيت(دعبل الخزاعي) في تأبين(آل البيت)، وبيت الشعر هذا، هو مطلع قصيدة طويلة، ويبدو أنها كانت مؤثرة في أعماق الشاعر، ومثيرة لشجنه وأحزانه وآلامه، ممّا دفع به أنْ يأخذ بحرها وقافيتها، وحتّى إنه ختم قصيدته بهذا البيت، فالقصيدة متماسكة، والألفاظ سهلة معبرة حزينة، والمعاني مؤثرة بعيدة عن الغموض والتعقيد والتكلف، والعاطفة صادقه، وممّا لا شكّ فيه أنَّ ارتباط الشاعر بهذه الأرض المقدسة، وأنَّ الدوافع الدينية، والإيمان العميق كان وراء نجاح هذه القصيدة

1 الشجاة: جمع الشجي، الذي يثير الشَّجْوَ والحزن. والنواح: جمع النائحة، وهنّ النساء اللاتي يجتمعن للبكاء والنوح.

2 التأبين: هو الثناء على المرء بعد موته، وخيرة الخيرات: سيدنا محمد ﷺ. والخيرات(بكسر الخاء). والخزاعي: هو دعبل بن علي(ت٢٤٦هـ/٨٦٠م) انظر: الأعلام (339/2).

3 الروضتين في أخبار الدولتين (206/2). وانظر البيت الأخير في معجم الأدباء (103/11)، وديوان دعبل بن علي الخزاعي، ص131. والمقفر: الخالي. والعرصات: جمع العرصة، وهي ساحة الدار. يقول: خلت ديار آل البيت بعدما كانت مدارس لتلاوة القرآن الكريم، ومهبط وحي الرسول ﷺ.

التي نقلت لنا بحقّ الصّورة الكئيبة الحزينة، والجوّ الباكي، والخراب المدمر الذي لحق بالمدينة، التشرد والضياع الذي آل إليه النّاس، غير أن الشاعر لم يلقَ آذاناً مصغية من أبناء صلاح الدين الذين كانوا في نزاع بينهم أغرى الأوروبيين بإشعال نار الحروب الصليبية الثالثة، واستفادوا من ذلك التراع الأسري كثيراً فاستردّوا هيبتهم، ومعظم ما خسروه من حصون، ومدن على يدّ صلاح الدين[1].

ومن الغريب حقاً أنْ نرى قصائد الشعراء تفيض بالأسى والحزن، وأنْ نسمع أصواتهم ترتفع وتتعالى وتوجّه النقد اللاذع، وتصف بيت المقدس وقد حلّ به الخراب والدمار على أيدي الأيوبيين اللذين ارتبط اسمهم بتحرير المقدس من براثن الصليبيين أكثر ممّا رأينا من وصف الشعراء في سقوط بيت المقدس بأيدي الفرنج، وكما قلنا: إنّه في سنة ست عشرة وستمئة خرب المعظّم أبراج القدس وسوره خوفاً من إستيلاء الفرنج عليه، فاضطرب الناس وخرجوا منه متفرقين في البلاد، تاركين أملاكهم، مخلفين أموالهم، هائمين على وجوههم، مشردين لا يملكون شيئاً، ولا يعرفون وجهة سفرهم، وكان همّهم الوحيد هو الرّحيل على بيت المقدس الذي كان على اتمّ الأحوال من العمارة، وكثرة السكان، وهدوء الأحوال، وتعدد مرافق الحياة، وتنوع المدارس.

وفي قصيدة محمد بن المبارك القَرْقساني، خطيب بيت المقدس حينذاك، تسجيل أمين لما حلّ في بيت المقدس من تخريب ودمار، وتصوير للحزن الذي غلّف المدينة، وعمّ الشوارع، وسيطر على النّاس، وتجسيد للمظاهر السائدة، ووصف للمدارس الخالية، وحديث عن: استنكار المسجد الأقصى لما حلّ به، وأنين منبره الشريف من الخوف، وحزن الصخرة المشرفة، وخير دليل على صدق ما ذهبنا إليه، ونقل مشاعر الشاعر الصادقة، وهو تدوين تلك القصيدة التي يقول فيها: (من الوافر)

مُصابُ القدس قد سَلَبَ الرُّقَادَا وقد لبسَ الخطيبُ به حدَادا

1 الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصروالشام، محمد سيد كيلاني، ص222-225.

وقاضيه قَضَى نحباً، وإنْ لم ... يمتْ لخراب ما أعلَى وشَادا
ونادى المسجدُ الأقصى أَيَرْضَى ... بهذا الفعل مَنْ فَرضَ الجهَادَا؟
ومنبرهُ الشريفُ يئنُّ خوفاً ... وممّا حلَّ بالمحراب مَادَا
ولا تَرْقَا لصخرته دُموعٌ ... فكم قد أقرحَتْ أسفاً فُؤادَا
وَأصْبَحَت المدارسُ مُعولات ... تُريق محابرُ الفتيا المدَادَا
وما عن عين سلوان سُلوٌّ ... لساكنه، ولو ملك البلادا
وبيتُ خليله وجلٌ لما قد ... أصابَ سواه يرتعدُ ارتعادا
وعند قُمامة اليومَ التهاني ... تَتيهُ ككاعب جاءَتْ تهادَى
ولكنَّ الكنائس ضاحكاتٌ ... تعالى الله يفعلُ ما أَرَادَا
ألا يا زائريه ابكوا ونوحوا ... على الإسلام وافترشوا الرَّمَادَا!
فلو بكت العيونُ دماً عليه ... تقاضى رُزْؤهُ الباكي ازديادا
فمكّةُ ثاكلٌ عَبْرَى فَلَمَّا ... أَلمَّ بأختها لَبستْ سَوَادَا
أبعدَ خراب بيت القُدْس خَطْبٌ ... أَشدُّ، ولو توسدنا القَتَادَا؟[1]
على الدُّنيا وما فيها عفاءٌ ... ولو نِلْنَا بهَا السَّبْعَ الشِّدَادَا[2]

ويورد ابن الشعار الموصلي قصيدة حزينة للشاعر أبي محمد عبد الرزاق بن رزق الله ابن أبي بكر بن خلف الرَّسْعَنيّ، نظمها حين سمع خبر تسليم بيت المقدس إلى الفرنج، وذكر فيها الأفراح التي انقلبت إلى الأتراح، ومجمع الأنس إلى مأتم، ولم يفته أنْ يعقد مقارنة بين موقف المسلمين وموقف الفرنج تجاه هذه المصيبة، ولم ينس الشاعر أيضاً

1 القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

2 عقود الجمان في شعراء أهل الزمان، لابن الشَّعَّار الموصلي المبارك بن أبي بكر أحمد بن حمدان بن أحمد الموصلي 6/261-262 (مخطوطة) نقلاً عن: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، ص231-232.

أنْ يسجل استنكاره ومعارضته لهذا العمل الذي جعل من ديار المسلمين دياراً للصليبيين، شتت جَمْعَ المسلمين، وَجَمَعَ شتات الفرنج، ويقول فيها: (من الطويل)

تعالوْا نقيمُ الحزنَ في مجمعِ الأنس ... ونصبغُ أثوابَ المصيبة بالنِّقْس[1]

وَنَعْمَلُ للإسلام أعظمَ مأتم ... كَمَا أَنَّ عُبَّادَ الطَّواغيت في عُرْس

ونبكي دماً بعدَ الدُّموع، وإنَّهُ ... قليلٌ على ما قد أُصبْنَا منَ القُدس

أَيُؤْخَذُ والإسلامُ فيه بَقيَّةٌ؟ ... فواعجباً أَينَ النخاةُ منَ الحُمْس![2]

مناماً أرى أمْ يقظةً ما سمعتُهُ ... أحقّاً عبادَ الله أمْ خانَني حسِّي؟

لئن تمَّ هذا الأمرُ -لا تَمَّ- إنَّه ... لأشْهى إلى نفسي حلوليَ في رَمْسي

لئلا أرى داعي الضَّلال مصوّتاً ... على المسجدِ الأقصى يُؤذّنُ بالنَّقْسِ[3]

لعمرك هذا الرُزءُ: لا هُلْكُ هَالك ... ولا سَلْبُ مال لا ولا عَدَمُ النَّفْس[4]

حقاً إنَّ هذه الألفاظ تذرف الدموع صادقة كلّ الصدق بعاطفتها، حزينة كلّ الحزن تبث الأسى، وترسل الشجا، وتُعَدّ هذه الأمثلة الشعرية من النماذج الرائعة التي استطاع بها الشعراء أنْ يعبروا عن مكانة المدن المقدسة والأراضي الطاهرة، ويسجلوا ما شاهدوه بأمانة وإخلاص، ويصفوا ما أحسوا به وسمعوا عنه، ولما كانت عناصر القصيدة الرثائية متوفرة في مثل هذه المواقف، فإننا نَعُدُّ هذه النماذج الشعرية نماذج رثائية.

ولنقرأ بيتين لأحد الشعراء، إذ يقول فيهما: (من الطويل)

عزيزٌ علينا أنْ نرى القدسَ تُخْرَبُ ... وشمسُ مبانيه تزولُ، وتغربُ

وقَلَّتْ لَهُ منَّا الدُّموع، لأنَّهُ ... على مثلِهِ تَجْري الدُّمُوعُ، وتُسْكَبُ[5]

---

1 النِّقس: الذي يكتب فيه، وهو المداد. يريد: اللون الأسود.

2 النخاة: أصحاب النخوة. يريد أنْ يستثيرهم النخاة من الحمص أيّ الشجعان، أصحاب الحماسة والصلابة في القتال وفي الدين.

3 النقس: ضرب من النواقيس: وهو الضرب بالناقوس، والناقوس: مضراب النصارى الذي يضربونه لأوقات الصلاة.

4 عقود الجمان في شعراء أهل الزمان، لابن الشعار الموصلي 136/4، 130(نقلاً عن بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص244).

5 شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص312.

فهذان البيتان أُنْشِدا سنة ست عشرة وستمئة، وذلك حينَ شَرَعَ بعض الأمراء بتخريب بيت المقدس، وإيذاناً بتسليمه للصليبيين.

(3)

بتوقيع بعد الغزو الصليبي أنْ تتماسك الأمة، وتتوحد كلمتها، وتنبذ الفرقة، وتصبح كالبنيان المرصوص؛ ولكن الخلافات بين الأمراء وأصحاب السلطة تأزمت وتأججت، وانعكس ذلك على عامة الناس. فظُلموا، وامتُهنوا، وهذا شاعر يُعبرُ عن انحطاط عصره في سنة(528هـ/ 1133م) بقوله: (من السريع)

سَادَ صغارُ النَّاسِ في عصرِنا لا دامَ مِنْ عَصْرٍ وَلَا كَانَا[1]

وفي حين نجد أنَّ الشعراء يوجّهون سهام هجائهم إلى الأمراء دون خوف أو رهبة، ففي سنة(٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) كان حسن بن الحافظ لدين الله صاحب مصر على السلطة، وكان سيء السيرة، ظالماً جريئاً على سفك الدماء، وأخذ الأموال حتّ قيل:

إنه قتل من الأمراء المصريين، ومن أعيان البلاد في ليلة واحدة أربعين أميراً، ممّا دفع الشعراء إلى هجائه، فمن ذلك ما قاله (المعتمد بن الأنصاري) صاحب التّرسل المشهور: (من البسيط)

لم تأت يَا حَسَنٌ بَيْنَ الوَرىَ حَسَناً ولَم تَرَ الحَقَّ في دنيا وَلا دين

قَتْلُ النُّفُوس بلاَ جُرْم ولا سَبَب وَالجَوْرُ في أخذ أموال المَسَاكين

لقد جَمَعْتَ بِلَا عِلْمٍ ولا أَدَبٍ تِيهَ المُلوكِ وأخلاقَ المَجَانينِ[2]

وأكثر ما يؤلم الإنسان أنْ يجد اشتعال الفتن بين حكام المسلمين، الأمر الذي يؤدي إلى القطيعة، وقد يدفع إلى إشعال فتيل الحرب، وإثارة الضغائن، ولكن الأمر يتجاوز كلّ التصورات حين نرى حاكماً يتجه لمدّ يدّ العون إلى الأعداء الصليبيين، ففي

1 الكامل في التاريخ (18/11).

2 الكامل في التاريخ (11/23-24).

سنة(560هـ/ 1164م) كانت وحشة بين نور الدين محمود زنكي، صاحب الشَّام، وبين قلج أرسلان بين مسعود بن قلج أرسلان، صاحب قونية، وما يجاورها من بلاد الروم[1]، وأدت إلى الحرب، فلمّا بلغ خبرها إلى مصر كتب وزير صاحب مصر (الصالح بن رزّيك) إلى قلج أرسلان ينهاه عن هذه الحرب، وعن أثارة الضغائن، ويأمره بالتقوى ومخافة الله، والجهاد في سبيله، وكتب فيه شعراً بدأه بإطلاق الحكم، ويقول: (من الطويل)

نقولُ، ولكنْ أينَ مَنْ يَتَفَهّمُ ... ويعلمُ وجهَ الرأي، والرأيُ مُبْهَمُ؟
وَما كُلُّ مَنْ قَاسَ الأمورَ وَسَاسَها ... يُوَفَّقُ للأَمْرِ الذي هُوَ أَحْزَمُ
وما أحدٌ في الملك يبقى مُخَلَّداً ... وَمَا أحدٌ ممّا قَضى اللهُ يَسْلَمُ
أمنْ بَعْد ما ذاقَ العدا طَعْمَ حربكُمْ ... بفيهمْ، وكانتْ وهي صابٌ وَعَلْقَمُ[2]
رَجَعْتُمْ إلى حُمْم التّنافس بينكمْ ... وفيكمْ منَ الشّحناء نارٌ تَضَرَّمُ؟
أما عندكم من يتَّقي اللهَ وَحْدَهُ ... أَمَا في رعاياكمْ منَ النَّاس مُسْلمُ؟
تَعالوْا لَعلَّ اللهَ يَنْصُرُ دينَهُ ... إذَا مَا نصرْنا الدِّينَ نَحْنُ، وَأَنْتُمُ
وَنَنْهَضَ نحوَ الكَافرينَ بعَزْمَة ... بأمثالها تُحْوى البلادُ وَتُقْسَمُ[3]

إنّها دعوة حقّ، نداء صادق؛ لإنهاء التنابذ والخلافات، ودفن الضغائن والأحقاد، وتوحيد الصفوف، ما أعظم هذه الدعوة! دعوة إلى مخافة الله، والمحافظة على المسلمين، ودعوة إلى الجهاد في سبيل الله ضدّ الكافرين.

* * *

---

1 كان قلج صاحباً للروم، وكان يطلب مساعدتهم بين الفينه، والفينة ضد الأمراء المسلمين.

2 الصاب: الواحدة الصابة، وهي شجرة مرّ

3 الكامل في التاريخ 318/11. وديوان طلائع بن رزيك ص51-52. ويعلق ابن الأثير على هذه القصيدة، بقوله: "وهي أطول من هذا. هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة، وأنَّ الصالح=

ونلاحظ في هذا النوع من الشعر:

1. أنّه ثورة على الواقع، وتسجيل المواقف، ووصف حيّ للمشاعر، ونقل صورة أمينة للحادثة.
2. أَنَّ المعاني حزينة تدور في فلك المآتم، ودمار الدّيار وخرابها.
3. أنَّ العاطفة نابضة بالأسى العميق، وهي تصف الخراب في ديار المسلمين.
4. سهولة الألفاظ، ويسرها، وبعدها عن الغرابة والحوشية.
5. البعد عن جنوح الخيال، وقربه من الواقع.
6. أنّه يؤثر في النفوس، ويلهب العواطف، ويحرّك المشاعر، ويثير الأحاسيس.
7. أنّه قد يكون ارتجالياً، دونما تحضير أو تنقيح؛ لذلك، ويعتمد على إبراز الفكرة أو الموضوع أو الحدث، أكثر من اعتماده على الصور البلاغية والزخارف اللفظية، ويمكننا تسميته بـ(شعر المواقف) أو بـ(شعر المرحلة) إن صحّ التعبير[1].

المؤلفان للفصل الثاني

الأستاذ الدكتور هاشم صالح مناع
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب
جامعة الإسراء

الدكتور عمر عبدالله العنبر
مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة
جامعة الإسراء

1 = أرسل بهذا الشعر، فإن كان الشعر للصالح فينبغي أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ؛ لأنّ الصالح قتل سنة ست وخمسين وخمسمئة في رمضان، وإن لم يكن الشعر له فالحادثة في هذا التاريخ، ويحتمل أنْ يكون هذا التنافس كان أيام الصالح فكتب الأبيات ثمّ امتد إلى الآن"، ويقصد سنة ستين وخمسمئة.

الفصل الثالث:
استنهاض الهمم، والحض على الجهاد

(1)

اتخذ الصليبيون من القسطنطينية طريقاً إلى بلاد المسلمين حتّى تمكنوا من السيطرة على أنطاكية سنة إحدى وتسعين وأربعمئة، وكانوا غير آبهين بما يلحقونه من ضرر ودمار وحرق وسلب ونهب وسبي وقتل في الدّيار التي يمرّون بها، ممّا حمل أمراء الإمارات الإسلامية إلى التنسيق فيما بينهم للدّفاع عن الأرض الإسلامية، والدّيار المقدسة، وقد أخذ الأمراء على عاتقهم النضال والجهاد،ممّا سبب الخوف والفزع للصليبيين، فعظمت المصيبة عليهم لوهنهم، وجبنهم، وفقرهم، وقلة الأقوات عندهم، وكُرْه أهل البلاد المحتلة لهم، وعدم وجود ما يسوّغ غزوهم، وبعد أنْ كان المسلمون على أبواب أنطاكية، وكانت فرصة النصر أمامهم، وكانوا هم الصخرة التي سيتحطم عليها الصليبيون، وحصل خلاف بين الأمراء، فولّى المسلمون منهزمين، ولم يضرب أحدٌ منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم[1] ولا حامى عن نفسه بترس، وكان الموت غطاؤهم، وكانوا غذاء حيوانات الأرض وقشاعم السماء مما أعطى الفرصة لهذا الزحف في التقدم نحو بلاد الشام، وكان ما كان، ولم نجد إلّا قليلاً من الشعراء الذين نهضوا يحثّون المسلمين على القتال، ويحضّون، أهل الخير والنخوة على الوقوف في وجه هذا المدّ الجارف، ويتوسلون إلى الأمراء والقوّاد لوضع حدّ للخلافات من أجل الدفاع عن الأرض الإسلامية، ومن هؤلاء الشعراء، الذين حملوا عبء الدعوة واستنهاض الهمم، الشاعر ابن الخياط (أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن علي التغلبي)

---

1 الكامل في التاريخ (10/272-277).

كان حينذاك في الأربعين من عمره تقريباً (ولد سنة 450هـ)، ويقول في قصيدة طويلة له وجهها إلى قائد الجيوش في دمشق الأمير مجد الدين غضب الدولة: (من المتقارب) [1]

فَدَتْكَ الصَّواهلُ قُبّاً وَجُرْدَا وَشُمُّ القَبَائلِ شيباً وَمُرْدَا[2]

وَذَلَّت لأَسْيَافكَ البيضُ قُضْباً وَدانَتَ لأَرمَاحكَ السُّمر مُلْدَا[3]

وَإنِّي لَمُهْد إلَيكَ القَريـ ـضَ يُطوى على النُّصْحُ يُهْدى

إلى كَمْ وَقَدْ زَخَرَ المُشْركُونَ بسَيْل يُهَالُ لَهُ السَّيْلُ مَدَّا؟[4]

وَقَدْ جَاشَ مِنْ أَرْضِ إفْرَنْجَةٍ جُيُوشٌ كمثلِ جِبَالٍ تَرَدَّى[5]

ويتضح لنا أنَّ الشاعر قد بدأ قصيدته بإعلان استعداد المسلمين -جميعاً على اختلاف طبقاتهم- للجهاد، واتبع اسلوب المدح والنصح، والإخبار، والتساؤل، والاستنكار بطريقة لا تخلو من إثارة المشكلة الأساسية، وهي الغزو الصليبي، تمهيداً لعرض بعض النتائج المتوقعة من جراء هذا الغزو، بأسلوب يميل به إلى الثورة، والغضب، والعنف، ويقول:

أَنَوْماً عَلَى مثْل هَدِّ الصَّفَاة وَهَزْلاً وَقَدْ أَصْبَحَ الأَمْرُ جِدَّا؟[6]

وكيفَ تنامونَ عَنْ أعْيُنِ وَتَرْتُمْ فَأَسْهَرْتُمُوهُنَّ حقْدَا[7]

وَشَرُّ الضَّغَائن مَا أقبلتْ لَدَيْه الضَّغَائنُ بالكُفْر تُحْدى؟

بنُو الشِّرك لاَ ينكرونَ الفَسَاد وَلاَ يَعْرفُوَن مَعَ الجَوْر قَصْدَا

---

1 هو: أبق بن عبد الرزاق أحد مقدمي أمراء دمشق توفي سنة 502هـ (نقلاً حاشية ديوان ابن الخياط، ص170 عن ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص164).

2 الصواهل: جمع الصاهل، وهو الفرس، والصهيل: صوت الفرس. الأقب من الخيل: الضامر البطن، الدقيق الخصر، والأجرد من الخيل: السريع السباق الذي لا شعر عليه. وشم القبائل: رؤوسها.

3 القُضُب: جمع القضيب، وهو السيف القطّاع، والأملد من الرماح: اللين.

4 زخر المشركون: جاشوا لنفير أو حرب.

5 ديوان ابن الخياط، ص 182، 184. وتردّى: أنهار وسقط.

6 الصفاة: الحجر الصلد الضخم. وجدا(بكسر الجيم).

7 وترتم: أيّ أصبتم الفرنج من قبل، فلهم عندكم وتر(ثأر) أنتم عنه نائمون، وهم ساهرون يترقبون غفلتكم من شدة حقدهم.

وَلاَ يَردَعُونَ عَنِ القَتْلِ نَفْساً ... وَلاَ يَتْرُكُونَ مِنَ الفَتْك جُهْدَا
فكَمْ مِنْ فَتَاة بهِمْ أَصْبَحَتْ ... تَدُقُّ مِنَ الخَوْف نَحْراً وَخَدَّا
وَأمّ عَوَاتقَ مَا إنْ عَرَفْـ ... ـنَ حَرَّاً وَلاَ ذُقْنَ في اللَّيْل بَرْدَا[1]
تَكَادُ عَلَيْهِنَّ مِنْ خِيفَةٍ ... تَذُوبُ، وَتَتْلَفُ حُزْناً وَوَجْدَا[2]

ويقول: فواعجبي لنوم هادئ، وأحلام هانئة على صخرة كبيرة صلدة تتكسر تحت رؤوسكم، وأنتم نيام، لا حراك فيكم! وواعجباً لهزلكم وعدم حزمكم، وسكوتكم عن هفوات جسام، وقد أصبح الأمر جداً وحقيقة ترونها أمام أعينكم! فكيف تستسيغون المنام، وتهنؤون به، والأعين الحادقة تحدق بكم من كل حدب وصوب؟ ثم نجد الشاعر، وهو ينصِّب نفسه ناصحاً واعظاً، ويوجه نصحه إلى الأمة الإسلامية قائلاً: إنَّ شرّ الضغائن والأحقاد ما كان باعثها وحافزها الكفر -والعياذ بالله- فلا يدرع المشركين رادع، ولا يحكمهم ضمير، ولا بوجههم خُلُقٌ أو دينٌ، نشؤوا على الفساد فكيف يَنْهَون عنه؟ ورضعوا لبان الظلم، والجوع، والعدوان فكيف لا يمنعون باقتراف ذلك؟ وتغدوا بتعاليم الفتك والقتل وسفك الدماء فكيف لا يتفننون بتنفيذها؟ ناهيك عن وسائل التعذيب التي أجادوها وعملوا بها!

وأخبارهم السيئة وصلت قبلهم، والخوف والرعب دبّ في كل مكان، والبكاء والعويل يسمع في كل بيت، فالفتيات من شدة هول المصيبة يلطمن نحورهن وخدودهنّ، والأمهات الحريصات على بناتهن -اللاتي عشن في سعادة وسرور لا يعرفن طعم الحرّ أو البرد- خشي وخفن عليهن من اعتداء المعتدين الغاصبين الذين لم يقف أحد أمامهم.

---

1 العواتق: الفتيات اللاتي بين الإدراك والتعنيس،والواحدة:العاتق،سميت بذلك؛ لأنها عتقت عن خدمة أبويها، ولم يدركها زوج بعد.

2 ديوان ابن الخياط، ص 184-185.

حقاً، إنها لصورة حزينة كئيبة، مؤثرة، تذهل العقول، وتحرق الأكباد، وتثير العواطف، وتشحذ الهمم، وتلهب النخوة، وتحرك العزيمة، وتدفع إلى التضحية، ولقد وظَّف الشاعر هذه الصورة ليفزع بعدها: ثورَته العارمة، وغضبه الشديد، وحماسه المشتعل، ويقول:

فَحَامُوا على دينكُم وَالحَريم ... مُحَامَاةَ مَنْ لاَ يَرىَ الموتَ فَقْدَا
وَسُدُّوا الثُّغورَ بطَعْن النُّحُور ... فَمنْ حَقِّ ثَغْر بكُمْ أَنْ يُسَدَّا
فَلَنْ تَعْدَمُوا في انتشار الأُمور ... أَخَا تُدْرَ حَازم الرَّأي جَلْدَا[1]
يُظَاهرُ تَدْبيرُهُ بأْسَهُ ... مُظَاهَرَةَ السَّيْف كَفّاً وَزَنْدَا
كمثْل زعيم الجُيُوش المَليِّ ... بعَزْم يَبيتُ لَهُ الحَزْمُ ردَّا[2]
وعاداتُ بأْسكُمُ في اللِّقَا ... ء لَيْسَتْ تَحُولُ عن النَّصْر عَهْدَا
فَدُووكُمُ ظَفَراً عَاجلاً ... لَكُمْ جاعلاً سَائرَ الأَرْض مَهْدَا
فَقَدْ أَيْنَعَتْ أَرؤُسُ المُشْركين ... فَلاَ تُغْفلُوها قطافاً وَحَصْدَا
فَلاَ بُدَّ منْ حَدِّهمْ أَنْ يُفَلَّ ... وَلاَ بُدَّ منْ رُكْنهم أَنْ يُهَدَّا
فَما يَنْزعُ اليَوْمَ عَنْهُ الحَديدَ ... مَنْ رَامَ أَنْ يَلْبَسَ العزَّ رَغْدَا
وأَيْسَرُ مَا كَابَدَتْهُ النُّفُوسُ ... منَ الأَمر ما لَمْ تَجدْ منْهُ بُدَّا[3]

فها فهو -كما لاحظنا- يضرب لهم الأمثلة، ويحضّهم على التضحية، ويحثّهم على الجهاد والاستبسال، ويرفع من معنوياتهم بقوله: إنّ الجهاد، والقتال في سبيل الله يقودكم إلى النصر، وهذه عادتكم، وهذا دينكم، ثم يلجأ إلى التقليل من قوة المشركين وتصويرهم باللقمة السائغة، والثمرة الناضجة التي حان قطافها، ويدعوهم إلى حتمية

1 أخو تُدْرأ: المدافع ذو العزة والمنعة والقوة، والجلْد: الشديد القوي.

2 ردّا (بكسر الراء): يريد بها ردءاً، والردء (بكسر الراء): العون والناصر.

3 ديوان ابن الخياط، ص 185 و187.

هدّ أركانهم، وتشتيت شملهم، وتشريد جنودهم، وتفريق كلمتهم ووحدتهم، ويزجي في ختام قصيدته أروع الحكم، بقوله: من أراد العز والهناءة فعليه أنْ يجهز نفسه العدّة والعتاد، ويناضل ويجاهد دون ملل أو كلل، ويقاتل ببسالة وشجاعة لا يعتريها خوف أو فزع، وأمر القتال -هذا- سهل مكابدته، ويُسْرٌ معاناته، لأنكم لم تسعوا إليه، ولم تبحثوا عنه، وإنما فرض عليكم فرضاً، ومن هنا كان لابدّ من التحمل والصبر، والجدّ في العمل.

ولقد وفق الشاعر أيّما توفيق في قصيدته هذه، من خلال الأسلوب القوي، والألفاظ السهلة، والمعاني القريبة المتداولة، والعاطفة الحزينة النابضة بالعنف والغضب، والانفعال يبدو في كل كلمة من كلمات القصيدة، والخيال يجنح به أحياناً كما رأينا في مقدمة القصيدة؛ ولكنّه سرعان ما يعود ليواجه الحقيقة؛ لأنَّ هدف القصيدة أن تعالج واقعاً معاشاً، وحياة تتغير أمام أعينهم، ومن هنا جاءت النبرة الخطابية العالية، أضف إلى ذلك حسن الابتداء، وبراعة الختام، التي تتجلّى بالحكمة الموفقة.

وهذا يذكرنا بالمعاني الرائعة، والصور الجميلة التي ألفها أبو المظفر الأبيوردي في سقوط بيت المقدس بأيدي الفرنج، وقد تناولناها بالشرح في فصل سابق، ونود أنْ نُذكّر ببعض أبياتها لما لها من وقع في النفس، وتأثير في القلوب: (من الطويل)

فإيهاً بني الإسلام إنَّ وراءَكم ... وقائعَ يلحقنَ الذُّرا بالمَنَاسم!

وكيفَ تنامُ العينُ ملءَ جفونها ... على هفوات أيقظت كلَّ نائم!

وكمْ منْ دماء قد أُبيحت ومن دُمىً ... تُواري حياءً حسنَها بالمعاصم!

وتلك حروبٌ مَنْ يَغبْ عَنْ غمارهَا ... ليسلمَ يَقْرعْ بَعَدَهَا سنَّ نادم

فليتهمُ إذ لم يذودوا حميَّةً ... عن الدّين ضنوا غيرةً بالمحارم!

وإن زَهدوا في الأجر إذ حَمسَ الوَغَى ... فهلّا أَتوه رغبةً في الغنائم؟

دعوناكم والحربُ تَرْنُو ملحّةً ... إلينا بألحاظ النسور القَشَاعم

فإنْ أنتمُ لم تغضبوا بعد هذِه ... رَمَيْنَا إلى أعدائِنا بِالجَرَائمِ[1]

---

1 نهاية الأرب (5/ 226-227). وديوان الأبيوردي (2/ 156-157).

(2)

هكذا رأينا بعض الشعراء وهو يثور على الواقع، ويرفض الذل والخنوع، وكأنهم يتوجهون بأشعارهم هذه إلى الناس كافة، ويتخبطون من شدة وقع المأساة، ولا يعرفون إلى من يتوجهون؟ وكأن غشاوة أفقدتهم الرؤية، فإذا هم كالأصنام بلا حراك، ومرت الأيام والسنون وهم في غيبة عن أمرهم، تائهون في الواقع المفروض، إلى أنْ استطاع نور الدين زنكي في سنة تسع وثلاثين وخمسمئة دخول مدينة الرها، حينئذن أَخَذَ الشعراء يتنفسون الصعداء، ويشحذون قرائحهم، ويبثّون روح الجهاد في قلوب المسلمين، فها هو ابن القيسراني يذكر فتح الرُّها في قصيدة نظمها في جمال الدين وزير الموصل، ويقول: (من المتقارب)

وَجَاهَدَ في الله حَقَّ الجِهَا ... د مُحْتَسِبٌ بِالعُلَا قَافِلٌ[1]

فالشاعر ينادي بالجهاد، ويرى أن تحرير هذا الجزء من الأرض الإسلامية لا يفي بالغرض؛ لأن الجهاد كتب على كلّ مسلم ما دام هناك شبر واحد مغتصب، فالرُّها هي المقدمة الأولى للتحرير والنصر، ويقول:

فإنْ يَكُ فَتْحُ الرُّهَا لُجَّةً ... فَسَاحلُهَا القُدْسُ وَالسَّاحلُ
فَهَلْ عَلِمَتْ عِلْمَ تلْكَ الدِّيَا ... رِ أَنَّ المُقِيمَ بِهَا رَاحِلُ؟[2]

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة تجمّع الفرنج عازمين على التوجه إلى أعمال حلب للإغارة عليها وملكها، فتوجّه إليهم نور الدّين في مكان يعرف(ببُصْرَى)[3]، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأيّد الله حزبه، وانهزم الفرنج[4]، وقد صوّر ابن القيسراني هذه المعركة بقصيدة

1 الروضتين (49/1). والخريدة(قسم شعراء الشام) (109/2).
2 الروضتين (49/1). والخريدة (110/2)
3 بصرى: في موضعين، إحداهما بالشام من أعمال دمشق. والأخرى: من قرى بغداد قرب عُكْبَرَاء. (معجم البلدان 441/1).
4 الكامل في التاريخ (131/11). البداية والنهاية (223/12).

مدح فيها نور الدّين وحثّه على مواصلة الجهاد والقتال، أملاً في تحقيق الانتصارات، فقال: (من السريع)

وَصَارِمُ الإسلام لا ينثني ... إلَّا وَشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدُودُ

وَكَم لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ يَوْمُها ... عِنْدَ مُلُوك الشِّرك مَشْهُودُ

والقَوْمُ إمَّا مُرْهَقٌ صرعة ... أَوْ موثقٌ بالقِدِّ مَشْدُودُ

حتَّى إذا عَادُوا إلى مثْلهَا ... قَالَتْ لَهُمْ هَيْبَتُه: عُودُوا[1]

فَكُلُّ مِصْرٍ بِكَ مُسْتَفْتحٌ ... وَكُلُّ ثَغْرٍ بِكَ مَسْدُودُ[2]

ويقول له في قصيدة أخرى: (من الوافر)

فَسِرْ واسْتَوْعِبْ الدُّنْيَا فُتُوحاً ... فَلَا هَضْبٌ هُنَاكَ وَلَا وِهَادُ[3]

ومن المعارك التي فتّقت قرائحَ الشعراء، المعركة التي هزَم فيها نور الدّين الفرنج هزيمة منكرة عند حصن "إنِّب"[4] في سنة أربع وأربعين وخمسمئة، واستطاع قتل صاحب انطاكية (البرنس)، وكان عاتياً من عتاة الفرنج، وقد أكثر الشعراء من مدح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر ابن القيسراني الذي نظم قصيدة طويلة تتكون من اثنين وخمسين بيتاً، ويقول في مطلعها: (من البسيط)

هَذي العَزَائِمُ لاَ مَا تَدَّعِي القُضُبُ ... وَذِي المكَارِمُ لَا مَا قَالَتِ الكُتُبُ[5]

وبمجرد قراءتنا لهذا المطلع يستوقفنا مطلع قصيدة أبي تمام التي مدح فيها المعتصم:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ[6]

---

1 في الأصل: "إذا ما" وبها لا يستقيم الوزن.

2 الروضتين (56/1).

3 الروضتين (56/1).

4 حصن من أعمال عزازمن نواحي حلب. (معجم البلدان 258/1).

5 الكامل في التاريخ (11/144-145). والبداية والنهاية (12/225-226). والروضتين(1/58-59).

6 ديوان أبي تمام (40/1).

فالبحر واحد، والقافية واحدة مع تغيير في حركة القافية، ولا يخفى علينا ما لقصيدة أبي تمام من أثر بالغ في نفوسنا؛ لأنها نظمت في وقت حقق العرب فيه انتصاراً باهراً على الروم، وكذلك قصيدة ابن القيسراني ألقيت في مناسبة حقّق العرب فيها فوزاً عظيماً، وهو فوز الحقّ على الباطل، ويرى الشاعر من واجبه أنْ يذكّر بالأماكن الإسلامية الأخرى، تحريضاً على القتال، وشحذاً للهمم، واستثارةً للنخوة؛ ويقول:

فَانهضْ إلى المسجد الأَقْصَى بذي لَجَبٍ ... يوليكَ أقصى المُنى، فَالقُدْسُ مرتقبُ

وَائْذَنْ لِمَوْجِكَ في تَطْهيرِ سَاحِلِهِ ... فَإنَّمَا أَنْتَ بَحْرٌ لُجُّهُ لَجِبُ[1]

وحرص الشاعر ابن القيسراني على تسجيل مواقع النضال لنور الدين زنكي، فذهب إلى أكثر من ذلك، وهو رغبته في أنْ يكون شعره هو السّجل الخالد للمعارك البطولية، ولم يخل هذا الوصف وذاك المدح من حثّ على الجهاد، واستنهاض الهمم، فها هو يمدحه استولى على (سِنْ جَار)[2] وأعمال (الرُّحْبَة)[3] و(الفرات) في سنة أربعين وخمسمئة، بقصيدة طويلَة منها: (من الكامل)

تَدْعُو البلادُ إلَيْكَ أَلْسنَةَ الظُّبى ... فَيُجيبُكَ الأَنْجَادُ وَالأَغْوَارُ[4]

إنْ تُمْس في حَلَب رِيَاحُكَ غَضَّةً ... فَلَهَا بِأَنْطاكيَّة إعْصَارُ

وَغَدَتْ جيَادُكَ بالشَّآم مُقيمَة ... وَلَهَا بأَطْرَاف الدُّرُوب مغَارُ

همَمٌ سَبَقْتَ بهَا إلى مُهَج العدَا ... صرف الرَّدى، ومسيره إحْضَارُ

أَمْضَى السِّلاح عَلى عَدوِّكَ بَغْيُهُ ... بالغَدْر يطعنُ في الوَغى الغَدَّارُ

فَاحسمْ عَنادَ ذَوي العَناد بجَحْفَل ... كَاللَّيْل فيه منَ الصَّفيح نَهَارُ

جُنْدٌ عَلَى جُرد أَمَامَ صُدُورهَا ... صَدْرٌ عَلَيْه منَ اليَقين صِدَارُ

1 الروضتين (59/1).

2 مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها بين الموصل ثلاثة أيام. (معجم البلدان 262/3).

3 قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة (معجم البلدان 33/3).

4 الظبي: جمع ظُبَة، والظُّبَةُ: حدّ السيف.

مَلِــكٌ لَــهُ مِــنْ عَدْلِــهِ وَوَفَائِــهِ جَــيْشٌ بــه تُسْــتَفْتح الأَمْصَــارُ[1]

وتتوالى انتصارات نور الدين على الصليبيين، ويسترد كثيراً من القلاع التي تقع في شماليّ حلب، ويطير صيتُه بين المسلمين، فتعمّ الفرحة والبهجة في كلّ مكان، فيأخذ الشعراء بتصوير هذا الجهاد، ويرون أنَّ هذه الانتصارات إنّما هي بداية الطّريق لتحرير الأماكن الإسلامية الأخرى التي ترزح تحت نير الكفار، وممّن استهواهم هذا النصر -على عادته- ابن القيسراني الذي نظم قصيدة طويلة في سنة خمس وأربعين وخمسمئة، ضمت واحداً وخمسين بيتاً، مدح فيها نور الدين، ووجه نداءاً له لتخليص بيت المقدس، وساحل الشام وغيرهما من الأماكن: (من الطويل)

فَسِــرْ وَامْــلأ الــدُّنْيَا ضِــيَاءً وَبَهْجَــةً فَبــالأُفُق الــدَّاجي إلــى ذَا السَّــنَا فَقْــرُ

كَــأَنِّيَ بِهَــذَا العَــزْم، لَا فُــلَّ حَــدُّهُ وَأَقْصَــاهُ بالأَقْصَــى وَقَــدْ قُضِــيَ الأَمْــرُ

وَقَدْ أَصْبَحَ القُدْسُ المقَدَّسُ طَاهراً وَلَـيْسَ سـوَى جَـاري الـدِّمَاء لَـهُ طُهْـرُ

وَقَـدْ أَدَّت البِـيضُ الحـدَادُ فُرُوضَـها فَــلَا عُهْــدَةٌ في عُنْــق سَــيْف وَلَا نَــذْرُ

وَصَــلَّتْ بِمعْــرَاج النَّبِــيِّ صَــوَارمٌ مَسَــاجدُهَا شَــفْعٌ وَسَــاجدُهَا وتْــرُ

وَإنْ تَتَـيَمَّمْ سَـاحِلَ البَحْـرِ مَالِكـاً فَـلَا عَجَـبٌ أَنْ يَمْلِـكَ السَّـاحِلَ البَحْـرُ[2]

ويذكر لنا أبو شامة في حوادث سنة ست وأربعين وخمسمئة أنَّ نور الدين حاصر دمشق، لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، وكان نور الدين مصمماً على فتحها وامتلاكها بكلّ الوسائل، وفي هذه الأثناء تخلّف الشاعر ابن منير عن اللّحاق بهذا الركب المجاهد في سبيل الله لمرض عرض له، ومات حينئذ في "حماة" فنظم قصيدة طويلة أرسل بها إلى نور الدين يحرضه فيها عليهم، ويستنهض همته لتخليص مدينة دمشق وغيرها من المدن من براثنهم: (من الكامل)

1 الروضتين (68/1-69).

2 الروضتين (73/1): وانظر: الكامل في التاريخ (155/11-156). ومعجم الأدباء (68/19-69). والخريدة (قسم شعراء الشام) 158/1.

يَـا هَضْـبَةَ الإِسْـلام مَـنْ يُعْصَـمْ بِهَـا ... يُـؤْمِنْ، وَمَـنْ يَتَـوَلَّ عَنْهَـا يَكْفُـر!

آثَـارُهُمْ نَجَـسٌ أَذَالَ المَسْـجِدَ الـ ... أقْصـى، فَصُـنْ مَـا دَنَّسُـوهُ وَطَهِّـر [1]

جَـارَ الخَليـلُ وَمَـنْ بِغَـزَّة هَاشِـم ... بِلُهَامِـكَ المُتَدَمْشِـقِ المُتَمَصِّـر [2]

ذَلَّـتْ لِـدَوْلَتِكِ الرِّقَـابُ وَلَا تَـزَلْ ... إِنْ تَغْـزُ تَغْـنَمْ أَوْ تُقَاتِـلْ تَظْفَـرِ [3]

وثمة قصيدة لابن منير أيضاً يحرّضه، وهو محاصرٌ لدمشق، وفيها يخاطب المدنَ لتفرح وتشارك المدن التي فتحها، ويقول: (من الطويل)

أَيَـا سَـيْفُ شَـامَتْهُ يَـدُ المُلْـك صَـارماً ... فَيَمْهَـدُ إِذْ يَسْـري وَيَسْـري فَيُهْمِـدُ! [4]

دِمشْـقَ دِمشْـقَ إِنَّمَـا القُـدْسُ سَـرْحَةٌ ... وَمَرْكَزُهَـا صَـرْحٌ عَلَيْهَـا مُمَـرَّدُ [5]

حَمَوْهَا لِكَيْ يَحْمُـوا، وَقَدْ بَلَغَ المَدَى ... بِهِـمْ أَجَـلٌ حَـتْمٌ وَعُمْـرٌ مُحَـدَّدُ

مَتَـى أَنَـا رَاءٍ طَـائِرَ الفَـتْحِ صَـادِحاً ... يُرَفْـرِفُ فِي أَرْجَائِهَـا وَيُغَـرِّدُ [6]

حقـاً، إنهـا أحـلام تـراود الشـاعر، فـراح يرويهـا للملـك المظفـر ليحقـق لـه هـذه الأحـلام، وبالفعـل استطاع نـور الـدين أنْ يحقـق أحـلام الأمـة الإسـلامية، التـي طالمـا انتظرتها.

وفي سـنة سـبع وأربعـين وخمسـمئة تمكّـن نـور الـدين مـن السـيطرة علـى حصـن "انطرسوس"[7] وقتل من كان فيه، في حين طلب الباقون الأمان على النفوس، فأجيبوا إلى ذلك، وتحقّق لهم ما تمنّوه من النجاة بأنفسهم، وكان هـذا الحصـن رابطـة العقـد، تهاوت من بعده الحصون، فملكها بالسّبي، والسّيف والإخراب، والإحراق، والأمان.

---

1 أذال: أهان.

2 وجار: طلب أن يُجار، أي :يُغاث. واللُّهام: الجيش العظيم، كأنه يلتهم كل شيء. وتدمشق: أتى دمشق. وتمصر: أتى مصر.

3 الروضتين 78/1. وديوان ابن منير، ص230.

4 شام السيف: استله. ويَمْهَدُ: أي يُوَطِّئ الأرضَ لنفسه. ويُمْهِدُ: يُميتُ.

5 سرحة: فناء الدار. والصَّرح: واحد الصُّروح: القصر، أوكل بناء عال. والممرد: المملس.

6 الروضتين 79/1. وديوان ابن منير، ص233.

7 بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص، وقيل: من أعمال طرابلس منطقة على البحر (معجم البلدان 270/1).

ومن الإنصاف أن يسجل الشعراء هذه البطولات الخالدة، ويروا في سقوط هذه الحصون مقدمة لامتلاك المدن الأخرى، فهذا ابن منير يمدح نور الدين ويهنئه على انتصاراته، وجهاده، ويحثّه على تحقيق المزيد منها: (من الكامل)

غَسَلَ العَوَاصِمَ أمس مِنْ أَدْرَانِهِمْ ... وَاليَوْمَ ردَّ بِهِ السَّوَاحِلَ بُورا

أَخْلَى دِيَارَ الشِّرْك مِنْ أَوْثَانِهَا ... حَتَّى غَدَا ثَالُوثُهُنَّ نَكِيرا

أَلْق العَصَا فِيمَنْ أَطَاعَ، وَمَنْ عَصَى ... مِنْهُم وَدَمِّرْ أَرْضَهُمْ تَدْمِيرا

لا يُلْهِهِمْ أَنْ قَدْ مَنَنْتَ، وَشُنَّهَا ... شَعْوَاءَ تُصْلِي الكَافِرينَ سَعِيرا

بَاكِرْ بِرَكْزِ قَنىً تُنَسِّفُ أُسَّهَا ... وَالخَيْلُ صُورٌ كَيْ تُزِيرَكَ صُورا[1]

وَتُرِيكَ لامعَةَ التَّرِيك بِسَاحَةِ الـ ... أَقْصَى مُطَهَّرَة لَهَا تَطْهِيرا[2]

أَوَلَسْتَ مِنْ قَوْم إِذَا هَزُّوا القَنَا ... فَتَلُوا مَعَاصِمَهمْ لَهَا تَسْوِيرا؟

ضَحِكَتْ لَكَ الأَيَّامُ، وَاكْتَأَبَ العِدَا ... قَلقاً فَجِئْتَ مُبَشِّراً وَنَذِيراً[3]

ونلاحظ أنَّ الشاعر يتكئ على استخدام المعاني الدينية التي ينفذ من خلالها إلى استخدام القوة من منطلق إيمانه بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾[4]، وهذا الإيمان هو الحافز القويّ لممدوحه من أجل مواصلته النضال عامة، وتحرير أولى القبلتين، وثالث الحرمين خاصة.

1 القنا: الرماح، وركز الرمح: أثبته، وغرزه في الأرض، والأس: أساس البناء وأصله. وصور الثانية: مدينة في لبنان. وأما صور الأولى فهي جمع أَصْوَر، وهو المائل بعنقه لثقل الحمل أو لاشتياقه إلى الشيء (التاج، صور).

2 التريك: بيضة الحديد على الرأس (لسان العرب، ترك).

3 الروضتين 87/1. وديوان ابن منير الطرابلسي، ص245-246.

4 آية 60 سورة الأنفال.

(3)

يبدو أنَّ أسامة بن منقذ الشاعر[1] حين رحل إلى مصر اتصل بالملك الصالح[2] طلائع بن رُزِّيك الوزير المصري، ووطّد علاقته به، ولكنّ المقام ضاق به فرحل إلى دمشق، ليتصل بنور الدّين محمود، وحينذاك أخذ الملك الصّالح يراسل أسامة حباً، إعجاباً بصداقته، وفروسيته، ويدعوه إلى مصر، ويحدّثه عن حروبه مع الفرنج، وكان يعجب بأسامة القائد، المحارب الشجاع الخطيب المصقع، الحكيم الصائب، الشخصية الأثيرة عند نور الدّين زنكي الذي رحب بأسامة حين عاد من القاهرة سنة (549هـ/ 1154م) لينضم تحت لوائه في قتال الفرنج، ومن الأشعار التي أرسل بها الملك الصالح إلى أسامة يحثه فيها على الجهاد، ويراه فيها الإنسان المخلص الشجاع ويقول: (من الخفيف)

وَلَعمـــري إنَّ المُناصـــح للدِّيـــ	ـــن عَلَـــى اللهِ أَجْـــرُهُ مَحْسُـــوبُ
وَجِهَـــادُ العَـــدُوِّ بالفعْـــل، وَالقَـــوْ	ل عَلَـــى كُـــلِّ مُسْـــلم مَكْتُـــوبُ
وَلَـــكَ الرُّتْبَـــةُ العَليَّـــةُ في الأَمْـــ	ـــرَيْن مُـــذْ كُنْـــتَ إذْ تَشـــبُّ الحُـــرُوبُ
أَنْـــتَ فيهَـــا الشُّـــجَاعُ، مَالَـــكَ في الطَّعْـــ	ـــن، وَلَا في الضِّـــرَاب يَوْمـــاً ضَـــريبُ
وَإذَا مَـــا حَرَّضْـــتَ، فَالشَّـــاعرُ المُفْـــ	ـــلقُ فيمَـــا تَقُولُـــهُ، وَالخَطيـــبُ
وإذا مَـــا أَشَـــرْتَ فَـــالحَزْمُ لا يُنْـــ	ـــكرُ أَنَّ التَّـــدْبيرَ منْـــكَ مُصـــيبُ

---

1 كان أسامة بن منقذ من أسرة توارثت إمارة شَيْزر، وهي قلعة في الشمال الغربي لحماة، ولما كان عمه أبو العسكر حاكماً لشيرز، ولم يكن له عقب واتخذ أسامة ابناً له، وكان يرى فيه الامير المستقبل لها، واشترك أسامة في معارك عديدة دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعاً عن إمارتهم.

غير أن عمه رزق أولاداً في آخر أمره، ففترت العلاقة بينهما، ورحل أسامة إلى الموصل، حيث عماد الدّين زنكي، وانتظم في جيشه لقتال الصليبيين، ووقع آنذاك زلزال بهذه المدينة قضى على بني منقذ باسرهم، وذلك سنة 552هـ. وكان أسامة قد استطاع أن يقيم علاقات حسنة مع القادة حين سافر إلى القاهرة سنة 439هـ. وكانت صلته بالوزير المصري الجديد طلائع بن رُزِّيك حسنة، على الرغم من اشتراكه في المؤامرة لقتل الوزير السابق ابن السّلار، ثم رحل إلى دمشق، ليتصل بنور الدّين محمود حتى وفاته المنية هناك سنك (584هـ/1188م). انظر: ديوان أسامة بن منقذ، ص11-41. والروضتين (1/104-107، 114-120).

2 هذا لقب لقّب به طلائع بن رُزِّيك الذي كان وزيراً في مصر.

لَــكَ رَأْيٌ يَقْظَــانُ، إنْ ضَــعُفَ الــرَّأْ ... يُ، عَلَــى حَــامِلِي الصَّــليبِ صَــليبُ[1]

ويتابع الملك الصالح قصيدته هذه يحثّ فيها أسامة على أنْ يتوسط لدى نور الدين محمود زينكي من أجل توطيد أواصر الصداقه، والوحدة بين القطرين مصر وسورية، للتعاون على جهاد العدو الصليبي، وتشتيت وحدته، وتفريق كلمته، وتحطيم قوته، وتطهير المقدسات من دنسه، إذ يقول:

فَــانْهَضْ الآنَ مُسْــرِعاً فَبِأَمْثَــا ... لِــكَ، مَــا زال يُــدْرَكُ المَطْلُــوبُ

وَالْــق عَنَّــا رِسَــالَةً عنْــدَ نُــور الــدِّ ... (م) يــن، مَــا في إلْقَائِهَــا مَــا يَريــبُ

قُــلْ لَــهُ، دَامَ مُلكُــهُ، وعَلَيْــه ... مِــنْ لبَــاس الإقْبَــال بُــرْدٌ قَشــيبُ:[2]

أَيُّهَــا العَــادِلُ الــذي هُــوَ للدِّيــ ... ــن شَــبَابٌ، وَللْحُــروبُ شَــبيبُ[3]

وَالــذي لَــمْ يَــزَلْ قَــديماً عَــن الإسْــ ... ــلام بــالعَزْم منْــهُ تُجْلَــى الكُــرُوبُ

وَغَــدَا منْــهُ للفــرنج إذَا لا ... قَــوْهُ يَــوْمٌ مِــنَ الزَّمَــان عَصــيبُ

غَيْرُنَــا مَــنْ يَقُــولُ مَــا لَــيْسَ يُمْــ ... ــضِيهِ بِفِعْــلٍ، وَغَيْــرُكَ المَكْــذُوبُ[4]

ويلحّ الملك الصالح إلحاحاً شديداً على عقد الصلح والتعاون، ويرى في ذلك صالح الطرفين من أجل تحقيق النصر، وينظر من خلال منظور سياسي صحيح، فالفرنج بين كفي كماشة، وهذا في مصر، وذاك في الشام فلا مفرّ للصليبيين إلاّ القتل، والأسر، والهزيمة، والعار، ويقول:

قَــدْ كَتَبْنَــا إلَيْــكَ، فَاوْضِــحْ لَنَــا الآ ... نَ بِمَــاذَا عَــن الكتَــاب تُجيــبُ؟

قَصْــدُنَا أَنْ يَكُــوَن منَّــا وَمِــنْكُمْ ... أَجَــلٌ في مَســيرنَا مُضْــرُوبُ

---

1 ديوان أسامة بن منقذ، ص208-209. وديوان طلائع بن رزيك، ص61. والروضتين (118/1). والصليب الثانية: الشديد.

2 القشيب: الجديد.

3 هو شبيب بن يزيد الشيباني أحد أبطال الحروب، وأحد كبار الثائرين على بني أمية توفي سنة (77هـ/696م). انظر ترجمته في: الأعلام (156/3-157). وفي كل (شبيب) تورية بين اسم (شبيب)، ومعناه (موقد الحروب ومضرمها).

4 ديوان أسامة بن منقذ، ص209. وديوان طلائع بن رزيك، ص61-62. والروضتين 118/1.

فَلَــدَيْنَا مِــنَ العَسَــاكر مَــا ضَــا قَ بأَدْنَــــاهُمُ الفَضَــــاءُ الرَّحيـــبُ
وَعَلَيْنَــا أَنْ يَسْــتَهلَّ عَلَــى الشَّــا م مَكَــانَ الغُيُــوث مَــالٌ صَــبيبُ
أَوْ تَرَاهَــا مثْــلَ العَــرُوس: تَرَاهَــا كُلُّــهُ مِــنْ دَم العــدَا مخْضــوبُ
لطَنــين السُّــيُوف في فَلَــق الصُّبْــــح عَلَــى هَــام أَهْلهَــا تَطْريــبُ
وَلجَمْــع الحُشُــود مِــنْ كُــلِّ حصْــن سَـــلَبٌ مُهْمَـــلٌ لَهُـــمْ وَنُهـــوبُ
وَبِحَـــوْلِ الإِلـــهِ ذَاكَ، وَمَـــنْ غَـــا لَـــبَ رَبَّـــي فَإنَّـــهُ مَغْلُـــوبُ[1]

ومن الحَسَنِ حقاً أن نرى أسامة بن منقذ في مراسلاته مع الملك الصالح طلائع بن رُزّيْك يعترف بمكانة هذا الملك، ويحافظ على شخصيته من خلال احترام الآخرين وتقديرهم، وحثّهم على القتال؛ لأن القياده بأيديهم، وهذا الحثّ يأتي من خلال المدح المباشر، ويقول: (من الطويل)

وَمَــا النَّــاسُ إلَّا آلُ رُزِّيْــكَ، إنَّهُــمْ هُـمُ الـذّادَةُ الشُّـبَّانُ، وَالسَّـادَةُ الشُّـمْطُ[2]
بَنُو الحَرْبِ في يَوْمِ الوَغَى، وَبَنُو النَّدَى إذَا مَـا بِـلاَدُ النَّـاس جَرَّدَهَـا القَحْـطُ[3]

ويبدو أنَّ هذا المدح كان مثيراً للملك الصالح، ويحرك مشاعره، ويلهب عواطفه، فلا يستطيع أنْ يكتم ذلك، ولاسيما أنَّ الملك الصالح كان يرى في نور الدين زنكي الذي احتضن أسامة البطل الإسلامي، والقائد الذي تهابه الفرنج، وهذا ما جعله يرى ذاته في شخصية نور الدين، فكان لابدّ من مراسلة أسامة الذي سيكون السبيل إلى نور الدين، فها فهو الملك الصالح يكتب لأسامة يحرضه على القتال، ويشجعه على الجهاد دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ من خلال إظهار قوتة التي يطالب أنْ تكون جنباً إلى جنب مع قواتهم:

---

1 ديوان أسامة بن منقذ، ص209-210. والروضتين (118/1-119). وديوان طلائع، ص62-63.

2 الشمط: جمع الأشمط، وهو الذي خالط بياض رأسه سواد.

3 ديوان أسامة بن منقذ، ص218.

ذَخَرْنَــا سُــطَاهَا للْفَــرَنْج؛ لأَنَّهَــا بهِـمْ دُونَ أَهْـل الأَرْض أَجْـدَرُ أَنْ تَسْطُو[1]

وَقَـد كَـاتَبُو في الصُّـلْح، لَكـنْ جَـوَابُهمْ بحَضْـرتَنا مَـا يُنْبِـتُ الخَـطُّ لاَ الخَـطُّ[2]

سُــطُورُ خُيُــول لاَ تُغــبُّ ديَــارَهُمْ لَهَا بالمَواضي، وَالقَنَا الشَّكْلُ، وَالـنَّقْطُ

وَحَــرْبٌ لَهَــا الأَرْواحُ زَاهقَــةٌ، لمــا تُعـاينُ، وَالأَصْـوات مـنْ دَهَـش لَغْـطُ[3]

إذَا أَرسـلَتْ فَرعـاً مـنَ النَّقْـع فَاحمـاً أَثيثـاً، فَأَسْـنَانُ الرِّمَـاح لَهَـا مُشْـطُ[4]

كَــأَنَّ القَنــا فيهــا أَنَامــلُ حَاســب أَجَـدَّ بهَـا في السُّـرعَة الجَمْـعُ، وَاللَّقْـطُ

رَدَدْنَـا بهَـا ابـنَ الفُـنْشِ عَنَّـا، وَإنَّمَـا يُثَبِّتُــهُ في سَــرْجِهِ الشَّــدُّ، وَالــرَّبْطُ

وهكذا يُظهر الملك الصالح قوته، فيخيف الأعداء، ويحطّ من قدرهم وشأنهم، ويرفع من معنويات جيوش المسلمين، ويحثّ المخلصين الذائدين عن الإسلام، والمسلمين على أنْ ينقلوا بأمانة وإخلاص الحقائق لنور الدّين الذي يحذّره من الوقوع في شرك الفَرَنج، وغدرهم، مبدياً استعداده أنْ يضع كلّ ما يملك تحت إمرته من أجل توحيد صفوف المسلمين، ويقول:

فَقَولـوا لنُـور الـدِّين، لَيْسَ لخَـائف الــ جرَاحَـات إلَّا الكَـيُّ في الطِّـبِّ وَالـبَطُّ[5]

وَحَسْــنُ أُصُـول الـدَّاء أَوْلـىَ لعَاقـل لَبيب، إذَا اسْتَوْلَى عَلَى المُدْنف الخلْطُ[6]

فَــدَعْ عَنْـكَ مَـيْلاً للْفَــرَنْج وَهُدْنَــةً بِهَـا أَبَـداً يُخْطي سوَاهمْ، وَلَـمْ يُخطُـوا

تَأَمَّـلْ، فَكَـمْ شَـرْط شَـرَطْتَ عَلَـيْهُم قَـديماً، وَكَـمْ غَـدْر بـه نُقـضَ الشَّـرْطُ

1 سطاها: أي السيوف.

2 الخط: مرفأ السفن بالبحرين، تنسب إليه الرّماح الخطيّة. انظر: لسان العرب (الخطط). والخط الثانية أراد بها الكتابة.

3 اللَّغط: الصوت والجَلَبَة، أو أصوات مبهمة لا تُفْهم.

4 الأثيث: الملتف، الكثير العظيم.

5 بطّ الجرح: إذا شقّه.

6 الخلط بالكسر: أن يخالط الرجل في عقله. والمدنف: المريض.

وَشَمِّرْ، فَإِنَّا قَدْ أَعنَّا بكُلِّ مَا سَأَلْتَ، وَجَهَّزْنَا الجُيُوشَ، وَلَنْ يُبْطُوا[1]

ويتجاهل طلائع بن رُزِّيْك الوحشة، والجفاء بينه، وبين نور الدّين زنكي صاحب الشّام، ويظهر بمظهر القائد الواعي الحريص على الدِّين، البعيد عن انتهاز الفرص، ضارباً بالقول القائل: "عدو عدوي صديقي" عُرض الحائط، إذْ أَخَذَ يحث قُلْج أَرْسلان بن مسعود صاحب الرّوم على نبذ الخلافات بينه وبين نور الدين، التي أدت إلى الحروب والتضاغن، وينهاه عن ذلك، وكتب إليه شعراً يقول فيه: (من الطويل)

نَقُولُ، وَلَكِن أيْنَ مَنْ يَتَفَهَّمُ وَيَعْلَمُ، وَجْهَ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ مُبْهَمُ؟
وَمَا كُلُّ مَنْ قَاسَ الأُمُورَ وَسَاسَهَا يُوَفَّقُ للأَمْرِ الذي هُوَ أَحْزَمُ
وَمَا أَحَدٌ في المُلْك يَبْقى مُخَلَّداً وَمَا أَحَدٌ ممَّا قَضَى اللهُ يَسْلَمُ
أَمِنْ بَعْد مَا ذَاقَ العدَا طَعْمَ حَرْبكُمْ بفيهمْ، وَكَانَتْ وَهْيَ صَابٌ، وَعَلْقَمُ
رَجَعْتُمْ إلى حُكْم التَّنَافُس بَيْنَكُمْ وَفيكُمْ منَ الشَّحْنَاء نَارٌ تَضَرَّمُ
أما عِنْدَكُمْ مَنْ يَتَّقي الله وَحْدَهُ أَمَا في رَعَايَاكُمْ منَ النَّاس مُسْلمُ؟
تَعَالَوْا لَعَلَّ اللهَ يَنْصُرُ دينَهُ إذَا مَا نَصَرْنَا الدِّينَ نَحْنُ وَأَنْتُمُ
وَنَنْهَضُ نَحْو الكَافِرينَ بِعَزْمَةٍ بأَمْثَالِهَا تُحْوى البلاَدُ وَتُقْسَمُ[2]

ويروى أنه في سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة قام الإفرنج المقيمون بالشام بمضايقتهم حصن "حارم"[3] ومواظبتهم على رميه بالمنجنيق، إلى أنْ ملكوه، ثم تزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي بالعبث والفساد في معاقلها، وضياعها، وبحكم تفرّق العساكر الإسلامية، وامتدت أيدي الإفرنج إلى أعمال (حوران) والإقليم، وإطلاق أيدي الفساد، والإحراق، والنهب، والسبي، والأسر، ولكن نور الدّين

---

1 ديوان أسامة بن منقذ، ص220. الروضتين1 /119-120. وديوان طلائع بن رزيك، ص68-70. وانظر: الخريدة (قسم شعراء مصر) 1/177

2 ديوان طلائع بن رزيك، ص51-52. والكامل في التاريخ (318/11).

3 حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب، وهي فاعل من الحرمان أو من الحريم، كأنها لحصانتها يحرمها العدو، وتكون حرماً لمن فيها. (معجم البلدان 205/2). والأعلاق الخطيرة (55/2) وما بعدها.

توجّه من (حلب) إلى (دمشق)، فانتصر عليهم بعون من الله، ثم أخد في تدبير أمرّ الجند والتأهب للجهاد.

وبدأت تتوارد على إسماعه أخبار سارة من (مصر)، وذلك بخروج جيش كبير من جيوشها، متجهاً إلى (غزة) و(عسقلان)[1]، أغار على أعمالها، وخرج من كان بها من الفرَنج لقتال المسلمين، وردّهم عن غاياتهم؛ ولكن الله أظهر المسلمين عليهم، وأَخَذَ بيدهم، ونصرهم على الكفرة، فأوقع بهم القتل والأسر، بحيث لم يفلت منهم إلَّا اليسير، وغنموا ما ظفروا به، وعادوا سالمين منتصرين، وقيل: أن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين، وهي مشحونة بالفرَنج، فقتل وأسر أنهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم، وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً.

ويقول أبو شامة: أرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من (مصر) وزيرُها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيْك قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزوة ويحرض فيها نور الدّين على قتال المشركين[2]، والقصيدة تزيد على ستين بيتاً، ويقول في مطلعها: (من الطويل)

أَلَا هَكَذَا في الله تَمْضي العَزَائمُ ... وَتَمْضي لَدَى الحَرْب السُّيُوفُ الصَّوَارمُ

إلى أنْ يقول:

فَقولُوا لنُور الدِّين، لاَفُلَّ حَدُّهُ ... وَلَا حَكَمَتْ فيه اللَّيالي الغَوَاشمُ:[3]

تجَهَّزْ إلى أَرْض العَدوِّ، وَلاَ تهنْ ... وَتُظهرْ فُتُوراً أَنْ مَضَتْ منْكَ (حارمُ)

فَمَا مثْلُهَا تُبْدي احْتفَالاً بـه، وَلا ... تُعَضُّ عَلَيْهَا للْمُلُوك الأَبَاهمُ[4]

فَعنْدَكَ منْ أَلْطاف رَبِّكَ مَا به ... عَلمْنَا يَقيناً، أَنَّهُ لَكَ رَاحمُ

أَعَادَكَ حَيّاً بَعْدَ أَنْ زَعَمَ الوَرَىَ ... بأَنَّكَ قَدْ لاَقَيْتَ مَا الله حَاتمُ

بوَقْت أَصَابَ الأَرْضَ مَا قَدْ أَصَابَها ... وَحَلَّتْ بهَا تلْكَ الدَّوَاهي العَظَائمُ

وَخَيَّمَ جَيْشُ الكُفْر في أَرْض شَيْزَر ... فَسيقَتْ سَبَايَا، وَاسْتُحلَّتْ مَحارمُ

---

1 غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، وهي من نواحي فلسطين غربية عسقلان. (معجم البلدان 202/4). وعسقلان: وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، ويقال لها عروس الشام. (معجم البلدان 122/4).

2 الروضتين (114/1-115).

3 الغشم: الظلم.

4 الأباهم: جمع الإبهام، وهذا كناية عن الندم.

وَقَـدْ كَـانَ تَـارِيخُ الشَّـآمِ وَهُلْكُـهُ   وَمَـنْ يَحْتَوِيـهِ أَنَّـهُ لَـكَ عَـادِمُ[1]

رأينا الشاعر وقد بدأ قصيدته بمقدمة مناسبة، وهو ما يسمى ببراعة الاستهلال ثم ينتقل إلى وصف الجيوش، والقتال الدائر بين الطرفين، إلى أنْ يصل لدعوة نور الدين للجهاد؛ ولكنه هنا يتوقف مع ما لحق به من هزيمة، وما حلّ بدياره من فساد، حتّى يشعره بحلاوة النصر بعذئذ، فلكلّ جواد كَبْوَة، وأخذ يعطي المواعظ، ويذكّره برحمة ربه، ويرسم له صورة بفوزه وانتصاره وحتمية النصر للحق على الباطل، وكأن أسلوب التدرج الذي اتبعه الشاعر، والنقلة من موضوع إلى موضوع، ما كان إلّا من أجل الحثّ على الجهاد، وبثّ الحمية في النفوس، وشحذ الهمة واستنهاض العزيمة، من دون كلل أو ملل، ويقول: (من الطويل)

فَقُـمْ، واشْـكر اللهَ الكَـريمَ بنَهْضَـة   إلَـيهمْ، فَشُـكْرُ الله للْخَلْـق لازمُ[2]
فَنَحْنُ عَلَى مَا قَدْ عَهِدْتَ: نَروُعُهُمْ   وَنَحْلِـفُ جَهْـداً أَنَّنَـا لَا نُسَـالِمُ
وَغَاراتُنَـا لَيْسَـتْ تَفَتَّـرُ عَـنْهُمُ   وَلَـيْسَ يُنَجِّي القَـوْمَ منْهَـا الهَـزَائمُ
وَأُسْـطُولُنَا أَضْـعَافُ مَـا كَـانَ سَـائراً   أَلَـيْهمْ فَـلاَ حصْـنٌ لَهُـمْ منْـهُ عَاصِـمُ
وَنَرْجُـو بِـأَنْ نَجْتَـاحَ بَـاقِيَهُمْ بِـهِ   وتُحْـوى الأَسَـارِي مِـنْهُمُ، وَالغَنَـائِمُ[3]

ويختم قصيدته، ببيتين يوضّح فيهما أنْ جهادهم خالص لوجه الله تعالى، فهو يُعطي، ويحرم، ويعزّ ويذلّ، والعبرة بالنتيجة، والإنسان يعرف بخواتم أفعاله:

وَلَكنَّنَـا نَبْغِـي المَثُوبَـةَ جَهْـدَنَا   وَطَاقَتَنَـا، وَاللهُ مُعْـط، وَحَـارمُ
وَنَخْـتمُ بالحُسْـنَى الفَعَـالَ، وإنَّمَـا   تُـزَيِّنُ أَعْمَـالَ الرِّجَـال الخَـوَاتمُ[4]

ويمدح المهذَب بن الزبير الصالح بن رُزِّيْك بقصيدة طويلة، يصف فيها أسطوله، وانتصاره على اعدائه، سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة، ويدعوه فيها إلى الوحدة مع نور الدين، ويحثّه على التوجّه إلى بلاد الشّام أرض جدوده، لقتال الفرَنج الذين اغتصبوا هذه الديار، ويقول: (من الكامل)

---

1 ديوان أسامة بن منقذ، ص269. وديوان طلائع بن رزيك، ص(92 و99-100). وانظر الروضتين(115/1).

2 تفتر: تنقطع وتضعف.

3 الروضتين: (116/1). ديوان أسامة بن منقذ، ص269.

4 ديوان أسامة بن منقذ، ص269.

يَـا كَاسِـرَ الأَصـنَام قُـمْ فَـانْهَضْ بنَـا ... حَتَّـــى تَصـــيرَ مُكَسِّـــرَ الصُّـــلْبَان
فَالشَّـــامُ مُلْكُــكَ قَــدْ وَرِثْــتَ تُرَاثَــهُ ... عَــنْ قَوْمِــكَ الماضِــينَ مِــنْ غَسَّــان[1]
فَـــإِذَا شَـــكَكْتَ بِأَنَّهَـــا أَوْطَـــانُهُمْ ... قِــدَماً فَسَــلْ عَــنْ حَــارِثِ الجَــوْلان[2]
أَوْ رُمْــتَ أَنْ تَتْلُــو مَحاســنَ ذِكْــرِهِمْ ... فَاســـنِدْ رِوَايَتَهَـــا إِلـــى حَسَّـــانِ[3]

وكتب الملكُ الصالحُ إلى (أسامة بن منقذ) قصيدة يقول فيها: (من مجزوء الكامل)

فَـــانْهَضْ فَقَـــدْ أَنْبَـــأَتَ مَجْـــ ... ـدَ الـــدِّين بالحَـــال الجَليَّـــهْ
وَالمـــمْ بنُـــور الـــدِّين وَاعْـــ ... ـلمـــهُ بهَاتيـــكَ القَضـــيَّهْ
فَهُـــوَ الـــذي مَـــا زَالَ يَخْـــ ... ـــلُصُ منْـــهُ أَفْعَـــالٌ، وَنيَّـــهْ
وَيُبيـــدُ جَمْـــعَ الكُفْـــر بالـــ ... ــبيض الرِّقـــاق المَشْـــرَفيَّهْ
فعَسَـــاهُ يَـــنْهَضُ نَهْضَـــةً ... يُفْنـــي بهَـــا تلْـــكَ البقيَّـــهْ
إمَّـــا لنُصْـــرَة دينـــه ... أَوْ مُلْكِـــهِ أَوْ للْحَميَّـــهْ

ولعلّ ما كتبه الملك الصالح إلى أسامة بن منقذ مؤيّد الدّولة[4]، يصّور لنا النّخوة الدّينية والعزيمة الثابتة، والتصميم الأكيد على التضحية والفائدة والاستشهاد، ويسمعنا قرع طبول الجهاد، ويلح الحاحاً كبيراً على خوض المعارك والحروب في سبيل الله، ولا يرى أمراً أهم من أمر الجهاد الذي يحقق له الأجر والثواب في الدّنيا والأخرة، يقول: (من الخفيف)

أَيُّهَـا المُفْتـدى لأَنْـتَ عَلَـى البُعْـ ... ـد صَـديقٌ لَنَـا، ونعْـمَ الصَّـديقُ
لَـيْسَ فيمَـا تَأْتيـه مـنْ بـرٍّ أَفْعَـا ... لـكَ للطَّالـب الحقُـوق عُقُـوقُ
فَلهَـذَا نَـرَى مُوَاصَـلَةَ الكُتْـ ... ـب تبَاعـاً إِلَيْـكَ ممَّـا يَليـقُ
وَنُنَاجيـكَ بالمُهمَّـات إذْ أَنْـ ... ـتَ بإلقَائهَـا إلَيْـكَ خَليـقُ
وَأَهَـمُّ المُهـمِّ أَمْـرُ جهَـاد الـ ... ـكُفْر فَاسْـمَعْ فَعنْـدَنا التَّحْقيـقُ
مَـا لهَـذَا المُهـمِّ مثْلُـكَ مَجْـدَ الـدِّ ... يـن فَـانْهَضْ بـه فَأَنْـتَ حَقيـقُ! (م)

---

1 غسان، أي: الغساسنة الذين حكموا بلاد الشام.

2 حارث الجولان: اسم جبل عظيم في الجولان.

3 حسان: هو حصان بن ثابت الذي اشتهر بمدحه للغساسنة قبل الإسلام ولاسيما جَبَلَة بن الأيهم. الخريدة (قسم شعراء مصر) 210/1.

4 الروضتين (116/1). وديوان طلائع بن رزيك، ص108-109.

أَنْـــتَ في حَسْـــم دَاء طَاغيَـــة الكُـــ (م) ـــــفَّار ذَاكَ المَرْجُـــوُّ وَالمَرْمُـــوقُ
فَـــاغتَنِمْ بالجهَـــادِ أَجـــرَكَ كَـــيْ تَلْـــ ـــقَى رَفيقـــاً لَـــهُ وَنِعْـــمَ الرَّفِيـــقُ [1]

ويجيبه أُسامة بن منقذ بالحماسة نفسها، وكلّه ثورة عارمة تشتعل بكل عضو في جسدي، ويصرّ أصراراً عظيما على أن هذه الحرب هي حرب دينية بين الإسلام والكفر، ولا بدّ للإنسان أن يخوضها ولا يشغله عنها شاغل: (من الخفيف)

يَـا أَميـرَ الجُيُـوش، مَـا زَالَ للإسْـ لَامِ وَالـدِّين فيـكَ رُكْـنٌ وَثيـقُ
أَسْـمَعَتْ دَعْـوَةُ الجهَـاد، فَلَبَّـا هَـا مليـكٌ بالمكْرُمَـات خَليـقُ
مَلِـكٌ عَـادلٌ، أَنَـار بـه الدِّيـ ـنَ، فَعَـمَّ الإسـلَامَ منْـهُ الشُّـرُوقُ
مَالَـهُ عَـنْ جِهَـاده الكُفْـرَ وَالعَـدْ لِ وَفِعْـلِ الخَيْـرَاتِ شُـغْلٌ يَعُـوقُ [2]

ونجدُّ على شاكلة هذا النمط من الشعر -ونعني بذلك ما كان بين الملك الصالح، وأسامة بن منقذ مؤيد الدولة- الكثير، وكلّه ينبض بصدق العاطفة، والإحساس الصادق المرهف، وليس فيه مرية، ولا كذبٌ، ولا خداعٌ، وإنما يقوم على صفاء النّية، وصدق السريرة، ولاسيما إذا ما عرفنا أنَّ هدفهما واحد، هو الجهاد في سبيل الله، وتحرير البلاد من أيدي الصليبيين الغاصبين[3].

(4)

حقق المسلمون انتصارات كثيرة على الإفرنج، وتوالت الأفراح، وعمّت السعادة، وبدأت المدن تتساقط الواحدة تلو الأخرى، وبدأت أركان الحصون تتهاوى الحصن تلو الآخر، وأخذت الجيوش تقع فريسة بأيدي المسلمين ما بين قتيل، وأسير، وفارّ سيلحقه الموت أو عار الهزيمة، ولم يكنْ هدف للمسلمين اسمى من هدف الجهاد، وتحرير القدس أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وازدادت صيحات المسلمين، فها هو العماد الكاتب يدعو نور الدين ليخلّص (القدس) المغتصب وما حوله: (من الكامل)

---

1 الروضتين (116/1). وديوان أسامة بن منقذ، ص177-178. وديوان طلائع بن رزيك، ص81-81.

2 الروضتين (117/1). وديوان أسامة بن منقذ، ص231. والمعنى: ماله شغل يعوقه عن أنْ يجاهد الكفر.

3 انظر هذه القصائد في: الروضتين (117/1-120).

فَـانْهَضْ إلـى البَيْـت المُقَـدَّس غَازيـاً   وَعَلَــى طَــرَابُلُس، وَنَــابُلُس عُــج[1]
قَـدْ سِـرْتَ في الإسْـلَامِ أَحْسَـنَ سـيرَةٍ   مَــأْثُورَةٍ، وَسَــلَكْتَ أَوْضَــحَ مَــنْهَجِ[2]

ولم يسامح المسلمون الأمراء الذين يتخاذلون في الجهاد، ويقعدون عنه، مهما تكون الأسباب والأعذار، فهم يرون أنّ الأميرَ الذي يستطيع تحقيقَ انتصار لابدّ له أنْ يواصل القتال، ليحقق الأمن المسلمين، ووحدتهم مهما تكن النتائج، فالعماد الكاتب كتب إلى نور الدين، وقد ورده خبر استيلاء عسكره على مصر: (من البسيط)

لَمَّـا سَـمَحْتَ لأَهْـل الشَّـام بالخَشَـب   عَوَّضْـتَ مصْـرَ بمـا فيهَـا مـنَ النَّشَـب[3]
وإنْ بَـذَلْتَ لفَـتْح القُـدْس مُحْتَسِـباً   للأَجْـر جُوزيـتَ أَجْـراً غَيْـر مُحْتَسَـب
وَالأَجْــرُ في ذَاكَ عنْــدَ الله مُرْتَقَــبٌ   فيمــا يُثيــبُ عَلَيْــه خَيْــرُ مُرْتَقَــب
وَالـذِّكْرُ بـالخَيْر بَـيْنَ النَّـاس تَكْسَـبُهُ   خَيْـرٌ مـنَ الفضَّــة البَيْضَـاء، وَالـذَّهَب
وَلَسْـتَ تُعْـذَرُ في تَـرْك الجهَـاد، وَقَـدْ   أَصْـبَحْتَ تَمْلـكُ مـنْ مصْـر إلـىَ حَلَـب
فَالجــدُّ وَالجَــدُّ مَقْرُونَــان في قَــرَن   وَالحَـزْمُ في العَـزْم، وَالإدْرَاكُ بالطَّلَـب[4]
فَطَهِّــر المَسْـجدَ الأَقْصَــى وَحَوْزَتَــهُ   مـنَ النَّجَاسَـات، وَالإشْـرَاك، وَالصُّـلُب
عَسَــاكَ تَظْفَــرُ في الــدُّنْيَا بحُسْـنِ ثَنَـا   وَفي القِيَامَــةِ تَلْقَــى خَيْــرَ مُنْقَلَــبِ[5]

ولما دخلت جيوش نور الدين مصر، وبدأت شخصية صلاح الدين تتألق عسكرياً، ودينياً، ومحرراً، وأخذت الأشعار تتغنى بانتصاراته، والألفاظ تقصّر عن وصفه، فهو شخصية أثيرة عند كلّ مسلم، رأوا فيه الإنسان المخلّص للمسلمين، الجامع لكلمتهم، المحقق لوحدتهم، فأخذ الشعراء على عاتقهم أن يحركوا نخوة هذا

1 نابلس: مدينة مشهور بأرض فلسطين، بين جبلين (معجم البلدان 248/5).
2 الروضتين (150/1).
3 كان نور الدين قد أعفى أهل دمشق من المطالبة بالخشب حين ورده خبر استيلاء عسكره على مصر سنة أربع وستين وخمسمئة. والنَّشَب: المال، والعقار.
4 الجد الأول (بالكسر): الاجتهاد في الأمر، وضد الهزل. أما الثانية، فهي الحظّ. والقَرَن: الحَبْلُ يُقْرَنُ به البعيران وغيرُهما.
5 الروضتين (160/1).

القائد، ويجعلوا منه قائداً مجاهداً في سبيل الله محرّراً لمقدّساتهم، ويقول أحد الشعراء: (من مخلع البسيط)

يَـا مُخْجِـلَ البَحْـر بالأَيَـادي قَـدْ آنَ أَنْ تَفْـتَحَ السَّـوَاحِلْ

فَقَـدِّسِ القُـدْسَ مِـنْ خَبَـاثٍ أَرْجَـاسِ كُفْـرٍ هُـمُ أَرَاذِلْ[1]

وهذا العماد الكاتب يدعو صلاح الدين للجهاد، وقتال الإفرنج، لتخليص بيت المقدس من براثنهم: (من الطويل)

وَمَت يَرْتَوي الإسْلامُ حَتَّى تُغَادرُوا لَكُـمْ مـنْ دمَـاء الغَـادرينَ بهَـا غُـدْرَا

فَصُبُّوا عَلَى الإفْرنْج سَوْطَ عَذَابَهَا بأَنْ يَقْسمُوا مَا بَيْنَها القَتْلَ، وَالأَسْرَا

وَلَا تُهْمِلُوا البَيْتَ المُقَدَّسِ وَاعْزِمُوا عَلَى فَتْحِهِ غَازِينَ وَافْتَرِعُوا البِكْرَا[2]

ولما ملك يا نور الدين زنكي مصر سنة أربع وستين وخمسمئة، وأصبحت تحت سيطرته، وأخذ الشعراء يهلّلون فرحاً، ويشجعون القادة على الثأر من الصليبيين، ويطالبون بتطهير البلاد من الرجس والكفر، ويفرحون بالنصر، ويبكون من شدة الفرح، ويثورون على الظّلم، ويستنهضون الهمم، ويحركون النخوة، ويوثرون العزيمة، فالجهاد والغزو هما أساس النصر، هذا ما أخذ الشعراء يلحّون عليه في نظم أشعارهم، فها هو العماد الكاتب يمدح نور الدين ويهنئه بملك (مصر)، ويحثّه على الجهاد في سبيل الله، وكسر شوكة الصليبيين، واسترداد مدن المسلمين، وتطهير (القدس) من رجس المشركين: (من البسيط)

وَأَصْبَحَتْ بِكَ مصْرٌ بَعْدَ خِيفَتَهَا لِلأَمْنِ، وَالعِزِّ، وَالإِقْبَالِ كَالحَرَمِ

أَغْزُ الفَرَنْج فَهَذَا وَقْتُ غَزْوهمُ وَاحْطِمْ جُمُوعَهُمُ بالذَّابل الحَطِمِ[3]

1 الروضتين (179/1) وديوان العماد، ص326. وفيهما "أرجاس كفرٍ غُنُم أرذالْ" تحريفٌ لا يستقيم به الوزن" ولعلَّ الصّواب "هُمُ أراذل" كما أثبتّ؛ والغُنْم: من لا يفصحون في كلامهم. وقدِّس: طهّر.

2 الروضتين (179/1). وديوان العماد، ص161. والغُدْرُ في البيت الأول: جمع الغَدير من الماء، فجعله الشاعر للدماء.

3 الذابل: مفرد الذوابل، وهي الرماح، ويقال: "الرماح الذوابل" أي الدقيقة. والحطم: الذي يحطم ما يصيبه، أي يكسره.

وَطَهِّرِ القُدْسَ مِنْ رِجْسِ الصَّليبِ وَثِبْ عَلَى البُغاثِ، وَثُوبَ الأَجْدَلِ القَطِمِ[1]

وردت أخبار بخروج ملك الإفرنج من (غزّة) باتجاه (مصر) سنة ست وستين وخمسمئة، وحين عليم بذلك صلاح الدين وجه جيوشه، فاحدقت بجيوش الإفرنج، وخاضت المعارك الشرسة، حتّى تمكنت من إحراز النّصر، وفتحت "غزة" من عدة جوانب، فذهب عُمارة اليمني يتغنّى بهذا النصر العظيم، ويمدح صلاح الدين، ويرى فيه الشخصية الفذة التي ستحقق النصر الكامل للمسلمين فأخذ يثير نخوته، ويحرّك عواطفه وأحاسيسه من خلال تذكيره بالجهاد، وانتظار بيت المقدس للقياه: (من الطويل)

غَزَوْا عُقْرَ دَار المُشْركينَ بغَزّ جهاداً، وَطَرْفُ الشِّرك خَزْيَانُ مُطْرقُ[2]

وَأَخْرَبْتَ منْ أَعْمَالهمْ كُلَّ عَامر يَمُرُّ به طَيْفُ الخَيَال فَيَفْرَقُ

أَضَفْتَ إلى أجْر الجهَاد زيَارَةَ الـ ـخَليل فَأَبْشرْ أَنْتَ غَاز مُوَفَّقُ

وَهَيَّجْتَ للبَيْت المُقَدَّس لَوْعَةً يَطُولُ بهَا منْهُ إلَيْكَ التَّشَوُّقُ

وتَنَشَّقَ منْ مَلْقَاكَ أَعْظَمَ نَفْحَة تطيبُ عَلَى قَلْب الهُدَى حينَ تُنْشَقُ

هُوَ البَيْتُ إنْ تَفْتَحْهُ، وَاللهُ فَاعلٌ فَما بَعْدَهُ بَابٌ منَ الشَّامِ مُغْلَقُ[3]

ولا شكّ أنَّ دغدغة عواطف القواد من ناحية دينية، يجعل منهم القيادة الصالحة التي تتمنّى أنْ تكون هي الأثيرة، والشعبية، والمحبوبة بين الناس، ولهذا وجدنا صلاح الدين الأيوبي يحرص كل الحرص على استرداد بيت المقدس مهما تكن التضحيات، فارتبط تحرير بيت المقدس بشخصيته تلك.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إنه بمجرد أنْ يذكر بيت المقدس يتبادر إلى الأذهان شخصيتان إسلاميتان كان لا مثيل لهما في وقتنا المعاصر، هما: عمر بن الخطاب (رضي

---

1 الروضتين (175/1). وديوان العماد، ص381-382. والبُغاث: كل مالا يصيد من الطير، والأجدل: الصقر، والقطم: الغضبان.

2 أي بنو أيوب.

3 الروضتين 193/1.

الله عنـه)، وصـلاح الـدين الأيـوبي. وأن نفوسـنا تهفـو إلـى التطلـع إلـى شخصـية أثيـرة معاصرة، نبتهل إلى الله تعالى أنْ يكرمنا بها لتحرير الأرض وتعيد المجد من جديد.

ونَزَلَ صلاح الدين على (الكرك) و(الشوبك)[1] وغيرهما من الحصون سنة ثمان وستين وخمسمئة، وجرى بينه وبين الفَرَنج وقعات عديدة، وحاصر مناطق أخرى كثيـرة، وأبـلَ بـلاء حسـناً، وأوقـع الجـراح في صـفوف الأعـداء، وشـتت جمعهـم وشـملهم، وسـبى نساءهم، وقتل قوّادهم، وأسر أبطالهم وغنم أعلاقهم، فتغنى الشعراء بهذا النصر المؤزر، ورأوه بداية طريق لنصر آخر وآخر، فأخذوا يستعطفونه ليحرّكوا مشاعره، ويستنهضـون ليسـتدّروا عطفـه، ويطالبونـه يبـذل الغـالي والنفـيس لتحريـر بـلاد المسـلمين التـي تستصرخه، فهذا العماد الكاتب يحثّ الملك العادل على القتال ويثيـر مشاعره الدينيـة، ويزيّن له الجهاد بأنه أحسن، وأحلى الأماني عند الإنسان المؤمن: (من الكامل)

يَا غَالِبَ الغُلْبِ المُلُوك، وَصَائِدَ الـ ـصِّيد اللّيُوث، وَفَارِسَ الفُرْسَان!

أَحْلَى أَمَانِيكَ الجِهَادُ، وَإِنَّهُ لَكَ مُؤْذِنٌ أَبَداً بِكُلِّ أَمَان

كَمْ بِكْرِ فَتْحٍ وَلَّدَتْهُ ظُبَاكَ مِنْ حَرْبٍ لِقَمْعِ المُشْرِكِينَ عَوَان

كَمْ وَقْعَةٍ لَكَ بِالفَرَنْجِ حَدِيثُهَا قَدْ سَارَ فِي الآفَاقِ، وَالبُلْدَان

أَصْبَحْتَ لِلإِسْلاَم رُكْناً ثَابِتاً وَالكُفْرُ مِنْكَ مُضَعْضَعُ الأَرْكَان

قَوَّضْتَ آسَاسَ الضَّلاَل بِعَزْمِكَ الـ ـمَاضِي وَشَدْتَ مَبَانِيَ الإِيمَان

قُلْ: أَيْنَ مِثْلُكَ فِي المُلُوكِ مُجَاهِدٌ للهِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلاَنَ؟

دَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا فَقَاصِيهَا إِذَا حَقَّقْتَهُ لِنَفَاذِ أَمْرِكَ دَان

فَمِنَ العِرَاقِ إِلَى الشَّآمِ إِلَى ذُرَى مِصْرَ إِلَى قُوصٍ إِلَى أُسْوَان[2]

لَمْ تَلْهُ عَنْ بَاقِي البِلاَد، وَإِنَّمَا أَلْهَاكَ فَرْضُ الغَزْوِ عَنْ هَمَذَان[3]

لِلرُّومِ وَالإِفْرِنْجِ مِنْكَ مَصَائِبٌ بِالتُّرْكِ، وَالأَكْرَادِ، وَالعُرْبَانِ[4]

---

1 الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان، وأيلة، والقلزم قرب الكرك. (معجم البلدان 370/3).

2 قوص: مدينة كبيرة واسعة، قصبة صعيد مصر. (معجم البلدان 413/4).

3 انظر: كتابنا هذا، ص15

4 الروضتين (208/1). والخريدة، قسم شعراء الشام، ص56-60. وديوان العماد، ص410-417.

ونلاحظ أنَّ غرض الحضِّ على الجهاد، واستنهاض الهمم لا يكون بقصيده منفردة بذاتها، فلا بدّ من وجود مقدمة لهذا الغرض، كأن يمدح الشاعر ممدوح بانتصارات حققها، أو أنْ يُصف إنجازات قام بها، ومن ثم يرفع شأن ممدوحه، تمهيداً لحثّه على القتال والجهاد، وغالباً ما يستخدم الشاعر المعاني الدينية، ويوظّف الألفاظ المؤثرة، ولاسيما إذا ما عرف الممدوح بتقواه وحبه للجهاد، وإخلاصه للإسلام والمسلمين.

ويروي لنا العماد الكاتب عن نور الدين زنكي وحبه للجهاد، أنَّه حين نلتقي به في سنة ثمان وستين وخمسمئة بدمشق، أخذا يتحدّثان عن طيب دمشق، وحسن آلائها، وصفاء سمائها، وعذوبة أنهارها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وأزهار أرضها، ونقاء سريرة أهلها، فقال نور الدين: "إن حبّ الجهاد يسليني عن دمشق، فما أرغب فيها".

فقال العماد الكاتب "فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت": (من مجزوء الرّمل)

لَيْسَ في الدُّنْيَا جميعاً	بَلْدَةٌ مثْلُ دمشْق
وَيسلّيني عَنْهَا	في سَبيل الله عشْقي
وَالتُّقَى الأَصْلُ وَمَنْ يَتْـ	ـرُكُهَا يَشْقَى، وَيُشْقي
كَمْ رَشيق شَاغل عَنْـ	ـهُ بسَهْم الغَزْو رَشْقي
وَامْتِشَاقُ البِيضِ يُغْنِي	عَنْهُ بِالأَقْلَامِ مَشْقِي[1]

حقّاً، إنّها معان سامية رفيعة، تمثل وجهة نظر نور الدين، وما عماد الكاتب إلّا أحد الجنود والقوّاد، تأثر بقول نور الدين، فكما حركته هذه الكلمات، وهزّت مشاعره، فعبر عنها بهذه الأبيات، فإنها لابدّ أن تحرك غيره من القواد، على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله بإيمان راسخ، وعزيمة ثابتة قوية، ونفوس راضية مطمئنة، راغبة عن مباهج الدّنيا وزينتها.

ولم يتوان نور الدين لحظة واحدة في المضي للجهاد، ولم يتخاذل عن الغزو في سبيل الله، ولم يتراجع أمام عدوّ خشية الموت، فالجهاد هدفه الأسمى، والغزو رصيده في هذه الدنيا، واستشهاده هو تخليده في الدارين، وكان كلّ ذلك شغله الشاغل، ولا يغيب عن

1 الروضتين (207/1). والخريدة، شعراء الشام، ص17-18. وديوان العماد، ص314.

ذاكرته أبداً، مستعداً في كلّ لحظة، ولا يثنيه عن عزيمته خوف او رعب، ولا يحطّ من نهضته تعب أو كلل، فها هو يسأل العماد الكاتب أنْ يعمل أبياتاً في معنى الجهاد على لسانه، فينظم العماد قائلاً[1]:

لِلْغَــزْوِ نَشَــاطي، وَإِلَيْــه طَرَبــي ... مَــالي في العَــيش غَيْــرَهُ مــنْ أَرَب
بالجِــدِّ وَبالجِهَــادِ نُجْــحُ الطَّلَــبِ ... وَالرَّاحَــةُ مُسْــتَوْدَعَةٌ في التَّعَــبِ[2]

ثم قال:

لاَ رَاحَــةً في العَــيْش سـوَى أَنْ أَغْـزُو ... سَــيْفي طَرَبــاً إلــى الطَّلــى يَهْتَــزُّ
في ذُلِّ ذَوي الكُفْــرِ يَكُــونُ العِــزُّ ... وَالقُــدْرَةُ في غَيْــرِ جِهَــادٍ عَجْــزُ[3]

ثم قال:

أَقْسَـمْتُ سـوَى الجهَـاد مَـالي أَرَبُ ... وَالرَّاحَــةُ في ســوَاهُ عنْــدي تَعَــبُ
إلَّا بِالجِــدِّ لاَ يُنَــالُ الطَّلَــبُ ... وَالعَــيْشُ بِــلَا جِــدٍّ جِهَــادٍ لَعِــبُ[4]

فهذه أبيات حكم، تمثل رأي القائد الأعلى للجيش، وأخذت تسري في نفوس المقاتلين، وتحثّهم على التضحية والاستشهاد في سبيل الله.

ومن الشعراء الفحول في هذا العصر عُمارة اليمني الذي استطاع أنْ يحقق ذاته بشاعريته الفذّة، ممّا جعل من هو الشخصية الأثيرة عند الملوك والقواد وعامة الناس.

ويروى أنه سنة ثمان وستين وخمسمئة ورد إلى (مصر)، ومدح أصحابها، وانتظم في سلك شمس الدولة، وكان هذا الشاعر من أهل اليمن، إذا خلا بالملك شمس الدولة أخذ يصف له تلك البلاد، وكثرة أموالها وخيرها وضعف ما فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، وخير من يحقق هذه الأماني شمس الدولة، يقول: (من البسيط)

العلْمُ -مُذْ كَانَ- مُحْتَاجٌ إلى العَلَم ... وَشَفْرَةُ السَّيْف تَسْتَغْني عَن القَلَمِ[5]
كَمْ تُتْرَكُ البيضُ في الأَجفان ظَامِئَةً ... إلَـىَ المَـوَارد في الأَعْنَـاق وَالقمَـمَ

---

1 وهذه الأبيات من الدوبيات. والدوبيت: لفظة فارسية معناها: البيتان. وهذه الدوبيات في: ديوان العماد، ص76-77.

2 الروضتين (207/1). والخريدة، شعراء الشام، ص17-18. والجدّ(بكسر الجيم).

3 الروضتين (207/1). والخريدة، قسم شعراء الشام، ص42-43.

4 المصدران السابقان.

5 العلم: الرَّاية، كنى بها عن القوّة.

أَمَامَكَ الفَتْحُ مِنْ شَام، وَمَنْ يَمن فَلَا تَرُدَّ رُؤوسَ الخَيْلِ بِاللُّجُم
فَعَمُّكَ الملكُ المنْصُورُ سَوَّمَهَا مِنَ الفُرَات إلى مصْر بِلاَ سَأَم
فاخْلقْ لِنَفْسِكَ مُلْكاً لاَ تُضَافُ بِهِ إلى سِوَاكَ، وأَوْرِ النَّارَ في العَلَمِ[1]

ووفد في العام نفسه الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بابن الريحاني، من أهل مكة، إلى الشام لقصد الملك العادل نور الدين زنكي، فكتب له يمدحه ويحثه على تخليص بلاد المسلمين من الفساد والظلم، يقول: (من البسيط)

يَا أَوْحداً عَظَّمَتْهُ العُرْبُ وَالعَجَمُ وَوَاحِداً وَهْوَ أَثْوَابه أَمَمُ
إنَّا قَصَدْنَاكَ وَالأَقْطَارُ مُظْلِمَةٌ وَالبدْرُ يُرْجَى إذَا مَا التجَّت الظُّلَمُ
سِرنَا إلَيْكَ منَ البيْت الحَرَام وَلَمْ نَعْدُ المَقَامَ بِه إذْ بَيْتُكَ الحَرَمُ[2]

ويشارك سبط ابن التعاويذي الشعراء في استنهاض همة القائد صلاح الدين، ويطلب منه إعداد العدة لغارة يغير بها على بلاد الروم، ويعتقد الشاعر أنَّه من واجب القائد أنْ يَغزو قبل أن يُغزى، وعليه أنْ يَرمي قبل أنْ يُرمى، ويرى أنَّ القوة، وعدم الضّعف، والجرأة من أسباب النصر، ويقول: (من الكامل)

فَاصْبحْ بِلاَدَ الرُّوم منْكَ بغَارة للنَّصْر فيهَا رَائدٌ لاَ يَكْذبُ
وَانْكحْ صَوَارمَكَ الثُّغُورَ يَزُورُهَا في كُلِّ يَوْم منْ جُيُوشكَ مقْنَبُ[3]
وَاحْسمْ بحَدِّ ظُبَاكَ دَاءً حَسْمُهُ وَدَواؤُهُ بَعْدَ التَّفَاقُم يَصْعُبُ
حَتَّى يُرَى للْمَشْرَفِيّ مَطْعَمٌ بالفَتْك منْ تلْكَ الدِّمَاء، وَمَشْرَبُ
فَالْعَدْلُ لَيْش بنَاجع أَوْ تَنْثَني وَغرارُ نَصْلكَ بالنَّجيع مُخَضَّبُ[4]
لاَ تَعْفُوَنَّ إذَا ظَفِرْتَ بِمُجْرِمٍ منْهُمْ فَرُبَّ جَرِيمَةٍ لاَ تُوهَبُ[5]

ويدعو عماد الكاتب صلاح الدين الأيوبي لمّا كان بالقرب من دمشق سنة سبعين وخمسمئة لاسترداد بيت المقدس، وتطهيره من براثن الشرك: (من المتقارب)

---

1 الروضتين 1/217.

2 الخريدة 3/44.

3 المقنب: مفرد القانب، وهي جماعة من الخيل تجتمع للغارة.

4 الغرار (بالكسر): حدّ السيف.

5 ديوان سبط ابن التعاويذيّ، ص25.

وَيَـــوْمُ الفَـــرَنج إذَا مـــا لَقُـــوكَ عَبُـــوسٌ بـــرَغْمهمْ قَمْطَريـــرُ[1]
نُهوضـاً إلـى القُـدْس يَشْـفي العَلَيـلَ بفَـــتْح الفُتُـــوح وَمَـــاذَا يعيـــرُ؟[2]
سَـــلِ اللهَ تَسْـــهيلَ صَـــعْبِ الخُطُـــو بِ فَهْـــوُ عَلَـــى كُـــلِّ شَـــيءٍ قَـــديرُ[3]

سئل العماد الكاتب في العام نفسه أنْ ينظم مرثية في نور الدّين، وقد ضمنها بعض الأمور التي وعد بها نور الدين، ولكن الأجلَ وافاه قبل تحقيق ذلك، ولعلّ هذه الأبيات بمثابة وصيّة لخلفه صلاح الدين، وأحب الشاعر أنْ يذّكر بهذه الوصية، حتّى يقوم الموصى إليه بتحقيقها، وتنفيذها، ويقول: (من الكامل)

أَو مَـا وَعَـدْتَ القُـدْسَ أَنَّـكَ مُنْجـزٌ ميعَـــادَهُ في فَتْحـــه وَظُهُـــوره؟
فَمَتى تجيرُ القُدْسَ منْ دَنس العدَا وَتُقَـدِّسُ الـرَّحمَنَ في تَطْهيـره؟
مـنْ للْفـرَنْج وَمَـنْ لأَسْـر مُلُوكهَـا مَـنْ للْهُـدَى يَبْغـي فكَـاكَ أَسـيره؟
مَـنْ للْخُطُـوذ مُـذَلِّلاً لجماحهَـا مَـنْ للزَّمـان مُسَـهِّلاً لوُعُـوره؟
مَـنْ للمَسَـاجد والمَـدَارس بَانيـاً لله طَوْعـاً عَـنْ خُلُـوص ضَـميره؟
مَـنْ يَنْصـرِ الإسْـلاَمَ فِـي غَزَوَاتـهِ فَلَقَـدْ أُصِـيبَ بَرُكْنِـهِ وَظَهِيـرِهِ؟[4]

ولم يتأخر العماد الكاتب عن المشاركة في تهنئة صلاح الدين حين انتصر على عسكر (حلب) و(الموصل) (بتل السلطان)[5] (وهو من أعمال حلب) سنة إحدى وسبعين، وخمسمئة، فنظم قصيدة طويلة، تناول فيها موضوعات عديدة، نقتطف منها ما يخدم دراستنا في استنهاض الهمم، والحثّ على القتال، ويقول: (من الكامل)

وَكَـأَنَّني بالسَّـاحل الأَقْصَـى، وَقَـدْ سَـاحَتْ ببحْـر دَم الفرنجَـة سَـاحُهُ
فَاعْبُرْ إلى القَوْم الفُرَاتَ ليَشْرَبُوا الـ ـمَوْتَ الأُجَـاجَ فَقَـدْ طَمَـا طَفَّاحُـهُ[6]
لتَفُـكَّ مـنْ أَيْـديهمُ رَهْـنَ الرُّهَـا عَجـلاً، وَيُـدْركَ لَيْلَهَـا إصْـبَاحُهُ[7]

---

1 القمطرير: الشديد من الأيام او من الشرّ.

2 ورد في الأصل: "وماذا غير" ولعل الذي أثبتناه هو الصواب لاستقامة المعنى والوزن.

3 الروضتين 1/247. وديوان العماد، ص194.

4 الروضتين (244/1). وديوان العماد، ص213.

5 موضع بين دمشق وحلب، يعرف بالفُنَيْدق، كانت فيه وقعة صلاح الدين وسيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل سنة 571 في عاشر من شوال (معجم البلدان 42/2).

6 الأجاج: المر.

7 الرُّها: مدينة بالجزيرة كانت أحد مواطن الثقافة الهيلينية قبل الإسلام.

وَابغـوا لحـرَّانَ الخَـلَاصَ فَكَـمْ بهَـا ... حَـرَّانُ قَلْـب نَحْـوكُمْ مُلْتَاحُـهُ[1]
نَجُّـوا الـبلادَ مـن الـبلاء بعَـدْلكمْ ... فَـالظُّلْمُ بَـادٍ في الجَميـع صُـرَاحُهُ[2]
وَاسـتنَفْتحُوا مَـا كَـانَ مـنْ مسْـتَغْلق ... فيهَـا فَـرَبُّكُمُ لَكُـمْ فَتَّاحُـهُ
قُولُـوا لأَهْـل الـدِّين قَـرُّوا أَعْيُنـاً ... فَلَقَـدْ أَقَـامَ عَمُـودَهُ سَـفَّاحُهُ[3]
بُشْـرَايَ فَالإِسْـلَامُ مـنْ سُـلْطَانِهِ ... جَـذِلُ الفُـؤَادِ بَنَصْـرِهِ مُرْتَاحُـهُ[4]

ويحدثنا العماد الكاتب عن صلاح الدين، حين كانا بالقاهرة في شهر رمضان سنة اثنين وسبعين وخمسمئة أنه كان: "متوفراً في ليله ونهاره على نشر العدل وانتشاره، وإفاضة الجود وإغزاره، وسماع احاديث الرسول (ﷺ) وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإفناء أعلام الباطل وإنكاره"[5]، ولمّا لمس العماد الكاتب هذا من صلاح الدين رأى فيه الإنسان المخلّص للأراضي المقدّسة من طغيان الكفر والشرك، فنظم فيه أبياتاً قال فيها: (من المتقارب)

وَيُوسُـفُ مصْـر بغيـر التُّقـى ... وَبَـذْل الصَّـنائع لَـمْ يُوصَـف
فَسـرْ وَافْـتَح القُـدْسَ، وَاسُـفُكْ بـه ... دمَـاءً مَتَـى تُجْرهَـا يَنْظُـف
وَخَلِّـصْ مِـنْ الكُفْـرِ تِلْـكَ الـبِلَادَ ... يُخَلِّصُـكَ اللهُ في المَوْقِـفِ[6]

في حين نجد الشاتاني شاعر الموصل يفتتح قصيدته الطويلة التي مدح فيها صلاح الدين، ويحثه على الغزو والجهاد في سبيل الله، وبقوله: (من الطويل)

غَـدَا النَّصْـرُ مَعْقُـوداً بِرَايَتِـكَ الصَّـفْرَا ... فَسِـرْ وَافْـتَحِ الـدُّنْيَا فَأَنْـتَ بِهَـا أَحْـرى[7]

---

1 حران: مدينة عظيمة مشهورة من الجزيرة الفراتية، وهي على طريق الموصل والشام والروم. وكانت المسيحية تغلب على الرها، والوثنية تغلب على حران وأهلها المعروفين باسم الصابئة. (معجم البلدان 235/2). وملتاحه: من لاحه العطش: غيّره.

2 الصراح: الخالص من كلّ شيء.

3 السفاح: السفاك للدماء.

4 الخريدة(قسم شعراء مصر)1 /20-21. وديوان عماد، ص111-112.

5 الروضتين (269/1).

6 المصدر السابق نفسه. وانظر الخريدة(قسم شعراء مصر) 17/1.

7 الروضتين (271/1). يبدو انه راية جيش صلاح الدين كانت صفراء، وهذا واضح من البيت، ولحسن الحظ، أنه وقع تحت يدي لشاعر آخر بيت، يشير إلى لون راية جيوش صلاح الدين، يقول:

وما رجعت أعلامُك الصفر ساعة ... إلى أنْ غَدَتْ أكبادُها السّودُ ترجفُ

ويقول العماد الكاتب: "وكانت أعلام السلطان صفراء". الروضتين (271/1). وانظر مزيداً من الشواهد: الروضتين 12/2و116و119.

وقد استطاع الشاعر في هذه المطلع أنْ يعبّر عن مقدرته على توصيل فكرته للممدوح، وهذا ما يسمّيه رجال البلاغة (براعة الاستهلال)، ويندرج (حسن الاستهلال)، أو (براعة المطلع) -غالباً- على هذا النمط من الأشعار.

وقد رأى الشعراء في سقوط الفرَنج القريب من (بانياس)[1] سنة خمس وسبعين وخمسمئة تفاؤلاً بسقوط ما تبقَّى من الحصون القوية للصليبيين، بل القضاء على آخر معقل لهم، وذهبوا إلى أكثر من ذلك، وهو أنهم رأوا في هذا النصر، فاتحة خير بإعلاء كلمة الحقّ، وإزهاق الباطل، وتكسير آخر صليب لهم، ومسح كلّ ما يدلّ على وجود الشرك ببلاد المسلمين، وفي ذلك يقول الشاعر النَّشْو بن نقاذة: (من المتقارب)

هَلَاكُ الفرَنْج أَتَى عَاجلاً ... وَقَدْ آنَ تَكْسِيرُ صُلْبَانهَا

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ دَنَا حَتْفُهَا ... لَمَا عَمَّرتْ بَيْتَ أَحْزَانهَا[2]

ويقول الشاعر عليّ بن محمد الساعاتي الدمشقي: (من الطويل)

أَتَسْكُنُ أَوْطَانَ النَّبِيِّينَ عُصْبَةٌ ... تَمِينُ لَدَى أَيْمَانهَا، وَهْيَ تَحْلفُ؟[3]

نَصَحْتكُمْ وَالنُّصْحُ لِلدِّينِ وَاجِبٌ ... ذَرُوا بَيْتَ يَعْقُوبٍ فَقَدْ جَاءَ يُوسُفُ؟[4]

وهذا شاعر آخر يمدح صلاح الدين، ويتغنّى بانتصاراته المتتالية، ويحثّه على مواصلة القتال دون كلل أو ملل: (من الطويل)

وَقَدْ عَرَفَ الإِفْرَنْجُ بَأْسَكَ في الوَغَى ... وَجرَّعْتَهمْ منْهُ أَمرَّ منَ الصَّبْر

فَلَا تَرْضَ منْهُمْ بَعْدَهَا بَذْلَ طَاعَة ... فَمَا خُلقُوا إِلَّا عَلَى شيمة الغَدْر

فَسرْ وَامْلك الأَرْضَ التي لَوْ تَرَكْتَهَا ... لأَغْضَتْ عُيُونُ المَجْد منْهَا عَلَى أَمْر

فَأَنْتَ الذي أَصْبَحْتَ بِالبَأْسِ، وَالتُّقَى ... وَبَذْلِ اللُّهى عَالِي السَّنَا، عَطِرَ الذِّكْرِ[5]

---

1 بانياس: بلدة في سورية، قرب نبع الأردن على سفح جبل الشيخ.

2 الكامل في التاريخ (457/11). وانظر الروضتين (11/2). وفيه: (النشوة بن نقادة)، وأرادَ بـ(بيت أحزانها) الحصنَ الذي بناه الفرنج عند بانياس، ويعرف بـ(مخاضة الأحزان). انظر ما سيأتي، ص124.

3 المين: الكذب.

4 الكامل في التاريخ (458/11). والروضتين (12/2). ويعقوب والد يوسف النبي عليهما السلام. وورّي بـ(يوسف) عن صلاح الدين؛ لأن اسمه يوسف.

5 الروضتين (12/2-13). واللُّهى: العطايا، تقول: ألهى الرجل: أعطى اللُّهى، أيَ: أفضل العطايا، وأجزلها.

وحين توجّه الدين الدّين الأيوبي -صاحب الشخصية الأثيرة عند الشعراء- إلى بلاد الشام سنة ثمان وسبعين وخمسمئة للإغارة على الإفرنج، وتوالت أخبار فتح المسلمين حصون الصليبيين، وقلاعهم وفرح المسلمون بذاك القدوم، وبهذا الفتح، وبتلك الحصون.

فلما حقّق صلاح الدّين انتصاراته، سار إلى حلب فحاصرها، وأَخَذَ يعدّ العدّة، بإيمان ثابت، وعزيمة قويمة راسخة، لا يعرف الكلل والملل، وكان هذا الموقف مثيراً للشعراء، يدغدغ أحاسيسهم، ويلهب عواطفهم، ويحرّك مشاعرهم، فهذا أبو الحسن بن السّاعاتي يمدح صلاح الدّين ملك الملوك، ويحضه على الجهاد، ويستنهضه لدخول حلب، يقول: (من البسيط)

مَا بَعْدَ لُقْيَاكَ لِلْعَافِينَ مِنْ أَمَلِ ... مَلْكُ المُلُوك وَهَذي دَوْلَةُ الدُّوَلِ

فَانْهَضْ إلى حَلَبٍ في كُلِّ سَابِقَةٍ ... سُرُوجُهَا قُلَلٌ تُغْنِي عَنِ القُلَلِ[1]

وهذا أبو الفضل بن حميد الحلبيّ يحرّض صلاح الدين على فتح حلب، يقول: (من الخفيف)

يَابْنَ أَيوب لا بَرحْتَ مَدَى الدَّ (م) ... هْرِ رَفيعَ المَكَانِ وَالسُّلْطَات

حَلَبُ الشَّامِ نَحْوَ مرْآكَ وَلْهَى ... وَلَهَ الصَّبِّ رِيعَ بالهِجْرَانِ[2]

وأمّا الشاعر ابن سعدان الحلبي فقد أخذ يحثّه على الفتح، ويصف له حسن المدينة وفضلها وجمال قبابها وروعتها، ويزيّن له ما جمعت هذه المدينة من أنواع المنافع، وأشتات المرافق،يقول:(من الرجز)

دُونَكَ وَالحَسْنَاءُ مِنْ أَمِّ القُرَى ... وَنَارُهَا الأَشْهَبُ وَالطَّوْدُ الأَشَمّ[3]

وَارْكَبْ إلى العَلْيَاء كُلَّ صَعْبَة ... أَبَيْتَ لَعْناً وَخَلاَكَ كُلُّ ذَمْ

1 الروضتين (43/2). وديوان ابن الساعاتي، ص 382-383. والسابقة: السريعة من الأفراس، والقُلَلْ: رؤوس الأشياء وأعاليها، فأراد الشاعر أنّ ظهور الخيل هي الحصون التي تغني عن رؤوس الجبال.

2 الروضتين (44/2). ولهى: متحيرة من شدّة الوجد.والصبّ: العاشق. ورِيعَ: ذُعِرَ.

3 في الأصل: (دونك والحسناء أم القرى) ولا يستقيم الوزن بذلك، ولعل الصّواب ما أثبت. وأم القرى: يريد بها حلب.

وَارْم فَكُـلَّ الصَّـيْد في جَـوْف الفَـرَا لا صَـارمَ السَّـهْم، وَلَا نَـابي الحكَـمْ[1]
فَيَـا لهَـا شَـمَّاءَ مُشْـمَخرَّةً تُطَـارحُ البَـرْقَ، وَسَـاحَات الـدِّيَمْ[2]
إيـه! صَـلَاح الـدِّين شُـدَّ أَزْرَهَـا وَاعْـزِمْ عَلَيْهَـا فَالزَّمَـانُ قَـدْ عَـزَمْ[3]
وَدُونَـكَ المَنْـعَ مِـنْ قِبَابِهَـا وَبَابَهَـا المُغْلَـقَ فِـي وَجْـهَ الأُمَـمْ[4]

وقد سَطّر المؤرخون أبناء الفتوحات الواحد تلو الآخر، وأخبار الانتصارات، وأصبح صلاح الدين السلطان الملك الناصر، والعالم العادل، وفاتح الفتوح، ومحقق الانتصار، الشخصيةَ الأثيرة الأسطورية لديهم، وإذا ما عرفنا عن هذا القائد النقيّ أنه كان فقيهاً، ويقال: إنّه كان يحفظ (القرآن)، و(التنبيه) في الفقه، و(الحماسة) في الشعر[5]، فلا عجب أنْ يراه الفقهاء أيضاً الشخصية التي ستحقق النصر للمسلمين؛ لأنه جمع شمل المسلمين، وأعلى كلمتهم، ووحد الدّيار، وغزا الفرنج، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.

ويقول أبو شامة: كان الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعي الحلبي، قد وقع إليه تفسير القرآن لأبي الحكم المغربي، فوجد فيه عند قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الآية أنَّ أبا الحكم قال: إنَّ الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح بيت المقدس ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه، فلما فتح السلطان حلب سنة تسع وسبعين وخمسمئة -كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح بيت المقدس، على يديه، ويعيّن فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلمّا وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وحدّث بما في الورقة لمحيي الدين بن زكي القاضي الدمشقي، وكان ابن

1 ضمّن المثل المعروف: "كل الصّيد في جوف الفراء" والفرا: الحمار الوحشي، انظر: الحيوان (335/1). والميداني (136/2). والمستقصي، ص267. وجمهرة الأمثال (162/2). وفي الأصل "القرى" تصحيف. ولا: نافية للجنس، وصارم اسمها وخبرها محذوف تقديره مفتقد، والجملة الأخرى كذلك، وتقدير خبرها(غائب).

2 الديم: جمع الديمة: مطريدومُ في سكون بلا رعد، ولا برق.

3 إيه(بكسر الهاء): اسم فعل للاستزادة من حديث أو فعل.

4 الروضتين (44/2).

5 طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (340/7).

زكي الدين واثقاً بعقل ابن جهبل، وأنه لا يقدم على هذا القول حتّى يحقّقه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر، وقال فيها: (من البسيط)

وَفـتْحُكُمْ حَلَبـاً بِالسَّـيْفِ فِـي صَـفَرٍ   قَضَـى لَكُـمْ بِافْتِتَـاحِ القُـدْسِ فِي رَجَـبِ[1]

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته[2]. وبالفعل تمّ فتح بيت المقدس في العام نفسه.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمور عدّة تتعلق بهذا الخبر:

1 - إنَّ أبا شامة مؤرخ معروف وثّق روايته بالسند، وذكر ما كتب من تفسير لهذه الآية.

2 - قد تكون هذه الرؤيا صادفت الواقع من قبيل المصادفة لا العلم بالغيب.

3 - إنّ ذكر هذه القصّة يدّل على إيمان رجال العصر -حينذاك- بمثل هذه الرؤيا[3].

4 - إنَّ مثل هذه الرواية تبقى جزءاً أن لا يتجزأ من العوامل المحيطة بأخبار فتح بيت المقدس.

5 - وسنكون منصفين في حقّ هذا الخبر، ونقول: إنه من قبيل المصادفة، وعلى سبيل التَّوَقُّع، ومن باب الأمل، والتطلع بقلوب مؤمنة متضرعة إلى الله (عَزَّ وَجَلَّ) أنْ يحقق ذلك على يدّ هذا القائد الفاتح الذي حقّق الكثير، ومن ثمّ فإن إبلاغ الخبر لصلاح الدّين الأيوبي، صاحب الشأن يعني الكثير من وجهة نظرنا، ولاسيما ونحن ندرس موضوع استنهاض الهمم، والحضّ على القتال، فالخبر يُعَدُّ حافزاً أساسياً له، ومحركاً لمشاعره الدينية، ومثيراً لنخوته؛ لأنه صدر عن مجموعة من الفقهاء الذين يرون فيه الإنسان المخلّص لبيت المقدس، وبهذا يكون مساوياً لأشعار وخطب الحثّ على القتال والجهاد في سبيل الله.

ويتطلع العماد الكاتب من خلال حثّ صلاح الدين على فتح القدس إلى الحصول على جارية من سبايا الفرنج فيها، كما حصل على جارية من سبي الأسطول المنصور، ويقول: (من السريع)

1 وهناك رواية: "مبشر بفتوح القدس في رجب" الروضتين (46/2).

2 المصدر السابق نفسه. وانظر ما ذكره أبو الحكم في تفسيره لهذه الآية: الروضتين2 /112-113.

3 انظر ما ذكره صاحب الروضتين (2/ 72-73) عن إيمان الناس بالمنجمين، وخاصة حين حكموا بخراب العالم. وانظر كذلك رؤيا أخرى رواها أبو الحسن السخاوي عن أبي الفضائل بين رشيق بحق صلاح الدين. (الروضتين 2/104).

يُؤَمِّـــلُ المَمْلُـــوكُ مَمْلُوكَـــةً تُبَـــدِّلَ الوَحْشَـــةَ بـــالأَنْس
تُخْرِجُـــهُ مـــنْ لَيْـــل وَسْوَاســـه بطلعـــة تُشْـــرقُ كالشَّـــمْس
ولا زلْـــتَ وهّابـــاً لمَـــا حَـــازَهُ سَـــيْفُكَ مـــنْ حُـــور وَمـــن لُعْـــس[1]
وَإِنَّنـــي آمـــلُ مِـــنْ بَعْـــدِهَا كَـــرَائمَ السَّـــبْيِ مِـــنْ القُـــدْسِ[2]

فلمّا فتح القدس، حقّق له طلبه، ووهبه جارية حسناء.

ونلاحظ أنَّ العماد الكاتب حاز على إعجاب الملوك حينذاك، فما من مناسبة إلّا وله فيها قصيدة، فها هو يمدح تقي الدين عمر بن توران شاه بن أيوب سلطان حماة، إذ كان بدمشق، ويقول عن قصيدته: "إنها سينية سنية، قطوفها دانية جنية، وتشتمل على مئة وأربعين بيتاً أنشدته إيّاها في ثالث من رمضان من سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة بدمشق". وما من شك أنَّها تحتوي على أبيات تفيض بالمعاني المؤثرة، التي تدعو إلى الجهاد، وتحثّ على النضال، ويقول: (من الطّويل)

وَكَـمْ كُفِـيَ الإِسْـلَامُ سُـوءاً بِمُلْكِكُـمْ كُفِيـتُمْ عَلَـى رغـم المُعَـادينَ كُـلَّ سُـوُ
وَلَا يَفْـتَحُ البَيْـتَ المُقَـدَّسَ غَيْـرُكُمْ وَبَيْـتُكُمُ مـنْ كُـلِّ عَـاب مُقَـدّسُ
إذَا مَـا تَقِـيّ الـدّين صَـالَ تَسَـاقَطَتْ لأَقْدَامِـهِ مِـنْ عُصْـبَةِ الشِّـرْكِ أَرْؤُسُ[3]

وهكذا كان صلاح الدّين –رحمه الله– محباً للجهاد،عظيم الاهتمام به:"ولو حلف حالف أنّه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلّا في الجهاد أو في الإرفاد، لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه إستيلاء عظيماً، فما كان له حديث إلا فيه، ولا كان له اهتمام إلّا برجاله، ولا ميل إلّا إلى من يذكره ويحثّ عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله: أهله، وأولاده، ووطنه، وسكنه، وسائر ملاذه، وقنع من الدّنيا بالسكون في ظل خيمة"[4]، وما كان شظف العيش، وسوء الأحوال، وبُعد للأهل، وغربة الوطن إلا ليزيده رغبة ومصابرة واهتماماً بالجهاد؛ ولهذا ارتبط اسمه بالجهاد، وما ذكر إلا وَعَنَّ على البال بيت المقدس، الذي كان

1 اللعس: جمع اللعساء، التي في شفتها سواد مستحسن.

2 الروضتين 2/46. وديوان العماد، ص239.

3 الروضتين (72/2). وديوان العماد، ص238.

4 النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص21.

شغله الشاغل. وكان الرجل الذي أراد أنْ يتقرب إليه يحثّه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد، ولذلك وَجَدَ الشعراء في هذا معيناً خصباً، ونبعاً لا ينضب، ينهلون منه، فاصبحت قصائدهم تزدان بذكره، وتتزين بجهاده، وتتمدح بانتصاراته.

(5)

ولمّا تحقق المسلمين فتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة جلس صلاح الدين الأيوبي، "بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر، والأمراء، والمتصوفة، والعلماء وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله[1] بعزّ النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل... والقراء جلوس يقرؤون ويردّدون، والشعراء وقوف ينشدون ويستنشدون، والأعلام تبرز لتنشر، والأقْلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وهنئ الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الإسراء، ومقرّ سيد المرسلين، وخاتم النبيين في مقر الرّسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم المصطفى (صلى الله عليه وعليهم أجمعين) وتسامع النَّاس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كلّ فجّ عميق..."[2] وقد وقف العماد الكاتب لينشد قصيدته الطويلة التي نظمها في تهنئة صلاح الدين بهذا الفتح المؤزر، وذكر فيها المدن، والقلاع التي تهاوت أمامه فامتلكها الواحدة تلو الأخرى، وانتهز فرصته هذا، وأخذ يطلق الألقاب الدينية على قائده، ويوظف المعاني الإسلامية، ويشحذ همّته، ويحضّه على مواصلة الجهاد، ويحثّه على عدم التقاعس أو التكاسل على تحرير بلاد المسلمين، و استردادها، وضمها لملكه، ويقول: (من الطويل)

رَأَيتُ صَلَاحَ الدِّين أفْضَلَ مَنْ غَدَا ... وَأَشْرَفَ مَنْ أَضْحَى، وَأَكْرَمَ مَنْ أَمْسَى

فَلَا يَسْتَحقُّ القُدْسَ غَيْرُكَ في الوَرَى ... فَأَنْتَ الذي مِنْ دُونِهِمْ فَتَحَ القُدْسَا

وَمن قَبل فَتْح القُدْس كُنْتَ مُقَدَّساً ... فلَا عَدَمَتْ أَخلَاقُكَ الطُّهْرَ، وَالقُدْسَا

1 أهل (مذكر). راجع: اللسان(أهل).

2 النصّ للعماد الكاتب، انظر: الروضتين 2/96.

وَطَهَّرْتَــهُ مِــنْ رِجْســهِمْ بِــدِمَائِهم ... فَأَذْهَبْتَ بِالرِّجْسِ الذي ذَهَّبَ الرِّجْسَا
نَزَعْتَ لِبَاسَ الكُفْر عَنْ قُدْس أَرْضِهَا ... وَأَلْبَسْتَهَا الدِّينَ الذي كَشَفَ اللَّبْسَا
وَعَادَتْ بَيْتُ الله أَحْكَامُ دِينِه ... فَلا بَطْرَكاً أَبْقَيْتَ فِيهَا وَلَا قَسَّا
وَصَار (بِصُور) عُصْبَةٌ يَرْقُبُونَكُمْ ... فَلَا تُبْطِئُوا عَنْهَا، وَحُسُّوهُمُ حَسَّا
تَوَكَّل عَلَى الله الذي لَكَ أَصْبَحَتْ ... كَلاءَتُهُ دِرْعاً، وَعِصْمَتُهُ تُرْسَا[1]
وَدَمِّرْ عَلَى البَاقِينَ، واجتَثَّ أَصْلَهُمْ ... فَإِنَّكَ قَدْ صَيَّرْتَ دِينَارَهُمْ فَلْسَا
وَلَا تُنْسِ شِرْكَ الشَّرْق غَرْبَكَ مُرْوِياً ... بماء الطُّلَى مِنْ صَادِيَات الظُّبَى الخِمْسا[2]
وَإِنَّ بِلَاد الشَّرْق مُظْلِمَةٌ، فَخُذْ ... خُرَاسَانَ، وَالنَّهرَيْن، وَالتُّرْكَ، وَالفُرْسَا
وَبَعْدَ الفَرَنْج الكَرْكَ فَاقْصِدْ بِلَادَهُمْ ... بِعَزْمِكَ وَامْلأْ مِنْ دِمَائِهِمُ الرَّمْسَا[3]

ويقول في قصيدة أخرى: (من البسيط)

قُلْ لِلْمَلِيك صَلَاح الدين أَكْرَم مَنْ ... يَمْشي عَلَى الأرض أَوْ مَنْ يَركَبُ الفَرَسَا
منْ بَعْد فَتْحكَ بَيْت القدْس لَيْسَ سوَى ... صُورٍ فَإِنْ فُتِحَتْ فَاقْصِدْ طَرَابُلُسَا
أَثِرْ عَلَى يَوْم أَنْطَرْ سُوسَ ذَا لَجَب ... وَابْعَثْ إِلَى لَيْل أَنْطَاكِيَّةَ العَسَسَا
وَأَخْلِ سَاحِلَ هَذَا الشَّام أَجْمَعَهُ ... مِنَ العداة، وَمَنْ فِي دِينِه وَكَسَا[4]
وَلَا تَدَعْ مِنْهُمُ نَفْساً وَلَا نَفَساً ... فَإِنَّهمْ يَأْخُذُونَ النَّفْسَ وَالنَّفَسَا
نَزَلْتَ بِالقُدْسِ فَاسْتَفْتَحْتَهُ، وَمَتَى ... تقصدْ طرابُلُساً فَانْزِلْ على قَدَسَا[5]

وهذا نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير يبعث بقصيدة للسلطان صلاح الدين يهنئه بفتحه بيت المقدس، ويحثّه على تحرير ما تبقى من أرض المسلمين، ويقول: (من الكامل)

---

1 كلأ الله فلانا: حرسه، وحفظه.

2 الغَرْب: حدّ كُل شيء، والمراد هنا: حدّ السيف، والطُّلى: جمع الطُّلْية، وهي صفحة العنق، والماء هنا: الدم، والظُّبى: جمع الظُّبَة، وهي طرف السيف، والخمس بالكسر، من أظماء الإبل، وذلك أنْ تشرب يوم ورْدها، وتصْدُرَ يومها ذلك، وتظلّ بعد ذلك اليوم في المرعي ثلاثة أيام سوى يوم الصَّدْر، وترد اليوم الرابع، وذلك الخمس. (اللسان، خمس). والمراد هنا شدة تعطشها لدم الأعداء.

3 الروضتين (2/101-102). وانظر القصيدة كاملة في ديوان العماد الأصفهاني ص230-236. ومعجم الأدباء 19/ 22-27.

4 الوكس: النقص.

5 الروضتين (102/2). وديوان العماد الأصفهاني، ص228-229. وقَدَسٌ: بلد بالشام قرب حمص، وإليه تضاف بحيرة قَدَس. معجم البلدان (311/4).

مَــا للسَّــوَاحل غَيْــرُ بَحْــركَ حَــافظٌ ... بشَــبَا ســنَان أَو بصَــفْحَة مُرْهَــف[1]
هَــذَا الطِّــرَازُ الأَخْضَــرُ اســتَفْتَحْتَهُ ... فَزَهَــا بثَــوْب مــنْ عُــلاَكَ مُسَــجَّف[2]
أَحْيَيْــتَ دَيــنَ مُحمَّــد وَأَقَمْتَــهُ ... وَسَــتَرتَهُ مــنْ بَعْــد طُــول تَكَشُّــف
فَــاقْبض عَلَــى الــدُّنْيَا بكَــفِّ زَهَــادَة ... وَابســطْ لرَحْمَتهَــا جَنَــاحَ تَعَطُّــف
جَــاءَتْ جُنُــودُ الله تَطْلُــبُ ثَأْرَهَــا ... وَصُــدُورُهَا عَمَّــا قَليــل تَشْــتَفي
فَـانْهَضْ بهَـا، وَتَقَـاضَ حَقَّـكَ مُوقنـاً ... إنَّ الإلَــهَ بمـا تُؤَمِّلُــهُ حَفــي[3]
هُــمْ فتيَــةُ الأَتْــرَاك كُــلّ مُجَفَّــف ... يَغْشَــى الكَريهَــةَ فَـوْقَ كُــلِّ مُجَفَّــف[4]
قَــوْم يَخُوضُــونَ الحمَــام شَــجَاعَةً ... لاَ يَنْظُــرُونَ إلَيْــه مــنْ طَــرَف خَفــي
إنْ صَــبَّحُوا الأَعْــدَاءَ في أَوْطَــانهمْ ... تَرَكُــوا ديَــارَهُمْ كَقَــاع صَفْصَــف[5]
أَنْــتَ اصــطَفَيْتَهُمُ لنُصْــرَةِ دِينِنَــا ... للهِ دَرّ المُصــطَفَى وَالمُصْــطَفِي[6]

ولا يزال الشعراءُ يَرَوْنَ من فتح القُدْس، فتحاً لبلاد المسلمين قاطبة، وتثبيتاً للدين الحنيف، وجمعاً لكلمة المؤمنين، وتوحيداً لصفوف المسلمين، وإيذاناً بانحسار سيطرة الصليبيين، ودحراً لدينهم، وتحطيماً لصلبانهم، وتشتيتاً لكلمتهم، وكسراً لشوكتهم، وتفريقاً لوحدتهم، فهذا أبو الحسن بن علي الجويني، يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة، يحثّه فيها على أنْ يبقى الحارس الأمين لهذا الدين، ويشير فيها إلى ملوك الإسلام، وإهمالهم لهم تسعين عاماً حتّى تجرّد له سلطاننا، وقد رأيت أن أدوّن ما وصل إلينا من هذه القصيدة، لما لها من أثر بالغ في النفوس، وقوة في المعنى، وسهولة في اللفظ، ومتانة في السبك، ويقول: (من البسيط)

جُنْدُ السَّماءِ لِهـذا المَلْـكِ أعْـوَانُ ... مَـنْ شَـكَّ فـيهم فَهَـذَا الفَـتْحُ بُرْهَـانُ
مَتَـى رأىَ النَّـاسُ مَـا نَحْكيـه في زَمَـن ... وَقَـدْ مَضَـتْ قَبْـلُ أَزمَـانُ، وَأَزْمـانُ

---

1 الشبا: حد كل شيء، والمرهف: السيف القاطع.

2 الطرازالأخضر: بلاد الساحل المصطنعة على البحر منها: غزة، وعسقلان، وعكا، وصيدا، وبيروت، والثوب المسجف: المرخي.

3 معنى الشطر الثاني: ((إن الإله حفي بما تؤمله))، أي: محتفل بما تؤمّله مهتمّ به وسيحققه لكَ.

4 المجفّف: الفرس الذي عليه التجفاف، والتجفاف: الذي يوضع على الخيل من حديد او غيره في الحرب. أما "مجفف" في الشطر الأول، فهي الفارس الذي يلبس التجفاف.

5 قاع صفصف: مستو مطمئن.

6 الروضتين 2/104.

هــذي الفُتُــوحُ فُتُــوحُ الأَنْبيَــاء، وَمَـا / لَـهُ سِـوَى الشُّـكْر بالأَفعَـالِ أثمـانُ

أَضْحَتْ مُلُوكُ الفرَنج الصِّيد في يَده / صَيْداً وَمَا ضَعُفوا يَوْمَاً، ومَا هَانُوا

كَمْ منْ فُحول مُلُوك غُودروا وهُمُ / خَوْفَ الفرنْجَة ولْدَانٌ وَنسوَانُ

اسْتَصْرَخَتْ بمَلكْشَاه طَرابُلُسٌ / فَخَامَ عَنْهَا، وصُمَّتْ منْهُ آذَانُ[1]

هَذَا وَكَمْ مَلك منْ بَعْده نَظَر الـ / إسْلامُ أنصارُهُ صُمٌّ، وعُمْيانُ

فَالآنَ لبَّى صلاحُ الدين دَعْوَتَهمْ / بأَمْر مَنْ هُوَ للمعْوان معْوانُ

للنَّاصر ادُّخرَتْ هذه الفُتُوح وَمَا / سَمَتْ لَهَا همَمُ الأَمْلَاك مُذْ كَانُوا

حَبَاهُ ذُو العَرْش بالنَّصْر العَزيز فَقَا / لَ النَّاسُ: دَاودُ هَذَا أَمْ سُلَيْمَانُ؟

في نصْف شَهْر غَدَا للشِّرْك مُصْطَلماً / فَطَهُرتْ منْهُ أَقْطَارٌ، وَبُلْدَانُ؟[2]

فأينَ مَسْلَمَةٌ عَنْهَا، وإخْوَتُهُ / بَلْ أَيْنَ وَالدهُمْ بَلْ أَيْنَ مَرْوَانُ؟[3]

وَعَدّ عَمَّا سوَاهُ فَالفرَنْجَةُ لَمْ / يَبُدَّهُمْ منْ مُلُوك الأَرْض إنْسَانُ

لَوْ أنَّ ذَا الفَتْح في عَصْر النَّبيِّ لَقَدْ / تَنَزَّلَت فيه آياتٌ، وَقُرآنُ

يَا قُبْح أوجه عُبّاد الصَّليب، وَقَدْ / غَدَا يُبرقعُهَا شُؤْمٌ، وَخذْلانُ

خَزَنْتَ عنْدَ إله العَرْش سَائرَ مَا / ملكْتَهُ، وَمُلُوكُ الأَرْض خُزَّانُ

فَالله يُبقيكَ للإسلام تَحرُسُهُ / منْ أنْ يُضامَ، ويُلفَى وَهُوَ حَيْرانُ

وَهَذه سَنَةٌ أكْرم بها سَنَةً / فالكفرُ في سنَة، والنصرُ يَقْظَانُ

إذَا طَوى الله ديوانَ العِبَادِ فَمَا / يُطوَى لأجْرِ صَلَاحِ الدِّينِ دِيوَانُ[4]

وكتب الشاعر الحكيم أبو الفضل قصيدةً طويلة حثّ فيها صلاح الدّين على مواصلة الجهاد، وهدم أركان الشرك، معتمداً في أسلوبه المعاني الدينية التي تدغدغ عواطف صلاح الدين، وتحرّك مشاعره، ويقول: (من الطويل)

1 "ملكشاه": لَقَب لُقِّب به كثير من السلاطين، ولعله قصد السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان -وكان بالشام- حين قصد بابه فخر الدين أبو علي بن عمار -صاحب طرابلس الشام- مستنفراً على الفرنج، طالباً تسيير العساكر لإزاحتهم، وذلك لما طال حصار الفرنج لمدينة طرابلس. (انظر: الكامل في التاريخ 452/10)- وخام: جبن، ونكص.

2 مسلمة: يريد الشاعر مَسْلَمة بن عبد الملك الذي غزا أرض الروم. وإخوته: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام. ووالدهم: عبد الملك. ومروان: هو مروان بن الحكم.

3 يبدّهم: يفرقهم.

4 الروضتين (2/ 104-105).

فَيَـا مَلِكـاً لَـمْ يَبْـقَ للـدِّين غَيْـرُهُ ... وَهَـتْ عُمُـدُ الإسْـلامِ فَاشْـدُدْ لَهَـا دعْمـا
فَشُـؤْمُ فَرِيـق الشِّـرْك في الشَّـام طَـائِرٌ ... فَقُـصَّ جَنَاحَيْـه بأَقْصَـى القـوَى قَصْـما
خُصِصْـتَ بتَمْكِـين، فَعُمَّ[بـه] العِـدَا ... فَـإنَّهُمُ يَـأْجُوجُ أَفْـرِغْ بِهَـا رَدْمَـا[1]
فَذَا المَسْـجِدُ الأَقْصَـى، وَهِمَّتُـكَ العُلَا ... وَعَزْمَتُـكَ القُصْـوَى، وَرَمْيَتُـكَ الصمَّا
فَمَـا هُـوَ إلَّا أَنْ تَهِـمَّ، وَقَـدْ أَتَـتْ ... فُتُـوحٌ كَمَـا فَـاضَ الخِضَـمُّ الـذي طَمَّـا
وَإنْ أَنْـتَ لَـمْ تُـرْدِ الفِـرنْجَ بِوَقْـعِ ... فَمَـنْ ذَا الـذي يَقْـوَى لبُنْيَانِهَـا هَـدْمَا؟
وَمَـا كُـلَّ حـينٍ تُمْكِـنُ المَـرْءَ فُرْصَـةٌ ... وَلَا كُـلَّ حَـالٍ أَمْكَنَـتْ تَقْتَضِـي غَنْمـا[2]

وكان الحكيم أبو الفضل قد مدح صلاح الدين سنة ثمان، وستين، وخمسمئة بقصيدة طويلة تنّيف على مئة بيت، وفيها يبشر القائد بفتح فلسطين وغيرها، ونجد في هذه الأبيات، روح الحثّ على الجهاد، وإعلاء كلمة الحقّ من خلال تزيين حلاوة النصر للقائد، ويقول: (من الطويل)

أَرَى الرَّايـةَ الصَّـفْرَاءَ يَرْمي اصْطِفَاقُهَا ... بَنِـي أَصْـفَر بالرَّاعِفَـات اللَّهَـاذم[3]
فَتَسْـبي فلسْـطيناً، وَتَجْبِـي جَزَائِـراً ... وَتَمْلِـكُ مِـنْ يُونَـانَ أَرْض الأَسَـاحم[4]
وَتَعْنُـو لَهَـا الأَمْـلاك شَـرْقاً وَمَغْرِبـاً ... بِـذَا حَكَمَـتْ حُـذَّاقُ أَهْـل المَلاحِـم[5]

وكانت القدس رابطة العقد، وما إنْ فُكت حتّى تهاوت المدن بيدّ صلاح الدين، وأخذ الشعراء حينذاك يصيحون بأعلى صوتهم، ويحثّون قائدهم بكل عزيمة، فهذا الشهاب فتيان الشاغوري، ويقول لصلاح الدين: (من الكامل)

فَـانْهَضْ لصُـور فَهْـيَ أَحْسَـنُ صُـورَة ... في هَيْكَـلِ الـدُّنْيَا بَـدَتْ لمُصَـوّر[6]
مَـا سُـورُ صُـورٍ عَاصِـمٌ منْـهُ، وَهَـلْ ... سُـورُ المَعَاصِـمِ عَاصِـمٌ لِمُسَـوَّرِ؟[7]

---

1 "به" أضفتها لاستقامة المعنى والوزن.

2 الروضتين 116/2.

3 الراية الصفراء: راية جيوش المسلمين التي يقودها صلاح الدين. والاصطفاق: التحرك والاهتزاز والهيجان. والراعفات: الرماح لسيلان الدم منها، أو لتقدمها للطعن. واللهاذم: الحادة القاطعة.

4 الأساحم جمع الأسحم: وهو الأسود. (لسان العرب، حسن)

5 الروضتين 116/2. وتعنو: تذل وتخضع. والحذاق: جمع الحاذق، وهو الماهر. والملاحم: جمع الملحمة، الموقعة العظيمة القتل في الفتنة. وأهل الملاحم: مَنْ يتحدّثون عمّا يكونُ مِنْ ملاحِم.

6 في الديوان: "فَانهد".

7 الروضتين (132/2). وديوان الشاغوري، ص147.

(6)

وتذكر مصادر التاريخ أنَّ الصليبيين ملكوا عكا مرة أخرى بسبب ضعف المسلمين، سنة سبع وثمانين وخمسمئة، ثم إنهم أظهروا العزم على قصد البيت المقدس، واشتد الحذر، وعظم الخطب، وتعالت الأصوات، وهبّ المسلمون للجهاد[1]. ويذكر لنا ابن الأثير أنَّ صلاح الدين لما دخل القدس أَمر بعمارة سوره، وترميم ما تهدّم منه، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه أحكاماً قوياً، وأمر بحفر خندق خارج الفصيل، وسلم كلّ برج من أبراجه إلى أمير يتولّى شؤونه، وكان صلاح الدين -رحمه الله- حريصاً على العمل بيده، فأخذ ينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، حتّى يقتدي به العسكر[2]، واستطاع حينذاك تحصنيها، ممّا حال دون تحقيق هدف الإفرنج، ولكننا نَجِدُ الشاعر الرشيد بن النابلسي يقفُ متحمساً بهذه المناسبة لإلقاء ما جادت به قريحته من نظم في هجاء الصليبيين، والتهكم بهم، والسخرية منهم، وإظهار شجاعة صلاح الدين، وطلب نجدته، وحثّه على القتال والدّفاع عن هذه المدينة المقدّسة، ويقول: (من البسيط)

وَيْحَ الفرَنْجة بَلْ، وَيْلُ أمِّهمْ، أَوَمَا ... فيهمْ لَبيبٌ عَلَى العلَّات يَعْتَبرُ؟
فَكَمْ نَثَرْتَهُمُ ضَرْباً إذَا انْتَظَمُوا ... وَكَمْ نَظَمْتَهُمُ طَعْناً إذَا انْتَثَرُوا
كَمْ قَدْ سَقَيْتَهُمُ ذُلَّا فَلَا عَجَبٌ ... إنْ عَرْبَدُوا سَفَهاً فَالقَوْمُ قَدْ سَكرُوا
إنْ يَمَّمُوكَ فَلَا بِدْعٌ لجَهْلهمُ ... تَسْعَى إلى الأُسْد في غَابَاتِهَا الحُمُرُ[3]
زَارُوا نُمُوراً وَلَا تُغْني وَقَاحَتُهُمْ ... إذَا أُسُودُكَ في أَبْطَالهم زَأَرُوا
فَحَام عَنْ حَوْطَة البَيْت المُقَدَّس لا ... خَوْفٌ، وَحَاشَاكَ منْ خَوْف، وَلا ضَرَرُ
هُوَ الشَّريفُ وَقَدْ نَادَاكَ مُعْتَصماً ... فَمَا عَلَى مَجْده منْ بَعْده حَذَرُ[4]
وَسَوْفَ تَستَغْفرُ الأَيَّامُ هَفْوَتَهَا ... وَتَحْصُدُ الفِئَةُ الأَوْغَادُ مَا بَذَرُوا[5]

---

1 الكامل في التاريخ (12/ 63- 73). والروضتين (194/2).
2 الكامل في التاريخ (74/12).
3 الحمر: جمع الحمار، وهي حمر الوحش.
4 الشريف: أي القدس الشريف. ومعتصما: أراد بك، أي: لاجئا إليك. ولعل هناك رواية أخرى لكلمة(مجده) هي مسجد.
5 الروضتين (194/2).

فالأسلوب كمان نلاحظ يميل إلى الألفاظ ذات النظرة القتالية الغاضبة الهادرة، كما أن الشاعر جسد المدينة، وأطلق عليها الصفة الإنسانية التي تناشد صلاح الدين كما ناشدت امرأة زبطرة المعتصم.

ما من حدث التاريخي إلّا وله وقع كبير في نفوس الشعراء، فهذا ابن النبيه المصري ينظم قصيدة مدح في الملك العزيز يحثّه على مقارعة الأعداء ومنازلتهم، دفاعاً عن الدين والمسلمين وذلك حين استطاع الفرنجة تملك بعض المدن، والقرى الساحلية في بلاد الشام، سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة[1]، ويقول: (من البسيط)

يَا حَارس الدِّين لَمَّا نَام حَارسُهُ ... وَنَاظماً شَمْلَهُ مِنْ بَعد تَبْديد

يَظُنُّكَ النَّاسُ في خَفْض وَفي دَعَة ... جَهْلاً وَكَمْ مُسْتَريح الجسْم مَكْدُود

جَهِّزْ جُيُوشَكَ إنَّ الثَّغْرَ قَدْ عَبَثْ ... به الفرَنْجُ فَأَضْحَى غَيْرَ مَنْضُود

أَيُدْركُون به أوْتَارَ قُدْسهِمُ ... منْكُمْ، وَذلكَ مُلْكٌ غَيْرُ مَرْدُود؟

يَا للرِّجَال أُنَاديكم لنَازلَة ... تَسْتَنْزلُ المَاءَ منْ صُمِّ الجَلاميد![2]

أَيْنَ الحَميَّةُ هُبُّوا منْ مَنَامكُمُ ... إمَّا لِعَاجِلِ دُنْيا أَوْ لِمَعْبُود[3]

وهكذا كانت صرخات الشعراء تدوي، وتستنهض الهمم، وتشحذها لتحرّك المشاعر النفسية، والمعنوية التي تدفع الإنسان المظلوم المتشرد، وصاحب الحق والمبادئ، ورجل الدّين وحامي حمى المسلمين، وقائد المجاهدين إلى التضحية والفداء، والتّحدي، والإيمان بالنصر، والأمل بالعودة إلى الدّيار المغتصبة، وتحريرها من براثن العدوان.

ولعلنا بعد هذه الجولة، نستطيع أنْ نضع بعض ملاحظاتنا على هذا الموضوع الشعري، موضوع: "استنهاض الهمم، والحضّ على الجهاد":

1- إنَّ هذا النوع من الشعر يستخدم المباشرة.

2- إنَّ هذا الشعر - وإن كان نابعاً من إحساس باللحظة الشعورية المعيشة - لا يهتمّ إلّا بالإثارة والتحريض، حتّى يكاد هذا اللون لا يتكئ على الصور -التي تعتمد على عنصر

1 الكامل في التاريخ (126/12).

2 الجلاميد جمع الجُلمود: الصخر. والصّم: الصلب.

3 ديوان ابن النبيه المصري، ص173-174.

الخيال- حين يعتمد على الألفاظ الحماسية الشائعة التي تثير حماسة الناس، وتلهب مشاعرهم.

3- إنَّ الراصد لحركة الشعر في هذه المرحلة، يجدُّ أنَّ الشعراء يطالبون بالمزيد من النضال والجهاد، ويلاحظ أنَّ أصواتهم ترتفع أصراراً على التحدي، واستنهاض الهمم، فلم يُؤْثَرْ عن هذا الشعر أنه تراجع أو استكان أو دخل دائرة الخذلان.

ومن هنا، توحّد واستمدّ من إيمانه المطلق بعدالة قضيته وجوداً مستقلاً لا يكادُ يتأثّر بالواقع الذي ينهض أحياناً ويسقط أحياناً أخرى، وهذا تعبير عن الإيمان بالقضية، والثقّة بالقادة، والمجاهدين، والاحتماء بالرصيد الجهادي القتالي للأمة الإسلامية.

4- لا يأتي هذا الموضوع من الشعر في قصيدة مستقلّة، وقد يكون مقطوعة، أو بضعة أبيات؛ ولكنّه غالباً ما تضمّه قصائد المدح، والفخر، والتهنئة، وغيرها، وغالباً ما تتضمن موضوعات شتى.

5- لا تبلغ هذه الأشعار من حيث المتانةُ، والجودةُ مبلغَ قصائد الشعراء أنفسهم في موضوعات أخرى[1]، فهذا الشعر شعر مواقف، ومناسبات إن صح هذا التعبير.

6- ينظم الشاعر أشعاره -في هذا الموضوع- على سجيته، وبساطته دون اعتماد مباشر على تدقيق في معنى، أو تنقيح للفظ، أو تهذيب لعبارة، وقد ينظم الشاعر أشعاره ارتجالاً من خلال انفعاله وتأثره.

7- غالباً ما يكون هذا الشعر صادق العاطفة، بعيداً عن الخيال، يصور الواقع، ويستخدم أحياناً المحسنات البديعية، والأساليب البلاغية؛ فعنصر العاطفة، هو الذي يبعث في هذا الشعر الحياة، والقوة.

8-إنَّ شعر الحروب الصليبية، أو ما يعرف باسم شعر الجهاد آنذاك أشمل من شعر التحرير، وذلك لوضوح الغايات الدينية، إذ الجهاد فريضة على كلّ مسلم قادر، لا تسقط إلّا بردّ أعداء الدين، ولا يقتصر الجهاد على تحرير أرض اغتصبت، وقد تكون فريضته لنشر الدّين الإسلامي، والأمن والسلام في بقاع الأرض جميعها. وأما شعر التحرير، فإنَّه يقتصر على ثورة الشعوب المستضعفة للدّفاع عن ذاتها الخاصة والعامة مطالبة بالتحرير.

المؤلفان للفصل الثالث

الأستاذ الدكتور هاشم صالح مناع

قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب

جامعة الإسراء

الدكتور عمر عبدالله العنبر

مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة

جامعة الإسراء

1 انظر مثلاً: قصيدة في الفخر عند فتيان الشاغوري، ديوانه ص340- 349.

الفصل الرابع:
مديح القادة وهجاء الأعداء

قبل البدء بالكلام عن موضوع: "مديح القادة وهجاء الأعداء" لا بدّ أنْ نوضح السبب في اختيار هذا العنوان.

وكنت أعتقد أنّ فن المديح يفي بالغرض، ولكني واجهت مشكلة فنّ الهجاء الذي كان يسير جنباً إلى جنب مع المديح في قصيدة واحدة، وبحسب قانون (ردود الأفعال) فإن هجاء الأعداء ردّ فعل على مديح الأصدقاء، وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك بعض القصائد خلت من الهجاء لأسباب عديدة، مثل: وضوح الرؤيا السياسية، والتكسب، وما إلى ذلك، لكن قصائد المديح في هذه المرحلة غالباً ما يتغنى فيها الشاعر بانتصارات المسلمين فرحاً بهزائم الصليبيين، ومن هنا اتحد الغرضان وتلازماً. أضف إلى ذلك عدم الرغبة في إفراد فصل للمديح وآخر للهجاء، توخياً للاختصار، وعدم التطويل والتكرير، وترابط القصيدة، والاكتفاء بذكر مناسبة القصيدة مرّة واحدة.

ولم تكن أهداف شعر المديح في عصر الحروب الصليبية كما كانت في العصور المتقدمة، وذلك أنَّ غاية الشاعر في تلك المدة الزمنية على الأغلب التكسب، أو نيل عفو، أو التماس وظيفة أو مطلب. ولكن شعر هذه الفترة يختلف في أهدافه وغاياته، فلم ينظم للتكسب والارتزاق، ولم يكن ينطوي على الكذب بخلع صفات على الممدوح ليست فيه؛ لذلك كان هذا الشعر صادقاً في تصويره، أميناً في تعبيره، مؤثراً في موضوعه، جزلاً في ألفاظه، متيناً في قافيته وأوزانه.

(1)

أول ما نلتقي في موضوعنا هذا مع عماد الدين زنكي[1] الذي يتطلع إلى تكوين مملكة إسلامية تتمكّن من مجابهة الصليبيين، وإبعاد خطرهم، وتقويض نفوذهم تمهيداً لإزالتهم، وممّا عرف عنه أنه كان يبني سياسته على الأمن والعدل، فذاع صيته، وانتشرت شهرته، فأخذت المدن تستنجد به ضد ظلم حكامها، فلبّى النداء، وأخذ يحتلّ المدن والحصون في الجزيرة الفراتية وديار بكر[2]، حتّى استطاع السيطرة على الجزيرة الفراتية، وأعالي الفرات، وحمص، وحماة، وحلب، وبَعْلَبَكْ[3] ومعرّة النعمان، كما حرّر عدداً من الحصون التي يسيطر عليها الصليبيون، وأصبح وجهاً لوجه مع الصليبيين، يتاخمهم في كثير من الجهات[4].

وتفيض المصادر بذكر ما حققه عماد الدّين بفتحه مدينة الرُّها، وانتصاره على أميرها جوسلين سنة(539هـ/ 1144م) وكيف أخذ غيرها أيضاً من: "حصون الجزيرة من أيدي الفَرَنج، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وسبي نساء كثيرات، وغنم اموالاً جزيلة، وأزال عن المسلمين كرباً شديداً[5]. ومدينة الرُّها هذه من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية ثمّ الرومية ثم قسطنطينية والرُّها..."[6].

---

1 آل زنكي عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان ملكشاه السلجوقي، وهو أبو سعيد آق سُنقُر البرْسُقيّ الغازي، الملقب قسيم الدولة سيف الدين، كان مع مماليك "ملكشاه" وتربّى معه منذ الصغر. فلما تولّى ملكشاه السلطة اتخذ آق سنقر من قواده وأمرائه.. بمساعدة من الوزير نظام الملك. ولي آق سنقر مدينة حلب من قبل السلطان ملكشاه فاستمرَّ والياً عليها إلى أن جرت بينه وبين تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان معارك انتهت بقتله سنة 487هـ، ولم يترك آق سنقر إلّا ولداً صغيراً له من العمر عشر سنوات تقريباً، وهو عماد الدين، وقد شارك عماد الدّين في المعارك والمناوشات التي كانت تثار ضدّ الإمارات الصليبية، وفي سنة 521هـ تقلّد الموصل، وسلم إليه السلطان محمود السلجوقي ولديه ألب أرسلان وفَرّوخ شاه، ليربيهما فلهذا قيل له (أتابك) لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك، وقد شاعت هذه الكلمة حتّى أطلقت على دولتهم التي عرفت بالأتابكة. انظر: الروضتين (26/1) وما بعدها. ووفيات الأعيان (243-242/1) و (329-327/2).

2 هي الجزيرة التي بين دجلة والفرات، يطلق عليها: "جزيرة أقور" تشتمل على ديار مضر وديار بكر، وديار بكر بلاد واسعة، حدّها من دجلة إلى بلد الجبل المطل على نصيبين. (معجم البلدان 134/2و 494).

3 مدينة معروفة بينها وبين الساحل اثنا عشر فرسخاً (معجم البلدان 453/1). والفرسخ ثمانية كيلو مترات تقريباً.

4 الروضتين (28/1) وما بعدها. الكامل في التاريخ (68/8) وما بعدها.

5 البداية والنهاية (219/12). والروضتين (36/1) وما بعدها.

6 الروضتين (36/1) ولعله قصد برومية روما.

ويقال: إنّ عماد الدين دخل الرُّها عنوة، فاستباحها ونكّس صلبانها، وأباد قساوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها... فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره، وشهده خلق كثير من الصالحين، والأولياء[1].

وقد هنَّأ ابن القيسراني عمادَ الدّين بهذا الفتح مستهلاً قصيدته ببراعة مطلعها الذي يقول فيه: (من الطويل)

هُوَ السَّيْف لاَ يُغْنيكَ إلَّا جِلادُهُ ... وَهَلْ طَوَّقَ الأَمْلَاكَ إلَّا نجَادُهُ؟[2]

وَعَنْ ثَغْر هَذَا النَّصر فَلْتَأخذ الظُّبا ... سَنَاهَا، وَإنْ فَاتَ العُيُونَ اتِّقادُهُ

لَقَدْ كَانَ في فَتْح الرُّهَاء دلالَةٌ ... عَلَى غَيْر مَا عنْدَ العُلُوج اعتقَادُهُ

مَدينَةُ إفْك مُنْذُ خَمْسينَ حجَّةً ... يَفُلُّ حَديدَ الهنْد عَنْهَا حدَادُهُ[3]

فَلَا مُطْلَقٌ إلَّا وَشُدَّ وَثَاقُهُ ... وَلَا مُوثَقٌ إلَّا وَحُلَّ صفَادُهُ

وَلَا مِنْبَرٌ إلَّا تَرَنَّحَ عُودُهُ ... وَلَا مُصْحَفٌ إلَّا أَنَارَ مِدَادُهُ[4]

ويمدحه أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي بقصيدة طويلة، ويقول فيها: (من الوافر)

بعَزْمكَ أَيُّها المَلكُ العَظيمُ ... تذلّ لَكَ الصِّعَابُ، وَتَسْتَقيمُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ كَلْبَ الرُّوم لَمَّا ... تَبَيَّن أَنَّكَ المَلْكُ الرَّحيمُ

فَجَاءَ يُطَبِّقُ الفلواتَ خَيْلاً ... كَأَنَ الجَحْفَلَ اللَّيْلُ البَهيمُ

فَحينَ رَمَيْتَهُ بكَ في خَميس ... تَيَقَّنَ أَنَّ ذَلكَ لَا يَدُومُ

كَأَنَّكَ فِي العَجَاجِ شِهَابُ نُورٍ ... تَوَقَّدَ وَهْوَ شَيْطَانٌ رَجيمُ[5]

والمتصفح لهذه القصيدة يجدُّ أنّ الشاعر يلحّ على هجاء قادة الفرنج تماماً، ويلحّ على التفنّن بمدح قادة المسلمين، ويحرص ابن القيسراني على ازدراء الفرنجة، والتشفي منهم، من خلال مدحه عماد الدين زنكي، ويقول فيها: (من البسيط)

حذار منَّا، وأَنَّى يَنْفَعُ الحَذَرُ ... وهي الصَّوارمُ لا تُبقي وَلا تَذَرُ؟

---

1 الروضتين (37/1).

2 جلادة: مجالدته، أيّ المضاربة بالسيف، والأملاك: الممالك، والنجاد: حمالك السيف.

3 يريد: أن أسلحته تحطم سيوفهم.

4 المصدر السابق (1/ 37-38). وانظر: الخريدة(قسم شعراء الشام) (2/ 154-155).

5 الروضتين (32/1).

وَأيـنَ يَنْجـو مُلـوكُ الشِّـرْك مـنْ مَلـك ... مـنْ خَيْلـه النَّصْـرُ لا بَـلْ جُنْـدُهُ القَـدَرُ؟
سَـلُّوا سُـيوفاً كَأَغمـاد السُّـيُوف بهَـا ... صَـالوُا فَمَـا غَمَـدُوا نَصَـلاً، وَلا شَـهَرُوا
حَتَّـى إذَا مَـا عنـادُ الـدِّين أَرْهَقَهُـمْ ... في مَـأْزق مـنْ سَـنَاهُ يَبْـرُقُ البَصَـرُ
وَلَّـوْا، تضـيقُ لهـمْ ذَرْعـاً مسـالكُهمْ ... وَالمَـوْتُ لا ملجـأَ منْـه، وَلا وَزَرُ
وأصـبحَ الـدِّينُ لا عَيْنـاً، وَلا أَثَـراً ... يخَـافُ، والكفـرُ لا عَـيْنٌ وَلا أَثَـرُ[1]

ويتطلع الشاعر في قصيدته هذه إلى عودة البلاد إلى أصحابها، وإقامة العدل فيها من خلال توظيف شخصية إسلامية عرفت بعدلها وقوتها هي شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وَلَا انثَنَـى النَّصْـرُ عَـنْ أَنْصَـار دَوْلَتـه ... بحَيْـثُ كَـانَ، وَإنْ كَـانُوا بـه نُصـرُوا
حَتَّـى تَعُـودَ ثُغُـورُ الشَّـامِ ضَـاحِكَةً ... كَأَنَّمَـا حَـلَّ فِـي أَكْنَافِهَـا عُمَـرُ[2]

ويمدحه ابن منير بقصيدة يقول فيها: (من المتقارب)

فَـدَتْكَ المُلُـوكُ، وَأَيَّامُهَـا ... وَدَامَ لنَقْضِـك إبْرَامُهَـا
وَزَلَّـتْ لعَيْشِـكَ أَقْـدَامُهَا ... وَزَالَ لبَطْشِـكَ إقْـدَامُهَا
وَلَـوْ لَـمْ تُسَـلِّمْ إلَيْـكَ القُلُـوبُ ... هَوَاهَـا لَمَـا صَـحَّ إسْـلَامُهَا[3]

ولحّ الشعراء إلحاحاً كبيراً على إطلاق الصفات الدينية على المجاهد عماد الدّين؛ لأنهم يرون فيه الإنسان المخلّص، والملك الذي جرّد نفسه للإسلام دون بقيّة الملوك، ويقول ابن منير: (من الرمل)

بِعمـاد الـدِّين أضـحتْ عُـرْوَةُ الدِّيـ (م) ... ـن مَعْصُـوباً بهَـا الفَـتْحُ المُبـينْ
إنَّـهُ المَـوْت الـذي يُـدْركُ مَـنْ ... فَـرَّ منْـهُ فُسْـحاً للْغَـافلينْ[4]
وَهْـوَ يُحيـي مُمْسـكي عُرْوَتـه ... إنَّهـا حَبْـلٌ لمَـنْ تَـابَ مَتـينْ
مَـنْ يُطـعْ يَـنْجُ، وَمَـنْ يَمْكُـرْ يَكُـنْ ... مـنْ غَـدَاة عبْـرَةً للآخـرينْ

---

1 الروضتين (34/1).

2 المصدر السابق نفسه.

3 ا الروضتين (35/1). وديوان ابن منير الطرابلسي، 194-195.

4 في الأصل "العاملين".

بِــكَ يَــا شَــمْسَ المَعَــالي رُدَّتِ الــ (م) ــرُّوحُ فِــي المَيْتَــينْ مِــنْ دُنيَــا وَديــنْ[1]

وقد كانت شخصية عماد الدّين زنكي عند الشعراء الشخصية المثالية المجاهدة في سبيل الله لا تعرف الكلل أو الملل، لا يزيدها الجهاد إلّا صبراً على الاستمرار فيه، ولكنّه حين ذهب إلى محاصرة قلعة "جعبر"[2] على الضّفة اليسرى من الفرات، اغتياله -وهو نائم- مجموعة من مماليكه بتأليب من أعدائه، مات مُثْخَناً بجراحه، مضرّجاً بدمائه، وذلك سنة 541هـ/ 1146م[3]. وبالفعل كان زيني كان من خيار الملوك، وأنقاهم سريرة، واحسنهم سيرة، رفيقاً بالعامة، غيوراً على نساء الرعية، حريصاً على إقامة العدل، والأمن.

ولعل إعطاء بعض الشواهد الشعرية على هذه القضية (قضية العدل) يؤكد صحة ما ذهبنا إليه، وقد اخترت الشاعر ابن منير الطرابلسي نموذجاً من بين الشعراء الذين على ألحّوا على هذه المأثرة الحميدة التي تركت في نفوس الشعراء أثراً طيباً، للاستشهاد بأشعاره على ذلك، ويقول: (من الخفيف)

أَلْبِسُــوا عَــدْلَكَ المُــدَبَّجَ فَاخْتَــا لُــو بَنَــاتٍ فِــي وَشْــيِهِ وَبنِينَــا[4]

ويقول: (من المتقارب)

أَيــا مُحْيِــيَ العَــدْل لَمَّــا نَعَــاهُ أَيَــــامىَ البَرَايَــــا وَأَيْتَامُهَــــا[5]

وله: (من البسيط)

يَــا مُحْيِــيَ العَـدْلِ إذْ قَامَــتْ نَوادِبُــهُ وَعَــامِرَ الجُــودِ لَمَّــا مــحَّ مَغْنَــاهُ[6]

وله: (من الرمل)

أَقْسَــمَ الجــدُّ بــأَنْ تَبْقَــى لكَــيْ تَمْلِــك الأرضَ يَمينــاً لا يَمــينْ

---

1 الروضتين (1/39-40). وانظر: ديوان ابن منير، ص 199، وأعلام النبلاء(1/506).

2 قلعة معروفة بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت تسمى -قديماً- دَوْسر.(معجم البلدان 2/142).

3 انظر: الكامل في التاريخ (11/110) وما بعدها. والبداية والنهاية (12/221).

4 ديوان ابن منير الطرابلسي. ص194. والمدبج: المزين بالديباج. والديباج: الثوب الذي سداه ولحمته حرير.

5 المصدر السابق، ص195. والأيامى: جمع الأيم، أي: الرجل الذي فقد زوجته، والمرأة التي فقدت زوجها فهي وهو أيّم. والبرايا: جمع البريّة، وهم الخَلْقُ.

6 ديوان ابن منير الطرابلسي، 196.

وتُفِيض العَدْلَ فِي أَقْطَارِهَا ... مُنْسِياً مُؤْلِمَ عَسْفِ الجَائِرِينْ[1]

وله: (من الوافر)

وَصُوِّبَ عَدْلُهُ فِي كُلِّ أَوْبٍ ... فَعَوَّضَ عَاطِلاً مِنْهُ بِحَالِ[2]

(2)

وتذكر الروايات أنَّه لمّا قتل أتابك زنكي، وكان نور الدّين محمود ولده حاضراً معه، فأخذ خاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها، إذ أصبح القسم الغربي من مملكة الاتابكة تحت سيطرته، وعاصمته حلب، وبذلك يكون هو المجاور للصليبيين[3].

وكان أعداء عماد الدين يتربّصون به حتّى علموا بموته، فانقض (جوسلين الثاني) أمير الفرنج، على الرُّها، بمساعدة النصارى المقيمين فيها، فاستولى عليها، وعاث فيها فساداً، وقتل ونهب وسبى؛ ولكنه لم يتمكّن من إحكام السيطرة تماماً على هذه المدينة، إذْ توجه إليه نور الدّين على رأس جيش عظيم، بعد سبعة أيام من احتلالها، واسترجعها وأَدّبَ أهلها، وأعاد الأمن، والسّلام فيها[4].

وابن القيسراني يُشيرُ إلى هذا الفتح في قصيدة مدح فيها جمال الدين، وزير الموصل، ومنها: (من المتقارب)

فَإنْ يَكُ فَتْحُ الرُّهَا لُجَّةً ... فَسَاحِلُهَا القُدْسُ، وَالسَّاحِلُ[5]

ويشير الشاعر ابن منير إلى ذلك بقصيدة، ويذكر فيها ما تعوّد عليه الزينكيون من تحطيم قوة الأعداء؛ لأن هذا هو دينهم وسنتهم، ويقول: (من الخفيف)

مَلِكٌ مَا أَذَلَّ بِالفَتْحِ أَرْضاً ... قَطُّ إلَّا أَعَزَّهَا إغْلاَقُهْ

أَيْنَ كَانَ المُلُوكُ عَنْ وَجْهِهَا الطَّلْـ ... ـقِ يُرِينَا إضَاءَةً إطْلاَقُهْ؟

سُنَّةٌ سَنَّهَا أَبُوهُ بِكَلْبِ الرُّو ... مِ لَمَّا أَظَلَّهُ إرْهَاقُهْ[6]

---

1 المصدر السابق، 202.

2 المصدر السابق، 206. وانظر مزيداً من الشواهد للشاعر نفسه في الديوان، ص202، 247، 249، 251، 267. والروضتين (35/1).

3 الكامل في التاريخ(112/11) وما بعدها (استولى سيف الدين غازي شقيقه على القسم الشرقي، واتخذ الموصل عاصمة له).

4 المصدر السابق(113/11) وما بعدها. والروضتين (48/1) وما بعدها.

5 الروضتين (49/1). واللجنة: معظم الماء حيث لا يدرك قعره، ووسط البحر.

6 الروضتين. وديوان ابن منير الطرابلسي، ص204.

وله من قصيدة أخرى، ويقول: (من الوافر)

بنُــور الــدِّين رُوِّضَ كُــلَّ مَحْــل مــنَ الــدُّنْيَا وَجُــدِّدَ كُــلَّ بَــال

أَقَــامَ عَلَــى ثَنيَّــة كُــلِّ خَــوْف سُــهَاداً بَــاتَ يَكْــلأُ كُــلَّ كَــال[1]

وَصَــوَّبَ عَدْلَــهُ فِــي كُــلِّ أَوْبٍ فَعَــوَّضَ عَــاطِلاً مِنْــهُ بِحَــالِ[2]

ثمّ بدأت شخصية نور الدّين تتألق شيئاً فشيئاً، وتحقق الانتصار تلو الانتصار، وهذا الأمر أثار قرائح الشعراء، فأخذوا ينظمون غررَ قصائدهم في مدحه، غير آبهين بغيره من القواد، فهمّهم التغني بانتصاراته لا بكرمه وعطائه. ففي سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة توجّه الصليبيون إلى "يَغْرَى" من أرض الشام، واجتمعوا بها بقضهم وقضيضهم، فالتقى نور الدّين بهم هناك، واقتتلوا قتالاً شديداً نتج عنه انهزام الفرنج، فقتل نور الدين كثيراً منهم، وأسر جماعة من مقدّميهم، وحصل على غنائم كثيرة، وفي هذه الموقعة [3]ونظم الشاعر ابن القيسراني قصيدة طويلة بدأها بمقدمة غزلية، يقول في مطلعها: (من السريع)

يَــا لَيْــتَ أَنَّ الصَّــدَّ مَصْــدُودُ أَوْلا، فَلَيْــتَ النَّــوْمَ مَــرْدُودُ[4]

ثمّ يخلص من مقدمته الغزلية هذه بالانتقال إلى ذكر صفات شخصية نور الدين، ويقول:

وَكَيْــفَ لا نُثْنــي عَلَــى عَيْشــنَا الـــ ـــمَحْمُود وَالسُّــلْطَاتُ مَحْمُــودُ

وَصَــارمُ الإسْــلَام لا يَنْثَنــي إلَّا وَشــلْوُ الكُفْــر مَقْــدُودُ[5]

مَكَــارمٌ لَــمْ تَــكُ مَوْجُــودَةً إلَّا وَنُــور الــدِّين مُوْجُــودُ

مُظَفَّــر في درْعــه ضَــيْغَمٌ عَلَيْــه تَــاجُ المُلْــك مَعْقُــودُ

وَكَــمْ لَــهُ مــنْ وَقْ يَوْمُهَــا عنْــدَ مُلُــوك الكُفْــر مَشْــدُودُ

والقَــومُ إمّــا مُرْهَــقٌ صَــرْعَةً أَوْ مُوثَــقٌ بالقِــدِّ مَشْــدُودُ

حَتَّــى إذَا عَــادُوا إلــى مِثْلِهَــا قَالَــت لَهُــمْ هَيْبَتُــهُ عُــودُوا[6]

1 ويكلأ: يحرص ويحفظ. والكالّ: التعب العي.

2 الروضتين (50/1). وديوان ابن منير الطرابلسي، ص206. يريد: أنه نشر العدل، وحسّن الأحوال، ووفّر سبل المعيشة.

3 الكامل في التاريخ (134/11).

4 المصدر السابق نفسه. والروضتين (55/1).

5 الشلو: العضو بعد التفرق والبلى. والمقدود: المقيد المأسور، أو الممزق.

6 المصدران السابقان نفسهما.

ويختم الشاعر قصيدته بالتهكم بالإفراج، والإزدراء عليهم، متكئاً على توظيف الألفاظ القرآنية، ليضيف جمالاً على نظمه، ويؤثر على مجامع قلوب المسلمين:

وإنَّما الإفرنجُ مِنْ بَغْيِهَا عَادٌ وَقَدْ عَادَ لَهُمْ هُودُ
قَدْ حَصْحَصَ الحَقُّ فَمَا جَاحِدٌ في قَلْبِهِ بأسُكَ مَجْحُودُ
فَكُلُّ مِصْرٍ بِكَ مُسْتَفْتَحٌ وَكُلُّ ثَغْرٍ بِكَ مَسْدُودُ[1]

ولو تتبعنا أخبار شخصية نور الدين التي بهرت الشعراء، لوجدنا أنه ابن بيئة دينيّة وحربيّة، فقد تعلّم القرآن والفروسية والرمي، وكان شهماً شجاعاً ذا همة عالية، بنى المدارس والمساجد، ووسع الطرق والأسواق، وأحب العلم والعلماء، ونشر العدل والأمن والسلام، وكان يجاهد نفسه، بسيفه ورمحه، لا يعرف الكلالة أو الملل في سبيل ذلك[2] . ففي سنة أربع وأربعين وخمسمئة استطاع نور الدين زنكي تحقيق النصر كبير على الفرَنج، فقد غزا نور الدّين بلادهم من ناحية أنطاكيّة، وأراد حصن (حارم) فخربّه ثم رحل إلى حصن (إنّب) فحاصره، فاجتمعت حينذاك الفرنج مع (البرنس) صاحب أنطاكيّة، واتجهوا إلى نور الدّين ليقصوه عن (إنّب) فلقيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً، حقق نور الدين فيه نصراً مؤزراً، وكان ممن قُتل البرنس صاحب انطاكيّة، إذ كان عاتياً من عتاة الفرَنج وعظيماً من عظمائهم[3] وقد أكثر الشعراء من نظم عيون القصائد، تهنئة بهذا الظفر، ومديحاً بهذا النصر.

وتعدّ قصيدة ابن القيسراني من أطول القصائد التي نظمت بهذه المناسبة، فهي تضم اثنين وخمسين بيتاً، يستهلها بمطلع يدّل على ما بنيت عليه القصيدة من فنّ شعري، وهذا ما يطلق عليه رجال البديع (حسن الابتداء) و (براعة الاستهلال) ويقول: (من البسيط)

هَذِي العَزَائِمُ لا مَا تَدَّعِي القُضُبُ وَذي المَكَارِمُ لا مَا قَالَت الكُتُبُ[4]

ومن الواضح أنَّ ابن القيسراني في مطلعه هذا حقق قضايا عديدة، منها: أنه أفصح عن رصيده الثقافي في محاكات كبار الشعراء أمثال المتنبي وأبي تمام، وبذلك يكون قد ساهم

1 الروضتين (56/1). وحصحص الحق: ظهروبان.

2 انظر المزيد عن شخصيته: الكامل في التاريخ (402/11-405). والبداية والنهاية (278/12-285). والروضتين (230/1-233).

3 الكامل في التاريخ (144/11). والروضتين (57/1-58).

4 الكامل في التاريخ (145/11). والروضتين (58/1). ومفرج الكروب (121/1). وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (13/2) ونهاية الأرب للنويري (155/27).

في استمرارية التواصل مع التراث الذي هو جزء منه، فالصِّلة صلة مدارسة، وتأثر وتفاعل، ولم تكون مجرد تقليد أو تجميع، وقد وُفِّق تماماً في المزج بين عمل شاعرين من شعراء العربية هما: (المتنبي وأبو تمام)، فأخذ من الأول صوراً، وألفاظاً، ومعاني من قصيدته التي يقول فيها:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائم   وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَام المَكَارِمُ[1]

دون الاهتمام بالبحر والقافية، وأما الآخر فقد أخذ منه أيضاً الصور والألفاظ والمعاني، وذلك من قصيدته المشهورة في فتح "عموريّة"[2]، والتي يقول في مطلعها: (من الطّويل)

السَّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ   فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ[3]

والملاحظ أنَّ ابن القيسراني قد تأثر بعمل أبي تمام أكثر من تأثّره بعمل المتنبي، وذلك من خلال توظيفه لبحر قصيدة أبي تمام وقافيتها، لما لها من أثر ووقع في نفوس الناس، وذلك لارتباطها بنصر إسلامي عظيم مَرَّ في تاريخ الأمة الإسلامية، وكأنه أراد من ذلك أن يساوي بين النصرين أو الحدثين، وسنوضح أهمية هذا التأثر، والمزج، واستخدام البحر والقافية في دراستنا هذه حيث نتحدث عن الدراسة الفنية، والجدير بالذكر أنَّ ابن القيسراني تناول في قصيدته هذه موضوعات شتى، أهمها: ذكر الفتح، ووصف المعركة، والتعريض بالأعداء، وتمجيد الممدوح، والتحريض على الجهاد، ونقتطف -هنا- ما يخدم موضوعنا وهو مدح قادة المسلمين، وهجاء قادة الصليبيين، ويقول:

وَهَذه الهِمَمُ اللاّتي مَتَى خُطبَتْ   تَعَثَّرَتْ خَلْفَهَا الأَشْعَارُ، وَالخُطَبُ

صَافَحْتَ يَابْنَ عماد الدِّين ذَروَتَهَا   بِرَاحَةِ للْمَسَاعي دُونَهَا تَعَبُ

مَا زَالَ جَدُّكَ يَبْني كُلَّ شَاهقَة   حَتّى بَنَى قُبَّةً أَوْتَادُهَا الشُّهُبُ

لله عزمُكَ مَا أَمْضَى، وَهمُّكَ مَا   أَقْضَى اتِّساعاً بمَا ضَاقَتْ به الحقَبُ

---

1 شرح ديوان المتنبي للبرقوقي (94/4).

2 عمورية: بلد في بلاد الروم، فتحه المعتصم سنة223. (معجم البلدان 158/4).

3 شرح ديوان أبي تمام للتبريزي (40/1).

أَغْــرَتْ سُــيوفَك بــالإفرنج رَاجفَــةٌ   فُــؤَادُ رُوميَّــةَ الكُبْــرى لَهَــا يَجِــبُ [1]
ضَــرَبْتَ كَبْشَــهُمُ منْهَــا بقَاصــمَةٍ   أَوْدَى بهَا الصُّلْبُ، وَانْحَطَّتْ بها الصُّلُبُ [2]
غَضبْتَ للدِّين حَتَّى لَمْ يَفُتْكَ رضىً   وَكَـانَ ديـنُ الهُـدىَ مَرْضَـاتُهُ الغَضَـبُ
طَهَّـرْتَ أَرْضَ الأَعَـادي مـنْ دمَـائهُمُ   طَهَــارَةً كُــلُّ سَــيْف عنْــدَهَا جُنُــبُ
مَنْ كَـانَ يَغـزُو بـلاَدَ الشِّـرْك مُكْتَسِباً   مـنَ المُلُـوك، فَنُـورُ الـدِّين مُحْتَسِـبُ
إلَّا تَكُـنْ أَحـد الأبـدال في فَلَـك التَّـ (م) ـــقْوَى فَـلَا نَتمَـارى أَنَّـكَ القُطُــبُ
فَلَــوْ تُنَاســبُ أَفْــلاكَ السَّــمَاء بهَــا   لَكَــانَ بَيْنَكُمَــا مــنْ عِفَّــةٍ نَسَــبُ
هَـذَا وَهَـلْ كَـانَ فِـي الإِسْـلَامِ مَكْرُمَـةٌ   إلَّا شَــهِدْتَ وَعُبَّــادُ الهُــوى غُيُــبُ [3]

وأمّا الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي فيمدح نور الدين بقصائد كثيرة[4]، أهمها تلك القصيدة التائية التي يشير فيها إلى مقتل (البرنس) ملك الإفرنج وأصحابه، وقلت حمل رأس "البرنس" إلى حلب، ويقول: (من الكامل)

فَــتْحٌ تَعَمَّمَــت السَّــماءُ بفَخْــره   وَهَفَــتْ عَلَــى أَغْصَــانهَا عَذَبَاتُــهُ [5]
سَبَغَتْ عَلَـى الإِسْـلام بـيضُ حُجُوله   وَاخْتَــالَ في أَوْضَــاحها جَبَهَاتُــهُ [6]
في كُــلِّ يــوم تَسْــتَطيلُ قَنَاتُــهُ   فَــوْقَ السَّــماء وَتَعْتَلــي دَرَجَاتُــهُ
وتــرى كشــمس في الضــحىَ آثــاره   مَجْــداً وَأَلْســنَةُ الزَّمَــان رُواتُــهُ
وَسَــقَى الــبرنْسَ وَقَــدْ تَبَــرْنَسَ ذلَّــةً   بــالرُّوح مُمْقَــر مَــا جَنَــتْ غَدَرَاتُــهُ [7]
فَانْقَــاد في خُطُــى المَنيّــة أَنْفُــهُ   يَــوْمَ الخَطــيم وَأَقصــرَتْ نَزَوَاتُــهُ [8]
وَمَضَــى يُؤَنِّــبُ تَحْــتَ "إِنِّــبَ" همَّــةً   أَمْسَــــتْ زَوَافــــرَ غيِّهَــــا زَفَرَاتُــــهُ

1 الراجفة: المصيبة. فؤاد رومية: قلب روما. ويجب: يخفق ويضطرب.

2 الصلب الأولى: الظهر. والصلب الثانية: جمع صليب. والكبش: سيد القوم وقائدهم، وأودى بها: أهلكها وذهب بها.

3 الروضتين: (1/58-60). وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (1/ 13-15).

4 انظر هذه القصائد: الروضتين (1/21-24).

5 تعممت السماء: لبست العمامة. وهفت العذبات: خفقت طرباً. والعذبات: جمع العذبة، وهي طرف كل شيء كعذبة العمامة.

6 سبغت بيض العجول: تمت واتسعت؛ والحجول: جمع الحجْلِ، وأراد به التحجيل، وهو البياض في قوائم الفَرَس.

7 تبرنس: لبس البُرْنُس. والبرنس: لقب يلقب به كل عضو من الأسر المالكة أو الحاكمة، وممقر: من أمقر الشيء، فهو ممقر، إذا كان حامضاً مرّاً (لسان العرب، والقاموس المحيط، مقر).

8 الخطم: جمع الخطام، حبل يجعل في عنق البعير، ويثنى في خطمه، أي: مقدّم أنفه وفمه، وهنا جعل للمنية حبلاً. ونزواته: جمع نزوة، وهي الطموح والمنازعة إلى الشر غالباً، والنزعة. وهي في الأصل: "تزواته".

تَمْشـي القَنَـاةُ بِرَأْسـه وَهْـوَ الـذي | نَظمَــتْ مَــدَارَ النيِّــرَيْن قَنَاتُــهُ[1]
تَــرَكَ الكَنَـائسَ وَالكَنَـاسَ لنَاهــب | بــالبيض يَنْهَــبُ مَـا حَــوَاهُ عُفاتُــهُ[2]
للْــوَحْش مُلْقــىً بــالعَرَا يَقْتَاتُــهُ | مَــا كَــانَ قَبْــلُ بصَــيْده يَقْتَاتُــهُ
أَوْطَــأْتَ أَطْــرَافَ السَّــنَابِكِ هَامَــهُ | فَتَقاذَفَــتْ بِعَتِيقِهَــا قَذَفَاتُــهُ[3]

ويعتبر ابن القيسراني من أكبر الشعراء ذلك العصر، وقد خصّ نور الدين بغرر قصائده وجميل مدائحه[4]، ولم يكن هذا التخصيص حبّاً في مال أو طمعاً في جاه، ولكن إعجاباً بما يحقّقه من انتصارات على الصليبيين من أجل إعلاء كلمة الدين، ونشر الأمن والسّلام في ربوع البلاد الإسلامية، ففي سنة خمس وأربعمين وخمسمئة سار نور الدين إلى بلاد (جوسلين) وهي القلاع التي في شمالي حلب، واستطاع (جوسلين) تحقيق الفوز على نور الدين، ولكن هذا النصر لم يدم، إذا استطاع نور الدّين الاستعانة بالأتراك الذين تمكنوا -بدورهم- من أسره وإحضاره إلى نور الدين، وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرَنج، شديد العداوة للمسلمين، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي عهد، وطالما صالحه نور الدين وهادنه، ولكنّه نكث وغدر فحاق مكره[5]، وقد كان لهذه الموقعة وهذا النصر الأثر الكبير في أحاسيس الشعراء وإنفعالتهم، فنظموا القصايد المطوّلة التي تشيد بهذا الفتح، وتتغنى بهذا الظفر، وتصف ما آل إليه أمر قائد الصليبيين (جوسلين) فهذا ابن القيسراني يمدح نور الدين بقصيدة طويلة، ضمت واحداً وخمسين بيتاً، بدأها بمطلع يوحي بنشوة النصر، وضرورة وجود القوة التي تقود إلى النصر: (من الطويل)

دَعَا مَا ادَّعَى مَنْ غَـرَّةُ النَّهْيُ وَالأَمْـرُ | فَمَـا المُلْـكُ إلَّا مَـا حَبَـاكَ بِـهِ القَهْـرُ[6]

1 النيران: الشمس والقمر. والقناة: هي الرّمح الذي حمل الرأس عليها. وأما القناة الثانية فقد أراد بها الظلم الذي عنه تنفذ الأوامر والنواهي في الأرض كلّها.

2 العفاة: جمع العافي، وهوكل طالب معروف.

3 الروضتين (62-60/1). وديوان ابن منير الطرابلسي، ص209-214. والعتيق: الخيار من كل شيء، وعتيقها أي خيار السنابك، القَذَفات: جوانب الشيء، وما أشرف منه.

4 انظر: مجموعة من القصائد للشاعرفي مدح نور الدين: الروضتين (20-18/1).

5 الروضتين: (72/1).

6 المصدر السابق نفسه. وخري القصر (قسم شعراء الشام) (157/1). ومعجم الأدباء (65/19).

والقصيدة لا تقف عند رواية قصة معركة واحدة، بل تحتوي على ذكر قتل "البرنس" صاحب "أنطاكية" وأسر "جوسلين" وامتلاك بلاده، ومعنى ذلك أنها استعراض لمجموعة من انتصارات نور الدّين، فبعد أنْ يقدّم الشاعر لقصيدته بمقدّمه –جمعت ما بين النهج الحكمي المرتبط فحوىً بظروف القصيدة وموضوعها، وما توحيه تلك الظروف من شعور بالمنعة والقوة [1] ينتقل إلى مدح نور الدين، ويقول:

لِيَهْن دمشْقاً أَنَّ كُرسِيَّ مَلْكِها ... حَبَاً منْكَ صَدْراً ضَاقَ عَنْ هَمِّه الصَّدْرُ
وَأَنَّكَ –نُورَ الدِّين– مُذْ زُرْتَ أَرضَها ... سَمَتْ بكَ حَتَّى انْحَطَّ عَنْ نَسْرهَا النَّسْرُ! [2]
خَطَبْتَ، فَلَمْ يَحْجُبْكَ عَنْهَا وَليُّهَا ... وَخَطْبُ العُلا بالسَّيف مَا دُونَهُ سِتْرُ
فَسُقْتَ إِلَيْهَا الأَمْنَ وَالعَدْلَ نِحْلَةً ... فَأَمْسَتْ وَلا أَسْرٌ تخَافُ وَلا إِصْرُ [3]

وينتقل بعد ذلك إلى وصف ما آل إليه مصير (البرنز) صاحب انطاكية في وقعة (إنِّب):

صَدَعْتَهُمُ صَدْعَ الزُّجَاجَة لا يَدٌ ... لجَابرهَا مَا كُلَّ كَسْر لَهُ جَبْرُ
فَلا يَنْتَحلْ منْ بَعْدهَا الفَخْرَ دَائلٌ ... فَمَنْ بَارَزَ "الإبرَنْزَ" كَانَ لَهُ الفَخْرُ
وَمَنْ بَزَّ أَنطَاكيَّةً منْ مَليكهَا ... أَطَاعَتْهُ أَلْحَاظُ المُؤَلَّلَةِ الخُزْرُ [4]
أَخُو اللَّيْث لَوْلا غَدْرَةٌ نَزَعتْ به ... إلى الذِّئْب إنَّ الذِّئْبَ شيمَتُهُ الغَدْرُ
أَتَى رأْسُهُ رَكْضاً وَغُودرَ شلْوُهُ ... وَلَيْسَ سوىَ عَافي النُّسُور لَهُ قَبْرُ [5]

لا يقف الشاعر عند تصوير قوّة ملك الإفرنج والتغلب عليه وقتله، بل أَخَذَ يعدد المعارك وما آلت إليه، وما حقّقه نور الدّين من انتصارات على هؤلاء، ليزيد من ثناء ممدوح وتمجيده، فهو بذلك يضفي صورة جميلة على شخصية الممدوح من خلال عرضه للأحداث والمعارك، ويقول:

---

1 صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ص123-124.

2 النسر: قبلت في جامع دمشق يقال لها قبة النسر.

3 الروضتين (73/1). والخريدة (158/1). ومعجم الأدباء (54/9-66).

4 بز: سلب. والمؤللة: المحددة الأذن. والخُزْر: جمع الأخرز. والمؤنث الخرزاء: ضيق العين، والخرز: صفة للألحاظ، ويراد: أصحاب الخيل التي هذه صفاتها.

5 الروضتين (73/1). ومعجم الأدباء (68/19).

كَمَـا أَهْـدَت الأَقْـدَارُ للقمـص أَسْـرَهُ وأسـعدُ قِـرْنٍ مَـنْ حَـوَاهُ لَـكَ الأَسْـرُ
طَغَـى وَبَغَـى عَـدْواً عَلَـى غُلَوَائـه فأوبقـه الكُفْـرَان: عـدواه، والكُفْـرُ[1]
وَأَلْقَـتْ بأَيْـديها إِلَيْـكَ حُصُـونُهُ وَلَـوْ لَـمْ تُجـبْ طَوْعـاً لجَـاءَ بهَـا القَسْـرُ
وَأَمْسَـتْ (عَـزَازٌ) كاسـمها بـكَ عـزّة تشـقُّ علـى النِّسْـرَيْن لـو أَنَّهـا الـوَكْرُ[2]
رَدَدْتَ الجهَـادَ الصَّـعْبَ سَـهْلاً سَـبيلُهُ وَيَـا طَالَمَـا أَمْسَـى وَمَسْـلَكُهُ وَعْـرُ
واطمعـت في الإفـرنج مـن كـان بأسُـه تخـوّفَ أَنْ يعتـادُه مـنهمُ فكـرُ[3]

ولـم يتوقـف ابـن القيسـراني لحظـة واحـدة عـن مـدح نـور الـدين، فقـد كـان لسـانه الناطق وصوته المعبر، وإحساسه المتدفق، ولهذا نجد قصائد في مدحه كثيـرة[4]. وأمـا ابـن منير الطرابلسي فقد فاق ابن القيسراني بقصائده الطِّوال في مدح نور الدين[5].

ويقول ياقوت الحموي "كان ابن القيسراني وابن منيـر الطرابلسي شاعري الشام في عهد الملك العـادل نـور الـدين بـن زنكـي، ولهمـا القصـائد الطنّانـة في مدحـه... وكانـا يشـبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التي جرت بينهما..."[6].

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمئة سار نور الدين زنكي إلى قلعة (حارم) -وهي حصن غربيّ حلـب بـالقرب مـن أنطاكيـة- وحاصـرها، وضـيّق علـى أهلهـا، وهـي قلعـة قويـة منيعـة، فاجتمعـت الفـرنج مَـنْ قـرب منهـا وَمَـنْ بَعُـد، وسـاروا نحـوه لمنعـه، وكـان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج، يرجعون إلـى رأيـه، فأرسـل إلـيهم يقـول: إننـا نقـدر على حفظ القلعة ولـيس بنـا ضـعف، فـلا تخـاطروا أنـتم باللقـاء، فإنـه إن هـزمكم أخـذها وغيرها، والـرأي بترك اللقاء، ففعلوا ومـا أشـار بـه علـيهم. وراسـلوا نـور الـدّين في الصّـلح

1 الغُلواء، هنا: أوّل العَدْو ونشاطُه. ووبق: هلك.

2 عزاز: بليدة فيها قلعة، ولها رستاق شمالي حلب(معجم البلدان 118/4). والأعلاق الخطيرة (73/2) وما بعدها.

3 الروضتين: (1/ 73-74). وعيون الروضتين (1/ 227-228).

4 انظر مثلا: الروضتين (1/74) و 83 و111.

5 انظر مثلا: الروضتين (1/ 75-79) و (81-82) و (84-95) و (101) و (104) و (110).

6 معجم الأدباء 64/19. والبداية والنهاية 231/12.

على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى إلّا على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم، وفي ذلك يقول ابن منير[1]: (من الكامل)

مَـا فَـوْقَ شَـأْوِكَ فِي العُـلا مـزدادُ … فَعَـلَامَ يُقْلِـقُ عَزْمَـكَ الإجْهَـادُ؟

همـمٌ ضَـرَبْنَ عَلَـى السَّمَاء سُـرَادقاً … فَالشّـهبُ أَطْنَـابٌ لَهَـا وَعمـادُ[2]

أَنْـتَ الّـذي خَطَبَـتْ لَـهُ حُسَّـادُهُ … وَالفَضْـلُ مَـا اعْتَرَفَـتْ بـه الحُسَّـادُ

أَلْبَسْـتَ ديـنَ مُحمَّـد يَـانُورَهُ … عـزّاً لَـهُ فَـوْقَ السُّـهَا آسَـادُ

مَـا زلْـتَ تَشْـمِلُهُ بمَيَّـاد القَنَـا … حَتَّـى تثقّـف عُـودُهُ المَيَّـادُ

لَـمْ يَبْـقَ مُـذْ أَرْهَفْـتَ عَزْمَـكَ دُونَـهُ … عـددٌ يُـرَاعُ بـه، وَلا اسْـتعْدَادُ

إنَّ المَنَـابرَ لَـوْ تُطيـقُ تَكَلُّمـاً … حَمـدَتْكَ عَـنْ خُطَبَائهَـا الأَعْـوَادُ

مُلْـق بـأَطْرَاف القَريحَـة كَلْكَـلاً … طرفـاهُ ضَـرْبٌ صَـادقٌ وَجـلادُ

حـامَوْا فَلمَّـا عَـايَنُوا خَـوْضَ الـرَّدَى … حَـامُوا فَـرَائسَ كَيْـدهم أَو كَـادُوا[3]

وَرَأَى البـنْسُ وَقَـدْ تَبَـرْنَسَ ذلَّـةً … حَرَمـاً لحَـارمَ وَالمَصَـادُ مَصَـادُ

ضَـجَّتْ ثَعَالبـه فـأخرس جرسـها … بـيضٌ تناسـبُ في الحديـد حـداد

يَـامَنْ إذَا عَصَـفَتْ زَعَـازعُ بأْسـه … خمـدت جحـيم الشِّـرك فهـي رَمـادُ[4]

ورأوا لـوَاءَ النصـر فَوْقَـكَ خَافقـاً … فأقـامَ مـنهمْ في الضّـلوع فـؤادُ

مَـنْ مُنْكـرٌ أنْ يَنْسفَ السَّيْلُ الزُّبـى … وَأَبُـوهُ ذَاكَ العَـارضُ المَـدَّادُ؟[5]

أو أنْ يعيـد الشـمسَ كاسـفةَ السَّـنَا … نـارٌ لَهَـا ذاكَ الشـهابُ زنـادُ؟

لا ينفـعُ الآبـاءَ مـا سَـمَكُوا مِـنَ الـ … ـعَلْيَاءِ حتَّـى يُرْفَـعَ الأَوْلادُ[6]

---

1 الكامل في التاريخ (208/11). والروضتين (1/100-101). (توفي ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمئة، فإنما أن يكون ابن منير قد قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أنْ تكون هذا الغزاة في غير هذه السنة، ويضيف أبو شامة قائلاً: وقد قرأت في ديوان ابن منير: وقال يمدح ويهنيه بالعودة من غزاة حارم). ولا يزال الشك يحيط بنسبة هذه القصيدة.

2 السرداق: تمدّ فوق صحن الدار، وقيل: كلّ ما أحاطَ بشيء نحو الحائط المشتمل على الشيء. والأطناب: جمع الطّنب، وهو الحبل الطويل الذي يشدّ به سرداق البيت.

3 جانس الشاعر بين (حامَوْا) بمعنى داروا والتفوا، وبين (حاموا) بضم الميم بمعنى الحماية.

4 الزعازع: الشديدة وهي جمع الزعزعة.

5 العارض: السحاب المعترض في الأفق.

6 الروضتين 1/ 101-102. والكامل في التاريخ 11/ 208-209. وديوان ابن منير الطرابلسي، ص262-263. وسمكوا: رفعوا.

ونلاحظ أنَّ الشاعر يختار معجمه الشعري بدقة، ويحاول بقدر إمكانه أنْ يرفع من قيمة الممدوح ويمجده، وذلك عن طريق التغني بقوته التي لا تضاهى، ودفاعه عن الدين وتثبيت قواعد الإسلام ودعائمه، ويضاعف من إظهار قيمة ممدوحه من خلال إزدرائه للأعداء، وإظهار ضعفهم، وكان لا بدّ من صخب هذه الالفاظ حتّى يسوّغ موقف الملك نور الدّين الذي اتخذه، وهو قبول الصلح، بمعنى أنه قَبلَ الصّلح من منطلق القوة لا الضعف، والحقن لدماء المسلمين لا الأعداء.

وحين ننظر إلى أبيات العماد الأصفهاني في مدح نور الدين زنكي، ونرى أنه يحاول من خلالها ابراز مقدرته على استخدام المحسنات البديعية، وإطلاق الأوصاف الدينية والدنيوية، ويقول: (من السريع)

بالمَلِك العَادل مَحمُود ... أَنْجَزَت الأَيَّامُ مَوْعُودي[1]

مَنْ لَمْ يَكُنْ في ظلّه سَاكناً ... فَإنَّهُ لَيْسَ بمَسْعُود

وَكَيْفَ لا يَسْعَدُ عَبْدٌ لَهُ ... أَقَامَ بَيْنَ العَدْل وَالجُود

سَفَائنُ الآمَال مِنْ جُوده ... قَد اسْتَوَتْ منَّا عَلَى الجُودي

آلاؤُهُ البيضُ بلألائهَا ... تُشْرقُ في لَيْلاتنَا السُّود

عَزْمَتُهُ مَشْهُورَةٌ في الوَرَى ... وَسَيْفُهُ لَيْسَ بمَغْمُود

غَدَوْتَ للإسْلام رُكْناً وَكَمْ ... رُكْنِ ضَلَالٍ بكَ مَهْدُودِ

وَذُلّ لأْوَاءَ بَني الشّرك في ... لواء نَصْر لَكَ مَعْقُود[2]

شَيَّدْتَ بالشَّام بنَاءَ الهُدى ... عَزْمَاً وَحَزْماً أَيّ تَشْييد

لولاكَ لَمْ تَعْلُ بأَطرَافه ... رَايَاتُ إيمان وَتَوحيد

فَلَمْ تَدَعْ في أَرْضه كَافراً ... أَوْ مُلْحداً لَيْسَ بمَلْحُود

وَلَمْ تُغَادرْ منْهُمُ سيِّداً ... يَغْدُرُ إلَّا طُعْمَةَ السِّيد[3]

وَلَمْ تَزَلْ تُرْدِي صَنَاديدَهُمْ ... بِجُنْدِكَ الغُرِّ الصَّنَادِيدِ[4]

---

1 الجودي: الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام، وفي الشطر اقتباس من الآية الكريمة "وغيض الماء وقضية الأمر، واستوت على الجودي" هود 44/11.

2 اللأواء واللأي: الشدة والمحنة وضيق العيش.

3 السيد: مفرد السيدان: الذئب أو الاسد.

4 الخريدة: (بداية قسم شعراء الشام) ص43-44.

والعماد شاعر متمرّس في شاعريته، متمكّن من صياغة ألفاظه، قادر على إصابة جوهر المعاني، بأسلوب سهل قريب إلى النفس، بعيد عن الوعورة والغريب، فها هو يمدح نور الدين قائلاً: (من الكامل)

مـا للملـوك لـدى ظهـورِكَ رونـقٌ	وإذَا بَدَتْ شمسُ الضُّحى خفي السُّها
إنَّ الملـوكَ لَهَـوْا وإنَّـك مـن غـدا	وبمالـه والملـك منـه مـا لهـا
شَـرِهَتْ نفوسُـهم إلـى دنيـاهم	وَأَبـى لنفسـك زهـدها أن تَشْـرَهَا
مـا نمـت عـن خيـر ولـم يـك نائمـاً	مـن لا يـزال علـى الجميـل منبّهـا
أَخْمَلْـتَ ذكـر الجـاهلين ولـم تـزل	ملكـاً بـذكْر العـالمين مُنَبّهـا
ورأيـت إرعـاء الرعايـا واجبـاً	تغنـي فقيـراً أو تجيـر مُـدلَّلَها[1]
لرضـاهم متحفظـاً، ولحـالهم	متفقـداً، ولـدينهم متفقهـا
وبمـا بـه أمـر الإلـه أمـرتهم	مـن طاعـة، ونهيـتهم عمّـا نهـى
عـن رحمـة لصـغيرهم لـم يُمْـتَحَنْ	عـن رأفـة لكبيـرهم لـن تشـدها
باليـأس عنـدك آمـل لـم يمـتحن	بـالرّدّ دونـك سـائل لـن يُجْبَهَـا
اتعبـت نفسـك كـي تنـال رفاهـة	مـن لـيس يتعـب لا يعـيش مرفَّهـا
فقـت الملـوك سـماحة وحماسـة	حتـى عـدمنا فـيهمُ لـك مشـبها
ولـك الفخـار علـى الجميـع فـدونهم	أصـبحت عـن كـل العيـوب منزَّهـا
وأراك تحلـم حـين تصـبح سـاخطاً	ويكـاد غيـرك سـاخطاً أنْ يسـفها[2]

ويعلق أبو شامة على هذه الأبيات قائلاً: "قلت رحم الله العماد، فقد نظم أوصاف نور الدّين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه، وهذا البيت الأخير مؤكد لما نقلناه في أول الكتاب من قبل الحافظ أبي القاسم رحمه الله في وصف نور الدّين رحمه الله[3] إنّه لم يستمع منه كلمة فحش في رضاه، ولا في ضجره، وقل من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة"[4].

1 المدله: الساهي القلب، الذاهب العقل من عشق ونحوه.

2 الروضتين 1/ 150-151.

3 المصدر السابق 1/5 وما بعدها.

4 المصدر السابق 1/151.

والذي يسترعي الانتباه كارثة الزلزلة التي حلت بالشام سنة خمس وستين وخمسمئة، وعمّت أكثر البلاد فخربت بعلبك وحمص وحماه وشَيْرز [1] وغيرها، وتهدمت أسوارها، وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها... ولم ير الناس مثلها، وقيل: "هلك من الناس ما يخرج عن العدّ والإحصاء". وقد أخذ نور الدين يصلح في البلاد ما لحق به البلاء والدمار، وكان شديد الحذر من الإفرنج، فاشتعل بعمارة بلاده وتحصين حصونه[2]... وعلى الرغم من هذه المصيبة، فقد نظر الشعراء إلى نور الدّين على أنه المخلص لهذه البلاد، فاستحق منهم المدح والثناء، فهذا العماد الأصفهاني يمدحه بقصيدة طويلة، ويحاول أنْ ينسين همومه والكارثة التي حلّت، ولا يذكرها في قصيدته إلا حين يشير إلى حداده على هذه المأساة، ويقول: (من الخفيف)

أتمنى في الشام أهلي ببغدا ... دَ وأينَ الشّامُ منْ بَغْدَاد؟

ما اعتياضي عَنْ حبِّهِمُ يَعْلَمُ اللَّـ ... ـهُ تَعَالى إلَّا بحُبِّ الجهَاد

وَاشتغالي بخدمة المَلك العَا ... دل مَحْمُود الكريم الجوَاد

قَيَّدَتْني بالشَّام منهُ الأَيادي ... وَالأَيَادي للحُرِّ كالأَقْيَاد

قد وردتُ البحرَ الخضَمَّ وَخَلَّفْـ ... ـتُ ملوكَ الدُّنْيَا به كَالثِّمَاد[3]

هو نعمَ المَلاذُ منْ نَائب الدّهـ ... ـر وَنعْمَ المعاذُ عندَ المَعَاد

الغزير الإفضلل والفضل والنَّا ... ئل والعلم والتُّقى والسَّدَاد

باذلٌ في مصالح الدين طوعاً ... ما حواهُ منْ طَارف وتلاد

وتراهُ صعبَ المقالة في الشَّرِّ (م) ... ولكنْ في الخَيْر سَهْل القيَاد

جلَّ رُزْءُ الفرنج فاستبدلوا منـ ... ـهُ بلُبْس الحَديد لُبْسَ الحدَاد

فَرَّقَ الرُّعبُ منْهُ في أنْفُس الكُفَّا (م) ... ر بَيْنَ الأَرْوَاح وَالأَجْسَاد

سَطْوَةٌ زلزلتْ بسكَّانها الأر ... ضَ وهدَّتْ قَوَاعدَ الأَطْوَاد

أَخَذَتْهُمُ بالحَقِّ رَجْفَةُ بأس ... تَرَكَتْهُمْ صَرْعى صُرُوف العَوَادي

---

1 شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام غرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، وفي وسطها نهر العاصي عليه قنطرة في وسط المدينة. (معجم البلدان 3/383).

2 انظر: الروضتين 1/184. والكامل في التاريخ 11/ 354-355.

3 الثماد جمع الثَمَد، والثمد: الماء القليل يتجمع في الشتاء وينضب في الصيف، أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر.

آيـــةٌ آثَـــرَتْ ذَوِي الشِّـــرْكِ بِالهُلْـــ ـــكِ، وَأَهْـــلِ الإيمَـــانِ بالإِرْشَـــادِ[1]

ومن الأحداث التي استرعت انتباه الشعراء وحازت إعجابهم، وشاركوا فيها مشاركة فعّاله، أحداث سنة ثمان وستين وخمسمئة، ذلك أنَّ الإفرنج قصدوا -في هذه السنة- حَوْرانَ في موج عارم من الرجال والخيل، ويقال: "كان في جمع غلبة كثرته الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بـ"شمسكين"[2]، ولما علم نور الدين بالخبر، أرسل طلائعَه وفرقه فأغارت وعادت بالغنائم والسبايا، فحمد الله على ذلك وهشّ وبشّ، وكان من نتائج ذلك أنَّ رحل الفرنج، وردّوا على أعقابهم منهزمين خاسرين، لائذين بالفرار[3]... ويقول العماد: "فارتجلت عند النزول بالمخيم مدْحَةً مشتملة على وصف الحال، وَسَمَّيْتُ فيها كلّ من كان حاضراً من الرجال الأكابر الأبطال"[4]، وتعدّ هذه القصيدة من القصائد الرائعة التي تنمّ على شاعرية فذّة وخبرة وممارسة طويلة، وتجربة عميقة، مع أنَّ الشاعر ارتجلها ارتجالاً، ولنقرأ معاً بعض الأبيات منها، لنحكم عليها، ويقول في مطلعها: (من الكامل)

عُقِـــدَتْ بِنَصْـــرِكَ رَايَـــةُ الإيمَـــانِ وَبَـــدَتْ لِعَصْـــرِكَ آيَـــةُ الإِحْسَـــانِ

ونرى أننا نواجه مطلعاً أحسن الشاعر الابتداء به، لأنه أضاء وعكس غايته من خلاله، وهي الابتهاج بالنصر، والتغني بالفرحة، ورفع راية الإسلام، وتصوير ممدوحه بالمجاهد في سبيل الله، والازدراء للصليبيين؛ لأن المعركة معركة إسلام وكفر، ويتابع الشاعر قصيدته بقوله:

يا غالبَ الغُلْب الملوك، وَصَائدَ الصِّـ (م) يـــد اللّيـــوث، وَفَـــارسَ الفُرْسَـــانِ[5]
يَـــا سَـــالبَ التِّيجـــان مـــنْ أَرْبابهـــا حُـــزْتَ الفَخَـــارَ عَلَـــى ذَوي التِّيجـــان
مَحْمُـــودٌ المَحْمُـــودُ مَـــا بَـــيْنَ الـــوَرَى في كُـــــلِّ إقلـــيم بكـــــلّ لسَـــــان
يَـــا وَاحـــداً في الفَضْـــل غَيْـــرَ مُشَـــارَك أَقْسَـــمْتُ مَالَـــكَ في البَسـِـيطَة ثَـــان
أَحْلَـــى أَمَانيـــكَ الجهَـــادُ وإنَّـــهُ لَـــكَ مُـــؤْذنٌ أَبَـــداً بكُـــلّ أَمَـــان

1 الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) ص48-49. والروضتين 185/1. وديوان عماد الدين، ص125-126. ولعل الشاعر شبه نور الدين بالزلازل. فقد جعله آية من آيات الله، أهلك الله به المشركين من الفرنجة، وأرشد به المؤمنين.

2 هي قرية "شيخ مسكين" في حوران. وفي الأصل: "بسمكين" وهو تحريف.

3 الخريدة (بداية قسم شعراء الشام)، ص53. والروضتين 207/1.

4 الخريدة، ص53.

5 الصيد جمع الأصيد: الملك لأنه لا يلتفت من زهو يمينا وشمالاً ويرفع رأسه كبْراً، والصيد: الأسود.

كَـمْ بكْـر فَـتْح وَلَّدَتْـهُ ظُبَـاكَ مـنْ حَــرْب لقَمْــع المُشْــركينَ عَــوان
كَـمْ مُصْـعَبٍ عَسِـرِ المَقَـادَةِ قُدْتَـهُ نَحْــوَ الــرَّدَى بِخَــزَائِمِ الخُــذلان[1]

وبعد أنْ يصف المعركة التي وقعت بين المسلمين والصليبيين وما آلت إليه[2]، وينتقل إلى السخرية من الأعداء والتشفّي منهم، وتصوير ما لحق بهم من خزي وعاد وخسارة، ويقول:

يَـا خَيْبَـةَ الإفـرنج حـينَ تَجَمَّعُـوا في حَيْــرَة وَأَتَــوْا إلــى حَــوْرَان
جَـاؤُوا وَظَـنَّهُمُ يُعَجِّـلُ ربْحَهـمْ فَأَعَــدْتَهُمْ بــالخزْي وَالخُسْــرَان
وَظُنُــونُهُم وَقُلُــوبُهُمْ قَــدْ أَيقنــتْ للرُّعْــب بالإخفــاق وَالخَفَقَــان
وَجَلَوْتَ -نورَ الدِّين- ظُلْمَةَ كُفْرهُم لَمَّــا صَــدَعْتَ بوَاضــح البُرْهَــان
وَهَــزَمْتَهُمْ بــالرَّأي قَبْــلَ لقَــائهمْ (وَالــرَّأْيُ قَبْــلَ شَــجَاعَة الشُّــجْعَان)
رَاحُــوا فَبَــاتُوا تَحْــتَ كُــلّ مَذَلَّــة وضــربتَ مــنْهُمْ فَــوْقَ كُــلّ بَنَــان
وَلَّــوْا وَقَلْـبُ شُـجَاعِهِمْ فِـي صَـدْرِهِ كَالسَّــيفِ يُرعِــدُ فِــي يَمـينِ جَبَـان[3]

ويقف وقفة طويلة في وصف خوفهم وما لحق بهم من ذل عار الهزيمة، مقارناً ذلك بمعنويات المسلمين من خلال عرض بعض جوانب المعركة والأسلحة التي استخدمت فيها، مضيفاً على ذلك الجو الدّيني، مذكراً بالصحابة الذين وقفوا يوم بدر، وحاولوا نصر النبي (ﷺ)، ويضع نفسه مكان حسّان بن ثابت (رضي الله عنه) في وصف معارك المسلمين[4]. ولم يفت على الشاعر أن يسجل للتاريخ الملوك والأمراء وقواد الفرنج الذين حضروا تلك الموقعة، وما آل إليه مصيرهم[5]، ثمّ يعرج على وصف "ما اعتمده نور الدين في ذلك اليوم، إذ أنفذ سَرِيَّةً إلى بلاد القوم فأحرقت ونهبت، وَكَبَسَتْ أهلها

1 الخريدة (البداية) ص54-55. والروضتين 207/1 وديوان العماد، ص410-411. والخزام: حلقة يشدّ فيها الزمام؛ تقول: خزّم البعير، جعل في جانب منخره الخزام، وهنا كناية عن الذلّ والمصعب: الفحل الذي لم يمسه حبل ولم يركب.

2 انظر الأبيات في: الخريدة(البداية) ص55. وسنعرضها حين نتحدث عن وصف المعارك. انظر: بحثنا هذا، ص216-217.

3 الخريدة(البداية)، ص56-57. والروضتين (208/1). وديوان العماد، 413.

4 انظر الأبيات في الخريدة (البداية) ص57-59.

5 المصدر السابق، ص59.

وَكَسَبَتْ"[1]، ويضفي على وصفه الجو الديني الذي يذكر فيه القائد نور الدّين بقوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ ويقول:

وَقَــدْ اســتفادَ الْمُشْــرَكُونَ تَعَازِيــاً	وَالمُسْــــلِمُونَ تَهَادِيــــاً بِتَهَــــان
لَــمْ تَلْقَهُــمْ ثِقَــةً بِقُــوّة شَــوْكَة	لكِــنْ وَثِقْــتَ بِنُصْــرَة الــرَّحْمَن
دَانَــتْ لَــكَ الــدُّنْيَا، فَقَاصِــيَها إذَا	حَقَّقْتَــــهُ لِنَفَــــاذ أَمْــــرِكَ دَان
فَمِــنَ العــرَاقِ إلــى الشَّــآم إلــى ذرَا	مِصْــر إلــى قُــوص إلــى أُسْــوَان
لَــمْ تَلْــهُ عَــنْ بَــاقِي الــبلاد وإِنَّمَــا	أَلْهَــاكَ فَــرْضُ الغَــزْو عَــنْ هَمَــذَان[2]
إِعْــزَازُكَ الــدِّينَ الحَنِيــفَ وَحِزْبَــهُ	قَــدْ خَــصَّ أَهْــلَ الشِّــرْك بِــالإهْوَان
أَذْعَنَــــتَ لله المُهَــــيْمن إذْ عَنَــــتْ	لَــــكَ أَوْجُــــهُ الأَمْــــلاك بالإِذْعَــــان
أَنْــتَ الــذي دُونَ المُلُــوك وَجَدْتُــهُ	مَــــلآنَ مِــــنْ عُــــرْف ومِــــنْ عِرْفَــــان
عُمْـــرَانُ عَـــدْلِكَ لِلْـــبِلَاد كَأَنَّمَـــا	قَـــدْ عَـــاشَ فِي أَيامِـــكَ العُمَـــرَان[3]
خَلَّــدْتَ فِــي الآفَــاقِ ذِكْــراً بَاقِيــاً	أَبَــدَ الزَّمَــانِ بِبَــذْلِ مَــالٍ فَــانِ[4]

والمتصفح لهذه القصيدة لا يعتقد اعتقادنا، ولا يوافق مذهبنا من أنَّ الشاعر ارتجلها ارتجالاً دون إعداد أو تحضير مسبق، أو أنه لم يخضعها لتنقيح أو تحكيك، أو تنسيق وتزيين، لأن ما حوته من قيم فنّية، وأساليب أدبية، ومعان عميقة، وألفاظ منتقاة، وصدق عاطفة، ووضوح الغاية، ومناسبة الوزن، وحسن اختيار القافية، ويفوق كل اعتقاد، ناهيك عن شغف الشاعر باستخدام الأساليب البيانية، والمحسنات البديعية؛ أضف حرصه الشديد على تسجيل الأحداث بأمانة وإخلاص، ولعل الشاعر أراد الارتجال أنَّه كتبها عند النزول بالمخيم، ولم يُعْمل ذهنه طويلاً بالمراجعة والتحكيك

1 المصدر السابق، ص60

2 انظر تفصيل قصة هذا البلد في الروضتين (188/1). وملخصها: أنه في سنة ست وستين وخمسمئة قصد نور الدين الرقة فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن، فكتب إليه عامة الأمراء في الموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلّموا البلد إليه، ولكن القائد "ايلدكز" نهاه عن دخولها، فلم يلتفت إليه، وأرسل إليه يقول: أنا أَرْفَقُ ببني أخي منك، فلا تدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت النصف من بلاد الإسلام واهملت الثغور. وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أنْ أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين وقد استطاع دخول الموصل وغيرها.

3 العمران: أبو بكر وعمر ﷺ، وقيل: عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ﷺ.

4 الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) ص61-62. والروضتين (308/1). وديوان العماد، ص416 - 418.

على ما في القصيدة من محسنات، ثم ألقاها، وهذا يحصل مع شاعر متمرس بالمحسنات مهتم بها، حتى خرجت قصيدته على هذا النحو.

ومن الغريب حقاً، أن نجد صوت الشعراء يرتفع، وألفاظهم تدوّي، وتهديدهم للأعداء لا ينقطع من خلال مدحهم لنور الدين زنكي الذي هزم في سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، يقول ابن الاثير: جمع نور الدّين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد، وهو الفرنج عازماً على دخول بلادهم (طرابلس) ومحاصرتها، فبينما الناس يوماً في خيامهم وسط النهار، لم يَرُعْهم إلّا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك انه الفرنج اجتمعو واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهاراً، فساروا مجدّين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج على ظهر خيمته، وركب فرساً كان هناك، وانطلق به إلى مدينة حمص فأقام بظاهرها[1].

فلنقرأ معاً نصّاً شعرياً لمهذب الدين بن أسعد الموصلي ابن الدهان لنتعرف على وجهة نظره في هذه الموقعة، ويقول: (من البسيط)

ظُبى المَوَاضي وَأَطْرَافُ القَنَا الذّبُل ... ضَوَامنٌ لَكَ مَا حَازُوه مِنْ نَفَل

وَكَافِلٌ لَكَ كَافٍ مَا تُحَاوِلُهُ ... عِزٌّ، وَعَزْمٌ، وَبَأْسٌ غَيْر مُنْتَحَل

ومَا يَعيبُكَ مَا نَالُوهُ مِنْ سَلَب ... بالخَتْل، قَدْ تُؤْسَرُ الآسَادُ بالحيَل

وَإنَّما أَخْلَدُوا جُبْناً إلى خُدعَ ... إذْ لَمْ يكُنْ لَهُمُ بالجَيْش مِنْ قَبل

وَاسْتَيْقَظُوا وَأَرَادَ اللهُ غَفْلَتَكُمْ ... لِيَنْفُذَ القَدَرُ المَحْتُومُ فِي الأَزَلِ[2]

وهذا هو عزاء المسلمين، إيمانهم بالقدر المحتوم، وعدم الإذعان للنكسة، أو الاستسلام للأعداء. ولقد حرص الشاعر على تخفيف وقع الهزيمة في النفوس، وتقليل أهمية ما حصلوا عليه من نصر وسلب ونهب، والازدراء لقوّتهم، وتحقيق مآربهم عن طريق المكر والخديعة، ويقول:

1 الكامل في التاريخ (294/11) وما بعدها.

2 الروضتين (128/1). والخريدة(قسم شعراء الشام) (289/2). وديوان ابن الدهان (مهذب الدين الموصلي)، ص70-71. وتاريخ دمشق (جزء عبادة بن أوفى-عبد الله ثوب) ص375- 376. وتهذيب ابن عساكر(295/7- 296). وعيون الروضتين (260/1-261).

بَنِـي الأَصَــافر مَــا نِلْــتُمْ بمَكــركُمُ   وَالمكْــرُ في كُــلّ إنْسَــانٍ أخُــو الفَشَــلِ
وَمَــا رَجَعْـتُم بأَسْـرَى خَـابَ سَـعْيُكُمُ   غَيْــــرَ الأرذال وَالأتْبَـــاع والسَّــــفَلَ
سَــلَبْتُمُ الجُــرْدَ مُعْــرَاةً بــلاَ لُجُــم   وَالسُّـمْرَ مَرْكـوزَةً، والبـيضَ في الخَلَـل[1]
هَــلْ آخـذُ الخَيْـل قَـدْ أَرْدَى فَوَارسَـهَا   مثَــالُ آخــذهَا في الشَّــكْل وَالطَّــوَل؟[2]
أَمْ سَــالِبُ الــرُّمْحِ مَرْكُــوزاً كَسَــالِبهِ   وَالحَــرْبُ دَائِــرَةٌ مِــنْ كَـفٍّ مُعْتَقِــلِ[3]

فالشاعر المهذب يلتمس العذر تلو الآخر، فالحرب سجال، ولكل جواد كبوة، يوم لـك ويوم عليك، فليس معنى الهزيمة الاستسلام، بل لا نجدُ الاستسلام في المعجم الشعري للشـاعر، ولقـد أخـذ يـذكّر المسـلمين بماضـي أسـلافهم، ويضـرب لهـم الأمثـال والعبر، ويسوق إليهم الحكم، ويشير إلى غـزوة حنين التـي وقعت في السـنة الثامنـة بعد الفـتح، ومـا نـتج عنهـا مـن إنهـزام المسـلمين في أوّلهـا[4]، ولكـن إعتصـامهم بحبـل الله، وتمسّكهم بدينهم، وإعدادهم العدّة، والقـوة، ورباطـة الجأش، كـان سبباً في إحـراز النصر المؤزّر الـذي حقّقـوه بعـون الله، وبـذلك يعطي المسـلمين درسـاً للاعتصـام بحبـل الله، والإيمان بأن النصر من عند الله؛ لأنه مـن ينصـر الله ينصـره مصـداقاً لقـول الله تعـالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ ويقول:

جـيشٌ أَصَــابَتْهُمُ عَـيْنُ الكَمــال وَمَــا   يَخْلُــوا مــنَ العَــيْن إلا غَيْــرُ مكْتَمــل
لَهُــمْ بيَــوْم حُنَــيْن أُسْــوَةٌ وَهُــمُ   خَيْــرُ الأَنَــام وَفــيهمْ خَــاتمُ الرُّسُــل
سَيَقْتَضِــيكُمْ بِضَــرْبٍ عِنْــدَ أَهْوَنِــهِ   البِــيضُ كَــالبيضِ، وَالأَدْرَاع كَالحُلَــلِ[5]

1 الخلل والخلال: جمع الخلة: جفن السيف المغشى بالأدم.

2 الشكل: يقال شكل الدابة بالشّكال شكلاً: إذا شدّ قوائمها به، والشكال: وثاق يجمع بين يد الدابة ورجلها. والطول: حبل طويل يشدّ به قائمة الدابة. ومركوزاً: من ركز الرمح ركزاً: عرزه في الأرض وأثبته.

3 المصادر السابقة نفسها. ومعتقل الرمح: الذي وضعه بين ركابه وساقه.

4 انظر السيرة النبوية لابن هشام (437/3) وما بعدها.

5 الروضتين (28/1). والخريدة (شعراء الشام) (290/2).

ويقول العماد الكاتب عن هذا النص الشعري: "هذا أحسن ما سمعته في مدح مَنْ كُسر وغُدِرَ، ولقد وافق العُذْرُ ما ذَكَر، وانتصف بَعْدَ ذلك وانتصر، ونالَ الظَّفَر"[1]. وأما أبو شامة فيقول: "حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:

غَيْري بأكثر هذا الناس يَنْخَدعُ[2]

القصيدة، فإنَّ كلّ واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً عفا الله عنهما"[3]. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل تحقق النصر للمسلمين؟ يقول العماد الكاتب: "كان كما ذكر، فإن الإفرنج بعد ذلك بثلاثة أشهر كُسروا على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأسر من نجا، وأُخذ القَوْمَس والإبرنس وجميع ملوكهم، وكان فتحاً مبيناً، ونصراً عظيماً"[4]. ثمّ قال: وتمام القصيدة:

مَلِكٌ بعيدٌ عَن الأدْنَاس ذُو كَلَف ... بالصِّدق في القَوْل وَالإخْلاَص في العَمَل[5]

فَالشَّمسُ مَا أَصْبَحَتْ وَالشَّمْسُ مَا أَفَلَتْ ... وَالسَّيْفُ مَا فُلَّ وَالأَطْوَادُ لَمْ تَزُل

كَمْ قَدْ تَجلَّت بنُور الدِّين منْ ظُلَم ... للظُّلْم وَانْجَابَ للإضْلاَل منْ ظُلَل

وَبَلْدَة مَا تَرَى فيهَا سوَى بَطَل ... غَزَا فَأَضْحَتْ وَمَا فيهَا سوَى طَلَل

قُلْ للمُوَلِّينَ: كُفُّوا الطَّرْفَ منْ جُبُنٍ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَغُضُّوا الطَّرْفَ منْ خَجَلِ[6]

والذي يدلنا على صدق قوله، وإخلاصه في عمله، وقوة إيمانه، وحبّه للعلم والعلماء تلك القصيدة التي يرويها صاحب الروضتين[7] عن نور الدين بعد هذه الهزيمة، وكان بأمسّ الحاجة إلى الأموال والسّلاح: لقد أكثر نور الدين الخَرْج -في ذلك الوقت- إلى أن قسم في يوم واحد مئتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك،

---

1 الخريدة (شعراء الشام) (288/2).

2 هذا الشطر الأول من مطلع قصيدة طويلة للمتنبي -وتمامه:"إنْ قَاتلوا جَبُنُوا أَو حَدَّثوا شَجعُوا"- قالها يمدح سيف الدولة، ويذكر الوقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحدث، وذلك في سنة تسع وثلاثين وثلثمئة. ومعنى البيت: لا أنخدع بالناس فأتأول فيهم الخير، وأظن فيهم الجميل؛ لأنهم يجبنون عند القتال، ويشجعون عند الحديث، فشجاعتهم بالقول لا بالفعل، فلا أغتر بقولهم. انظر: شرح ديوان المتنبي، للبرقوقي (329/2). وما بعدها.

3 الروضتين 1/128.

4 الخريدة(قسم شعراء الشام) 2/290. وانظر: الروضتين 1/133.

5 كلف: تقول: كَلفَ كَلَفاً به: أحبّه حبّاً شديداً، وأولع به.

6 الخريدة: 2/ 290-291. والروضتين 2/128.

7 الروضتين 1/ 127-128.

وتقدّم بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً، علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه، فأرسلوا إلى نور الدّين يعلمونه الأمر. فقال: لا تكدروا عطاءنا فإنني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إنَّ لك في بلادك إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفيّة والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل؛ فغضب من هذا وقال: والله إني لأرجو بأولائك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع قوماً يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ، وقد تصيب؟ ثم هؤلاء القوم له نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا.

ويتابع الشاعر خطابه للمولّينَ من جيش المسلمين فيعنّفهم ويؤنّبهم لطلبهم النجاة دون أنْ يلجؤوا إلى نور الدين، ويثني على نور الدين؛ فيقول:

طَلَبْتُمُ السَّهْلَ تَبْغُونَ النَّجَاةَ وَلَوْ ... لُذْتُمْ بمَلْككُمُ لُذْتُمْ إلى جَبَلِ

أَسْلَمْتُمُوهُ وَوَلَّيْتُمْ فَسَلَّمَكُمْ ... بثَبْتَةٍ لَوْ بَغَاهَا الطَّوْدُ لَمْ يَنَلِ

مُسَارعينَ وَلَمْ تُنْثَلْ كَنَائنكُمْ ... وَالسُّمْرُ لَمْ تُبْتَذَلْ، وَالبيضُ لَمْ تُذَلِ[1]

وَلَا طَرَقْتُمْ بِوَبْلِ النَّبْلِ طَارِقَةً ... وَلَا تَعَلَّقَتِ الأَسْيَافُ فِي القُلَلِ[2]

ثم ينتقل إلى وصف الجيش و المعركة بألفاظ جزلة، وأسلوب رصين، وإحساس مرهف، وعاطفة جياشة، ممّا جعله يرسم صورة أمينة للواقع الذي رآه بصدق وبُعد عن الخيال، ويختم الشاعر قصيدته بأبيات يقول فيها:

كَمْ قَدْ مَلكْتَ لَهُمْ مُلْكاً بلاَ عوَض ... وَحُزْتَ منْ بَلَد منْهَا بلاَ بَدَل

وَكَمْ سقيْتَ العَوَالي منْ طُلَى مَلك ... وكم قَرَيْتَ العَوَافي منْ قرى بَطَل[3]

وَأَسْمَر منْ وَريد النَّحْر مَوْردُهُ ... وَأَجْدَل أكلُه منْ لَحْم مُنْجَدل[4]

حَصيدُ سيفكَ قَدْ أَعْفَيْتَهُ زَمَناً ... لَوْ لَمْ يطلْ عَهْدُهُ بالسَّيْف لَمْ يَطُل

---

1 نثل الكنانة: استخرج نبالها فنثرها، ولم تبتذل: لم تستعمل.

2 القلل: جمع القُلّة: أعلى الرأس والجبل وكل شيء.

3 العوالي: الرماح، والطّلى: الأعناق واحدتها طُلْيَة. وقريت: أكرمت. والعوافي: جمع العافية وهي كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر.

4 الأسمر: الرمح. والأجدل: واحد الأجادل: الصقر، صفة غالبة، أصله من الجَدْل وهو الشدة. ومنجدل: مصروع.

لا نكّبتْ سَهْمَكَ الأَقْدَارُ عَنْ غَرَضٍ وَلَا ثَنَتْ يَدَكَ الأَيَّامُ عَنْ أَمَلِ[1]

وقبل أنْ أطوي الصفحات المشرقة التي صوّرت بعضاً من جوانب حياة نور الدّين زنكي، رأيت أنْ أشير إلى قضيّة هامّة، هي قضية العدل التي شغلت الشعراء، فقد اخذوا يلحّون عليها إلحاحاً كبيراً، ويرون أنه لابدّ للحاكم أن يتّصف بالعدل الذي هو أساس السيادة والملك؛ لأن الحاكم العادل ظلّ الله في أرضه، ولهذا نجد (العدل) يتردّد كثيراً في أشعارهم، فهذا ابن منير الطرابلسي يقول: (من الرجز)

الملكُ العادلُ لفظٌ طَابقَ الـ مَعْنَى وَفِي الوَصْفِ معاد مستردُ[2]

ويقول في قصيدة أخرى: (من الكامل)

صافٍ إذَا كَدَرَ المعادنُ، عادلٌ إنْ حافَ حُكَّامُ الملوكِ وَجَارُوا[3]

ويقول في غيرها: (من الكامل)

أَوَلَسْتَ مَنْ مَلأَ البسيطةَ عَدْلُهُ وَاجتبَّ بِالمعروفِ أَنْفَ المنكرِ؟[4]

وله: (من الوافر)

أَضَاءت شمسُ عدلكَ في دُجَاها فكلّ زمانِ سَاكِنِها نَهَارُ[5]

وله أيضاً: (من الرجز)

يا محييَ العدلِ ويا مُنْشِرهُ مِنْ بَيْنِ أَطْبَاقِ البِلى وَقَدْ هَمَدْ![6]

وكان نور الدين يلقب (بالملك العادل) وقد أجمعت المصادر على أنه كان يتّصف بهذه الصفة[7]، ولا أظن أن الشعراء ذهبوا إلى إطلاق هذه الصفات عليه متأثرين بلقبه، ولكنهم عاينوا الخبر، وشاهدوا الحقيقة، ولمسوا العدل والسماحة والأمن، والمتتبع لهذه الظاهرة يجد الشواهد الشعرية الكثيرة، التي تستحق البحث والدراسة فهي وافرة ومتوافرة، ولعل إعطاء بعض النماذج الأخرى يؤكد ما ذهبنا إليه، فهذا العماد يقول (من الرجز)

---

1 الروضتين (129/1). والخريدة(شعراء الشام) (291/2-292)

2 الروضتين (21/1). وديوان ابن منير، ص187.

3 الروضتين (75/1). وديوان ابن منير، ص224. وحاف: جاروظلم.

4 الروضتين (78/1). وديوان ابن منير، ص229. واجتنب: قطع واستأصل.

5 الروضتين (91/1). وديوان ابن منير، ص251.

6 الروضتين (21/1). وديوان ابن منير، ص187

7 انظر: الروضتين (16/1) وما بعدها. والبداية والنهاية (280/12).

يــا محيــي العــدل الــذي في ظلّــه مِـنْ عَدْلِـهِ رَعَـتِ الأسُـودُ مَـعَ الْمَهَـا![1]

ويقول في قصيدة أخرى: (من البسيط)

بملْـك مصـر أهنِّـي مالـكَ الأمـم فاسـعدْ وأبشـر بنصـر الله عـن أَمَـم[2]
أضحى بعدلكَ شملُ الملك ملتئماً وهـلْ بعـدلك شـيءٌ غيـر ملْتـئم
لله درُّك -نـورَ الـدين- مـن مَلـك بـالعزم مفتـتحٌ بالنَّصـر مختـتم!
بمـأْمَنِ العَـدْل والإحْسَـانِ تنشـره تخـاف ربَّـك خـوف المـذنبِ الأثـمِ[3]

لقـد فاضـت المصـادر الأدبيـة والتاريخيـة بـذكر محاسـن وفضـائل نـور الـدين زنكي[4]، ونقلت كثيراً من الأشعار التي قيلت فيها، ويضيق المقام بنا أنْ نتتبع هذه القصائد لضرورة البحث، ونكتفي بالذي أشرنا إليه، لننتقل إلى شخصيات أخرى، أهمها شخصيّة صلاح الدّين الأيّوبي.

(3)

يقال: إنه في سنة ثنتين، وستين، وخمسمئة أقبلت الفرنج في جحافل كثيرة إلى الدّيار المصرية وساعدهم المصريون، فعلم بذلك أسد الدين شيركوه، فاستأذن الملك نور الدين في العودة إليها -وكان قد دخلها سنة تسع وخمسين وخمسمئة- فأذن له ومعه ابن أخيه صلاح الدّين يوسف بن أيوب، ويبدو أنه لم يفلح في امتلاكها، فعاود مرة أخرى في سنة أربع وستين وخمسمئة، ومعه العساكر النوريّة فملكها، وقتل شاور الذي كان في الوزارة المصرية، وتسلم السلطة بدلاً منه[5]، وفي ذلك يقول العماد الكاتب مهنئاً: (من البسيط)

بالجـدِّ أدركـتَ مـا أدركـتَ لا اللعـب كـم راحـة جُنيَـتْ مـن دوحـة التَّعَـب
يا شيركُوه بن شاذي الملك دعوةَ من نـادى فعـرّفَ خيـرَ ابـنٍ بخيـر أَب
جـرى الملـوكُ ومـا حـازوا بركضـهمُ من المدى في العلا ما حُزْتَ بالخَبَبِ[6]

1 الروضتين (150/1).

2 الأمم: القرب والقريب.

3 الروضتين (174/1-175). وديوان العماد، ص380.

4 انظر قصائد رائعة في نور الدين للعماد الكاتب الأصفهاني: الروضتين (150/1-153).

5 الكامل في التاريخ (298/11-337). والبداية والنهاية (247/12-259).

6 الخبب: ضرب من العدو.

فتحتَ مصرَ وأرجوا أنْ تصيرَ بها ... مُيَسَّراً فتحَ بيت القدس عن كَثَب
قد أمكنتْ أسَد الدين الفريسة من ... فتح البلاد فبادرْ نحوَهَا وَثِب
أنت الذي هو فردٌ من بسالَته ... والدينُ من عزمه في جَحْفَل لَجب
في حَلْق ذي الشّرك من عدوى سُطاك شَجاً ... والقلب في شَجَن والنفسُ في شَجَب[1]
شكا إليك بنو الإسلام يُتْمَهمُ ... فقمتَ فيهمْ مقامَ الوالد الحَدب
في كلّ دار من الإفرنج نادبةٌ ... بما دَهاهم فقد بانُوا على نَدَب
من شرِّ "شَاوَر" أنقذت العبادَ فكم ... وكم قضيتَ لحزب الله من أرَب
هو الذي أطمعَ الإفرنجَ في بَلَد الـ ... إسلام حتّى سعوا للقصد والطّلَب
وما غضبتَ لدين الله مُنْتَقماً ... إلّا لنيل رضى الرَّحمن بالغَضَب
وَأَنْتَ من وقعتْ في الكفرِ هيبتُه ... وفي ذويه وقوعَ النَّار في الحَطَب[2]

وكان عرقلة المسمّى بحسان الشاعر قد هجا شاور بغدره ومكره، وصرح بذلك حين قبض عليه صلاح الدين الأيوبي، فقال: (من الطويل)

لَقَدْ فَازَ بالمُلْك العقيم خليفةٌ ... له شيركُوه العاضديُّ وزيرُ
كأَنَّ ابنَ شَاذي وَالصَّلاحَ وسيفَهُ ... عليٌّ لديه شبَّرٌ وَشَبيرُ[3]
هو الأسدُ الضّاري الذي جلّ خَطْبُه ... وشاور كلب للرجال عقورُ
بَغَى وَطَغَى حتّى لقد قال قائل: ... على مثلها كان اللعين يدورُ
فلا رحمَ الرحمنُ تربةَ قبرِه ... ولا زالَ فيها منكرٌ ونكيرُ[4]

ومن تهكم عُمارة اليمني بالإفرنج عندما ربطوا الطريق، وقطعوها على أسد الدين حين توجه إلى مصر، قوله: (من الطويل)

---

1 الشجب: الحزن.

2 الروضتين 1/ 159-160. ومفرّج الكروب 1/ 163-165. وديوان العماد، ص79-81.

3 ابن شاذي: والد صلاح الدّين. والصلاح: صلاح الدّين. وسيفه: شقيق صلاح الدين، وهو الملك العادل سيف الدين. وعلي: هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وشبّروشبير: الحسن والحسين ﷺ. (اللسان، شبر). والعقيم في البيت السابق: أي لا ينفع فيه نسب لأن الاب يقتل ابنه على الملك، ويقال: الملك عقيم؛ لأن الأرحام تقطع به. (اللسان، عقم).

4 الروضتين (157/1). وديوان العماد عرقلة الكلبي، ص52.

أخــذتم علــى الإفــرنج كــلّ ثنيّــة   وقلتم لأَيْدي الخيـل مُـرِّي على مُـرِّي[1]
لـئن نَصَـبُوا في الـبرّ جسـراً فـإنكمْ   عـبرتم ببحـرٍ مـن حديـدٍ علـى الجِسْـرِ[2]

وأما الشاعر علي بن عـرام، فإنه يشارك مشاركة فعاله في وصف المعارك الدائرة بين المسلمين و الفرنج، ويخلص إلى مدح الملك الناصر صلاح الدّين الأيوبي قائلاً: (من الطويل)

وَمَــا الملــكُ إلّا لائــقٌ بــأخيكُمُ   وغاربُــهُ إلَّا لَــهُ غيــرُ مَرْكُــوب
فأنتم نجومٌ وهـو كالشَّمس، ضوءُها   مَلــيٌّ بتشــريق يَعُــمُّ وتغريــب
أيوســفَ مصــر إنمــا أنــتَ يوسُــفٌ   فأنــتَ ابــنُ أيــوب وذاكَ ابــنُ يَعْقُــوب
ومــا بَرَحَــتْ مصــرٌ قــديماً حُماتُهــا   ببعــثٍ مِــنَ القُطْـرِ الشـآميِّ مَجْلُـوبِ[3]

وتوفي أسد الدين في السنة نفسها، وكانت ولايته شهرين وخمسة ايام، وتسلّم الولاية من بعده صلاح الدين، وتبدأ مسيرة هذا القائد في السلطة، ويبدا أمل المسلمين يلوح معها في الأفق، ويأخذ الأمن بالتخييم على الناس، وينتشر السلام بينهم، فهذا عمارة اليمني يمدح صلاح الدين، ويقول: (من الطويل)

لك الحسب الباقي على عقب الدّهر   بـل الشـرف الراقـي إلـى قمّـة النَّسْـر[4]
كـذا فليكن سـعي الملـوك إذا سـعتْ   بهـا الهمـم العليـا إلـى شـرف الـذّكر
نهضــتم بأعبــاء الــوزارة نهضــةً   أقلــتمْ بهــا الأقــدامَ مــن زلّــة العثــر
كشــفتمْ عــن الإقلــيم غمَّتَــه كمــا   كشــفتم بــأنوار الغنــى ظلمــةَ الفقــر
حميـتمْ مـن الإفـرنج سـرب خلافـة   جـريتم لهـا مجـرى الأمـان مـن الـذّعر
يــدٌ لا يقــوم المســلمون بشــكرها   لكــم آل أيــوب إلــى آخــر الــدّهرِ[5]

---

1 مرّي: ملك الفرنج.

2 الروضتين (158/1) و 163.

3 الخريدة(قسم شعراء مصر) (171/2).

4 النسر: ثمة نسران في السماء، وهما كوكبان، ويقال لأحدهما: (النسر الطائر)، وللآخر: (النّسر الواقع).

5 الروضتين: (163/1).

وله من قصيدة أخرى يمدحه: (من الخفيف)

يـا شـبيهَ الصّـدِّيق عـدلاً وحسـناً ... وسـميـاً حَكَـاه معنـىً ومغنـى

هـذهِ مصـر يوسـف حـلّ فيهـا ... يوسـف مالكـاً ومـا حـلّ سـجنا[1]

نعم لقد كان صلاح الدّين عادلاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، ويحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح البال للمتحاكمين حتّى يصل إليه كلّ أحد، وكان يوقّع على كل قصّة بما يطلق الله على قلبه، وهو مع ذلك دائم الذّكر، مواظب على تلاوة القرآن الكريم، عالم به، عامل به[2]، ويقول عُمارة اليمني: (من السريع)

مَلْـكٌ صـلاح الـدين لا قُوِّضـتْ ... أطنابُـه، ملـك البقـا والصـلاح

سـيرة عـدل حسـنت عنـدنا ... مـا كـان وجـه الليـالي القبـاح[3]

وما من شك أنّ قضية العدل استرعت انتباه الشعراء -كما لاحظنا في حديثنا عن نور الدين- وها هي تظهر عندهم حين يمدحون صلاح الدّين الأيوبي الذي حرص على إقرار مبادئ الحق، والعدل، والأمن والسلام، ولعمري، إنها من أهم الصفات التي يجب أنْ يتحلى بها القائد المسلم، فلنقرأ معاً هذه الأبيات للشاعر فتيان الشاغوري (من الكامل)

تُبْنَـى المَمالـكُ بالوَشـيج الأَسْـمَر ... والبـيض تَلْمَـعُ في العَجَـاج الأَكْـدَر[4]

وبكـلّ أَجْـرَدَ شَـيْظَم يَعْـدُو إلـى الـ ... ـهَيْجَا بمقْـتَحم المَهَالـك مسْـعَر[5]

وَالعَـدْل وَالإحْسَـان وَالمَعْـرُوف مَمْـ ... ـلوء الحيَـاض لمُوسـر وَلمُعْسـر

وَالحلْـم وَالعَفْـو اللـذين شَـذَاهُمَا ... مُتَضـوِّعٌ كَـأَريج مسْـك أَذْفَـر[6]

كفعـالِ مَوْلَانَـا صَـلاحِ الـدِّين ذِي الـ ... ـمَجْدِ الغُـدامِسِ وَالعَطَـاءِ الكَـوْثَرِ[7]

---

1 الروضتين: (163/1).

2 النوادر السلطانية، ص13.

3 الروضتين: (163/1).

4 الوشيج: الرماح أو شجرها.

5 أجرد: أي فرس أجرد لا شعر على بدنه، وشيظم: أي فرس شيظم: طويل جسيم. والمسعر: موقد نار الحرب، وكذلك هي من صفات الجياد.

6 والحلم (بالكسر): اسم مجرور معطوف على ما قبله. ذَفَرَ الشيء: ظهرت رائحته.

7 ديوان فتيان الشاغوري، ص140، والغدامس: المشهور. والكوثر: الكثير.

ويطلق الشاعر سبط ابن التعاويذي على صلاح الدين لقب الملك العادل، ويرى أنَّه مفرج الكروب ويقول: (من المنسرح)

الملكِ العادلِ الذي كشفَ اللَّـ (م) ـهُ بِهِ هَمَّ كُلِّ مَكْرُوبِ[1]

ثمّ يقول: (من السريع)

الملك العادل في حكمه فهو من الأملاك مَعْدُودُ
وكيف نخشى جَوْرَ أَيَّامنا في عصره وَالجَوْرُ مَفْقُودُ
عدلٌ وَجُودٌ وكذا المُلْكُ لا يُنْميهِ إِلَّا العَدْلُ وَالجُودُ[2]

وهذا العماد الأصفهاني يقول: (من الخفيف)

يا صلاحَ الدِّينِ الذي أَصْلَحَ الفَا سِدَ بالعَدْلِ مِنْ خُطُوبِ الزَّمَانِ[3]

وله من أخرى يقول فيها: (من الهَزَج)

أَهَنِّي المَلِكَ النَّاصِـ ـرَ بالمُلْكِ وَبالنَّصْرِ
ومَا مهّد من بنيا ن دين الحقّ في مصْر
وما أحياه من عدلٍ وما خفَّفَ من إصْرِ[4]

ويبدأ العماد الكاتب مسيرته الشعرية مع صلاح الدّين منذ اللحظة الأولى لتسلّمه السلطة، فلا يكاد عمري يمرّ إلا وسجله بأشعاره، فها هو يمدح صلاح الدّين الذي تسلّم الولاية من بعد وفاة عمّه أسد الدّين شيركوه في سنة أربع وستين وخمسمئة، ويهنئه بالمُلك، ويعزّيه بعمّه، يقول: (من الطّويل)

أيا يوسفَ الإحسان، والحسن خير من حوى الفضلَ، وَالإِفْضَالَ، وَالنّهيَ، وَالأَمْرَا!
حَمَى حوزةَ الدِّين الحنيف بحوزه من الخالق الحسنى، ومن خلقه الشكْرَا
أبوه أبى إلَّا المعالي، وعمّه بمعروفه عمَّ الورى البدو والخضْرَا

---

1 ديوان سبط ابن التعاويذي، ص19.

2 المصدر السابق.

3 الروضتين (176/1). وديوان العماد، ص409.

4 الروضتين (175/1). وديوان العماد، ص197-198. والإصر: العهد، والثقل، والذنب.

وانظر مزيداً من الشواهد على هذه القضية في: ديوان ابن سناء الملك (223/2) و270 و332. وديوان سبط ابن التعاويذي، ص24-25 و422.

وطـالَ الملـوك شـيركوه بطولـه ... ومـا شـاركوه في العُـلا فَحَـوَى الفَخْـرَا
وقـامَ صـلاحُ الـدينِ بالملـكِ كـافلاً ... وكيف ترى شمس الضَّحى تخلف البدْرَا[1]

وثمّ يعرج على وصف الإفرنج وانهزامهم وضعفهم أمام قوة صلاح الدين وعمّه، ولا يفوته التعريض بشاور صاحب الفرنج:

بنـو الأصـفر الإفـرنج لاقـوا ببيضـه ... وسـمر عواليـه منايَـاهمُ حُمْـرَا
هَـزَمْتُمْ جنـود المشـركين بـرعبكم ... فلـم يلبثـوا خوفـاً، ولـم يمكثـوا ذعْـرَا
وَفَـرَّقْتُمُ مـن حـول مصـر جمـوعهم ... بكسر، وعـادَ الكسـر مـن أهلهـا جَبْـرا
وأَمَّنْـتمُ فيهـا الرعايـا بعَـدْلكُمْ ... وأطفـأتم مـن شـرِّ شـاورها الجمْـرَا
فصـبّوا علـى الإفـرنج سـوطَ عـذابها ... بـأن يقْسـموا مـا بينهـا القتـلَ وَالأَسْـرَا[2]

وإن العصر الأيوبي حافل بالأحداث، فما تكاد تمرّ سنة إلّا وفيها من عظام الأمور، إمّا نصر أو هزيمة أو موت، أو تسلّم ولاية أو فتح حصن، أو إستيلاء على مدينة، أو تسليم، أو استسلام، ولم يتأخر الشعراء عن وصف هذه الأحوال، فهي مادتهم، وإلهامهم، منها يستمدون ألفاظهم وصورهم، وفيها يخرجون غرر قصائدهم، ففي سنة خمس وستين وخمسمئة، نزل الفرنج على دمياط من الديار المصرية، ولكنهم رحلوا عنها في السنة نفسها، فهذا الشهاب فتيان الشاغوري يصف ذلك ويزدري الفرَنجة ويهجوهم، يقول: (من الطويل)

وَلا غَـرْو أَنْ عَـادَ الفـرَنْجُ هزيمـةً ... ولـو لـم تَعُـدْ لـم يبـقَ للشِّـرْك سَـاحلُ
وقـد علمُـوا لـو أنَّهـم ثَبَتُـوا لـهُ ... لكـانُوا كَـلاً قَسْـراً رَعَتْـهُ المَنَاصـلُ[3]
وطـارتْ رُؤوسٌ مـنهُمُ وقـوانسٌ ... إلى حيثُ صارَتْ في الهياج القَسَاطلُ[4]
فقـد أَيْقَنَـتْ أَعْـدَاؤُه أَنَّ حَظَّهُـمْ ... لَدَيْـه رمـاحٌ أُشْـرعَتْ أَوَ سَلاسـلُ[5]
ولمّـا أَتَـوْا دميـاطَ كَـالبَحْر طاميـاً ... ولـيسَ لَـهُ مـنْ كَثْـرَة القَـوْم سَـاحلُ
يَزيـدُ عَـن الإحْصَـاء، والعَـدِّ جَمْعُهـمْ ... أُلـوفُ أُلـوف خَـيْلُهُمْ، وَالرَّوَاحـلُ

1 الروضتين (179/1).

2 الروضتين (179/1). وديوان العماد، ص160-161.

3 كلا: الكلأ المرعى، وخففت الهمزة للوزن. والمناصل: جمع منصل، وهو السيف.

4 القونس: أعلى الرأس أو أعلى بيضة الحديد، والجمع القوانس، والقساطل: الغبار.

5 أراد بالرماح كثرة القتل، وبالسلاسل كثرة الأسرى.

رَجَا الكلبُ مَلْكُ الرُّوم إذْ ذَاكَ فَتْحَهَا فَخَاف فَأَمُّ الملْك وَالرُّوم هَابل[1]
فَعَادُوا على الأَعْقَابِ مِنْهَا هَزِيمَةً كَأَنَّهُمُ ذُلاً نَعَامٌ جَوَافِلُ[2]

وأما العماد الكاتب الأصفهاني فقد نظم أبياتاً يهنئ بها صلاح الدين بالنصر الذي حقّقه في دمياط، ويقول فيها: (من البسيط)

يا يوسفَ الحسن والإحسان يا ملكاً بجدِّه صاعداً أعداؤه هَبَطوا!
حللتَ من وسَط العلياء في شَرَف ومركز لها الفرنجُ فما حَلّوا ولا رَبطوا
هُنِّيتَ صوتك دمياطَ التي اجتمعت من أفلاكها الوسَطُ
مصرٌ بيوسفها أضحت مشرَّفةً وكلُّ أمر لها بالعدل منضبطُ
وحين وافى صلاحُ الدين أصلحَها فللمصالح من أيّامِهِ نَمَطُ[3]

ويشارك ابن قلاقس الشعراء في مدح السلطان الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، ويهنئه بهزيمة الفرنج عن ثغر دمياط بقصيدة جميلة، ويقول فيها: (الوافر)

تُهَزُّ بكَ الخطوبُ من الخطَاب وَتَنْهَزِمُ الكتائبُ بالكتَاب
وتَخْشَى نارَ حَرْبكَ وهيَ تَخْبُو فكيفَ إذَا ارْتَمتْ شَرَرُ الحرَاب
ومذ جَرَّدْتَ عَزْمَكَ وَهْوَ سَيْفٌ رَقَبْنَا مَا يَكُونُ منَ الرِّقَاب
فَمَا وَجَّهْتَهُ حَتَّى حَكَمْنَا هُنَالكَ بالغَنيمَة، والإيَاب
وَكَزْتَ حَشَا اللَّعين بمُنْكصَات عَلَى الأَعْقَاب منْ جهَة العُقَاب[4]
وعندَ الطَّيْرِ في الرَّايَاتِ رَأْيٌ فَمَا يَخْلُو عُقابٌ مِنْ عِقَابُ[5]

ويمدحه في قصيدة أخرى يقول فيها: (من المنسرح)

نجمٌ عَلَا نُورُهُ فَأَوْشَكَ أَنْ يَفْقَأَ بالضوء عَيْنَ من جَحَدَهُ
وَصَارمُ الحَدِّ فَوْقَ صَفْحَته تَجْري ميَاهُ الفرْند مطَّرِدَهُ[6]

---

1 أمّه هابل: أي ثكلى.

2 الروضتين (182/1). وديوان فتيان الشاغوري، ص318-319.

3 الروضتين (182/1). وديوان العماد، ص275.

4 منكصات: مرجعات. العقاب: طائر من كواسر الطير قوي المخالب حادُّ البصر، له منقار قصير أعقف، وفي المثل: (أبصر من عقاب).

5 ديوان ابن قلاقس، ص195.

6 الفرند (بكسر الفاء والنون): السيف، والفرند جوهر السيف ووشيه.

مـــن قَتَـــلَ الـــدَّهْرَ واسْـــتَقَادَ بــــه ... مَلَّكَــــــهُ مــــــنْ حَيَاتــــه قَــــوَدَهُ[1]

هَـــذَا وَمَـــا عَـــوْدُهُ لخَاطمـــة ... يَوْمـــاً وَلَا عُـــودُهُ لمَـــنْ خَضَـــدَهْ[2]

حَتَّـى انْتَهَـى المُلْـكُ عنْـدَ نَاصـره ... فَطَـــــوَّلَ اللهُ عنْـــــدَهُ أَمَـــــدَهْ

وأصـــبحَ العَاضِـــدُ الإمـــامُ بِـــهِ ... في دَوْلَـــةٍ بِالسُّـــعُودِ مُعْتَضِـــدَهْ[3]

ويذكر ابن الأثير في حوادث سنة ست وستين وخمسمئة قصة غزو صلاح الدين بلاد الفرنج، ويقول: "وفي هذه السنة سار صلاح الدين عن مصر إلى بلاد الفرنج، فأغار على أعمال عسقلان والرّملة[4] وهجم على ربض عزة فنهبه، وأتاه ملك الفرنج في قلّة من العسكر لردّه عن البلاد، فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أنْ أشرف أنْ يؤخذ أسيراً وعاد إلى مصر"[5]. إذن فلا عجب أنْ نرى بعض الشعراء، يسجل إعجابه بنظم أبيات، يمدح بها هذا القائد الإسلامي، ومن هؤلاء الشعراء عُمارة اليمني، ويقول: (من الطويل)

لعـــل بنـــي أيـــوب إنْ عَلمـــوا بمـــا ... تظّلمـــت منـــه أنْ يَرقّـــوا وَيُشْـــفقوا

غـــزوا عُقـــر دار المشـــركين بغـــزّة ... جهاراً، وطرف الشرك خزيان مطرقُ

وزاروا مُصـــلّى عســـقلان بـــأرعن ... يفـــيض إنـــاء الـــبرّ منـــه ويفهـــق[6]

وأخربــت مــن أعمالــه كــلَّ عــامر ... يمـــرّ بـــه طيـــف الخيـــال فيفـــرق

أضـفت إلـى أجـر الجهـاد زيـارة الـــ ... ــخليل فأبشـــر أنـــت غـــاز موفّـــق

وهيّجــت للبيــت المقــدس لوعــة ... يطـــول بهامنـــه إليـــك التّشـــوّق

وغـــزوك هـــذا سُـــلَّمٌ نحـــوَ فتحـــه ... قريبـــاً، وَإلا رائـــد ومطـــرَّقُ[7]

---

1 استقاد من القود: طلب الدّية.

2 العود الأولى: الجمل المسن. والعود الثانية: من الشجر والنبات وغيره معروف. والخضد: كل ما قطع من العود أو تكسر في الأخضر واليابس. يريد: إنه لقوته ومنعته لا يقدر أحد على أن يخطم جمله ولا يكسر عوده. وبين عوده وعوده جناس تام.

3 ديوان ابن قلاقس، ص247.

4 مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت رباطاً للمسلمين. (معجم البلدان 69/3).

5 الكامل في التاريخ 356/11.

6 يفهق: يتصبب بعد امتلائه.

7 الرائد: الخبير الباحث عن الخير الدّال عليه. ومطرّق: مسهّل لمرور الناس عليه. والمعنى: إن ابتداءك بالغزو هذا يجعلنا ننعم قريباً بالفتح المقدس، وإلّا فهو دلالة عليه، وتسهيل للطريق إليه.

هــو البيــتُ إن تفتحــه، والله فاعــل فمــا بعــده بــاب مــن الشــام مُغْلَــقُ[1]

هكذا رآه الشعراء، غازياً، مجاهداً، عادلاً، يقول ابن شداد: "ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنّه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً، ولا درهماً إلّا في الجهاد أو في الإرفاد، لصدق وبرَّ في يمينه"[2] ولمجد الدين محمد بن الظهير الأربلي قصيدة رائعة في مدح قوم السلطان صلاح الدين، ويقول فيها: (من الطويل)

مليــك مــن القــوم الــذين رمــاحُهُمْ دعــائمُ هــذا الــدين في كــلّ مَشْــهَد
هُــمُ نصــروا التوحيــد نصــراً مــؤزراً بــه عــزّ في الآفــاق كــلّ مُوحّــد
وهــمْ قهــروا غُلــب الفــرنج ببأســهمْ فــدانوا لهــم بــالرغم لا عــن تــودّد
وردّوا إلــى البيــت المقــدس نــوره وقــد كَــان في ليــل مــنَ الشــرك أســود
وهــمْ ســهّلوا ســبل الحجــيج وآمنــوا بهــا الركــب خــوفَ الكــافر المتشــدِّد
وهــم رجَّعــوا مصــراً إلــى دعــوة الهــدى بعــزم ورأي في العظــائم محصــد
وهــم شــيّدوا ركــن الخلافــة بالــذي أعــادوه مــن حــقّ: (طريــف، ومتلــد)
وهــم شَــرَّفوا قَــدْرَ المنــابر باســمها وذكــر مَنُــوط بالرســول محمّــد
وهــم وَهَبُــوا عــزَّ الممالــك، واكتفــوا بسُــمْر العــوالي، وَالعــلاء المشــيَّد
فَسَلْ عن ظُبَاهمْ يَوْمَ حطينَ كَمْ قَضَتْ بمــرّ مــراد الله في كُــلِّ أَصْــيَد
وَضَعِّفْ حديثَ العدلِ، والبأسِ، والندى إذَا كَــانَ عــن أيــامهم غَيْــرَ مُسْــنَدِ[3]

ولـم يـترك العمـاد الأصـفهاني رحلـة مـن رحلاتـه إلّا ومـدح فيهـا السـلطان صـلاح الدين، ويحرص الشاعر على التقرب منه، وذلك بوصفه بالصفات الدينية والدنيوية، ولكن أسلوب الشاعر لم يكن كأي أسلوب آخر، فهو من عشاق البديع والبيان، وهو شاعر صنعة، يتلاعب باللفظ متى شاء، ويصيب المعنى، ويصل إلى الممدوح بلذيذ وزنه، وحسن قافيته، وتآلف معانيه، وحسن سبكه، ولننظر إلى بعض أبيات من قصيدة طويلة جداً -أورد العماد منها في خريدته خمسة وستين بيتاً- لنصل إلى حقيقة ما ذهبنا

1 الروضتين (193/1).
2 النوادر السلطانية، ص21. وحسن المحاضرة (21/2).
3 الروضتين 196/1.

إليه من شغفه بالتصنع ونزوعه إلى توظيف الأساليب البلاغية، والمحسنات البديعية، ومقدرته على استخدام القوالب الجاهزة، ويقول فيها: (من الكامل)

مَلِكٌ تَمَلَّكَ جَدَّهُ مِنْ جِدِّهِ ... فالمجدُ مَجْدٌ وَالمَرَاحُ مرَاحُهُ[1]

مَلِكٌ يُحِبُّ الصَّفْحَ عَنْ أعدائِهِ ... فلِذاك تَصْفَحُ عَنْ عِداهُ صِفَاحُهُ

لَكَ بيتُ مَجْدٍ لَيْسَ يُدْرَكُ حَدُّهُ ... يَعْيَا بِذرع عُرُوضِهِ مَسَّاحُهُ[2]

المُلْكُ غَابٌ أَنْتُمُ أَشْبَالُهُ ... وَالدِّينُ رُوحٌ أَنْتُمُ أَشْبَاحُهُ

مَا شَرْحُ صَدْرِ الشَّرعِ إلَّا مِنْكُمُ ... ولِذاكَ مِنكمْ للهُدى إيضَاحُهُ

فَخْراً بَنِي أَيوبَ إنَّ مَحلَّكُمْ ... ضَاقَتْ عَلَى كُلِّ المُلوك فسَاحُهُ

لولا اتساعُ جَنَابكمْ لَعدَدْتُهُ ... خَصْراً، وفودُ المعتفينَ وشَاحُهُ[3]

أنتمْ ملوكُ زَمَاننَا وَسَرَاتُهُ ... وكرامُهُ، وَعظَامُهُ، وفصَاحُهُ[4]

عُظَمَاؤه كبراؤُهُ فُضَلاؤهُ ... وَرزَانُهُ، وَرصَانُهُ، وَصِبَاحُهُ[5]

أقمارُهُ وشموسُهُ، وَنُجُومُهُ ... وبحارُهُ، وجبالُهُ، وبطاحُهُ[6]

أَنتمْ رجالُ الدَّهْرِ بَلْ فُرْسَانُه ... ولِذي الحلوم الطّائشات رجَاحُهُ

فُتَّاكُهُ نُسَّاكُهُ ضُرّارُهُ ... نُفَّاعُهُ مُنَّاعُهُ مُنَّاحُهُ

وأبو المظفرِ يُوسُفٌ مطْعَامُهُ ... مطْعَانُهُ مقْدَامُهُ جَحْجَاحُهُ[7]

وإذَا انْتَدَى في مَحْفَلٍ فَحَيُّهُ ... وإذَا غَدَا في جَحْفَلٍ فَوقَاحُهُ[8]

أَسْجَحْتَ حِينَ مَلَكْتَ عَفْواً عَنْهُمُ ... إنَّ الكَرِيمَ مُؤَمَّلٌ إسْجَاحُهُ[9]

---

1 الجد: الحظ. وجدّه الثانية (بالكسر)، وهي ضد الهزل. والمراح الأولى: مكان الرواح وزمانه، والثانية: من المراح، وهو شدة الفرح والنشاط.

2 ذرع عروضه: قياس أبعاده.

3 المعتفين: طلاب العطاء والمنح، يقول: إنّ جنابَكُمْ وما يحيط به من طلّاب المعروف أَوْسَعُ من أن يُشَبَّهَ بالخَصْرِ الذي يحيط به الوشاح.

4 السراة: جمع سري وهو الرئيس، وهو جمع نادر: لأن فعيلاً لا يجمع على فعلة.

5 رزان: جمع رزين، حليم وقور. ورصان: جمع رصين ثابت محكم متين حصين، وصباحه: جمع صبيح وضيء الوجه.

6 البطاح: جمع أبطح، وهو كل مكان متسع.

7 الجحجاح: السيد.

8 الوقاح: الجريء.

9 الخريدة(قسم شعراء مصر) (1/21-22) وديوان العماد، ص112-114. والإسجاح: حسن العفو. وانظر قصيدة طائية طويلة أورد منها صاحب الخريدة في المصدر نفسه (1/25-31). نحو خمسة وسبعين بيتاً، وانظرها كاملة في ديوان العماد، ص276-284.

والمطَّلع على سيرة صلاح الدين الأيوبي يجدُّ أنَّ الشعراء عجزوا عن الوفاء بحقه، والنظم بمناقبه، وصياغة الألفاظ في مدائحه، فقد أفرد ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية باباً خاصاً عن صلاح الدّين سماه: "ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظاته للأمور الشرعية جاء فيه:

كان رحمه الله حَسَنَ العقيدة، كثير الذكر لله تعالى... وكان شديد المواظبة على صلاة الجماعة. وأما الزكاة؛ فإنه مات، ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا شيئاً من أنواع الاملاك. وكان رقيق القلب، خاضع الدمعة، إذا سمع القرآن يخضع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته... ناهيك بأنه كان حَسَن الظّن بالله، كثير الاعتماد عليه عظيم الأنابة إليه[1].

ويبدو أنَّ الشاعر في هذا العصر أكثر أمانة من غيره في عصور أخرى، ذلك أنَّه لا يمدح بغير حقّ، ولا يمجّد إلى من يستحق التمجيد، ولا يفرغ أفكاره في قوالب جاهزة، ولا يستميله إلّا الواقع، والنصر، والجهاد، والعدل والأمانة، ينفعل بالمعارك البطولية، يثور للجهاد في سبيل الله، تنساب ألفاظه دون عناء، وكأنه يغرف من بحر، فكان من الطبيعي أن نجد صوت الشعراء يهدأ بين الفينه والفينة، وهذا ما نلحظه في مدائحهم لصلاح الدّين، ذلك أنهم توقفوا -الّا القليل- ينتظرون تحقيق آمالهم، والفوز والنصر على الأعداء، وحتى نكون منصفين لهؤلاء الشعراء، ونقول: إن المدّة التي تخفت فيها أصوات الشعراء، ويتضاءل عدد الذين يعالجون الواقع المعيش، نجدُّ فيها أصواتهم ترتفع بالدعوة إلى الجهاد، والحضّ على القتال واستنهاض الهمم. والذي دفعنا إلى ذلك، هو توقّف الشعراء عن مدحهم لصلاح الدّين لسنوات قليلة[2]، وانتظارهم الأحداث الجسام للمشاركة بها.

ونقلب صفحات التاريخ، وتمرّ السنون، حتى نصل إلى سنة خمس وسبعين وخمسمئة، فنجد صلاح الدين يسير من دمشق إلى بانياس -حين سمع أن الفرنج بنوا حصناً منيعاً يقارب بانياس يعرف "بمخاضة الأحزان"- وأقام بها، وبدأ الغارات على

---

1 النوادر السلطانية، ص7-12. وحسن المحاضرة (21/2).

2 أي: من سنة ست وستين وخمسمئة إلى سنة خمس وسبعين وخمسمئة.

بلاد الفرنج، حتى أيّد الله المسلمين بنصره، وانهزم المشركون، وقتل منهم الكثير، وفرّ ملكم (فريد) وأسر كثيرٌ من أصحاب المدن والحصون، فكان هذا النصر خير معين للشعراء الذين نظموا غرر قصائدهم في مدح صلاح الدّين والتغنّي بالنصر، والتهكم بالأعداء يقول أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني: (من الخفيف)

لَكَ ربّ السماء خير معين ... وكفاهُ بما تُحبُّ ضَمين[1]

فله الحمد أيُّ نصر عزيز ... قد حبانا به وفتح مبين

أدرك الثأر حين نازله المغـ ... ـوار حتف الكفار ليث العرين

الهمام الغضنفر الملك النا ... صر مولى الورى صلاح الدّين

قذفت أهلها الحصون إلى بأ ... سك حتّى عوضتهم بالسجون

وأراهم ربّ السماء بأسيا ... فك ما لم يجلْ لهم لي ظنون

يا مليكاً يلقى الحروب بحول اللّـ (م) ... ـه مستعصماً، وصدق اليقين

إنَّ هذا الفتح المبين شفاءٌ ... لصدور وقرةٌ لعيون

هو يوم أضحى كيومِ حنينٍ ... سهل الله نصره في الحزون[2]

وهذا أحمد بن نفاذة الدمشقي (نشو الدولة) يقول: (من المتقارب)

هَلاكُ الفرنج أَتَى عَاجلاً ... وقدْ آنَ تكسيرُ صلبانهَا

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قد دَنا حَتْفُهَا ... لَمَا عَمَّرتْ بَيْتَ أَحْزَانِهَا[3]

وأما أبو الحسن علي بن محمد بن رستم الساعاتي الخراساني الدمشقي فيهنئ السلطان صلاح الدّين بقصيدة يقول فيها: (من الطويل)

بجدّك أعطافُ القَنا تتعطّفُ ... وطرْفُ الأَعادي دون مجدكَ يطرفُ

شهابُ هُدى في ظلمة الشكّ ثاقبٌ ... وسيفُ هُدى في طاعة الله مُرهفُ

وقفتَ على حصن المَخَاش، وإنَّه ... لموقفُ حَقّ لا يُوازيه مَوْقفُ

فلم يبدُ وَجْهُ الأَرض بَلْ حَالَ دُونَهُ ... رجَالٌ كآساد الشّرى، وهي تَزْحَفُ

وَمَا رَجَعَتْ أَعلامُك الصُّفرُ ساعةً ... إلى أَنْ غَدَتْ أَكْبَادُها السُّودُ تَرْجفُ

---

1 هكذا ورد الشطر الثاني في مصدر الأبيات، ولم اهتد إلى الصواب في قراءته.

2 الروضتين (9/2). والحزون: جمع حزن. وهن الغليظ من الأرض في ارتفاع كالجبل.

3 الروضتين (11/2). وفيه: (أحمد بن نقادة). والكامل في التاريخ (457/11).

كَبَـا مــنْ أعاليــه صَــليبٌ، وبيعــةٌ ... وَشَــادَ بــه ديــنٌ حَنيــفٌ، وَمُصْــحَفُ[1]

صـليبة عبّـاد الصّـليب، ومنـزل الـ ... ـنزَال لقـد غادرْتَـه، وهـو صَفْصَـفُ

أيســكن أوطــانَ النبيــين عُصــبةٌ ... تَمـينُ لَـدى أَيْمَانَهــا، وَهْــيَ تَحْلـفُ

نَصَـحْتُكُمُ والنُّصْـحُ للـدِّين وَاجِـبٌ ... ذَرُوا بَيْـتَ يعقـوبٍ فَقَـدْ جَـاءَ يُوسُـفُ[2]

ويقـول السبكي: "وفيها -أي السنة- ضـربت الطّبـول ببغـداد، وزفـت البشائر بانتصار السلطان صلاح الدين على الفرنج، وأسره لصاحب الرّملة،وصاحب طبريّة الكافرين"[3].

ومن الشعراء الذين تغنوا بهذا الفتح، الأمير نجم الدين محمود بن حسن بن نبهان العراقي من أهل "الحَلّة"[4] وقد كان مع صلاح الدين في الموقعة، ويقول: (من الطويل)

هنيئـا صـلاح الـدّين بـالفتح، والنّصـر ... ونيــل الأمــاني الغــرّ، والفتكــة البكــر

ومـا حـزتَ فيهـا مـن فخـار، ومـن عـلاً ... وحســن ثنــا يبقــى إلــى آخــر الــدّهر

ســموت لهــا بالمَشْــرفية، والقَنَــا ... ســمّ أبــيّ لا ينــام علــى وَتْــر[5]

وصـلتَ بهـا حبـلَ المفـاخر مثلَمَـا ... قَطَعْـتَ بهـا يـومَ الـوغى دابـرَ الكُفْـر

وقـد عـرفَ الإفـرنج بأسـكَ في الـوغى ... وجــرعتهم منــه أمــرّ مــن الصَّــبْر

فـلا تـرضَ مـنهم بعـدها بـذلَ طاعـة ... فمــا خُلقــوا إلّا عَلــى شــيمة الغَــدْر

فيــا آل أيُّــوب حــويتمْ مناقبــاً ... بأخمَصـهَا تَعْلُـو علـى الأنجـم الزُّهـر

إذَا عــدّ أربــاب الفخــار فــأنتمُ ... ذوو الفعـلات الغـرّ، والنائـل الغمـر

وأنت الذي أصبحتَ بالبأسِ، وَالتُّقَى ... وبـذلِ اللُّهـى عَـالِي السَّـنَا عَطِـرَ الـذِّكْرِ[6]

ومن قصيدة سعادة الضرير يمدح فيهـا صـلاح الـدّين ويهنئـه بالنصـر، ويـتهكم بالأعـداء: (من الطويل)

نصـرت الهـدى لمـا تخـاذل حزبُـهُ ... فنــاداك حــزبُ الله يــا ناصــرَ الهُــدى

---

1 البيعة: واحدة البيع (بالكسر) والبَيَعَات والبيْعَات(بالكسر) وهي المعبد للنصارى واليهود ومحل عبادتهم.

2 الروضتين (2/11-12). وانظر: الكامل في التاريخ (458/11). وديوان ابن الساعاتي (409/2). ويقصد ببيت يعقوب: فلسطين. وبيوسف صلاح الدين.

3 طبقات الشافعية الكبرى (365/7).

4 قرية مشهورة في طريق دُجيب بغداد، (معجم البلدان 259/2).

5 الوتر: الظلم، والثأر.

6 الروضتين (12/2). واللُّهى: أفضل العطايا وأجزلها.

غضـبت لــدين أنــت حقــاً صــلاحُهُ	فأرضـيت –لمــا أنَّ غضــبتَ– محمّــداً
فيــا يُوسُــفَ الخيــر الــذي في يمينــه	مــن الخيــر مــا قــد غــار فينــا وَأَنْجَـدَا!
فلــم تُبْــق للطّغيــان شَــمْلاً مُجَمَّعــاً	ولـــم تُبْـــق للإيمـــان شَـــمْلاً مُبَـــدَّدَا
فناهيــكَ مــنْ جــيش نهضــتَ بعبئــه	فأقعــدت لمـــا أن نهضـــت بـــه العـــدا
وزرت بـه الحصنَ الـذي لـو تحصّـنتْ	فوارسُــــه بـــالنّجم أوردتــــه الـــرّدى
قَصَـمْتَ بـه صـلب الصَّـليب ورعتـه	وشـــــهّدته لمّـــــا غفـــــا فتشـــــهّدا[1]

ولا يفوتنا أنْ نشير إلى اتجاه بعض الشعراء إلى تمجيد الأتـراك، والتغني بنضالهم وجهادهم، ولم يكن الفرنج يخافون من قوم مثلما خافوا من الأتراك، هذا ما تذكره بعض المصادر، ذلك أنَّ نور الدّين زنكي كتب إلى العاضد صاحب القصر في مصر "يمدح الاتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الّا لعلمه بأنه قنطاريات الفرنج ليس لها الّا سهام الأتـراك، فـإن الإفـرنج لا يرهبـون إلا منهم ولـولا هـم لـزاد طمعهـم في الـديار المصرية.."[2].

ففي سنة تسع وسبعين وخمسمئة سار صلاح الدين إلى حلب من "آمد" فحاصرها، وقاتله اهلها قتالاً شديداً، وممن قتل حينذاك أخوه تاج الملوك بوري الشاعر المعروف، ولكن صلاح الدين استطاع دخول هذه المدينة، ودخل مسجد حلب، وصلّى فيه ركعتين، وأطال السجود به والتضرع إلى الله، ثمّ شرع في عمل وليمة، وضربت البشائر وخلع على الأمراء، وأحسن إلى الرؤساء والفقراء، ووضعت الحرب أوزارها، ويرى عنه أنَّه قال: "ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح مدينة حلب، وأسقطت عنها وعن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام ومصر"[3]. وقد امتدحه الشعراء، وتغنوا بأمجاده، ونسبه وحسبه، ونظموا قصائدهم الطنانة، ومن هؤلاء الشعراء ابن سناء الملك المصري ويقول: (من البسيط)

بدولـــة الـــترك عَـــزَّت ملَّـــةُ العَـــرَب	وبـــابن أيـــوبَ ذَلَّـــت شـــيعةُ الصُّـــلُب
إنَّ العواصـــمَ كانـــت أيَّ عاصـــمة	معصــــومةً بتعاليهـــا عـــن الرُّتَـــب

1 المصدر السابق نفسه.

2 المصدر السابق نفسه.

3 الكامل في التاريخ (11/ 496-498). والبداية والنهاية (313/12). والروضتين (2/42-43).

جليســـةُ الـــنجم في أعلـــى مراتبـــه — وطالمـا غـابَ عَنْهَـا، وَهْـيَ لَـمْ تَغـب

وَمَانَعَتْـــــهُ كمعشـــــوق، تَمَنُّعُــــهُ — أحْلى منَ الشَّهْد أَوْ أَشْهَى منَ الضَّـرَب[1]

فمــرَّ عنهــا بــلا غــيظ، ولا حَنَــق — وســارَ عنهــا بــلاَ حقْــد وَلَا غَضَــب

تطــوي الــبلادَ، وأهليهــا كتائبُــهُ — طيّــاً كَمَــا طَــوت الكُتَّــابُ للكُتُــب

أرضُ الجزيــرة لــم تظفــرْ ممَالكُهــا — بمالـــــك فَطـــــن أوْ ســـــائس دَرب[2]

ممالــــكٌ لـــم يُـــدبُّرْهَا مـــدبِّرُها — إلَّا بــــرَأْي خَصــــيٍّ أَوْ بعَقْــــل صَــــبي

حتَّـى أتاهَـا صـلاحُ الـدّين فانصلحت — مـنَ الفَسَـاد كَمَـا صـحَّت مـنَ الوَصَـب[3]

وقــد حَوَاهَــا، وأعطــى بَعْضَــهَا هبَــةً — فهــو الــذي يَهَــبُ الــدُّنْيَا، وَلَــم يَهَــب

وَمُــذْ رَأَتْ صــدَّهُ عــن رَبْعهــا حَلَــبٌ — ووصـــــلَه بـــــبلاد حُلْـــــوة الحَلَـــــب[4]

غــارتْ عليــه، ومــدَّتْ كــفَّ مفتقــر — منْهَــا إليــه، وأبــدتْ وجــهَ مُكْتَئــب

واســـــتعطَفَتْهُ فوَافَتْهـــــا عواطفُـــــه — وأكتــبَ الصُّــلْحَ، إذْ نادَتْــهُ عَــنْ كَثَــب[5]

وحـــلَّ منهـــا بـــأُفْق غَيْـــر مـــنخفض — للصَّـــــاعدينَ، وَبُـــــرْج غيـــــر مُنْقَلـــــب

فــتحُ الفتــوحِ بِــلَا مَــيْنٍ وصــاحبُه — مَلْــكُ المُلْــوكِ ومولاهــا بِــلَا كَــذِبِ[6]

وأما الشاعر يوسف البراعي، فيقول: (من الكامل)

شَـــرُفَتْ بســـامي مجـــدكَ الشَّـــهْبَاءُ — وَتَجلَّلَتْهَـــــــا بهجـــــــةٌ، وضـــــــياءُ

ألقـــتْ إليـــكَ قيادَهـــا، وبهـــا علَـــى — كــــــلِّ المُلــــــوكِ تَرَفُّــــــعُ وَإِبــــــاءُ[7]

وتعجبني قصيدة رائعـة لهبـة الله بـن وزيـر في الملك صلاح الـدين، يمـدح فيهـا جيشـه، ويوضح مكانته ومكانة أسرته في الدنيا، ويقول: (من الطويل)

لقد أوْضَحَ الآيات في الحـرب يُوسُـفٌ — فَقَـــامَ ببرهـــان النّضـــال شُـــهُودُهَا

مليــــكٌ لــــه عــــزمٌ يُخَبِّــــرُ أَنَّــــهُ — قــديمُ سياســات الــوَغَى، وَجَديــدُها

---

1 الضّرب: العسل الأبيض الغليظ. والمعنى: أنها منعته وتمنعه كان أحلى وأشهى من العسل.

2 الدرب: المعتاد المجرب الجريء.

3 الوصب: المرض والوجع الدائم.

4 الحلب: اللبن المحلوب، أو شراب التمر.

5 وأكثب الصلح عن كثب: دنا من الصلح من قرب وتمكن.

6 الروضتين (44/2). وديوان ابن سناء الملك (2/1-4).

7 الروضتين (45/2).

غَــداً وارثــاً مــن شــيركوه عَزائمــاً لَــهُ فَتَكَــتْ بالشّــرك منْهَــا حُشُــودُهَا[1]
جيــوشٌ تَضيــقُ الأَرْضُ عنهــا كأنَّهــا أفــاويضُ بحــر عَاجَلَتْهــا مُــدودُها
تَمُــورُ نُجُــودُ الأَرْض مــن عُظْــم خَوْفــه إذَا خَفَقْــت في الخَــافقين بُنُودُهَــا
وَهَــلْ للبَرَايَــا طاقــةٌ بعَسَــاكر ملائكــةُ السَّــبْع الشِّــدَاد جُنُودُهَــا؟[2]
أَمَــا آنَ أَنْ يَرْثــي لخيــل مُغيــرة وَشَــهْرَيْن عَنْهَــا مــا أُزيلــتْ لُبودُهَــا؟
وأنْ تُغْمَدَ البيضُ الرقاقُ وقد شَكَتْ إلــى عفــوه طــولَ الفــراق غُمودُهَــا
مواقعُــهُ خَلْــفَ العــدَا وأمَامَهــا فَمَــا يَثْنــي إلّا إليــه طَريــدُها
هــي الشــمسُ تأثيراتُهــا في قريبهــا ولــم يحتجــزْ عَنْهَــا ببُعْــد بَعيــدُهَا
فيوســفُ في مصــر شــبيهُ سَــميِّه بمملكــة يَسْــمُو الســماءَ صُــعُودُهَا
لقــد شَــرُفَتْ أرضُ عَلَاهــا ركابُــهُ وعــزّتْ جيــوشٌ عَزْمُــهُ يســتقيدُهَا[3]
وفي أيِّمَــا أَرْض يَحُــلُّ مُخَيِّمــاً تَضَــوَّعَ مــنْ نَشْــر العَبيــر صَــعيدُهَا
لأيــوبَ قــد آبــتْ مــنَ الغَــزْو سَــادَةٌ تَســودُ مُلــوكَ الأَرْض فَهْــيَ عَبيــدُها
هُــمُ قَــدْ أَقَــامُوا قُــبَّ الحَــقّ وَالهُــدَى بأســيافهمْ حتَّــى اســتقلَّ عَمُودُهَــا
فَــلا زالــتِ الــدُّنيا تُســاسُ بــرَأْيِهِمْ وَتَسْــعَى إلَــيْهِمْ بالثَّنَــاءِ وُفُودُهَــا[4]

ولا يفوتنا أنْ نستشهد بأبيات يوردها صاحب كتاب الروضتين، لأبي طي النجار، التي تصور إعجابه الشديد بشخصية صلاح الدّين، ويرى أنَّه يصلح لامتلاك حلب، ولا تصلح إلا له، ويقول: (من الخفيف)

حلــبٌ شــامة الشــآم وقــد زيــــ ــــدن جــلالاً بيوســف وجمــالا
هــي أس الفخــار مــن نَــال أعــلا هــا تعــالى فخامــة وتغــالى
ومحــل العــلاء مــن حــلّ فيهــا تــاه كبْــراً وعــزَّةً وجــلالا
مــن حواهــا مُمَلّكــاً مَلَــكَ الأر ضَ اقْتسَــاراً ســهولةً وجبــالا
فافترعْهــا مهنَّــأ بِمحَــلٍّ سَــمَكَ الأنجــم الوضــاء وَطَــالا[5]

---

1 شيركوه كان قائد نور الدين زنكي، وهو عم صلاح الدين الأيوبي.

2 البرايا: جمع البريئة والبريَّة.

3 يستقيدها: يذلّها ويخضعها.

4 الخريدة (قسم شعراء مصر) (2/145-146).

5 الروضتين (2/45). وافترعها: ابتدئها، أي: ادخلها. وسمك: ارتفع على.

وما أجمل قول الشاعر البلغوي في مدح صلاح الدين حين يقول: (من البسيط)

قُـلْ للمُلـوك تنحُّـوا عـن ممـالككم   فَقَـدْ أَتَـى آخـذُ الـدُّنيا ومعطيهـا[1]

وهذه إشارة من الشاعر لما منّ الله على صلاح الدّين من نصر، وما تكرم به مما أعطاه الله من الغنائم.

* * *

ونال الملك الناصر صلاح الدين إعجاب الشعراء والكتاب والأدباء والعلماء، وهو: "وأن كان لا يقول الشعر؛ لكنه ناقد خبير، ونافذ بصير، يعجبه المعنى المَعَريُّ، واللفظ السهل الأبيّ، وهو يحفظُ من محاسن العَرَب وَمزاين الأدب، وأعاجيب السِّيَر، وأساليب العبَر، وقصائد القدماء، وشوارد الحكماء، ما يستشهد فيه لكلّ حادث وحديث بما هو اللائقُ، ولا يجري في مَجْلسه ومأنَسه إلّا ما هو من الحكَم والكَلم الفائق اللائقُ، يحبُّ الشعرَ الجيدَ، وَيَحْبُوهُ بشَعار جُوده، صدرُه في الحرم أوسعُ من خرق فَدْفَد[2]، ولَمْحُهُ في الحُكْم أسرعُ منْ برق مُرْعد، ومجدُهُ في الأمم أرفعُ من فَرْق فَرْقَد..."[3] حقّاً، هذا هو صلاح الدّين الذي نظمت فيه غرر القصائد التي عبرت عن عجز الكلام، ونضوب البيان، فأصبح كلّ وصف في علاه حسيراً وقصيراً، وكلّ معنى وكلّ لفظ فيه قليل.

وما أجمل أنْ نقرأ بعض قصائد أخيه تاج الملوك مجد الدين أبي سعيد بوري في مدحه له، والذي كان تنطلق منه الأشعار على سجيّته باعتراف العماد الكاتب الذي يقول: "وما في بني أيوب من اشتغل بالأدب او قرأ شيئاً من كلام العرب، لكنهم لمجالسة الأدباء ومساجلة الألبَّاء. ومذاكرة العلماء، ومكاثرة الحكماء، عَلموا فَعَملوا، وأَقْبَلوا وَقَبلوا فنطقوا بكلّ غريبة..."[4] ولا نعرف السنة التي قيلت فيها هذه القصائد؛ ولكننا نقول: أنها نظمت قبل سنة تسع وسبعين وخمسمئة، وهي السنة التي توفي فيها الشاعر

1 المصدر السابق (42/2).

2 الفدفد: الأرض الواسعة المستوية لا شيئ فيها.

3 الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) ص78-79. والفرقد: اسم لنجمين من نحوم الدب الأصغر، وهما فرقدان.

4 المصدر السابق، ص79.

تاج الملوك، لذا سندوّن منها ما أمكن؛ لأنها نابعة من القلب إلى القلب، من أخ إلى أخيه، صادقة بعيدة عن الرياء والكذب، ويقول في مطلعها: (من البسيط)

هَلْ مَانأَى مِنْ حَبيبِ النَّفْسِ مقْتَرِبُ؟ أَمْ هَلْ يُسَرُّ بجمعِ الشَّمْلِ مُكْتَئِبُ؟

وبعد هذا المطلع يصف -في تسعة أبيات- حرقته ولوعته لفراق الحبيب، وما اكتوى به من نار الحب، وما لحق به بسبب البعد، وضرورة الصبر... إلى أن يصل إلى مدح أخيه بأبيات تفيض حبّاً وحناناً، حتّى ليكاد القارئ يشعر أنّه معشوق يتغزل بحبّه، ويعاتبه عتاباً رقيقاً لا يصل به إلى حدّ القطيعة:

يَا مَالكَاً عمَّت الدُّنْيَا مَوَاهبُهُ كَمَا تعمُّ إذَا مَاسحَّت السُّحُبُ

جونٌ، وَلَيْسَتْ بغَيْر المَاء سَافحَةً يَوْماً، وَأَدْنَى عَطَايا كَفّه الذَّهَبُ[1]

اجْبُرْ بصُنْعكَ قَلْبي، فَهْوَ مُنْكَسرٌ مثلُ الزُّجاجَة كَسْراً لَيْسَ يَنْشَعبُ[2]

لا تَتْرُكَنَّ صروفَ الدَّهْر تَلْعَبُ بي فعندَ مثلك لا يُسْتَحْسَنُ اللَّعبُ

يا مالكَ الرِّقِّ خُذْهَا نَفْثَةً صَدَرَتْ عَنْ نَازح، قَلْبُهُ بالوُدِّ مُقْتَربُ[3]

إذَا رَأى بُعْدَهُ عَنْ بَاب مَالكه يَصيحُ: وَاحَرَبا، لَوْ يَنْفَعُ الحَرَبُ![4]

وحالتي لو رآها حاسدٌ لَرَثى وكَانَ منْ رحمة يبكي، وَيَنْتَحبُ

كلُّ يفوزُ بعزّ منكمُ أبداً وما نصيبي إلّا الذّلُّ، وَالنَّصَبُ[5]

وما عجبتُ لدهري: كيف يظلمني وإنّما ظُلْمُكُمْ أنتْ هُوَ العَجَبُ؟[6]

وسرعان ما يعود إلى غرضه الأساسي ألا وهو المدح؛ لنراه كغيره من الشعراء يطلق الصفات المألوفة على الممدوح من سماحةٍ وكرم، وفضل، ومجدٍ، ووفاءٍ، وحسبٍ، ونسبٍ، وقوةٍ، وبأسٍ، ورفعةٍ، ثم يشبهه بالشمس في العلا، وبالبحر في الكرم، وبالسحاب في العطاء:

---

1 جُون: جمع جَوْن، وهو الأبيض والأسود، فهو من الأضداد، ويعني هنا بها السُّحب المليئة بالخير.

2 انشعب الشيء: انصلح.

3 يصف الشاعر نفسه كالعبد المحب للسيده البعيد عنه، وهو كذلك عند الممدوح.

4 والشاعر هنا يتفجع لسوء ما لحق به من النوى والبعد "لو ينفع الافجه عما سلبه" من الاقتراب من المحبوب. واحربا: كلمة تقال في التحزن والتأسف. وقيل: إنها من الحرب، وهو ذهاب المال.

5 النصب: التعب.

6 ديوان تاج الملوك الأيوبي، ص104-105.

يا خيرَ مَنْ سمح الدَّهرُ الضّنينُ به ... وخيرَ مَنْ يمَّمَتْهُ العُجْمُ وَالعَرَبُ![1]
لأَنْتَ أكرمُ مَنْ لاذَ الأنامُ به ... نَفْساً، وأعظمُ مَنْ تسمو به الرُّتبُ
لولاكَ ما كانَ لا مجدٌ، ولا كرمٌ ... ولا وفاءٌ، ولا فضلٌ، ولا حسبُ
لولاكَ ما انتصرَ الإسلامُ يَوْمَ وَغى ... وَلا دهى الشّركَ لا وَيْلٌ، وَلا حَرب
يا مَنْ تَوقَّدَ منْ علْم، ومعرفة ... كما توقّدُ في ظلمائها الشُّهُبُ!
لأنتَ كالشمسِ تنأى رفعةً، وَعُلا ... ونورُها في جميع الأرض مُقْتَربُ
كالبحر يقذفُ للدّاني جواهرَهُ ... جوداً، وتبعثُ للنّائي به السُّحُبُ
لو لم يكنْ -أَيُّها المولى- أبوكَ أبي ... لقلتُ: إنّكَ لي في الحالتين أبُ
وَفَرْطُ حُبِّكَ فيمَا بيننا نَسَبٌ ... ثان، ولو لم يكن ما بيننا نَسَبُ
يا أكثَر النّاس بي علْماً، ومعرفةً ... مَتَى تُعَبِّرُ عَنْ أَعْرَافه الذَّهَبُ؟
أفديكَ منْ مَلك، حَمِّ الصّفات، به ... تُطْوى الخُطُوبُ، وفيه تُنْتَشَرُ الخُطَبُ
مَوْلَايَ لا خَلَت الدُّنْيَا، وَسَاكنها ... منْ ظلّ دولتكُمْ ما دارت الحقَبُ
فَمَا بقيتُمْ فأيّامي بجودِكُمُ ... كما أُحبُّ، وأحوالي كَما يَجِبُ[2]

ومن قصيدة أخرى يمدح فيها أخاه الملك الناصر يوسف صلاح الدّين، وهو كعادته التقليدية، ويبدأ قصيدته بمطلع قائلاً: (من الطويل)

ألا هلْ لأَيام الوصَال وُصُولُ ... وَهَلْ عنْدَ ذي الوَجه الجَميل جَميلُ؟
نعمْ عنده لو شاءَ للقلبِ راحةٌ ... ولكنّه بالمكرُمَاتِ بخيلُ[3]

ثم يكمل وصف الساقي وما يترك من أثر في نفسه، إلى أنْ يقول:

أَعِدُّ له عند اللّقاء تَعَتُّباً ... ولم أَدْر إذْ أَلْقَاهُ كَيْفَ أَقُولُ؟!
إذا خطرتْ ذكْرَاهُ سَالَتْ بأَدْمُعِي ... عَلَى وَجْنَتي بَعْدَ السُّيولِ سُيُولُ[4]

ويتبع الشاعر في قصيدته هذه نمط القصيدة العربية؛ لما فيها من حسن التخلص ونلاحظ في البيتين السابقين، تمهيداً لنقلة مختلفة تماماً عما يتحدث عنه، ويقول:

---

1 يممته: قصدته.

2 الخريدة: ص105-106.

3 المصدر السابق، ص199.

4 المصدر السابق. ص200.

كـأنَّ صـلاحَ الـدِّين علّـم نـاظري ... نَـداهُ، فغيـثُ الـدَّمْع منـه هَمُـولُ[1]

ومن الواضح أنَّ الشاعر استطاع أنْ ينقل القارئ، نقلاً سهلاً من المعنى الأول وهو الغزل إلى المعنى الآخر وهو المدح، دون انقطاع واضح بين المعنيين لقوة الائتلاف بينهما، وكثرة الانسجام أيضاً؛ ولكن هذه البراعة تُسوّغ موقف الشاعر من الوقوع أسيراً في معجم المدح لينهل منه كغيره من الشعراء، الذين يبالغون بالصفات الدينية من: الجهاد، والعدل، والتقى، وحماية الضعيف، ونشر الأمن، والصفات الدنيوية من: كرم وعقل وأخلاق وجود، ويقول:

هـوَ المَلـكُ الوَهَّـابُ مـا حـازَ جَيْشُـهُ ... فكـلّ أخـي جُـود لَدَيْـه بَخيـلُ

يخـوضُ غمَـارَ المَـوْت، وَهْـوَ أَسـنَّةٌ ... ويلقـي سـوادَ الليـل، وَهْـوَ خيـولُ

إذَا وَطئَـتْ صـيدُ المُلـوك بسَـاطَهُ ... فكـلُّ عظـيم في العُيُـون ضَـئيلُ[2]

يقـولُ بعلْـم بالـذي تَجْهَلُونَـهُ ... وَمَـا النَّـاسُ إلَّا عَـالمٌ وَجَهُـولُ

فكـلُّ أَخـي جُـود لَدَيْـه مُبَخَّـلٌ ... وَكُـلُّ عَزيـز مَـا خَـلاَهُ ذَليـل

تَفَـرَّدَ بالعليـاء، وَالعَـدْل، وَالتُّقَـى ... فلـيسَ لَـهُ في العَـالَمينَ عَـديلُ

فكَمْ منْ صلَات، وَاصلَات إلى الوَرى ... لَهَـا كـلَّ يـوم مـنْ يَدَيْـه، وُصُـولُ

غَـدَا طَـاهرَ الأَثْـوَاب مـنْ كُـلّ وَصْـمَة ... فكـلُّ ردَاء يَرْتَديـه جَميـلُ

إذا نَـابَ خطـبٌ فادْعُـهُ تَـدْعُ كَافيـاً ... جَلـيلاً، يـردُّ الخَطْـبَ، وَهْـوَ جَليـلُ

إذا حُرمَـتْ مصْـرٌ زيَـادَةَ نيلهَـا ... ففـي يَـده غَيْـثٌ يَجُـودُ، وَنيـلُ

فَـلَا زَالَـت النُّعْمَـى لَـهُ مُسْـتَجدَّةً ... لَهَـا أَبـداً ظـلٌّ عَلَيْـه ظَليـلُ

وَلَا زَالَ مَنْصـورَ الجُيُـوشِ مُؤَيَّـداً ... لَـهُ عَاضِـدٌ مِـنْ رَبِّـهِ وَكَفيـلُ[3]

والممعن في أبيات تاج الملوك الأيوبي بوري يلاحظ بكلّ وضوح تضمينه لأشعار كبار الشعراء، ولا عجب من ذلك؛ لأن العصر الأيوبي هو همزة الوصل بين عصر الازدهار – العصر العباسي– وعصر الإنحطاط –العصر المملوكي– وكان همّ الشعراء هو الوصول إلى إطلاق الصفات المتعددة الكثيرة في أقل عدد من الأبيات؛ لأن غايتهم هي الإبداع في

1 الخريدة، ص200.

2 الصيد جمع الأصيد، أي: الملك العظيم الذي يرفع رأسه كبراً وتيهاً، ولا يلتفت من زهو يميناً وشمالاً. والأصيد: الأسد.

3 المصدر السابق، ص200-201.

المديح لا الإبداع في خلق الصور، والصفات والمعاني الجديدة؛ لذا نرى شعراء هذا العصر مقلدين وليسوا مبدعين، وذلك لظروف العصر السياسية، والاجتماعية، والدينية.

وتنتقل مع الشاعر الأيوبي بوري في مديحه لأخي صلاح الدين لنقرأ هذه الأبيات معاً والتي تضم في ثناياها الحشد من الصفات الدينية والدنيوية، ويقول فيها: (من الرمل)

مَلِكٌ للدّين منْهُ نَاصِرٌ ... هُوَ أَوْفَى النَّاس عَهْداً، وَذمَامَا

دافعِ الأعداءَ من حَوْزَتِه ... خَيْرُ مَنْ دَافعَ عَنْ دين، وَحَامى[1]

أَوْضَحَ الحَقَّ، وسنَّ العَدْلَ منْ ... بَعْد مَيْل واعْوجَاج، فَاسْتَقَامَا

سَبَقَ الخَلْق إلى شَأو العُلا ... فَسَمَا في مَجده عَنْ أَنْ يُسَامى[2]

قامَ بالأَعْبَا بهَا ضَامنَها ... خيرةُ العَالَم بالأَمْر قيَامَا[3]

فاقَ هَذا النَّاسَ بأساً، ونداً ... وعلى الأَمْلَاك عَزْماً، وَاهْتمامَا

مَا صلاحُ الدِّينَ إلّا نعْمَةٌ ... بُسطَتْ للْخَلْق شَرْقاً، وَشَآمَا

عَمَّت الدُّنيَا عَطَايا كفّه ... كعموم الغَيْث هَطَّالاً رُكَامَا

نعَمٌ أَصْغَرُهَا أَكْبَرُهَا ... وَأَيَاد لَمْ تَزَلْ فينَا جسَامَا

مَلِكٌ لَمْ يبْدُ إلَّا عَايَنَتْ ... عينُ مَنْ يَبْدُو لَهُ البَدْرَ التَّمَامَا

وكأَنَّ البَرْقَ يَبْدُو لامعاً ... في السَّحَاب الجون، إنْ هَزَّ حُسَامَا

يَا مَليكاً عَلِقَتْ مِنْهُ يَدي ... عُرْوَةً، لا أَبْتَغِي مِنْهَا انْفِصَامَا[4]

ولا شكّ أنَّ هذه النماذج الشعرية القليلة التي نظمها تاج الملوك بوري، وقد أفصحت عن طبيعة القائد الإسلامي صلاح الدين؛ لأنها لم تنظم طمعاً في مال أو جاه، ولكنها إعجاب الأخ بأخيه، والابن بأبيه، ولم نجد تاج الملوك حاسداً لأخيه في يوم من الأيام بل هو جندي من جنوده الأوفياء، وإذا اعتراه ظلم أو لحق به جور، عاتبه عتاباً فيه حبّ وحنان

---

1 الحوزة: الناحية.

2 الشأو: الغاية والمدى.

3 بالأعبا: أي بالأعباء.

4 المصدر السابق: ص232 و 233.

ووفاء، وكل هذا نلحظه في قصيدة طويلة نظمها في مدحه، ومعاتبته، ويقول في مقدمتها: (من البسيط)

في سُقْم جَفْنَيْك مَا يَشْفَى به السَّقَمُ ... وَفي اللَّمى منْك مَا يُنْفَى به الأَلَمُ[1]

يا مُنْيَةَ النَّفْسِ، لا، بَلْ يَامَنِيَّتَها ... وَمَنْ غَدَوْتُ ووجداني بها عَدَمُ![2]

وبعد أنْ يقف في هذه المقدمة الغزلية، ويطيل الوصف، يتخلّص ببراعة من الغزل إلى موضوع المديح قائلاً:

تَلُوحُ في وَجْنَتَيْكَ النَّارُ مُشْرقَةً ... لَكنَّهَا في ضُلُوعي منْك تَضْرمُ

لَمْ يَلْمَع البَرْقُ منْ إيمَاض ثَغْرَك لي ... إلَّا غَدَا القَطْرُ منْ عَيْنَيَّ يَنْسَجمُ[3]

كأنَّهُ جُودُ مَوْلانَا، وَمَالكنَا ... وَمَنْ به يَتَبَاهى العُرْبُ، وَالعَجَمُ

أَقْسَمْتُ لَوْلا صَلَاحُ الدِّينِ مَا صَلُحَتْ ... لِلْخَلْقِ حَالٌ، وَلا دَامَتْ لَهُمْ نِعَمُ[4]

ويتابع الشاعر مديحه دون العناية بتوليد المعاني الجديدة، أو بترابط أجزاء القصيدة، وهمّه البحث عن معجم المديح والمعاني السائدة المكرورة المعادة، دون تعمق في معنى أو صورة، وهذا تجميع واضح، وتقليل بيّن، وتضمين لشعر شاعر الشعراء المتنبي[5]:

هو الذي حَرَسَ اللهُ البلادَ به ... منَ العَدُوِّ، فَمَا يَغْتَالُهَا النِّقَمُ

مُمَجَّدٌ، أَرْيَحيٌّ، أَرْوَعٌ، يَقظٌ، ... إلَيْه تَنْتَسبُ العَلْيَاءُ وَالكَرَمُ[6]

الجُودُ، وَالبأْسُ أَدْنَى مَا يَمُتُّ به ... (والسَّيْفُ، وَالرُّمْحُ، وَالقرْطَاسُ، وَالقَلَمُ)[7]

يَنْهلُّ بالجُود كَفَّاهُ، وَلا عَجَبٌ ... أَنْ يَزْخَرَ البَحْرُ، أَوْ أَنْ تهْمي الدِّيَمُ[8]

لله دَرُّ جَوادٍ رَاحَ يَحْمِلُهُ ... أَلَمْ يُرَوِّعْهُ ذَاكَ المَجْدُ، وَالعِظَمُ!

---

1 اللمى: (بتثليث اللام)، سمرة في الشفة، وهي صفة مستحسنة فيها عند العرب.

2 الخريدة، ص227.

3 الإيماض: اللمعان.

4 المصدر السابق، ص228.

5 سنعرض التضمين في دراستنا الفنية من هذا البحث.

6 الأريحي: الواسع الخلق، والأروع: من يعجبك بحسنه، وجهازة منظره.

7 مَتَّ: توصل وتوسل وانتمى واتصَلَ.

8 يزخر: يمتلئ ويرتفع. ويهمي: يصبّ ويسيل.

طِرْفٌ منَ الخَيْلِ، يَعْلُو البَدْرُ صَهْوَتَهُ   وَالغَيْثُ، وَاللَّيْثُ، وَالإنْعَامُ، وَالعَلَمُ[1]
عَجِبْتُ كَيْفَ أَطَاعَتْهُ قَوَائِمُهُ   وَقَدْ تَحَمَّلَ مَا يَعْيَا بِهِ إِضَمُ![2]
يَا أَيُّهَا المَلِكُ المَسْعُودُ طَالِعُهُ   وَمَنْ لَهُ دَانَتِ الأَيَّامُ، وَالأُمَمُ
أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَاباً غَيْثُهُ نِعَمٌ   فِي طَيِّهِنَّ عَلَى أَعْدائنَا نِقَمُ
إنْ لَمْ أَكُنْ بِالَّذي تُولِيهِ مُعْتَرِفاً   (فَلَا سَعَتْ بِي إِلى كَسْبِ العُلَا قَدَمُ)
أُعِيذُ مَجْدَكَ أَنْ أَشْكُو التَّعَدِّيَ مِنْ   دَهْرِي، وَظِلُّكَ بِي مِنْ جَوْرِهِ حَرَمُ[3]

ولم يُخْفِ الشاعر حقيقة أمره، وما يكنّه تجاه أخيه، بل أحب أن يصرّح عمّا في قلبه، حتّى يتخلّص من الأَرَق، والعتب، وعدم الصفاء، وذلك للتصافي والتحبب وعدم اتساع الصدع بينهما، بأسلوب جزل، وعاطفة صادقة لا يشوبها مراء أو كذب أو خداع، ويقول:

دَعْنِي أَنَلْ بِكَ مِنْ أَيَّامِهِ أَرَبِي   فَإِنَّهَا لَكَ يَا خَيْرَ الوَرَى خَدَمُ
حَتَّى مَتَى أَنَا مَسْبِيٌّ، وَمُهْتَضَمٌ   وَلَيْسَ مِثْلِي مَنْ يُسْبَى وَيُهْتَضَمُ!
لا يَعجبُ النَّاسُ من حَقِّي المُضَاعِ، وَلَمْ   يُضَعْ لِدُونِيَ لا حَقٌّ وَلا ذِمَمُ
فَاللهُ، وَهوَ إِلهُ النَّاسِ كُلِّهِمُ،   قَدْ كَانَ يُعْبَدُ فِيهِمْ دُونَهُ الصَّنَمُ
حَاشَاكَ، حَاشَاكَ، يَا خَيرَ الوَرَى نَظَراً   (أَنْ تَسْتَوِي عِنْدَكَ الأَنْوَارُ، وَالظُّلَمُ)!
وَأَنْ أَقُولَ، وفِيكَ العَدْلُ أَجْمَعُهُ   وَلَمْ أَقُلْ: مَنْ رَجَوْنَا عَدْلَهُمْ ظَلَمُوا
أَوْ أَنْ أَقُولَ، وَفِيكَ العِلْمُ مُحْكَمُهُ:   (يَا لَيْتَهُمْ حَكَمُوا فِينَا بِمَا عَلِمُوا)
انْظُرْ إِلَيَّ بِعَيْنٍ مِنْكَ صَادِقَةٍ   (لَا تَحْسَبِ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ)
أَطْلِعْ شِهَاباً مِنَ الرأيِ المُوَفَّقِ لِي   بِنُورِهِ يَتَجَلَّى الظُّلْمُ، وَالظُّلَمُ
واسْلَمْ فَإِنَّكَ، يَا مَنْ عَزَّ مَبْسِمُهُ   (إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا)[4]

وممّا لا شكّ فيه أنَّ الشاعر تاج الملوك -وغيره من الشعراء في العصر الأيوبي- ولم يستطع التخلص من القيم الأدبية، والموروثات الشعرية، والتقاليد المتعارف عليها عند الشعراء، ذلك أن التأثر بكبار الشعراء واضح، بل يكاد يصل في بعض الأبيات إلى النقل

---

1 الطرف: (بكسر الطاء)، والكرم، جمعه الطروف. (لسان العرب، طرف).

2 إضم: جبل معروف.

3 الخريدة، ص229.

4 الخريدة، ص230-231.

المباشر وزناً، وقافيةً، ومعنى، ولفظاً، وهذا يدفعنا إلى القول: إن الشعراء نظروا إلى متقدميهم على أنهم أساتذتهم فأعجبوا بمعانيهم وألفاظهم وقوالبهم، فضمنوها أشعارهم قوالب جاهزة دون تعديل في أيّ من المقومات الشعرية.

ويشارك العماد الكاتب الشعراء في مدح صلاح الدين بقصيدة طويلة، ونقتطف منها: (من المتقارب)

وللنّــاس بالمَلــك النَّاصــر الصَّـــ ـــلاح صَــلَاحٌ، ونصــرٌ، وخيْــرُ[1]

مليــكٌ بجَــدْوَاهُ يَقْــوىَ الضَّــعيفُ ويثــرَى المُقــلُّ، وَيَغْنَــى الفَقيــرُ

لعــــزِّ الــــوَليّ، وَذُلّ العَــــدُوِّ نَــــوَالٌ مُبــــرٌّ، وَبَــــأْسٌ مُبيــــرُ[2]

بنعْمَتــــه للْعُفَــــاة الحُبُــــور بسَـــــطْوَته للْعُــــدَاة الثُّبُــــورُ[3]

إذَا مَاسَــطَا أَوْحَبَــا وَاحْتَبَــى فَمَــا اللَّيْــثُ؟ مَــنْ حَــاتمٌ؟ مَـا ثَبيــرُ؟[4]

هــو الشَّــمْسُ أَفْلاكُــهُ في الــبلاد ومَطلعُــــهُ سَــــرْجُهُ، وَالسَّــــريرُ

وَكَــمْ قَــدْ فَلَلْــتَ جُمُــوعَ الفــرَنْج بحَـــدِّ اعْتــزَام شَــبَاهُ طَريــــرُ[5]

بضَــرْب تَحَــذَّفُ منْــهُ الــرُّؤُوسُ وَطَعْــنِ تخسَّــفُ منْــهُ النُّحُــورُ

وَغَــــادَرْتَ غَــــادِرَهُمْ بِــــالعَرَاءِ وَمِــــنْ دَمِــــهِ كُــــلُّ قَطْــرِ غَــدِيرُ[6]

ويمدحه في قصيدة أخرى، ويقول فيها: (من الخفيف)

وَلَكَــمْ أَرْجَــفَ الأَعَــادي فَقُلْنَــا مــــا لمــــا تَذْكُرُونَــــهُ تَــــأْثيرُ

وَلجأْنَــــا إلــــى الإلــــه دُعَــــاءً فَلَوجْــــه الــــدُّعَاء منْــــهُ سُــــفورُ

وَعَلمْنَــــا أَنَّ البَعيــــدَ قَريــــبٌ عنْــــدَهُ، وَالعَســــيرَ سَــــهْلٌ يَســــيرُ

وَرَقَبْنَــــا كَالعيــــد عَــــوْدَكَ فَــــاليَوْ مَ بــــه للأَنَــــام عيــــدٌ كَبيــــرُ

مثْلَمَــــا يَرْقُــــبُ الشِّــــفَاءَ سَــــقِيمٌ أَوْ كَمَــــا يَرْتَجــــي الثَّــــرَاءَ فَقِيــــرُ[7]

1 خير: كرم وشرف وأصل.

2 المبير: المهلك.

3 الحبور: السرور والنعمة. والثبور: الهلاك والويل.

4 ثبير: يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: إنه جبل من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة.

5 الطرير: المحدَّد. والشبا: حَ كل شيء، ومن السيف: قدر ما يقطع به.

6 الخريدة(بداية قسم شعراء الشام) ص27-28. وديوان العماد، ص190-192.

7 الخريدة(بداية قسم شعراء الشام) ص39. وديوان العماد، ص182.

والعماد الكاتب في هذين النموذجين متأثر إلى حدّ كبير بالشعراء الذين يمجدون ممدوحيهم من خلال وصفهم بالنعوت الدينية؛ لأنهم يتعاملون مع قوّاد ثبتت أهليتهم، واستحقاقهم لمثل هذه الألفاظ، ولكن العماد معجب كل الإعجاب بممدوحه، فبالغ في إيراد القيم، وتعداد المناقب، والشمائل والأخلاق، دون تعمق في عرض الصورة التعبيرية التي من خلالها تبرز الصورة الشعرية بوضوح إلى جانب المبالغة في عرض الصور البيانية والميل إلى الزينة اللفظية.

وإنّ السنوات التي تلت سنة ثنتين وثمانين وخمسمئة، هي في نظرنا من أهم السنوات التي حقّق فيها المسلمون نصراً مظفراً على الإفرنج، ولا يمكن أن نمرّ بها، ونحن في عجالة من أمرنا، ولا بدّ من التوقف عند بعض الأحداث التي تضيء جوانب كثيرة من حياة صلاح الدّين الأيوبي الذي كان ممدوح الشعراء آنذاك.

وإنَّ الذي يتصفح المصادر التاريخية يرى أنَّ صلاح الدّين -بعد أن استقل بمصر- اخذ يوسع دائرة مملكته، فاحتلّ بلاد اليمن والحجاز واصبح البحر الأحمر تحت سيطرته، ثم تطلع إلى دمشق فاخضعها لنفوذه، وسار إلى حمص وحماة فاستولى عليها، ثم اتجهت أنظاره نحو حلب فتملكها، وبذلك وحّد البلاد الشّامية والمصريّة. وما نصل إلى سنة (582هـ/ 1186م) حتّى نرى مملكته تشمل: شمال العراق، والكردستان، والشام، واليمن، ومصر...[1] وكان صلاح الدين يعيش في هدنة مع الصليبيين في بعض المواقع، ونخص بالذكر (البرنس أرناط) صاحب الكرك الذي كانت إمارته هذه تفصل بين الشام ومصر، وكان من نصوص هذه الهدنة السماح للقوافل بالانتقال بين مصر والشّام.

ولكنّ صاحب الكرك أرناط غدر بقافلة لصلاح الدين كانت غزيرة الأموال، كثيرة الرّجال، ومعها جماعة صالحة من الأجناد، فاستولى على أموالها وسلاحها، وأسر جنودها وقتل الباقي، وحينئذ أخذ صلاح الدّين نذراً أنْ يقتله إن ظفر به[2].

---

1 انظر: الكامل في التاريخ 478/11 وما بعدها. والبداية والنهاية 270/12. والنجوم الزاهرة 78/6 وما بعدها. وبدائع الزهور في وقائع الدهور 1/248 وما بعدها. وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي 339/7 وما بعدها. والنوادر السلطانية ص45 وما بعدها.

2 الكامل في التاريخ 528/11.

ويأتي الخير مع سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، إذ يعترض (أرناط) قافلة قاصدة فريضة الحج فيها ابن أخت صلاح الدّين، فيحاول صلاح الدّين، فيحاول صلاح الدّين منعه من ذلك، ويبدأ باستنفار الناس إلى الجهاد المقدّس، ويصمّم على الانتقام من "أرناط"، ويخرج صلاح الدين من دمشق متجهاً نحو حصن الكرك والشوبك، ويحاصره، ويضيّق عليه، وكان في انتظار وصول المجاهدين المصريين، ولمّا التقى المجاهدون، نهبوا وخرّبوا وأحرقوا، ثمّ عاد صلاح الدين إلى طبرية وسرعان ما أدرك الصليبيون الخطر المحدق بهم، فاجتمع ملوكهم، وحشدوا جيوشهم، وتوجهوا إلى طبرية في ربيع الثاني من السنة نفسها (583هـ/ 1187م) والتقى الجمعان في حطّين... "وتشابكت السيوف والرماح الخطيّة، وأسفر وجه الإيمان، واغبر واقتمَّ وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان... وأمر السلطان بالتكبير، والحملة الصادقه؛ فحملوا وكان النصر من الله(ﷻ)، فقُتل منهم ثلاثون ألفاً في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم سوى "قومس" طرابلس، فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذي يزعمون أنه صلب عليه المصلوب، وقد غلّفوه بالذّهب واللآلئ، الجواهر النفيسة، ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله، ودفع الباطل وأهله"[1].

وما أجمل قصيدة القاضي السعيد أبي القاسم هبة الله بن سناء الملك الشاعر المصري التي يبدؤها بمطلع رائع يخاطب فيه صلاح الدّين بانتصاره هذا، قائلاً: أيّ فتح لك أبدا تهنئتي به؟ وفتوحاتك كلّها شامخة ملأت الزمان والمكان، ولاسيّما بعد هذا الانتصار الذي حققت فيه للمسلمين أعلى الأماني وأصدق الرغبات[2]: (من الخفيف)

لَسْتُ أَدْري بِأَيِّ فَتْحٍ تُهَنَّا ... يَا مُنِيلَ الإِسْلامِ مَا قَدْ تَمَنَّى؟!

ثم ينتقل الشاعر إلى استخدام الأسلوب الإنشائي الاستفهام التقريري قائلاً:

أَنُهَنِّيكَ إِذْ تَمَلَّكْتَ شَاماً ... أَمْ نُهَنِّيكَ إِذْ تَمَلَّكْتَ عَدْنَا؟

ويتابع تهنئته بقوله:

1 المصدر السابق 530/11.

2 البداية والنهاية 12/321. والكامل في التاريخ 11/534. وما بعدها. والفتح القسي في الفتح القدسي، ص58 وما بعدها.

قَــدْ مَلَكْــتَ الجنَــانَ قُطْــراً فَقُطْــراً إذْ فتَحْــتَ الشَّـــآمَ حصْـــناً فَحصْـــناً
إنَّ دِيـــنَ الإِسْـــلامِ مَـــنَّ عَلَـــى الخَلْـــ ـــقِ، وَأَنْـــتَ الـــذي عَلَـــى الـــدِّينِ مَنَّـــا

وفي هذا مبالغة قد لا تكون مقبولة شرعاً في ضوء قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [1].

ولا يستطيع الشاعر كتمان إعجابه بصلاح الدّين وفتوحاته، فأخذ يرميه بسهام الحب، والإعجاب، والأكبار، والمديح، ومع ذلك، فإنَّه يرى أنّ المديح لا يوفّيه حقّه مهما بلغ مداه حتّى لو يبلغ عنان السماء، والمكانة السابقة العالية الرفيعة مبنيّة على الأسنة والحراب، ويرى الشاعر أنْ انتظاره طال، وبَعُد أمله بالنصر، حتّى بعثه الله ليجعل من الحلم حقيقة، ومن الخيال نصراً مؤزراً سريعاً، لا مرْية فيه ولا ريب، حتّى بدأ صلاح الدين في معاركه مع الفرنجة، وكأنه يوسف الحسن وآية البطولة، وعلم الهداية في كلّ معركة خاضها، وفي كلّ نصر أحرزه:

لَـــكَ مَـــدْحٌ فَـــوْقَ الســـماوات يُنْشَـــا ومحـــلٌّ فـــوقٌ الأَســـنَّة يُبْنـــى
كـم تـأَنَّى النَّصْـرُ العَزيـزُ عَلَـى الشَّـا م ولمّـــا نَهَضْـــتَ لَـــمْ يَتَأَنَّـــا
قمـــتَ في ظلمـــة الكريهـــة كالبـــد ر ســـناءً، والبـــدرُ يطلـــعُ، وَهْنَـــا[2]
لـــم تقـــفْ قـــطُّ في المعـــارك إلا كنــتَ يــا يوســف كيوســفَ حُسْــنَا!
تجتنـي النَّصْـرَ مـنْ ظُبَـاكَ كـأنَّ الـ ـعَضبَ قَـدْ صَـحَّفُوهُ فَصَـار غُصْـنَا[3]
قَصَـدَتْ مَحْـوَكَ الأعَـادي فَـرَدَّ اللَّـ ـــهُ مَـــا أَمَّلُـــوهُ عَنْـــكَ وَعَنَّـــا

ثمّ ينتقل إلى وصف المعركة، ويحسمها لصلاح الدّين على الفرنج، ويصور كثرة الدماء التي سالت وكأنها بحار، وكانت الضحايا تطفو فوق برك الدماء، وكأنَّها السفن فوق الماء، في حين يرسم صورة القائد صلاح الدّين في جَوٍّ من الأَفراح، والأَهازيج، وولائم الأَعراس التي أخذت فيها الرماح، والسيوف تغني:

وَجَـــرَتْ مـــنهمُ الـــدِّمَاءُ بحَـــاراً فَجَـــرَتْ فَوقَهـــا الجَزَائـــرُ سُـــفْنَا

---

1 الحجرات: 17.

2 ظلمة الكريهة: يريد الحرب. ووهنا: منتصف الليل أو بعد ساعة منه. يقول: إنَّ البدر لا يطل إلّا بعد امتداد الظلام، وكذلك انتصاراتك وفتوحاتك كانت بعد لأي وعناء، وترقب، وطول انتظار.

3 العضب: السيف القاطع. وصحّفوه: من التّصحف، هو الخطأ في قراءة الصحيفة، كأن تقرأ (كتب) :(كنت)، و(عضب): (غصن).

صَـــنَعت فـــيهمُ وَليمَــــةَ عُـــرْسٍ رَقَـــصَ المَشْـــرَفّي فيهـــا وَغَنَّـــى

ويعرف الشاعر كيف يقتنص فرص الإنقضاض على الإفرنج، وهجائهم، ويقرر أنّهم عبدة الصليب، إذ جعل صلاح الدّين هذا المعبود أسيراً مقهوراً، وقد زعموا في القديم صلب ما ادعوا أنه إلههم، ولم يغن صلبُه عنهم شيئاً، فهو لا يملك أن يدفع عنهم الأذى او أن يردّ عنه مكروهاً... أضف إلى ذلك المهانة التي لحقت بملوكهم حين وقعوا في الأسر بعد أنْ كانوا يتعالون، ويتسامون، ويفخرون بأنّ ملكهم لا يفنى وعظمته لا تزول:

ظَـــلّ معبـــودُهم لـــديك أســـيراً مستضـــاماً فاجعـــل لَـــهُ النَّـــارَ ســـجْنَا

صـــلبوا ربَّهـــمْ فلـــمْ يُغـــن عَـــنْهُمْ مـــن يُـــرى بعـــد صـــلبه قَـــطُّ أَغْنَـــى؟

وَحَـوَى الأَسْـرُ كُـلَّ مَلْـكٍ يَظُـنُّ الـدَّ هْـــرَ يَفْنَـــى وَمُلْكَـــهُ لَـــيْسَ يفنـــى

ويحرص الشاعر على تسجيل حقيقة تاريخية هامة، وهي أنَّ البرنس أرناط تشدّق، وتمنّى لقاء صلاح الدّين، فكان له ما تمنّى، ووقعت الواقعة، فإذا به يسقط في يده، ويندم على أمنياته الفارغة، وتشدّقه المخزي المرير، فتمنّى لو كانت أمنياته حلماً لا يكذبها واقع، ولا يبطلها بطل عظيم، ويقع أرناط في الأسر، ويوضع الغُل في يديه، فيرق له الغُل، ويشفق عليه الحديد من كثرة ما كان يئنّ ألماً، وينوح حُرقةً وعذاباً، لقد وقع أرناط في شَر أعماله، وخبث نواياه وأفعاله، فاستدعاه صلاح الدّين ليذبحه براً بيمينه مما زاد الإسلام هيبة في نفوس أعدائه وخصومه، وبالفعل ذبحه بيمينه (أي: يده اليمنى) براً بيمينه(أي:قسمة وحلفه)، ويقول[1]:

كـــم تمنّـــى اللِّقَـــاءَ حَتَّـــى رآهُ فَتَمَنَّـــى لَـــوْ أَنَّـــهُ مَـــا تَمَنَّـــى

رقَّ مـــنْ رَحْمَـــةٍ لَـــهُ القَيْـــدُ وَالغُـــلُّ عَلَيْـــــــه فَكُلَّمـــــــا أَنَّ أَنَّـــــــا

1 تذكر المصادر التاريخية هذه الحادثة بإسهاب نوجزها فيما يلي: بعد أنْ وضعت الحرب أوزارها أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وجيئ بالأسارى تهادى بقيودها، وأجلس ملوك الفرنج عن يمينه ويساره على مراتبهم، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل تلك الخيمة، واستدعى أرناط صاحب الكرك، فلمّا أوقف بين يديه قام إليه بالسيف، ودعاه إلى الإسلام فامتنع، فقال له: نعم أنا أنوب عن رسول الله "ﷺ" في الانتصار لأمته، ثم قتله وأرسل برأسه إلى الملوك وهم في الخيمة، وقال: إنّ هذا تعرض لسبّ رسول الله "ﷺ" ثم أخذ يعرض الإسلام عليهم، ولم يسلم ممن عرض عليه إلا القليل، ويقال: إنه بلغت القتلى ثلاثين ألفاً، والأسارى كذلك، وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفاً، وكان من سلم مع قلتهم وهرب أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم. انظر: البداية والنهاية 321/12. وتاريخ ابن الأثير 537/11. والروضتين 86/2-87. والنوادر السلطانية ص78. ويضيف ابن الأثير على الرواية قائلاً: قام صلاح الدّين إليه بنفسه، فضرب رقبته. وقال: كنت نذرتُ دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما: لما أراد السير إلى مكّة والمدينة. والثانية لما اخذ القوافل غدراً...

وَاللَّعِينُ الإبْرِنسُ أَصْبَحَ مَذْبُو ... حَ يَمِين لَم تعدم الدِّينَ يُمْنَا
أَنْتَ ذَكَّيْتَهُ فَوَفَّيْتَ نَذْراً ... كُنْتَ قَدَّمْتَهُ فَجُوزِيْتَ حُسْنى

ويقرر الشعر بعد هذا المزج بين: التهكم، والإزدراء، والاستعطاف، والحزن، واللوعة، والتشفي، والتقدير، والدعاء، أن يعبر عن عواطفه بالابتهاج، والفرحة، والنصر، ويرى أنَّ البلاد دانت لصلاح الدّين دانيها وقاصيها، وجاءت تتهادى كالعرائس، تميس فرحاً، وتجتلي طرباً، ليجني السلطان، ويجني معه المسلمون ثمار الأمل العذب الذي حقّقه قائدهم، فليست الشام وحدها التي تسعد وتهنأ، فكل قطر وكل صقع يهنّأ على هذا النصر العظيم والفتح المبين، حتّى يصل الشاعر إلى نهاية قصيدته فيختمها باعترافه بعجز الكلام، ونضوب البيان؛ لأنّ كلّ وصف في علا صلاح الدّين حسير وقصير، وكلّ معنى وكل لفظ في هذا المقام قليل:

وَتَهَادَتْ عَرَائسُ المُدْن تُجْلَى ... وَثمارُ الآمال فيهنَّ تُجْنَى
لا تخصّ الشآم منكَ التَّهَاني ... كلُّ صُقْع وَكُلُّ قُطْر يُهَنَّا
قَدْ مَلَكْتَ البلَاد شَرْقاً، وَغَرْباً ... وَحَوَيْتَ الآفَاقَ سَهْلاً، وَحَزْنَا
وَاغْتَدى الوَصْفُ في عُلاكَ حَسيراً ... أَيُّ لفظٍ يُقَالُ أَوْ أَيُّ مَعْنَى!

وهكذا رأينا معاني الشاعر تدور في فلك المعارك والحروب والنصر، بأسلوب جزل، رغم اتجاهه إلى الزخرف والبديع، تشيع فيه الحماسة والفرحة والابتهاج؛ لأنها نابعة مما يهيج الشعور الوطني والديني، وعاطفة الشاعر وانفعاله نابض بالصدق والحبّ؛ لأنه يمدح قائداً تحقّق على يديه النصر المؤزر والفتح المبين...

وتفيض المصادر بذكر قصائد المدح التي نظمها الشعراء في صلاح الدّين، فها هو العماد الكاتب يذكر هذه الوقعة، ويتهكّم بالفرنج، ويهجوهم ويتشفّى منهم: (من البسيط)

يَا يَوْمَ حطِّينَ، وَالأَبْطَالُ عَابسَةٌ ... وبالعجاجة وَجْهُ الشَّمْس قَدْ عَبَسَا
رأيتَ فيه عظيمَ الكُفْر محتقراً ... مُعَفَّراً خَدُّهُ، والأنفُ قَدْ تعسَا
يَا طُهْرَ سَيف بَرَى رأْسَ البرنْس فَقَدْ ... أَصَابَ أَعْظَمَ من بالشِّرْك قَدْ نَجسا
وَغَاصَ إذْ طَارَ ذَاكَ الرّأْسُ في دَمه ... كأنَّهُ ضفدعٌ في المَاء قَدْ غَطَسَا
منْ سَيْفه في دمَاء القَوْم مُنْغَمسٌ ... منْ كُلّ مَنْ لَمْ يَزَلْ في الكُفْر مُنْغَمسَا

أَفْنَاهُمُ قتلُهُمْ، وَالأَسْرُ فَانْتَكَسُوا ... وَبَيْتَ كُفْرِهمُ مِنْ خُبْثِهِمْ كَنَسَا[1]

ومن قصيدة أخرى يمدحه فيها، ويزدري ملوك الصليبيين: (من الطويل)

حططتَ على حطين قدرَ ملوكهمْ ... ولم تُبْقِ منْ أجناس كُفرِهمُ جنْسَا

بطونُ ذئاب الأَرْض صارتْ قُبورهمْ ... وَلَمْ تَرْضَ أَرْضٌ أَنْ تَكُونَ لَهُم رَمْسَا

سَبَايَا، بلادُ الله مملوءةٌ بِهَا ... وَقَدْ شُرِبَتْ بَخْساً، وَقَدْ عُرِضَتْ نَخْسَا

يُطافُ بِهَا الأَسْوَاقَ لا راغبٌ لَهَا ... لكثرتِهَا كَمْ كَثْرَة تُوجِبُ الوَكْسَا[2]

شكَا يَبَساً رأْسُ البرنْس الذي به ... تَندَّى حسامٌ حَاسمٌ ذَلكَ اليُبْسَا

حَسَا دَمَهُ ماضي الغرار لغَدْره ... وَمَا كَانَ لَوْلا غَدْرُهُ دَمُهُ يُحْسَى[3]

فلّله مَا أَهْدَى يداً فتكت به ... وأَطْهرَ سيفاً مُعْدماً رجْسَهُ النَّجْسَا

نَسَفْتَ به رَأْسَ البرنْس بضَرْبة ... فَأَشْبَهَ رَاسي رَأسه العهْنَ وَالبِرْسَا[4]

تَبوَّغَ في أَوْدَاجه دَمُ بَغْيه ... فَصَالَ عَلَيْه السيفُ يَلْحَسُهُ لَحْسَا[5]

بَعَثْتَ إمَامَ أُمَّة التَّار نَحْوَهَا ... فَزَارَ إمَامُ ارْنَاطهَا ذَلكَ الحَبْسَا

ولله نصّ النصرِ جاءَ لِنَصْلِهِ ... فَلا قَوْنَساً أَبْقَى لِرَأْسٍ وَلا قَنْسَا[6]

أما الشاعر فتيان الشاغوري، فيصف -كغيره من الشعراء- صلاح الدّين بالعدل والأمانة وإقامة الحدود والفرائض، والاهتداء بالكتاب والسنّة، ويستقصي صفات الممدوح، والمعاني المتنوعة من الحياة الإسلامية، والعناصر الدينية: (من الكامل)

لا يَعْدَمَنْكَ المُسْلمونَ فكَمْ يَد ... أَوْلَيْتَهُمْ، مَعْرُوفُها لَمْ يُنْكَر

أَمَّنْتَ سِرْبَهُمُ، وَصُنْتَ حَريمَهُمْ ... وَدَرَأْتَ عَنْهمْ قاصمَات الأَظْهُر[7]

مُتَوَاضعاً لله جَلَّ جَلالُهُ ... وَبكَ اضْمَحَلَّتْ سَطْوَةُ المُتَكَبِّر

لَمْ يَخْلُ سَمْعٌ منْ هَنَاء مُهَنِّئٍ ... للمُسْلمينَ ومن سَماع مُبَشِّر

---

1 الروضتين 83/2. وديوان العماد، ص229-230. وكنس: أزال واستأصل.

2 الوكس: البخس في الثمن.

3 الغرار (بالكسر): حدّ السيف.

4 البِرْس: القطن. راسي: من وسا يرسو.

5 تبوغ دمه: هاج.

6 الروضتين 2/ 83-84. وديوان العماد الأصفهاني، ص234-236. ومعجم الأدباء 19/ 26-27. والقونس، مفرد القوانس: أعلى الرأس. والقَنَس: الأصل. ونصّ النصر: رفع النصر.

7 السرب: الجماعة.

مَضَتِ المُلُوكُ وَلَمْ تَنَلْ عُشْرَ الذي   أُوتِيتَهُ مِنْ مَنْجَحٍ أَوْ مَفْخَرِ[1]

وكان أبو الحسن علي بن الساعاتي قد مدح صلاح الدّين في فتح طبريّة، فقال: (من الوافر)

جَلَتْ عَزَمَاتُكَ الفَتْحَ المُبينَا   فَقَدْ قَرَّتْ عُيُونُ المُؤْمنينَا

وَهَانَ بِكَ الصَّليب وكانَ قدما   يعزُّ على العَوَالي أنْ يَهُونَا

يقاتلُ كلُّ ذي ملك رياءً   وأنتَ تقاتلُ الأَعداءَ دينا

قضيت فريضةَ الإسلام منها   وصدقت الأماني والظُّنونا

تهزُّ معاطفَ القدس ابتهاجاً   وتُرْضي عنك مكّةَ والحجونا[2]

فلو أنَّ الجهادَ يطيق نُطقاً   لنادَاك ادخلوها آمنينا

جَعَلْتَ صباحَ آهلها ظلاماً   وأَبدلتَ الزئيرَ بها أَنينَا

فقلبُ القدسِ مسرورٌ وَلَولا   سُطاك لكانَ مُكْتَئِباً حَزِينَا[3]

ولما استولى صلاح الدين على طبريّة، واصل جيشه السير إلى عكا، ومنها إلى: يافا[4] وعرّج بعدها على: تبْنين[5] وصيدا[6] وجُبَيْل[7] وبيروت، وأتت هذه المدن كالعرائس تتهادى ولحقت بها: عسقلان، والرّملة وغزّة وبيت لحم غيرها[8]، ووقف على مشارف القدس الشريف، ونصب حصاراً عليها، ولم يستمر هذا الحصار سوى أسبوع واحد، واستسلمت المدينة لصلاح الدين وتسلّمها يوم الجمعة السابع، والعشرين من رجب، وتوقفت المقاومة الصليبية، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها.

ولا نعتقد أنَّ هناك يوماً أفضل من هذا اليوم، ولا نصراً حقّقه المسلمون بعد هذا النصر، ولعلّ النماذج الشعرية التي نظمت في هذه المناسبه كافية لتوضيح ما ذهبنا إليه،

1 الروضتين 2/84. وديوان فتيان الشاغوري، ص146-147. وانظر القصيدة كاملة في الديوان، ص140-148.

2 الحجون: من مناسك الحج.

3 الروضتين 85/2. وديوان ابن الساعاتي 2/ 406-408.

4 مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا. (معجم البلدان 426/5).

5 تبنين(بكسر التاء والنون) بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور. (معجم البلدان 14/2).

6 مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ. (والفرسخ ستة كيلومترات تقريباً) (معجم البلدان 437/3).

7 بلد مشهور في شرقي بيروت، على ثمانية فراسخ. (معجم البلدان 109/2).

8 انظر: سنا البرق الشامي، ص192-312. وبيت لحم: بُلَيدةٌ قرب البيت المقدس: مكان مهد عيسى ابن مريم -عليه السلام- (معجم البلدان 521/1).

أضف إلى ذلك، مكانة صلاح الدّين الذي حاز على ثقة الشعراء، فأصبح الشخصية الأثيرة عندهم، ويقول العماد الأصفهاني في صلاح الدين بعد فتحه القدس، و توزيع الغنائم على الناس: (من الطويل)

رأيتُ صلاحَ الدّين أَفْضَلَ مَنْ غَدَا وَأَشْرفَ مَنْ أَضْحَى وَأَكْرَمَ مَنْ أَمْسَى
وقيلَ لَنَا في الأرض سَبْعَةُ أَبْحُر وَلَسْنَا نَرَى إلّا أَنَامِلَهُ الخَمْسَا
سَجيتُهُ الحُسْنَى، وَشيمَتُهُ الرِّضَى وَبَطشَتُهُ الكُبْرى، وَعَزْمَتُهُ القَعْسَا[1]
فلا يستحقُّ القدسَ غيرُكَ في الورى فأنتَ الذي من دونهم فَتَحَ القُدْسَا
ومنْ قبل فَتْح القُدْس كُنْتَ مُقَدَّساً فلا عَدَمَتْ أَخلاقُكَ الطُّهْرَ، وَالقُدْسَا
وَطَهَّرْتَهُ من رجْسهِمْ بدمائهمْ فأذهبتَ بالرّجْس الذي ذهب الرِّجْسَا
نَزَعْتَ لبَاسَ الكُفْر عَنْ قُدْس أَرْضها وَأَلْبَسْتَها الدِّينَ الذي كَشَفَ اللَّبْسَا
وعادتْ ببيت الله أحكامُ دينه فلا بَطْرَكاً أبقيتَ فيها وَلا قَسَّا[2]

وينقل لنا أبو شامة ما يرويه العماد الأصفهاني عن الشاعر الجويني بقوله: "وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ إليّ قصائده لأعرضها، فرأيت أنَّ اثبت له هذه القصيدة في الفتح" نذكر منها: (من البسيط)

جُنْدُ السَّمَاء لهَذَا الملك أعوانُ مَنْ شَكَّ فيهمْ فَهَذَا الفَتْحُ برهانُ
متى رأس الناس ما نحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمانُ
هذه الفتوح فتوح الأنبياء وما له سوى الشكر بالأفعال أثمانُ
أضحتْ ملوك الفرنج الصِّيد في يده صَيْداً وما ضَعُفُوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غُودروا وهُمُ خوفَ الفرنجة ولدان ونسوانُ
تسعون عاماً بلادُ الله تَصْرَخُ والـ إسلام أنصارُه صُمٌّ وعميان
فالآن لبّى صلاحُ الدّين دعوتهم بأمر مَنْ هو للمعوان معْوَانُ
للنَّاصر ادُّخرَت هذه الفتوحُ وَمَا سَمَتْ لَهَا همَمُ الأَمْلاك مُذْ كَانُوا
في نصف شهر غَدَا للشِّرْك مصطلماً فَطَهُرَتْ منهُ أَقْطَارٌ وَبُلْدَانُ

1 القعسا: القوية الثابتة. وأصلها القعساء.

2 ديوان العماد الأصفهاني، ص232. والروضتين 2/101-102. ومعجم الأدباء 24/19.

فـــأينَ مَسْـــلَمَةٌ عَنْهَـــا وإخوتُــــه ... بَــلْ أَيْــنَ والــدُهُم بَــلْ أَيْــنَ مَــرْوَانُ؟[1]

لـو أنّ ذا الفـتح في عصـر النّبـيِّ لقـد ... تنزلـــــتْ فيــــه آيـــاتٌ وَقُــــرآنُ!

يـا قُـبح أوجـه عبّـاد الصّـليب وقـد ... غَـــدَا يُبَرْقعُهـــا شُـــؤْمٌ وَخــــذْلانُ!

خزنـت عنـد إلـه العَـرْش سـائرَ مَـا ... مُلِّكْتَـــــهُ وملــــوك الأرْض خُـــزَّانُ

فـــاللهُ يُبقيـــك للإســـلام تَحْرُسُــــهُ ... مــنْ أَنْ يُضَــامَ ويُلْفــى وَهْــوَ حَيْــرَانُ

وهـــذه سَـــنَةٌ أَكْـــرم بهَـــا سَـــنَةً ... فَـــالكُفْرُ في ســنَة وَالنَّصْــرُ يَقْظَـــانُ

يـا جامعـاً كلمـة الإيمـان قـامع مـن ... معبــــوده دون ربِّ العـــرش صُــــلْبَانُ

إذا طـــوَى اللهُ ديـــوانَ العبـــادِ فَمَـــا ... يُطْـوَى لِأَجْـرِ صـلاح الـدين ديـوانُ[2]

ونلاحـظ في مثـل هـذه القصـيدة جزالـة الأسـلوب؛ لأن موضـوعات هـذا الأدب تعـيش في إطـار: الحماسـة والفخـر والاعتـداد، والهجـاء، والمقاومـة، والابتهـاج بالنصـر، وهـذه – لعمري– مظاهر القـوة التـي تسـتدعي اللفـظ القـوي، والعبـارة الجزلـة، فجـاءت تناسـب طبيعة العصر الأيوبي. وأما صـدق العاطفـة فيتجلـى مـن خـلال: الشـعور الـديني العميـق ومكانته العميقة في نفوس المؤمنين، فقـد اتجهـت المعـاني إلـى الإطـار الـديني تنتفـع بمـا تضمنه من أفكار تتصل بالجهاد، والمجد الإسلامي، والشهادة، والجنـة، وقـد ظفـر بيـت المقـدس بـأكثر نتـاج الشـعراء –في هـذه المرحلـة– ذلـك أنّـه بلـد الإسـراء وقلـب العـالم الإسلامي، وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشـريفين، شـديد الصـلة بعقيـدة المسـلمين، أَوَ لــيس في القـــرآن الكـــريم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ...﴾[3] أو لـيس في قـول الرّسـول محمـد "ﷺ": (لا تشـد الرحـال إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[4].

وما من شكّ أن صلاح الدين يستحق بجدارة أنَّ يـذكر مـع عمـر بـن الخطـاب –رضـي الله عنه– ويقرن به، ذلك بأنّ كليهما حقّق نصراً مؤزراً للمسلمين، ويقـول محمـد بـن أسـعد الجوّاني نقيب الأشراف بالديار المصرية: (من الكامل)

1 مسلمة: هو مسلمة ابن عبد الملك، غزا بلاد الروم (انظر: فوات الوفيات 70/2). وإخوته: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ووالدهم: عبد الملك بن مروان، ومروان: هو مروان بن الحكم.

2 الروضتين 2/ 104-105.

3 القرآن الكريم، سورة الإسراء: 1.

4 مسند للإمام أحمد بن حنبل 2/234.

يـا يُوسُـفَ الصِّـدِّيق أَنْـتَ لفتحهـا ... فاروقهـا عمـر الإمـام الأَطْهَـرُ
ملـك غـدا الإسـلام مـن عجـب بـه ... يختـال والـدينا بـه تَتَبَخْتَـرُ[1]

ونجد كذلك الشاعر ابن الساعاتي علي بن محمد يقول في مدح السلطان: (من الطويل)

هـو الفـاتحُ البيـت المقـدس بعـدما ... تحامَتْـهُ سـاداتُ الـدُّنى ومَسـودُها
فضـيلةٌ فـتحٍ كـان ثـاني خليفـة ... مـن القـوم مُبـديها وأنـتَ مُعيـدُهَا[2]

وأما الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسي الجلياني فله قصائد قدسيات طوال يقول في قصيدته الفتحية الناصرية: (من البسيط)

في بـاطن الغيـب مـالا تُـدْرك الفكَـرُ ... فـذو البصـيرة في الأحْـداث يَعْتَـبِرُ
مـالي أرى مَلـكَ الإفـرنج في قَفَـص ... أيـن القواضـبُ، وَالعَسَّـالَةُ السُّـمُرُ؟[3]
حَطُّـوا بحطّـين ملكـاً كافيـاً عجبـاً ... في سـاعة زالَ ذاكَ الملـكُ، والقـدرُ
أهـوى إلـيهم صـلاح الـدين مفترسـاً ... وهـو الغضـنفرُ عـدّى ظفـرَه الظَّفَـرُ
أمْلـى علـيهمْ فصـارُوا وَسْـطَ كَفَّتـه ... كَسـرْب طَيْـر حَوَاهـا القـانصُ الـذَّكَرُ
وأَنجـزَ اللهُ للسّـلطان موعـدَهُ ... ونَـذْرَهُ في كفـور دينـه البطـرُ
وعـاين الملـكُ الإبـرنس في دَمـه ... فمـاتَ حيّـاً، وَحَيَّـا وهـو يَعْتَـذرُ
رأى مليكـاً ملـوكُ الأَرْض تتبعـه ... وَالـنَّجْمُ يَخْدمُـهُ والشَّـمْسُ وَالقَمَـرُ
إذَا بَـدَا تبهـرُ الأَعْيَـانَ هيبتُـهُ ... ويختفـي وهـو في الأذهـان مشـتهرُ
بَيْنَـا سـباياه تُجْلـى في دمشـق إذا ... مَلْـك الفـرنج مـعَ الأَتْـراك محتجـرُ
إزاءه زعمـاء السّـاحلين معـاً ... مصـفَّدينَ بحبـل القَهْـر قـد أُسـرُوا
يتلـوهمُ صـلبوتٌ سـيقَ منتكسـاً ... وحولـه كـلُّ قسـيس لَـهُ زُبُـرُ
يسـبي فرنجـة مـن أقطارهـا، ولـه ... مـع المحبـوس حـروبٌ قَـدْحُها سُـعُرُ
وبعـض أبنائـه بالقـدس منتـدبٌ ... وبعضـها رومـة الكـبرى لـه وَطَـرُ
بدايـة تخـرق الأرض الكبيـرة في ... جمـع تقـول لـه الأَجْسـام لا وَزرُ[4]

---

1 الروضتين: 105/2.

2 الروضتين 107/2. وديوان ابن الساعاتي 71/2. وانظر مزيداً من الأمثلة: الروضتين 103/2 و106 وغيرهما.

3 العسالة السمر: الرماح المهتزة المضطربة ذوات اللون الأسود.

4 الروضتين (116/2-117). وديوان المبشرات والقدسيات، ص137-139.

ويرى الدكتور عبد الجليل حسن أنَّ الجيلياني بقدسياته استطاع أنْ: يوائم بين الألفاظ والمعاني، ويأتي بالألفاظ على رتب المعاني، ولذلك يختار من الألفاظ والتعبيرات (القواضب والسعالة والسمر).. وغيرها من الألفاظ، والعبارات التي اختارها للتعبير عن المعاني المستقاة من الفتح القدسي، ومواقف الفاتح السلطان صلاح الدين، وصورة العدو الصليبي المحتل"[1].

ورأينا الجلياني يطلق على قصائده مسميات فالأولى (الفتحية الناصرية) نسبة إلى الفتح القدسي، والسلطان الناصر صلاح الدين، والثانية الدالية المعروفة المشهورة التي اطلق عليها مسمى (القدسية الكبرى) عددها مئة واثنان وخمسون بيتاً، ويقول فيها: (من الطويل)

تصاريفُ دهو أعربتْ لمن اهتدى ... وبسطةُ أمر أَغْرَبَتْ مَنْ تَمَرَّدَا

لسرعة فتح القدس سرٌّ مغيَّبٌ ... وفي صَرْعَة الإفرنج معتبرٌ بَدَا

أَتَوا كَجبال أُبْرمَتْ لإسارنا ... فَسُقْنَاهُمُ فيها قَطيناً مجدَّدا[2]

وساموا تجاراً تشترينا غواليا ... فبعناهم بالرُّخص جَهْراً على النَّدى

عليهم من البلوى سُرادق ذلّة ... ومن ذَلَّ ماتتْ نفسُه فَتَقَيَّدَا

ترى المنسرَ الدِّيويّ يُلقي سلاحَه ... وينساقُ ما بينَ السَّبايَا ملهدا[3]

يُباعون أسراباً شرائحَ أَحْبُل ... كَشَلَّة عصفور من الرِّيش جُرِّدَا[4]

فتلقى نصارى جلَّق في مآتم ... يُسرُّونها إلا شجىً وتَنهُّدَا

ألم تَر للسلطان صَدَّق نذره ... دم الغادر الإبْرنس فَاقْتيدَ أَرْبَدَا[5]

وباشره بالقتل وَسْطَ جنابه ... وعاينه الكنْدُ المليك فأرعَدَا[6]

وضاقتْ بنفس القمّص الأَرْض مهرباً ... فأدركه الموتُ المفاجئُ مكمدا

وما طرق الأَسْماع من عهد آدم ... كملحمة التّل التي تلّت العدا

1 ديوان المبسرات والقدسيات، ص79-80.

2 القطين: الخدم والأتباع.

3 ملهدا: من لهدَه: أثقله، دفعه دفعة لذلّه. والمنسر الديوي: مقدم فرسان الهيكل.

4 الشلة: من الشلل.

5 اربد: المختلط سواده بكدرة وكآبة.

6 الكند: مرتبة من مراتب قادة العجم ونبلائهم، تعريب ال(Count)

أرَى الله فيه معجز النّصر مخلصاً لأمر صلاح الدين في النَّاس مخلدا
وأعدى جنود الرعب يردي عداته وَسَلَّمَ جَمْعَ المسلمين مجندا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل سبتهم جيوشٌ ليس فيها من ارْتَدَى[1]

حقاً إنّ الشاعر معجب صلاح الدّين أيّما إعجاب، وموفق في قصيدته هذه أيّما توفيق، فالأسلوب جزل، والعاطفة قوية، والأحاسيس صادقة، والحقائق شاخصة، والمدح بيّن، والهجاء أبين، والابتهاج واضح، والتهكم اوضح، هكذا كانت قصائد هذه المرحلة، تجمع المدح والهجاء، وكأنهما صنوان لا يفترقان، وجهان لعملة واحدة، يظهر هجاء الإفرنج من خلال مدح صلاح الدّين، ويظهر مدح صلاح الدّين من خلال هجاء الإفرج...

ويمدح الشاعر الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسّان الغساني صلاح الدين الملك الناصر ويهنئه بفتح بيت المقدس أيضاً، ويقول: (من الطويل)

لقد أوسعَ اللهُ الفُتُوحَ بعَامنَا وَخَيَّسَ منْهَا المُصْعَبَ المُتأَبِّدَا[2]
أمورٌ نبتْ عنها العقولُ، وأذعنت بأنَّ اختصاصَ الحظّ لله مُوحدا
فحرَّكَ شخصاً حرَّك الأَرْض جائلاً وهزَّ من الشهب الذوائب مصعدا
ولقّبه بالنّاصر الملك يوسُف ونقَّبَهُ نورُ المهابة سيَّدَا
يُنَوِّع أثناء النّهار سياسةً ويقطُع آناءَ الدُّجى مُتَهَجِّدَا
سقى بحُسان، واسترق بأنعم وما المجدُ إلَّا في الشَّجاعة، وَالنَّدى
فنمدحه حُباً، ويعطي تبرعاً، فيعجزُنا شكراً، ويشأى مُحمّد[3]
وكنت أرى ذا الفتح من قَسْم يوسف فللَّه ذاك القَسْمُ ما كان أسعدا[4]
ولله يومٌ هَلَّ فيه ولادة لقد طاب مولوداً وبورك مولدا
كفى مطهراً مَنْ طهَّر القدس، واحتوى بني أصفر سبياً وقتلاً تعمُّدا
هو المسجدُ الأقصى، وهم شوكةُ الوغى فَمَا كَانَ لولا الله يخلصُ مَعبَدَا

1 ديوان المبشرات والقدسيات، ص140-141. والروضتين 2/ 117-118. انظر قدسية أخرى في المصدرين السابقين، ص135-136. و2/103.
2 خيس: ذلّل. والمتأبد: المتوحش.
3 يشأى: يقصد ممدوحاً محموداً.
4 القسم: الحظ والنصيب، والجزء من الشيء المقسوم.

هنيئـــاً لبيـــت المقـــدس الآن طُهـــرُه ... وللنَّاصـــر المَنْصُـــور غبْطتـــه غَـــدَا
فيـا خيـرَ ممـدوح، وأطهـرَ مجتبـى، ... وأسـعدَ ممنـوح، وأبهـرَ مجتـدى!
فكـــلُّ ابتـــداءٍ في معاليـــهِ مُنتهـــى ... وكـــلُّ انتهـــاءٍ في معاليـــهِ مُبْتَـــدا[1]

وممن قدم على صلاح الدين في هذه السنة الشاعر الرشيد بن بدر النابلسي، وألقى قصيدة يمدح فيها السلطان، ويهنئه بفتح القدس: (من البسيط)

هـذا الـذي كانـت الآمـال تنتظـر ... فليـوف لله أقـوامٌ بمَـا نَـذَروا
بمثـل ذا الفـتح لا والله مـا حكيـت ... في سـالف الـدّهر أخبـارٌ، ولا سـيَرُ
حَـيْنٌ بـه حـانَ هلـك المشـركين فيـا ... لله طيـبُ العَشَـايَا منـه، والبكـرُ!
الآن قَـرَّت جُنـوبٌ في مَضَـاجعهَا ... ونـامَ مـن لـم يـزلْ حلْفـاً لـه السَّـهَرُ
يا بهجةَ القدس إذْ أضحى به علم الـ ... إسـلام مـن بعـد طـيّ وهـو منتشـرُ!
يـا نـور مسجده الأقصى وقد رفعت ... بعـد الصَّـليب بـه الآيـات وَالسُّـوَرُ!
شـتّان مـا بـين نـاقوس يُـدانُ بـه ... وبـين ذي منطـق يصـغي لـه الحَجَـرُ
الله أكـبر صـوتٌ تقشـعرُّ لـهُ ... شـمُّ الـذّرا، وتكـاد الأرضُ تَنْفَطـرُ
يـا مالـكَ الأرض مَهِّـدْهَا فَمَـا أَحَـدٌ ... سـوَاكَ مـنْ قـائم للْهَـدْي يُنْتَظَـرُ!
ما اخضرَّ هذا الطّرازُ السَّاحلي ثمراً ... إلا لتعلُـوا بـه أَعْلَامُـك الصُّـفُرُ
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً ... فيهـا لأعـدائك الآيـاتُ، وَالنـذرُ
صـاروا حـديثاً، وكـانوا قبـل حادثـةً ... علـى الـورى يَتَّقيهَـا البَـدْوُ، والحَضَـرُ
سـلبتهم دولـة الـدُّنيا، وعيشـتها ... حتّـى لقـد ضـجرت مـن وفـدهم سَـقَرُ
هـذا الـذي سـلب الإفـرنج دولـتَهم ... وملكَهـم يـا ملـوكَ الأرض فَـاعْتَبَروا
هـذا الإمـام صـلاح الـدين أشـرف مَنْ ... بـه الممالـكُ، وَالأَمـلاك تفتخـرُ
دانـتْ ودانـتْ لـه الـدُّنيا فمـا أحـدٌ ... في الأرْضِ إلا إلـى نُعمـاك يَفْتَقِـرُ[2]

ولأبي شجاع يعقوب بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي زهران الموصلي قصيدة رائعة في مدح صلاح الدّين نكتفي منها بذكر بعض أبياتها التي يقول فيها: (من الطويل)

---

1 ديوان المبشرات والقدسيات، ص142-144.

2 الروضتين 118/2. وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص173-775.

تكـادُ الحصـونُ الشّـمُّ تسـعى محبَّـةً إليـــكَ، وأربـــابُ الحصـــون قيَـــامُ
نهضـــتَ بأعبـــاء الكتـــاب، وإنَّـــهُ ليعجـــزُ عنـــه يَـــذْبُلٌ، وَشَـــمَامُ[1]
ســـهرتَ لـــئلا يســـهرَ النَّـــاسُ إنّـــه متـــى سَـــهرَ الملـــكُ المعظّـــمُ نَـــامُوا
وغــادرت فَــتْحَ القُــدْس للنــاس آيــةً ولـــم يـــكُ حتَّـــى الحشـــر قَـــطُّ يُـــرَامُ
يُهنَّــا بــه الإســلام شــرقاً، ومغربــاً وصـــلى لديـــه العابـــدونَ، وَصـــامُوا
بقيــتَ علــى الإســلامِ مَــاذَرَّ شــارقٌ وغـــرَّدَ قُمْـــرِيٌ، وَسَـــحَّ غَمـــامُ[2]

ورأينـا فتـح القـدس المبين الـذي طالمـا انتظرنـاه، وداعبـت أحلامنـا علائـم هـذا النصـر العظـيم، فأصـبح الحلـم حقيقـة، والخيـال واقعـاً، والضـعف قـوة، والتفـرق اجتماعـاً، والخـوف أمنـاً، نعـم حقـق لنـا هـذا صـلاح الـدين، فكيـف لا يكـون ممـدوحاً، ومحبوبـاً، ومعشوقاً وأثيراً عند الخاصـة قبـل العامـة، عنـد العلمـاء قبـل الشـعراء؟ حقـاً إنّ صـاحب المملكة المتسعة العظيمة، كان: كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس، رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكـان يميـل إلـى الفضـائل، ويستحسـن الأشـعار الجيـدة، ويردّدهـا في مجالسـه"[3]، ولا نعـدو الحقيقة في قولنا: إنّ الشاعر لـم يطمـع -حين مـدح صـلاح الـدين- في مـال أو جـاه، ولـم يزيـف الحقـائق ليصـور الممـدوح، ولـم يجـنح إلـى الخيـال ليصـف القائـد المظفـر المنتصر، إنما بقي في إطار الحقيقة والواقع، ومـن هنـا جـاء شـعره صـادقاً، أمينـاً، سـجلاً خالداً للوقائع، وصورة مطابقة للممدوح لا كذب فيها ولا رياء، ومـع النمـاذج الشـعرية -التي قـرأناها- نكون قد طوينا صفحة خالدة من صفحات التاريخ التي سجل فيهـا صـلاح الدين أروع واسمى الفتوحات الإسـلامية، ألا وهـو (فـتح بيـت المقـدس)، ولا يفوتنـا ان ننوه بالألحان الخالدة، والألفاظ المعبرة، والصورة الأمينة، التي سجل فيها الشـعراء هـذا الفتح الذي فجّر طاقاتهم، وأمدهم بمعين لا ينضب.

1 يذبل: جبل مشهور الذكر لباهلة في طريق نجد. وشمام: جبل لباهلة أشم طويل الرأس (معجم البلدان 433/5 و 361/3).

2 بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص188-191. والشارق: الشمس حين تشرق، وقد يطلق على غير الشمس، يقال: "لا أكلمك ماذرّشارق" أي: ما طلع. والقمري: نوع من الحمام حسن الصوت. والغمام السحوح: شديد المطر.

3 ابن خلكان، وفيات الأعيان207/7.

وتمضي سنتان والمسلمون يرفلون بثوب العزّة والهناءة في أمن وسلام، تحت ظلّ قائدهم، ونلتقي سنة خمس وثمانين وخمسمئة، ونجد أنَّ الحقد الدفين في قلوب الصليبيين، قد بدأ يثور، فأخذوا يمكرون، ويعدون العدة، ويحيكون الدّسائس، ويخططون المؤامرات، ويضعون الحيلة تلو الأخرى، و تبدأ حملة صليبية جديدة، وتصل الأخبار أنَّ ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية على رأس جيش عظيم قوامه ثلاثمئة ألف مقاتل، ويريد البلاد الإسلامية، ويرى صلاح الدين استنفار الناس للجهاد، وعمّت هذه الصّيحة كل صقع، وكل قطر في العالم الإسلامي، ويصل المدّ الإفرنجي إلى حدود بلاد المسلمين، ويأخذ الصليبيون في التقدم؛ ولكن الله كان بالمرصاد، ويصف ابن شداد ما آل إليه جيش الألمان بقوله:

ولما وصل إلى حدود بلاد الإسلام، وسلكوا في الأودية والآجام، والوهاد والآكام تسلمهم تركمان الأوج، و تراكم الثلوج، وأحتاجوا إلى أكل الدواب، وإحراق عددهم، لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وما وجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، ولا يقطعون في يومين فرسخاً، وقد أذهب الله عنهم البركة وصعّب عليهم الحركة، وخرج الأمر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص من أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من أعلاقهم النفيسة، وعددهم الكريمة الرئيسة ما يعجزون عن نقله، ولا يخفون بثقله، فتخذ لأسرهم من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لا تبوح بها أبداً، ولا تطلع على مكنونها ومدفونها أحداً... هذا، وقد نقص شطرهم وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضو في ستين الف مدرّع مدجج مقنع وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم أبطال أبطالهم..."[1].

وتبدأ صيحات الشعراء ترتفع، منهم الحكيم أبو الفضل الجلياني الذي يمدح صلاح الدين، ويستنهض همته، ويذكره بانتصاراته ويزدري بالصليبيين، ويهجوهم هجاء مهيناً، ويقول: (من البسيط)

يا منقذَ القدس من أيدي جبابرة	قد أقسموا بذراع الربِّ تدخلُهُ!

1 الروضتين 2/150-151. (اجتمع ملوك الغرب جميعاً، وتوحدوا ضدّ المسلمين، ولم يجد صلاح الدين ملبياً لدعوة الجهاد، لما اضعف شوكته رحمه الله). ويذكر ابن الأثير(في كتابه الكامل 33/12) السبب في اجتماع ملوك الغرب، ذلك أنَّ رجال الكنيسة في الغرب علموا باسترجاع بيت المقدس، فصوّروا المسيح عليه السلام مع صورة رجل عربي يضربه، وجعلوا الدماء على صورته، وأوهموا والنصارى أنَّ القاتل محمد "ﷺ"، فعظم الأمر، وجمعوا الناس، وخرجوا لقتال المسلمين، وكان على رأسهم: ملوك: فرنسا وألمانيا وإنجلترا، واتجهوا إلى عكا، التي تمكنوا من الاستيلاء عليها.

فأكــذبوا كــذبهمْ في وصــف ربِّهــمُ ... وصــدّق الوعــد مأمونــاً محوّلُــهُ
أمـا رأيـت ابـن أيـوب اسـتقلّ بمـا ... يعيــي الزمــانَ، وأهليــه تحمّلُــهُ
هـاجَ الفَـرَنْجُ، وقـد خَـارُوا لفتكتـه ... فاســتنفروا كــلَّ مرهــوب تَغَلْغُلُــهُ
لما سبى القدس، قالوا: كيف نتركها ... والــربّ في حفــرة منهــا تمثلُــهُ؟
فكـم مليـك لهـم شـقّ البحـار سـرى ... لينصــروا القــبر، والأقــدار تخذلُــهُ
استصرخوا الأهل، والعدوى تمزّقهم ... واسـتكثروا المـال، والهيجـاء تنقلُـهُ
هـم الفـراشُ لهيـب الحـرب تصـرعه ... وكلّمــا لــجّ صَــدْيا حــلَّ مقتلُــهُ
سـيف إمـام فلسـطين يـرى أُمَمـاً ... خلـفَ البحـار لقـد أمهـاه صـيقلُهُ[1]
كـم قـد أَعـدّوا، وكـم قـد فـلّ جمعهـمُ ... مـن غيـر ضـرب، ولا طعـن يُزيّلُـهُ
وإنمـا اسـم صـلاح الـدين يُـذكَرُ في ... جــيش العــدوّ فيســبيهمْ تخيّلُــهُ[2]

ورحــل صــلاح الــدين إلــى القــدس سـنة سـبع وثمــانين وخمسـمئة، وراح يحصّــن القدس، ويعمر أبراجه وأسواره، ويحفر خنادقه، وكان يعمل بنفسه على نقل الحجارة، وهو وأولاده وامراؤه وأجناده، ومعهم القضاة والعلماء والولاة والأمـراء، واتّجه الفـرنج للسلطان بالقـدس، فـنظم الرشـيد بـن النابلسي قصـيدة يهجـو فيهـا الفـرنج، ويـذكرهم بهزائمهم، ويمدح صـلاح الـدين، ويشـدّ مـن ازره، ويحثّـه علـى الجهـاد، ويؤمّله بالنصـر، ويقول: (من البسيط)

ويـحَ الفرنجـة بـل ويـلَ أَمِّهـمْ أَوَمَـا ... فــيهم لبيــبٌ علــى العــلَّات يَعْتَــبِرُ؟
فكــم نثــرتهمُ ضــرَباً، إن انتظمــوا ... وكــم نظمــتهمُ طعنــاً إذا انْتَثَــروا
كــم قــد ســقيتهُمُ ذُلاً فــلا عَجَــبٌ ... إنْ عربـدوا سَـفهاً فـالقوم قـد سـكروا
إنْ يَمَّمُــوكَ فَــلَا بــدع لجهلهـــمُ ... تسـعى إلـى الأسْـد في غاباتهـا الحُمُـرُ
زاروا نُمــوراً، ولا تُغنــي وقــاحتُهُمْ ... إذَا أُســــودُك في أبطــــالهمُ زأرُوا
فحـام عـن حَوْطـة البيـت المقـدَّس لا ... خوف، وحاشاكَ من خوف، ولا ضررُ
هــو الشَّــريفُ، وقـد نـاداك معتصـماً ... مــا علــى مسـجد مــن بعــده حَــذَرُ

1 أمهى الشفرة أو الحديدة: رقّقها.

2 الروضتين 2/151.

وســـوف تســـتغفرُ الأيَّـــامُ هَفْوَتَهَـــا   وتحصـــل الفئـــة الأوغـــاد مـــا بَـــذَروا[1]

ويضطر صلاح الدين لعقد (هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر وجعل لهم من يافا إلـى قَيْسـاريّة [2]إلـى عكـا إلـى صـور وأدخلـوا في الصـلح طـرابلس وأنطاكيـة، ووقعـت المصـالحة مـدة ثـلاث سنين وثلاثـة أشـهر... وكـان الفـرنج قـد ملـؤوا يافـا مـن الرجـال والأسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القـدس، لتكـون لهـم ظهـراً وعونـاً لقربهـا مـن البيت المقدس)[3] وقد حذّر الشعراء من غدر الفرنج، بقولهم: (من الطويل)

إذا غَـــدَرَتْ حســـناءُ أوفـــتْ بوعـــدِهَا   ومـــن عهـــدِها أنْ لا يـــدومَ لهـــا عَهْـــدُ[4]

ونلاحظ بعض الشعراء قد أخذوا يسوّغون هذه الهدنة، ويقفون إلى جانـب صـلاح الـدين في قوته وضعفه، ولا يرون بـداً مـن هـذا الصـلح، ولـم نجدْ في ألفـاظهم معنـى للتخـاذل أو التراجع، أو الاتهام أو الخيانـة، ولكـنهم كـانوا علـى العكـس مـن ذلـك، وثقـوا فيـه، ولبّـوا نداءه، فهذا نجم الدين بن يوسف بن الحسين بـن المجـاور يمـدح صـلاح الـدين، ويتغنـى ببطولاتـه، وانتصـاراته، ويـزدري الفـرنج، ويعلـن أنـه السـلم في صـالح المسـلمين ومـوت الصليبيين: (من الكامل)

مَلِـــــكٌ إذَا أَمَّ الملـــــوكُ جنابَـــــهُ   لاذُوا بـــأكرم مـــن يُـــؤَمُّ وَأَشْـــرَف
وإذا أتـــوْا أســـرى إلـــى أبوابـــه   وقفـــوا بـــأعظم مـــن يصـــولُ وأرأف
مـــولى غَـــدا للـــدِّين أكـــرم والـــد   حَـــدب علـــى أبنائـــه مُتَرَفْـــرف
قـــد أنصـــف التوحيـــد مـــن تثليـــثهمْ   وأقـــام في الإنجيـــلِ حـــدّ المُصْـــحَفِ[5]

* * *

يـــا صـــاح قُـــلْ للإنكتيـــر الكلـــب دَعْ   عنـــكَ الجنـــونَ، وخُـــذْ مقالـــةَ مُنْصـــف![6]
القـــدسُ مـــا فيـــه لســـرجكَ مَطْمَـــعٌ   كـــلَّا ولا نـــورُ الإلـــه بمُنْطَفـــي
والمســـجدُ الأقصـــى فعنْـــهُ تَقَـــصَّ مـــنْ   وقـــع الـــدبابيس الأليـــة تعـــرف

---

1 الروضتين 194/2.

2 قيسارية: بلد على ساحل البحر المتوسط، تعدّ في أعمال فلسطين. (معجم البلدان 421/4).

3 الروضتين 203/2.

4 الروضتين. ولعل المعنى: أنها عندما تفي بوعدها فلا تفعل ذلك إلّا للغدر.

5 الروضتين 103/2.

6 الانكتير: هو ملك إنجلترا الذي غدر بأهل عكا نهاراً جهاراً في سنة (588).

واستفت نَفْسَكَ فَهْيَ أَخْبَثُ نَاصِحِ وَاتْــرُكْ مُتَابَعَــةَ اللّجــاج المتلــف
واعجـب لــرمح بــالرؤوس مُعَمَّــم وَاطــرب لسَــيْف بالــدِّماء مغلَّــف
قـد قلتُ لمـا قيـل صُلْحٌ قَدْ جَـرَى هــذا حـــديثُ مُخَـــرَّف وَمُحَـــرِّف
ظنُّـــوهُ سِــلْماً وَهْــوَ في أرواحِهِــمْ سِــلْمٌ إلــى أجــلٍ لهــمْ مُتَخَلِّــفِ [1]

ولأبي الحسن الساعاتي قصيدة نظمها في مدح صلاح الدين، ويحذر فيها من سقوط القدس ثانية، ويعرض فيها لملك إنجلترا: (من الكامل)

مُنعَــتْ ظبَــاءُ المُنْحَنَــى بأَسُــوده وَأَشَــدُّ مَــا أَشْــكُوهُ فَتْــكُ ظبَائــه
فَعَلَـتْ بنَـا وهـي الصَّـديقُ لحاظُهـا كظُبـــى صـــلاح الـــدّين في أَعْدَائـــه
ســلْ عَنْــهُ قَلْــبَ الإنكتيــر فــإنَّ في خَفَقَانـــه مـــا شـــئت مـــن أنبائـــه
لـــولاكَ أَمَّ البيـــتَ غَيْـــرَ مُــدَافع وَأَسَـــالَ سَـــيْلَ نَـــدَاهُ في بَطْحَائـــه
وبكَــتْ كُفُــونُ القُــدْسِ ثَانِيَــةً دمــاً لــــترنُّم النَّـــــاقوسِ في أَفْنَائِــــهِ [2]

وما أجمل قصيدة فتيان الشاغوري في مدح السلطان المجاهد صلاح الدين، التي يصور فيها ما ألحقه السلطان بديار الشّرك وملوكها وقوّادها، وما آلت إليه ممالكهم، وصلبانهم ويقول فيها: (من الكامل)

لله يوســـفُ كـــم أغـــاثَ وَغَاثَـــا وأبــادَ مَــنْ عَبَــدَ الصَّــليبَ وَعَاثَــا! [3]
يـــا أيُّهـــا المَلــكُ الــذي عَزَمَاتُــهُ جَعَلَـــتْ بُـــزَاةَ المُشْـــركينَ بُغَاثــا! [4]
لَمَّـــا سَـــبَيْتَ نسَـــاءَهُمْ وَقَتَلْــتَهُمْ وَدَّ الـــذُّكُورُ بـــأَنْ تَكُـــونَ إنَاثَـــا
أَهْـــدَاهُمُ التَّثْليـــثُ للتَّوْحيـــد يَــوْ مَ لَقيْــــتَهُمْ فَقَسَــــمْتَهُمْ أَثْلاثَـــا
للسَّـــبْي وَالبـــيض الرِّقَـــاق وَللْقَنــا فَلَـــكَ المَمَالـــكُ لاَ تَـــزَالُ تُرَاثَــا
عَــــزَلَتْهُمُ أَطْمَــــاعُهُمْ حَتَّـــــى إذَا مَـــا اسْتَيْئَسُـــوا نَقَضَـــتْهُمُ أَنْكَاثَـــا [5]

---

1 الروضتين 204/2.

2 الروضتين 204/2. وديوان ابن الساعاتي 77/1. و 311/2.

3 غاث وأغاث: معناهما أعان. وعاث الشيء يعيثه: أفسده.

4 البزاة: جمع البازي، وهو من جوارح الطير يصطاد بها، والبغاث: كلّ طائر ليس من جوارح الطير لا يصيد، وفي المثل (إن البغاث بأرضنا يستنسر). أي يصير قوياً بجوارنا كالنسور.

5 أنكاث: جمع نكث، والنكث: المنقوض، ورحل ناكث: لا خير فيه.

حَثَّـــــتْهُمْ آجـــــالُهُمْ فَسَـــــقَتْهُمُ   بســـطَاكَ كَاسَـــات المَنُـــون حثَاثَـــا[1]
لَـمْ يَحْفِـرُوا تِلْـكَ الخَنَـادِقَ حَـوْلُهمْ   إِلَّا لِتَجْعَلَهَــــا لَهُـــــمْ أَجْـــــدَاثَا[2]

وأما عرقلة الكلبي فيخلع الصفات الحميدة على صلاح الدّين، ويعدّد مناقبه، ويقـرر أنـه أفضل الملوك، وأنبلهم، وأشرفهم نسباً، وأعلاهم مكانة، ويقول: (من الوافر)

لقـــد فـــاقَ الأنـــامَ أبـــاً وعمّـــاً   كمـــا فـــاقَ الأنـــامَ أخـــاً، وَخَـــالا
يحـــب المجـــد والعليـــاء طبعـــاً   كمـــا يهـــوى المحبّـــونَ الوصَـــالا
محلـــك في النجـــوم إذا تـــدانى   وضـــدُّك في التخـــوم إذا تعـــالى
وإنـــك مـــن أشـــدّ النَّـــاس بأســـاً   بـــلا شـــكٍّ وأكـــرمهم رجَـــالا
أقـــاموا في ســـماحهم بحـــاراً   وأضـــحوا في حلـــومهم جبـــالا[3]

وينتقل صلاح الدين إلى رحمة الله تعالى، في سنة تسع وثمانين وخمسمئة، وينطوي بذلك كتاب ضمّ صفحات مشرقة من تاريخ الأمة الإسلامية.

❊ ❊ ❊

ونلتقي بصفحات جديدة نتصفحها ونقوّمها من خلال عرضنا لبعض النماذج الشعرية التي تضيء جوانب كثيرة من هذا التاريخ، وتعكس انطباعات العصر، ومواقف خلفاء صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله-.

وكان صلاح الدّين قد قسم البلاد بين أولاده وإخوته[4]، ولكن الامور شرعت بعد موته تضطرب،وتختلف في جميع الممالك، وذلك من سنة (589هـ- 595هـ)، حتى استقر الأمر، واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدّين أيوب ابن شاذي[5]، وهو الرابع من ملوك بني أيوب، وقد ظهر في زمانه سنة ستمائة من الهجرة الفرنج، وقد جمعوا خلقاً منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، واستطاعوا

---

1 الحثاث (بالكسر): السريعات.

2 ديوان فتيان الشاغوري، ص69-70. وانظر قصيدة أخرى طويلة ص140-153.

3 ديوان عرقلة الكلبي، ص84.

4 انظر تقسيم البلاد: البداية والنهاية 13/6.

5 المصدر السابق نفسه. وبدائع الزهور في وقائع الدهور 250/1. (تسلم عثمان بن عبد الملك العزيز بالله عماد الدين بن الملك الناصر صلاح الدين السلطنة بعد وفاة أبي سنة 589هـ وهو ثاني ملوك بني أيوب. ثم تسلّم من بعده ابنه محمد الملك المنصور سنة 595هـ وهو الثالث من ملوك بني أيوب، جاء من بعده الملك العادل).

احتلال عكة وغيرها، وقاتلهم الملك العادل، واضطر إلى توقيع الصلح معهم، والتنازل عن بعض البلاد لهم[1].

ويتغنى الشاعر ابن النبيه المصري ببطولة الملك العادل سيف الدين، ويمدحه بتطهير القدس من رجس الصليبيين، ويقول: (من السريع)

كَمْ لكَ في يَافَا وفي "المرج" منْ ... وَقَائع غُرٍّ مَشَاهير

عشرونَ أَلْفاً غَيْرَ أتباعهمْ ... مَا بَيْنَ مَقْتُول وَمَأْسُور

طَهَّرْتَ بَيْتَ القُدْسِ مِنْ رِجْسِهِمْ ... وَكَانَ مَأْوىً لِلْخَنَازِيرِ[2]

ولابن عنين قصيدة طويلة في مدح الملك العادل، وقد أجاد فيها، وبرع في أسلوبها، ويقول: (من الكامل)

العادلُ الملكُ الذي أسماؤُهُ ... في كلِّ ناحيةٍ تُشرِّفُ منْبَرَا

وبكلِّ أَرْض جَنَّةٌ منْ عَدْله الضَّـ ... ـافي أَسَالَ نَدَاهُ فيهَا كَوْثَرَا

عَدْلٌ يَبيتُ الذِّئْبُ منْهُ عَلَى الطَّوَى ... غرثانَ وَهْوَ يَرَى الغَزَالَ الأَعْفَرا[3]

ما في أبي بكر لمعتَقد الهُدى ... شَكٌّ مريبٌ أَنَّهُ خَيْرَ الوَرَى

سيفٌ صقَالُ المَجْد أَخْلصَ مَتْنَهُ ... وَأَبَانَ طيبُ الأصْل منْهُ الجَوْهَرا

مَا مَدْحُهُ بالمُسْتَعَار لَهُ وَلا ... آياتُ سُؤْدده حَديثٌ يُفْتَرى

بَيْنَ المُلوك الغَابرينَ وَبَيْنَهُ ... في الفَضْل مَا بَيْنَ الثُّرَيَّا، وَالثَّرى

نسختْ خَلائقُهُ الكَريمةُ مَا أَتَى ... في الكُتْب عَنْ كسرى المُلُوك، وَقَيْصَرا

مَلكٌ إِذَا خَفَّتْ حُلُومُ ذوي النُّهى ... في الرَّوْع زَادَ رزانةً، وَتَوقَّرا

ثَبْتُ الجَنَان تُراعُ منْ وَثَبَاته ... وَثَباته يَوْمَ الوَغَى أُسْدُ الشَّرَى

يَقْظٌ يَكَادُ يَقُولُ عَمَّا في غَد ... ببَديهَة أَغْنَتْهُ أَنْ يَتَفَكَّرا

حلْمٌ تَخفُّ لَهُ الحلومُ وَرَاءَهُ ... رَأيٌ وَعَزْمٌ يُخْفرُ الإسْكَنْدرَا

يَعْفُو عَن الذَّنْب العَظيم تَكَرُّماً ... وَيَصُدُّ عَنْ قيل الخَنَا مُتَكَبِّرا

1 انظر: البداية والنهاية 36/13. والكامل في التاريخ 194/12.

2 ديوان ابن النبيه، ص121، ومفرج الكروب 216/3.

3 الطوى: الجوع. وغرثان: جائع.

لاَ تَسْـــمَعَنَّ حَـــديثَ مَلْـــك غَيْـــره ... يُـرْوَى "فَكُـلّ الصَّـيد في جَـوْف الفَـرا"[1]
يَعْشُـو إلـى نَـار الـوَغَى شَـغَفَاً بِهَـا ... وَيجـلُّ أَنْ يَعْشُـو إلـى نَـار القـرى
مُتَقَـدِّمٌ حَتَّـى إذَا النَّقْـعُ انجَلَـى ... بـالبيض عَـنْ سَـبْي الحَـريم تَـأَخَّرا
كَـمْ حَادث خَفَّتْ حُلُـومُ ذَوي النُّهى ... خَوْفـاً وَجَأْشُـكَ فيـه أربـط مـن حـرا[2]
اللهُ خَصَّــكَ بالمَمالِــكِ وَاجْتَبَــى ... لَمَّــا رآكَ لَهَــا الصَّــلاح الأَكْبَــرا[3]

ولنقرأ معاً بعض الأبيات للشاعر تاج الملوك بوري، وهو يمدح أخاه الملك العادل سيف الدّين، ويصف فيها دمشق، ويقول: (من البسيط)

أمّـا دمشـقُ فـلا أرضٌ تُقَـاسُ بهَـا ... وَلَا يُمَاثِلُهَــا في طيبهَــا بَلَــدُ
فَـإنْ وَجَـدْتَ لَهَـا شِـبْهاً يُقَاربُهـا ... فَمثْـلُ أَخْـلاق سَـيْف الـدِّين مَـا تجَـدُ
هُـوَ الـذي عَمَّـت الـدُّنْيَا مَوَاهبُـهُ ... فَـلَا خَـلَا مـنْ عَطَايَـا كَفِّـه أَحَـدُ
أَفْديـه مـنْ مَلـك في دسْـته مَلَـكٌ ... في تَاجـه قَمَـرٌ، في درْعـه أَسَـدُ[4]
مَلْـكٌ إذَا مَنَـعَ الأَمْـلَاكَ، وَفْـدَهُمُ ... أَعْطَى، وَرَغَّبَ في المَعْرُوف إنْ زَهَدُوا
ويبـذُل المَـالَ إنْ صَـانُوا، وَيقْـدُمُ إنْ ... خَـامُوا، ويَـنْهَضُ بالأَثْقَـال إنْ قَعَـدُوا[5]
أَضْـحَتْ دمَشْـقُ عَلَيْـهِ، وَهْـيَ حَاسِـدَةٌ ... مِصْـراً، وَمَا كَـانَ لَـوْلا النِّعْمَـةُ الحَسَـدُ[6]

ولم تكن حياة خلفاء صلاح الدّين حافلة بالفتوحات، والانتصارات، والمقاومة مثلما كانت عليه حياة صلاح الدّين.

* * *

وتمضي السنون، ولم تنقطع فيها غارات الفرنج على البلاد الإسلامية، ويتسلم الملك الكامل ناصر الدّين محمد بن الملك العادل السلطنة بعد وفاة أبيه سنة خمس عشرة وستمئة، وتبدأ تحركات الإفرنج تزداد يوماً بعد يوم، وتصل الأخبار من ثغر دمياط في السنة نفسها، ومفادها أنَّ الفرنج أتوا من البحر في مئتي مركب، واستولوا على مدينة

1 هذا مثل. انظر: جمهرة الأمثال 156/1 و 162/2. والحيوان 335/1.

2 حراء (بالكسر): جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال منها. (معجم البلدان 233/2).

3 ديوان ابن عنين، ص6-8. والنجوم الزاهرة 164/6.

4 الدست: صدر البيت، أو المجلس.

5 خاموا: جبنوا، والخائم: الجبان (لسان العرب، خيم)

6 ديوان تاج الملوك بوري، ص138.

دمياط، حينئذ أخذ الملك الكامل يدعو للجهاد[1]، ويعدّ العدّة، ولما تحقّق له ذلك، ووصلت العساكر الشّاميّة تحارب ضد الفرنج أشد المحاربة حاصرهم براً وبحراً، ولما شعر الفرنج بالهلاك، وأرسلوا إلى الكامل يطلبون الصّلح والرهائن، ويسلّمون دمياط، ويرحلون عنها إلى بلادهم، فاتفق الحال على ذلك، ودخلها الملك منتصراً وكان ذلك في سنة ثماني عشرة وستمئة[2]. وفي ذلك يقول الشاعر شرف الدين راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلي أبو الوفاء: (من الطويل)

هنيئاً فإنَّ السَّعْدَ رَاحَ مخلّدا ... وَقَدْ أنجزَ الرَّحْمنُ بالنَّصر مَوْعدَا

حَبانا إلهُ الخَلْقِ فَتْحاً بَدَا لَنَا ... مُبيناً، وَإنْعَاماً، وَعزّاً مُؤَبَّدَا

تهلَّل وَجْهُ الدَّهْرِ بَعْدَ قُطُوبِه ... وَأَصْبَحَ وَجْهَ الشِّرْك بالظُّلْم أَسْوَدَا

وَلَمَّا طَغَى البَحْرُ الخضَمُّ بأَهْله الـ (م) ... طغاة وأَضْحَى بالمَرَاكب مُزْبدَا

أَقَامَ لهَذَا الدِّين من سلّ سَيْفه ... صقيلاً كَمَا سَلَّ الحُسَام مجرّدَا

فلم يَنْجُ إلَّا كُلُّ شلْو مجدَّل ... ثوَى منْهُمُ أَوْ من تَرَاهُ مُقَيَّدَا

وَنَادى لسَانُ الكَوْن في الأرضِ رَافعاً ... عقيرتَه في الخَافقَيْنِ وَمُنْشِدَا

أَعُبَّادَ عِيسَى إنَّ عِيسى وَحزبَهُ ... وموسى جميعاً يخدمونَ مُحمَّدَا[3]

ولما حضر الملك المعظم عيسى في السنة نفسها للتهنئة مدحه الشيخ أبو الحسن السخاوي بقصيدة، فيها: (من الطويل)

سرى الملكُ المَوْلَى المعظّم في الدَّجى ... فأطلعَ نجمَ النَّصر بَعْدَ مغيبه

وردّ على الإسلام بَعْدَ كآبة ... سروراً وآوى الدِّينَ بَعْدَ شُحُوبه

تَجلَّى بِعِيسى غَمُّهَا وَاعْتَدَى بهَا ... فريداً وَأَضْحَى بحرُهَا مِنْ نَصيبِهِ[4]

---

1 البداية والنهاية 13/78 وما بعدها.

2 النجوم الزاهرة 6/ 242-243. والذيل على الروضتين ص128-130.

3 الذيل في الروضتين، ص129-130. والنجوم الزاهرة 242/6. والبداية والنهاية 95/13. يقول صاحب النجوم الزاهرة: "صح للشاعر فيما قصد من التورية في المعظم عيسى والأشرف موسى لمّا وقفا في خدمة الكامل محمد، فللّه دره! لقد أجاد فيما قال". وعيسى وموسى ومحمد هم أولاد الملك العادل فعيسى استقر بحماة وموسى بحلب ومحمد بمصر. انظربدائع الزهور في وقائع الدّهور 257/1.

4 الذيل على الروضتين، ص129. يريد: انجلى غم دمياط بعيسى الملك المعظم.

وأما الشاعر كمال الدين عليّ بن النبيه المصري، قد مدح الملك الأشرف موسى لما حضر مع أخيه المعظم عيسى إلى دمياط، في السنة نفسها أيضاً، فقال فيها: (من البسيط).

لِلَـذَّة العَيش وَالأَفـراح أَوْقَـاتُ   فَانشُـرْ لِـوَاءً لَـهُ بالنَّصْـر عَـادَاتُ
الويـلُ للـرُّوم وَالإِبْـرنْس مـنْ مَلـك   لَـهُ مـنَ النَّصْـر وَالتَّأْييـد عَـادَاتُ
أَيْـنَ المَفَـرُّ لسـرب الـرُّوم مـنْ أَسَـد   ضَـار لَـهُ مـنْ رمـاح الخَـطّ غَابَـاتُ؟
دمْيَـاطُ طُـورٌ وَنَـارُ الحَـرْب مُوقَـدَةٌ   وَأَنْـتَ مُوسـى وَهَـذَا اليَـوْمُ ميقَـاتُ
أَنْـتَ الصَّـبَاحُ فَمَـزِّقْ لَيْـلَ كُفْـرهِمُ   وَاصْـبرْ وَرَابِـطْ فَلِلأَعمـال نيَّـاتُ
أَلْـق العَصَـا تَتَلَقَّـفْ كُـلَّ مَـا أَفكُـوا   وَلا تَخَـفْ مَـا حبَـالُ القَـوْم حَيَّـاتُ
طَـأْهُمْ بجَيشـكَ لَا تَحْفَـلْ بكَثْـرتهمْ   فَـإِنَّهمْ لبُغَـاث الطَّيْـر أَقْـوَاتُ
لله مِـنْ ثَغْـرِ دَمْيَـاطٍ وَبَرْزَخِهَـا   فَـتحٌ لَـهُ تُفْـتَحُ السَّـبْعُ السَـمَاوَاتُ![1]

ولا يفوت الشاعر فتيان الشاغوري حين مدح الملك موسى أنْ يمدح أخويه الملك محمداً، والملك عيسى ووالدهم، ويقول: (من الكامل)

فَبَنُـو أبـي بكـرْ مُلُـوكُ الشَّـام وَالـدُّ   نْيَـا بأَجْمَعهـا وَبَيْـت المقـدس
فَهُـمُ المُلُـوكُ وَلا مُلُـوكَ سـوَاهُمُ   طَابَـتْ مَجَـانيهمْ لطيـب المغـرس
مَلـكٌ إذَا افْتَخَـرَتْ بـه أَبْنَـاؤُهُ   بَـيْنَ المُلُـوك فَكُلُّهـمْ لَـمْ يَنْـبس[2]
لا زَالَ مُلْكُهُـمُ لَهُـمْ مَـا دَارَتِ الـ   أَفْـلاك فِـي الفَلَـكِ المُحِيطِ الأَطْلَسِ[3]

ويبدو أنَّ الشاعر فتيان الشاغوري كان حريصاً كلّ الحرص أن يمدح اثنين من الملوك الأيوبيين هما: الملك المعظم عيسى، والملك الأشرف موسى، بقصيدة طويلة تقع في اثنين وخمسين بيتاً، اخترنا منها بيتين يشير فيهما إلى العلاقة الحميمة التي ربطت الإخوان معاً، ويقول فيها: (من الوافر)

1 النجوم الزاهرة 243/6. وديوان ابن النبيه المصري، ص354 و 357-358 و 360.

2 لم ينبس (بكسر الباء): لم يتكلم.

3 ديوان فتيان الشاغوري، ص223.

هُمـــا أَخَـــوَان وُدُّهُمَـــا صَـــحيحٌ إذَا شَـــابَ المـــودَّات السَّـــقَامُ
وَللمَلِـــكِ المُعَظَّـــمِ مَكْرُمـــاتٌ لَهَـــا فِـــي الخَلْـــقِ أَبْنَـــاءٌ عِظَـــامُ[1]

وللشاعر ابن عنين قصيدة طويلة أيضاً يمدح فيها أولاد الملك العادل يذكر فيها جهادهم وفروسيتهم، وتصميمهم على القتال ويشير إلى أصلهم الكريم، ويصفهم بالجود ويقول: (من الكامل)

ولــه البنــونَ بكــلّ أرض مــنهمُ ملــكٌ يقــودُ إلــى الأَعَــادي عَسْــكَرا
مــنْ كُــلّ وَضَّــاح الجَبــين تخَالُــه بَــدْراً فَــإنْ شَــهدَ الــوَغَى فَغَضَــنْفَرا
قَــوْمٌ زَكَــوْا أَصْــلاً، وَطَــابُوا مَخْبَــراً وَتَــدَفَّقُوا جُــوداً وَرَاقُــوا مَنْظَــرا
وتعــافُ خَــيْلُهُمُ الــوُرودَ بِمَنْهَــلٍ مَــا لَــمْ يَكُــنْ بِــدَمِ الوَقَــائِعِ أَحْمَــرا[2]

ويمدح ابن الساعاتي عيسى -صاحب دمشق- بقصيدة طويلة، نقطف منها: (من الطويل)

حَمى القدسَ نت زُرق الأَعَادي بسُمْرهَا فمــا تَجــدُ الخَطِّــيَّ إلَّا تَحَطَّمَــا
شَــكَا أَهْلُهَــا دَاءَيْ مُحُــول وَخيفَــة فَـأَجْرَى عَلَـى أَعْطَافهَـا المـاءَ وَالـدَّمَا
ســقى ربُّهــا مــاءَ النجيــع سُــيُوفَه ففــي غَيْرهَــا لا يســتجيز التَّيَمُّمــا[3]
فلــم يبــقَ في ســاحاتِها غيــرُ مُســلم ولــولاهُ لــم تُبْــقِ الفرنجــةُ مُسْــلِمَا
ومــا صَــانَها دَاراً تُحَــلُّ وَأُخْتَهَــا وَلكنَّــهُ صَــانَ الحَطِــيمَ وَزَمْزَمَــا[4]

والشاعر فتيان الشغوري يمدح الملك عيسى أيضاً قصيدة، ويقول فيها: (من الوافر)

هنيئــاً أَيُّهــا الملــكُ المعظَّــمْ لَــكَ المُلــكُ المُؤَثَّــلُ وَالمُــتَمَّمْ[5]
لبســتَ المُلْــكَ ســربالاً بحُسْــن الـــ (م) ــطِّرَاز الأَخْضــر المَرْقُــوم مُعْلَــمْ
ولــك يــكُ في ملــوك الأرْض شَــرْقاً وغربــاً مَــنْ نَــرَاهُ منْــكَ أَعْلَــمْ
ملكــتَ المســجدَ الأَقْصــى فَعِــشْ أَوْ يُــزَفَّ لِوَصْــلِهِ البَيْــتُ المُحَــرَّمْ[6]

---

1 المصدر السابق، ص398.

2 النجوم الزاهرة (163/6-164). وديوان ابن عنين، ص7.

3 أي: سقى الدم سيوفه حتى رويت. و(ربّها) أي: سيّدها وصاحبها وملكها.

4 ديوان ابن الساعاتي (178/1-179). ومعنى البيت: أي بصيانته للقدس كأنه صان البيت الحرام في مكة. والحطيم: ما بين الركن والمقام وزمزم والحِجر، وقيل غير ذلك. انظر (معجم البلدان 273/2).

5 المؤثل: المتأصل في الشرف الأصيل.

6 ديوان فتيان الشاغوري، ص407، وانظر قصائد أخرى في مدح الملك عيسى: الديوان ص329-331 و404-413.

ولفخر القضاة نصر الله بن بُصاقة أبيات نظمها للملك المعظم شرف الدين عيسى وقد غاب عن القدس، ويقول فيها: (من السريع)

يــــا ملكــــاً مــــا زالَ إنْعَامُــــهُ ... في النّــــاس معقــــولاً وَمَحْسُوسَــــا!

غبــــتَ عَــــن القُــــدس فَأَوْحَشْــتَهُ ... وإنْ غَــــدَا باســـــمكَ مَأْنُوسَــــا

وكيــــفَ لاَ تــــوحشُ أَرْجَــــاءَهُ ... وأنــــتَ روحُ القُــدْسِ يَــا عيســى![1]

يبدو أنَّ شخصية الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل كانت الشخصية المرموقة والمثالية في نظر ابن عنين، فقد خصّه بمجموعة من غرر قصائده، فاق عددها عدد القصائد التي مدح بها الملوك الآخرين، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى العطايا التي كان يغدقها الملك على الشاعر، فأصبح -وكأنه- شاعره الخاص، ينطق باسمه، ويسجل وقائعه، ويشيد بمناقبه، ويبالغ في صفاته، و الملاحظ على بعض هذه القصائد أنها طويلة، ولا تحتلّ أبيات المديح فيها إلى جزءاً يسيراً، ويذكرنا بالأسلوب الجاهلي الذي كان الشاعر يخصّ جزءاً من القصيدة للمدح، وسائرها لموضوعات أخرى، ولو حاولنا استعراض إحدى هذه القصائد لوجدنا أنها تضم واحداً وثلاثين بيتاً، منها تسعة في المدح فقط، ويقول فيها: (من الطويل)

مليــكٌ تحلّــى الملــكُ منــهُ بعزمــة ... بها طالَ مِنْ رمح السِّماك قَصيرُها[2]

يُلاقــي بنــي الآمــال طَلْقــاً فَبشْــرُهُ ... بمــا أمَّلتــه مــن نجــاح بَشــيرُهَا

فمــا نعمــةٌ مشــكورةٌ لا يبثُّهــا ... ومــا ســيرةٌ محمــودةٌ لا يَســيرُهَا

همــامٌ تظــلُّ الشَّــمسُ مــن عَزَمَاتــه ... مُحَبَّبَــةً نقــعُ المَــذاكي سُــتُورُهَا[3]

مهيــبٌ فَلَــوْ لَاقَــى الكَواكــبَ عابســاً ... تســاقطت الجــوزَا، وَخَــرَّتْ عَبُورُهَــا

ولــو آنســتْ منــه الأَهلَّــة غضــبةً ... نَهاهَــا سُــطَاهُ أَنْ تــتمَّ بُــدورُهَا

تُشــرَّفُ أنــدى السّــحب إنْ قَــالَ قَائــلٌ ... لأدنــى نــوال منْــهُ: هَــذَا نَظيرُهَــا

حلفــتُ بنــا ضَــمَّتْ أبــاطحُ مكّــة ... غــداةَ منــىً وَالبُــدْنُ تَــدمَى نُحورُهــا

---

1 بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص225.

2 السماك: السماكان نجمان نيّران يقال لأحدهما: الرامح وللآخر: الأعزل. وبلغ فلان السماك، أي: بلغ رتبة عالية.

3 مجبّبة: مغيبة. ونقع المذاكي: الغبار المنتشر في الجو من الأفراس التي أتى على قروحها سنة.

لقــد فَــاز بالملــكِ المعظّــمِ أَمَّــةٌ ... إلــى عدلِــهِ المَشْــهُورِ رُدَّتْ أَمُورُهَــا[1]

ويحاول ابن عنين تقليد القدماء في بعض قصائده، دون الابتداء مباشرة بالموضوع الذي قيلت من أجله القصيدة[2]، فها هو يبدأ قصيدة من قصائده بذكر بعض المواضع في الشام، ويتشوق إليها، ويخاطب أخلاءه، ويذكر طيف محبوبته، ثمّ يعود بذكرياته ليحدد بعض الأماكن في الشام أيضاً، ويحدثنا عن هبوب رياحها، وتراكم ثلوجها، وعظمة قصورها، ولاسيما قصور الغوطتين، والروضة، وجمال قبة الجامع الأموي المعروفة بقبة النسر، ثمّ يختتم قوله في هذه المقدمة بلثم الثرى الذي استشفى بترابه، لأنّه لا يشفي غليله إلا تراب دمشق، بعدئذ ينقلنا إلى موضوع آخر هو الحروب والمعارك التي خاضها الممدوح، وما آلت إليه، ويفيض في وصف معركة من المعارك الدائرة بين المسلمين بقيادة الملك المعظّم عيسى، والفرنج، وهي معركة دمياط، ويخلص إلى ممدوحه مشيداً ببطولته وكرمه، وحسن طاعة الله (ﷻ)، وجهاده، وأخذ يبذل الصفات الحميدة والمناقب المجيدة، وكأن شاعر يصوّر لنا فوز الملك بالدّنيا والآخرة، أو أنَّ الملك كان يعمل في دنياه لآخرته، ويقول: (من الطويل)

يســيرُ بِنــا تحــتَ اللــواءِ ممــدَّحٌ ... كــريمُ السَّــجَايَا طــاهراتٌ ثيابُــهُ

نجيــبٌ كصــدر الســمهريّ مــنجَّح الــ (م) ... سَّــرايَا، وكــريمُ الطَّبْــع صــاف لُبابُــهُ

مــنَ القَــوْم وَضَّــاحُ الأَســرَّة مَاجِــدٌ ... إلــى آل أَيُّــوبَ الكــرام انْتِسَــابُهُ

فَفَــرَّجَ ضــيقَ القَــوْم عَنَّــا طعَانُــهُ ... وَشَــتَّتَ شَــمْلَ الكُفْــر عَنَّــا ضــرَابُهُ

وَأَصْــبَحَ وَجْــهُ الــدِّين بَعْــدَ عُبوســه ... طَليقــاً ولــوْلاهُ لَطَــالَ اكْتِئَابُــهُ

جهَــادٌ لوَجْــه الله في نَصْــر دينــه ... وَفي طَاعَــة الله العَزيــز احْتسَــابُهُ

حميــتَ حَمــى الإسْــلَام فَالــدِّينُ آمــنٌ ... تُــذادُ أَقاصــيه، وَيُخْشَــى جنابُــهُ

وَمَــا بغيتــي إلَّا بقــاؤُكَ سَــالِماً ... لِــذا الــدّينِ لا مَــالٌ جَزيــلٌ أُثابُــهُ[3]

---

1 ديوان ابن عنين، ص18.

2 انظر مقدمة القصيدة التي نظمها في مدح الملك العادل أبي بكر سيف الدين بن أيوب في: الديوان، ص3-5. وانظر مقدمة قصيدة أخرى في مدح الملك المعظم عيسى في الديوان، ص15-17.

3 ديوان ابن عنين، ص21-22.

ويقف في قصيدة أخرى على الديار حزيناً، متذكراً أيّامه هناك، مع القيان والمدامة وساقيها، وينتقل بعد ذلك إلى وصف معركة من معارك الملك المعظّم عيسى، ويخلص من إلى المديح -كعادته- ذاكراً فضائله، ومناقبه، ومحاسنه، وفروسيته، ويقول: (من الكامل)

مَلِكٌ فَوَاضِلُ جُوده مَبْثُوثَةٌ ... في الأَرض تَسْأَلُ عَنْ ذَوي الإدقَاع
خُلقَتْ أَنَاملُهُ لحَطْم مُثَقَّف، ... وَلفَلِّ هنْديّ، وَحفْظ يَرَاع
ما رايَةٌ رُفعَتْ لأبْعد غَايَة ... إلَّا تلقَّاهَا بأطول بَاع
ملأتْ مساعيه الزَّمانَ فَدَهْرُهُ ... يومان: يومُ قرىً، ويومُ قرَاع
وَشأَتْ أياديه الغيوثَ لأنَّها ... تبقى، وتلك سريعةُ الإقْلَاع[1]
وله إذا افتخَرَ المُلُوكُ مفاخرٌ ... لا تُعْتَلى بأَبُوّ وَمَسَاع
ما أُوقدَتْ نارُ الكرام بوهدة ... في المَحْل إلَّا شَبَّها بيَفَاع
ترجوه أملاكُ الزَّمانِ، وتَتَّقي ... سطواتِ ضرَّار لهم نَفَّاعِ[2]

وتعجبني قصيدة للشاعر ابن عنين في مدح الملك المعظّم عيسى، وفيها نرى جزالة شعر المتقدمين، من مهارة في اختيار اللفظ وقوة في السبك، وجمال في المعنى، وروعة في الصورة، وتوظيف للأساليب البلاغية، والمحسنات البديعية، واستخدام الحكم، ناهيك من حسن الابتداء أو براعة الاستهلال، حقاً إنّ الشاعر استطاع في هذه الأبيات -التالية- أنْ يصل إلى إبداع في صوره التي يتصرّف فيها؛ ليثبت أنه الشاعر المطبوع الحاذق البصير، ويقول: (من الطويل)

صَليلُ المواضي واهتزازُ القَنَا السُّمْر ... بغَيرهمَا لَا يُجْتَنَى ثَمَرُ النَّصْر
وَصَبْرُ الفَتَى في المأزق الضَّنْك فَادحٌ ... ولكنَّهُ أَهْدَى طَريق إلى الفَخْر
وتحتَ ظلام النَّقْع تُشْرقُ أوجهُ الـ ... (م) ثَّناء وجمعُ المَجْد في فرقَة الوَقْر[3]
وَمَا اسْتَعْبَدَ الأَحْرَارَ كالعَفْو إن جَنَى ... جَهُولٌ وَفَضْلُ الصَّدْر في سعَة الصَّدْر
وَمَنْ لَمْ تُنَوِّهْ باسْمه الحَرْبُ لَمْ يَزَلْ ... وإنْ كَرُمَتْ آباؤهُ خَاملَ الذِّكْر

1 شأت: سبقت.

2 ابن عنين، ص24-25.

3 فرقة الوقر: أي تفريق الحمل الثقيل.

إِذَا غَشـيَ الحَـرْبَ العَـوَانَ تَمَخَّضَـتْ وَقَـدْ لقحْـت عَـنْ فَتْكَـة في العـدَا بكْـر
مليـكٌ إِذَا مَـا جَـالَ فِي مَـتْن ضَـامر ليَـوم وَغـىً أَبْصَـرْتَ بَحْـراً عَلَـى بَحْـر
عَلــيمٌ بتَصْـريف القَنَـا فَرمَاحُـهُ مَواقعُهَـا بَـيْنَ التَّرَائـب وَالنَّحْـر
إِذَا عـلَّ فِي صَـدْر المُـدَجَّج عَـاملاً بَـدَا عَلُّـهُ فَـوْقَ السِّـنَان عَلَـى الظَّهْـر [1]
وَمَـا مُشْـبلٌ مـنْ أُسْـد خَفَّـانَ بَاسـلٌ يَـذُودُ الـرَّدى عَـنْ أُمِّ شـبلين في خـدْر [2]
هزَبْـرٌ إِذَا اجْتَـاز الأُسُـودُ بغيلـه فَأَشْجَعُهَا خَـافي الخُطَـى خَافتُ الـزَّأْر [3]
حَوَالَيْـه أَشْـلاَءُ الوُحُـوش نَضـيدَةٌ غَـريضٌ عَلى مُسْتكْره ضَـائك الـدَّفْر [4]
بـوَاد تحَامَـاهُ الأُسُـودُ مَهَابَـةً ونَكَّـبَ عَـنْ مَسْـرَاهُ وَالجَـةُ السَّـفْر [5]
بـأَعْظَمَ مِنْـهُ فِي القُلُـوبِ مَهَابَـةً وَإِنْ غَـصَّ منْهَـا بالطَّلاقَـة وَالبِشْـرِ [6]

ويتغنى ابن عنين ببطولة الملك المعظّم عيسى وأمجاده، وبقصيدة طويلة ويصوّر فيها انتصاره على الفرنج في الحرب التي دارت بينهم على ثغر دمياط سنة تسع عشرة وستمئة ويقول فيها: (من الطّويل)

يسـيرُ بنـا مـنْ آل أَيُّـوبَ ماجـدٌ أَبَـى عَزْمُـهُ أَنْ يَسْـتَقرّ بـه مغنـى
كـريمُ الثَّنـا عَـار مـنَ العَـار بَاسـلٌ جميلُ المُحَيَّا كاملُ الحسن وَالحُسْنَى
لعمـرُك مـا آيـاتُ عيسـى خفيَّـةٌ هـي الشَّـمْسُ للأَقْصـى سَـناءً وَللأَدْنَـى
سَـرَى نَحْـوَ دمْيَـاطٍ بكـلِّ سَـمَيْدَع نجيبٍ يـرى وِرْدَ الـوَغَى المـوردَ الأَهْنَـا [7]
فَـأَجْلَى علـوجَ الـرُّوم عَنْهَـا وَأُفرحَـتْ قلـوبُ رجـال حالفـتْ بعـدَها الحُزْنَـا [8]
وَطَهَّرَهَـا مـنْ رجْسـهمْ بحُسَـامه هُمامٌ يَـرَى كَسْـبَ الثَّنَـا المغنـم الأَسْنَى
مَـآثرُ مَجْـد خَلَّـدَتْهَا سُـيُوفُهُ لَهَـا نَبَـأ يَفْنَـى الزَّمـانُ وَلَا يَفْنَـى

---

1 يقول: إذا طعنَ مُدَجَّجاً بالرمح في صدره، خرجَ سنان ذلك الرمح من ظهره وعليه أَثَرٌمن دَمِهِ الذي شرب الرمح منه.

2 المشبل: كثرالأشبال. وخفان: موضع مأسدة كثيرالأسد، ومن مطلع هذا البيت يبدأ الشاعرباستدارة تشبيهية ينهيها في آخرنصنا هذا بقوله: (بأعظم منه).

3 الغيل: الأَجَمة، الشجرالكثيف الملتف، موضع الأسد.

4 الغريض من اللحم: الطري، وصائك الدفر: عابق بخبث رائحة النتن.

5 الوالجة: السباع والحيات.

6 ابن عنين، ص26-28.

7 السميدع: السيد الكريم، الشريف، الشجاع، والجمع: السمادع.

8 العلوج: جمع العلج، الرجل الضخم القوي من كفّار العجم.

وَقَــدْ عَرَفَــتْ أَسْــيَافُنَا وَرِقَــابُهُمْ   مَوَاقِعَهَــا فِيهَــا فَــإِنْ عَــاوَدُوا عُــدْنَا [1]

ولا يفوت الشاعر حين يمدح الملك المعظّم، أنْ يقرنه بأبيه أبي بكر، فهذا بدرٌ، وذاك هلال، ويقول: (من الطويل)

إذَا غشي الحربَ العوانَ تَمَخَّضَتْ   وَقَدْ لقحتْ عَنْ فَتْكَةٍ في العدا بكْر
خلالُ عُلاً لَوْلا المُعَظَّمُ أَعْجَزَتْ   طَرَائقُهَا الأَمْلاكَ بَعْدَ أبي بَكْر
هِلالٌ وَبَدْرٌ أَشْرقا فَابْتِهَالُنَا   إلى الله إبْقَاءُ الهِلال مَعَ البَدْرِ [2]

ولم تكن شخصية الملك الأشرف موسى أقل من شخصية أخيه مكانةً وقدراً، فقد حاز أيضاً على من القصائد في مدحه، وتمجيد بطولاته، فهذا الشعر فتيان الشاغوري يمدحه، حين نزل على الطّور للغزاة، ويقول: (من الطويل)

هنيئاً لَقَدْ أوتيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسى   بجَدٍّ وَحدّ كَلْمُهُ الدَّهْرَ مَا يُوسى! [3]
هُوَ الأَسَدُ الحَامي الحَقيقَةَ مُقْدماً   وَمَنْ ذَا يَدرُّ اللَّيْثَ عَنْ مَنْعه الخيسَا؟ [4]
عَلَى الطُّور نَاجَى اللهُ مُوسى بنَصْره   فَبالطُّور ثَغْرُ السِّلْم أَصْبَحَ مَحْرُوسَا
عمَارَتُهُ تَخْريبُ أَعْمَار عَابدي الـ   (م) صّليب وفيه أُسِّسَ النَّصْرُ تَأسيسَا
عَلا مُشْمَخرّاً في السَّماء بنَاؤُهُ   يُرَدِّدُ تَسْبيحاً هُنَاكَ وَتَقْديسَا
مُظَفَّرُ دين الله أهْدى قُدُومُهُ   إلى القُدْسِ أمْناً لا يَزَالُ وَتَأْنِيسَا [5]

وأما الشاعر ابن عنين فقد خصّ الأشرف موسى بقصيدتين طويلتين، وهو كعادته يطيل المقدمة، ويقصر المديح، فالقصيدة الأولى تضمّ سبعة وثلاثين بيتاً منها: اثنان وعشرون بيتاً في الغزل، وخمسة عشر بيتاً في المديح؛ ولكنّه شعر حاذق بصير يحسن التخلص من مقدمته الغزلية إلى موضوعه الأساسي، وهو المديح الذي يركز فيه على موضوع الكرم، ومخافة الله، والعدل، ثمّ يفيض في تمجيد بطولاته، يقول: (من الكامل)

ولربَّ لائمه عليَّ حريصة   بتتْ وَقَدْ جَمَعَتْ عليَّ العُذّلا

---

1 المصدر السابق، ص31-32.

2 المصدر السابق، ص27.

3 يوسى: بمعنى يداوي.

4 الخيس: موضع الأسد.

5 ديوان فتيان الشاغوري، ص 223-226. وانظر قصائد أخرى في مدح الملك الأشرف موسى: الديوان، ص12-17 و219-227 و331-315 و395-404 و475-483.

قَالَـتْ: أَمَـا تَخْشَـى الزَّمَـانَ وَصـرْفَهُ ... وتُقَـلِّ مِـنْ إِتْـلاف مَالِـكَ؟ قلـت: لا
أأخـافُ مِـنْ فَقْـر وجـود الأشـرف الـ ... ـسُّلطان في الآفـاق قَـدْ مَـلأَ المَـلا؟ (م)
الواهـب الأَمْصـارَ محتقـراً لَهَـا ... إنْ غَيْـره وَهَـبَ الهجـانَ البُـزَّلا[1]
مَـا زَارَ مَغْنَـاهُ فَقيـرٌ سَـائِلٌ ... فَيَعُـودُ حَتَّـى يُسْـتماحَ وَيُسْـأَلا
ملـكٌ غَـدَا جيـدُ الزَّمـان بجُـوده ... حَـال ولَـوْلاهُ لَكَـانَ مُعَطَّـلا[2]
يَـا أَيُّهـا الملـكُ الـذي إنْعَامُـهُ ... لَـمْ يُبْـق في الـدنيَا فقيـراً مُـرْملا[3]
لَقَـد اتقَيْـتَ اللهَ حَـقَّ تُقَاتـه ... ونهجـتَ للنَّـاس الطَّريـقَ الأَمْـثَلا
وَعَـدَلْتَ حتّـى لـم تَجـدْ مُتَظَلّمـاً ... وَأَخَفْـتَ حتَّـى صَاحَبَ الـذِّئْبَ الطَّـلا[4]
وَرَفَعْـتَ للـدِّين الحَنيـف مَنَـارَهُ ... فَعَـلا، وكنـتَ بنَصْـره مُـتَكَفّلا
لـولاكَ لانْفَصَـمَتْ عُـرى الإسْـلام في ... مصْـر وَأُخْمـلَ ذكْـرُهُ وَتَبَـدَّلا
وَتَحكَّمَـتْ فيهَـا الفـرنجُ وغـادَرَتْ ... أَعْلاجُهَـا محْـرَابَ عمـرو هَـيْكَلا[5]
حَاشَـا لـدين أَنْـتَ فيـه مُظَفَّـرٌ ... أَنْ يسـتباحَ حمَـاهُ أَوْ أَنْ يُخْـذَلا
أَنْتَ الـذي أَجْلَيْـتَ عَـنْ حَلَـبَ العـدَا ... وحميـتَ بالسُّـمْر اللّـدان الموْصـلا[6]
كَـمْ مَوْقـف ضـنْك فَرَجْـتَ مَضـيقَهُ ... وَطريقُـهُ لخَفَائـه قَـدْ أَشْـكَلا؟
كَـمْ يَـوْم هَـوْل قَـدْ وَرَدْتَ، وطَعْمُـهُ ... مُـرُّ المَـذَاق كَريـه نَـار المُصْـطَلى
وَنَثَـرْتَ بـالبيضِ المُهَنَّـدَة الطُّلَـى ... وَنَظَمْـتَ بالسُّـمْرِ المُثَقَّفَـةِ الكُلَـى[7]

وتكاد القصيدة الأخرى لا تختلف في نظامها عن القصيدة الأولى، وسنقتطف هنا أبيات المدح التي قيلت من أجلها القصيدة، ونلاحظ فيها إلحاح الشاعر على بدّل صفات الكرم والبطولة والشجاعة، ويقول فيها: (من الكامل)

الأشـرف الملـك الـذي بَـذَلَ النَّـدى ... مـنْ كَفّـه طبـعٌ بغيـر تَطبُّـع

---

1 البزل: جمع البازل، وهو البعير الذي انشق نابه.

2 حال: مزين بالحلي.

3 مرمل: من نفذ زاده، وافتقر، فكأنّه لصق بالرمل.

4 الطّلا: ولد الظبية. والصغير في كلّ شيء.

5 عمرو: هو عمرو بن العاص، صحابي، بنى الجامع المشهور في القاهرة، وتوفي بالقاهرة سنة (43) للهجرة.

6 السمر اللدان: الرماح اللينة.

7 ديوان ابن عنين، ص10-12. والطّلى: جمع الطلاة، وهي العنق. والبيض: السيوف. والسمر المثقفة: الرماح.

ملـــكٌ لَـــهُ يــوم الهيَــاج مَوَاقــفٌ — مشـــــهورةٌ لا يــــدَّعيها مُـــدَّعي
متبســـمٌ في كـــلِّ يـــوم عـــابس — متوضـــحٌ في كـــلِّ خطـــب أســـفع [1]
يـــروي حـــرارَ الســـمهريّ بكفِّـــه — يـــومَ الـــوَغَى مـــنْ قلـــب كـــلّ مـــدرَّع
ســـيَّان عنـــد يمينـــه وحســـامه — في الحـــرب هامـــةُ حاســـر ومقنَّـــع
ولطالمـــا حَطَـــمَ الوشـــيجَ بكَفِّـــه — مـــن بعـــد حشـــو الـــدِّرع بـــينَ الأَضْـــلع [2]
ملـــكٌ مَتَـــى استســـقيتَ بحـــرَ يمينـــه — جـــادتْ عَلَيْـــكَ بديمـــة لـــم تُقلـــع
ولطالمـــا غشـــي الـــوغى بثلاثـــة — في ظهـــر منســـوب يطيـــرُ بـــأربع :
بأصـــمَّ معتـــدل، وأبـــيضَ صـــارم — وجَنَـــان مضّـــاء العـــزيم مشـــيَّع
كـــم موقـــف ضَـــنْكٍ فلـــولا صَـــبْرُهُ — فيـــهِ لِوَقْـــعِ البـــيضِ لـــم يَتَوسَّـــعِ [3]

وهناك ثلاثة أبيات نظمها في الملك الأشرف موسى، ويشير فيه إلى التعاون والتعاضد الذي كان بين موسى وأخيه محمد حين اجتمعت جيوشهما لقتال الفرنج على ثغر دمياط، ويقول فيها: (من الكامل)

قســـماً بمـــن ضَـــمَّت أبـــاطحُ مكّـــة — وبمـــنْ حـــواهُ مـــن الحجـــيج الموقـــفُ
لـــو لـــم يقـــمْ موســـى بنصـــر محمّـــد — لعـــلَا عَلَـــى درج الخطيـــب الأَسْـــقُفُ
لـــولاهُ مـــا ذلَّ الصَّـــليبُ، وأَهْلُـــهُ — في ثَغْـــرِ دميـــاطٍ وَعَـــزَّ المُصْـــحَفُ [4]

ونلتقي مع الشاعر بهاء الدين زهير الذي مدح الملك الكامل بقصيدة طويلة بدأها بمطلع رائع، وصف فيه فرحة الدين وهزيمة ملّة الكفر، ويقول: (من الطويل)

بكَّ اهتزَّ عِطْفُ الدِّين في حُلَلِ النَّصْرِ — وَرُدَّتْ عَلَـــى أَعْقَابِهَـــا مِلّـــةُ الكُفْـــرِ [5]

ويتبع هذه المقدمة بفرحة الأيام التي لبست أجمل حُللها، وراحت تميسُ وتتبختر بالحرير والديباج، وكذا المقطّم فقد أبى إلّا المشاركة بهذه البهجة وتلك السعادة، فتمطى شامخاً كأنّما ينافس جبل طور سيناء بالمهابة والقدر:

1 الإسفنج: الأسود اللون إلى حمرة.

2 الوشيج: شجرة الرماح، واحدته الوشيجة.

3 ديوان ابن عنين، ص13-14.

4 ديوان ابن عنين، ص14-15.

5 ديوان البهاء زهير، ص199.

تَمِـيسُ بِـهِ الأَيَّـامُ في حُلَـلِ الصِّـبا ... وَتَرْفُـلُ منْـهُ في مَطَارِفِـهِ الخُضْـرِ

وَمِـنْ أَجْلِـهِ أَضْـحَى المُقَّطَـمُ شَـامخاً ... يُنَـافِسُ حَتَّـى طُـورَ سَـيْنَاءَ فِـي القَـدْرِ[1]

وينتقل إلى مدح الملك بأسلوب النداء الذي يعبّر عن مدى الإعجاب والمباهاة، فالملك في نظره يسامي في العلو والرفعة ملائك السماء طهارة، ومجداً حتّى باهى الله به ملائكته، وذكره فيمن عنده:

فَيَـا ملكـاً سـامى المَلائِـكَ رِفْعَـةً ... ففـي المَـلإِ الأَعْلَـى لَـهُ أَطْيَـبُ الـذِّكْرِ[2]

وسرعان ما يعرج الشاعر على تصوير الإبتهاجات التي لم تخصّ مصر وحدها بل فرحت معها بغداد وغيرها من مدن الإسلام والعروبة، ويشير إلى عدم تخاذل هذا الملك؛ لأنه لو لم ينهض للكفاح والذود عن حياض مصر وطرد الإفرنج منها، لما بقيت بغداد على قيد الحياة، ويذهب إلى أكثر من هذا، فهو يقسم أنَّه لولا همّة الملك القعساء، وعزته المنيعة وعزيمته الراسخة، لارتجف ذعراً وخوفاً مقام إبراهيم في مكة والحجر وما حواه الحطيم حول الكعبة، فقد كان هذا الملك عند حسن الظّن؛ لأنه استطاع حماية جماعة الإسلام من مصائب الدهر وحوادث الأيام:

وَمَا فَرِحَـتْ مصْـرٌ بِـذَا الفَتْحِ وَحْـدَهَا ... لَقَـدْ فَرِحَـتْ بَغْـدَادُ أَكْثَـر مِـنْ مِصْـر

فَلَـوْ لَـمْ يَقُـمْ بِـالله حَـقَّ قيَامِـه ... لَمَـا سَـلِمَتْ دَارُ السَّـلَام مِـنَ الـذُّعْر

وَأُقْسِـمُ لَـوْلَا همَّـةٌ كَامليَّـةٌ ... لَخَافَـتْ رِجَـالٌ بالمَقَـام، وبـالحجْر

فَقُـلْ لِرَسُـولِ الله إنَّ سَـمِيَّهُ ... حَمى بَيْضَـةَ الإسْلَام مِنْ نُوَبِ الـدَّهْرِ[3]

والشاعر معجب بشخصية الملك الكامل أيّما إعجاب؛ لأَنَّه يقرر أن الدنيا تفرح لذكره، ويطرب الدهر للحديث عنه، ولأنه أيضاً انتزع دمياط قهراً من أيدي الأعداء المغتصبين، وطهرها بقوة سلاحه، وعظمة عقيدته، وسماحة دينه الإسلامي:

هـوَ المَلِـكُ المَـوْلَى الـذي إنْ ذَكَرْتَـهُ ... فَيَـا طَـرَبَ الـدُّنْيَا وَيَـا فَـرَحَ الـدَّهْر!

بِـه ارْتُجِعَـتْ دِمْيَـاطُ قَهْـراً مِـنَ العِـدَا ... وَطَهَّرَهَـا بالسَّـيْف وَالنِلَّـةِ الطُّهْـرِ[4]

---

1 المصدر السابق، ص100. والمقطم: الجبل المشرف على القرافة، مقبرة فسطاط مصر والقاهرة. (معجم البلدان 176/5).

2 ديوان ابن عنين.

3 ديوان ابن عنين.

4 ديوان ابن عنين.

ويشير الشاعر إلى قضية هامّة، هي أنَّه لبث في كفاحه مع الإفرنج وحروبه المتصلة أعواماً ثلاثة، وبضعة أشهر[1]، يجاهد ويناضل بشخصه، ولم يستعن بمشرك أو كافر أثيم، حتى حقّق الله له النصر ممتثلاً لقول الله (وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصّبر):

ثَلاثَــــة أَعْــــوَام أَقَمْــــتَ وَأَشْــــهُراً تُجَاهِــدُ فــيهمْ لا بزَيْــد وَلا عَمْــرو

صَــبَرْتَ إلــى أَنْ أَنْــزَلَ اللهُ نَصْــرَهُ لِــذَلكَ قَــدْ أَحْمَــدْتَ عَاقِبَــةَ الصَّــبْرِ[2]

وبعد أن يَصف المعركة البرية والبحرية، ينتقل إلى التهكم بملوك الروم، وذلك بجلوس الملك الكامل على عرشه ليستعرض ملوك الروم وقادتهم، خاضعين أذلّة يمشون أمام المنصّة تعلوهم المهانة ويملؤهم الصّغار، لقد مرّ هؤلاء جميعاً أمام منصته وهو في مكانة رفيعة يعزّ ويسمو حتّى ليكاد يعانق السحاب؛ لأنَّ هذا العطاء والخير كلّه من جوده ووفرة عطائه، ولكن الشاعر يعود ليجسم عفوه، ويقول: وعلى الرغم من انتصاراتك عليهم فقد جُدْتَ عليهم بالأمان تكرماً منك، في حين أنَّ سيوفك الصّوارم ورماحك السمر تزهو، وتميس، عُجْباً، وطرباً، وفرحاً:

وَجَـاءَ مُلُـوكُ الـرُّوم نَحْـوَكَ خُضَّـعاً تُجَــرِّرُ أَذْيَــالَ المَهَانَــة وَالصُّــغْر

أَتَــوْا مَلكــاً فَــوْقَ السِّــماك مَحلُّــهُ فَمنْ جُوده ذَاكَ السَّحَابُ الذي يَسْري[3]

فَمَــنَّ عَلَــيْهِمْ بالأَمَــانِ تَكَرُّمــاً عَلَى الرُّغْمِ مِنْ بِيضِ الصَّوَارِمِ وَالسُّمْرِ[4]

ويتحدث عن هذا النصر المظفر مبيناً أنه كفى الله به مدينة دمياط المكاره، والأخطار التي كانت تحيط بها بسبب الفرنجة، وهو يحمد الله -تعالى- على ذلك النصر العظيم الذي فتحت به هذه المدينة. وتخلصت بذلك من شر المعتدين، ذلك أنَّ دمياط للبيت الحرام هي بمثابة النحر منه، فحمايتها حماية له، وصونها صون له، ثم يشير إلى بركة

1 كانت مدة إستيلاء الفرنج على ثغر دمياط، إلى حين رحيلهم عنها، ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً، وكان مدة محاصرة الملك الكامل للفرنج، سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وهو معهم في جهاد ليلاً ونهاراً، لا يكلّ من الحروب. انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور 362/1.

2 ديوان البهاء زهير 101.

3 لعله أراد بالسحاب الذي يسري جود الملك الكامل، يريد: أن الأرض ازدانت بنباتاتها والسماء جادت بخيراتها من يُمْن طالعك وحسن تصرفك.

4 المصدر السابق، ص101-102.

هذه المدينة المجاهدة ويبن أنَّ نهر النيل ما استطاب وعذب ماؤه إلا لأنَّه ريق لهذه المدينة، فبها عذب وبها استطاب.

كفى الله دمياط المكاره إنها ... لمن قبله الإسلام في موضع النحر
وما طاب ما النيل إلا لأنه ... يحل محل الريق من ذلك الثغر

ثم يفاخر بيوم هذا النظر إلى درجة المبالغة المفرطة فيقول:

فلله يوم الفتح يوم دخولها ... وقد طارت الأعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها ... وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر

ثم يهنئ المجاهدين الذين ثبتوا في ميدان المعركة على ما أكرمهم الله -تعالى- به في الحياة الدنيا من العز والظفر على الأعداء، إذ كان لهم حظ وافر، فقد نالوا الأجر والغنيمة، ويقول:

ويا سعد قوم أدركوا فيه حظهم ... لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر

وفي آخر القصيدة يظهر فرحه وسروره وغبطته لأخبار هذا النصر المؤزر فيقول:

وإني لمرتاح إلى كل قادم ... إذا كان من ذاك الفتوح على ذكر
فيطربني ذاك الحديث وطيبه ... ويفعل بي ما ليس في قدرة الخمر[1]

وقال يمدح الملك صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن الملك الكامل (من الطويل)[2]

وفوق سرير الملك أروع قاهر ... نبيع المعالي في المهمات نبهان
هو الملك المسعود رأيا، ورأيه ... له سطوة ذلت لها الإنس والجان
غداً ناهضاً بالملك يحمل عبأه ... وأقرانه ملء المكاتب ولدان
وتهتز أعواد المنابر باسمه ... فهل ذكرت أيامها، وهي قضبان
وإن نفثتْ في الطّرس منه يراعةٌ ... رأيتَ عصا موسى غَدَتْ، وهي ثُعْبَانُ
يروقُكَ سحرُ القَوْل عنْدَ خطَابه ... وتُعْجَبُ من قرطاسه وهو بستانُ
وكم غاية من دونها الموتُ حاسراً ... سَما نحوَها والموتُ ينظرُ حَسْرَانُ
بحيثُ لسان السّيف بالضَّرب ناطقٌ ... فصيحٌ وطرفُ الرُّمح للطَّعن يَقْظَانُ

1 ديوان البهاء زهير ص102.

2 هذا غير صلاح الدين الأيوبي بطل معركة حطين.

وهـمْ يَصـفُونَ الـرمحَ أسـمرَ ظامئـاً   فهـا هـو مُحْمَـر لـديكَ وَرَيَّـانُ[1]

وعلى الرغم من تذمر الناس في مصر من الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل[2]، فإننا نجد بهاء الدين زهيراً الشاعر يمدحه، ويتعلق كثيراً بذلك، بل يبالغ في خلع الصفات الحميدة عليه، ويقول: (من الكامل)

ولقـد سـعيتُ إلـى العُـلا بعزيمـة   فقضَـى لسـعيي أنَّـهُ لا يُحْقَـقُ

حتَّـى وصـلتُ سُـرَداقَ الملـك الـذي   تقـف الملـوكُ ببَابـه تَسْـتَرْزقُ

ووقفـتُ مـن ملـك الزّمـان بموقـف   ألفيـت قلـبَ الـدَّهر منْـهُ يَخْفُـقُ

فإليـك يـا نجـمَ السـماء فـإنني   قـد لاح نجـمُ الـدين لـي يتـأَلَّقُ

الصـالحُ الملـكُ الـذي لزمانـه   حُسْـنٌ يَتيـه بـه الزَّمـانُ ورونـقُ

ملـكٌ تَحَـدَّثَ عَـنْ أبيـه، وجَـدِّه   نَسَـبٌ لَعَمْـري في العُـلا لا يُلْحَـقُ

سَـجَدَتْ لَـهُ حَتَّـى العُيـونُ مهابـةً   أَوَمَـا تَرَاهَـا حِـينَ يُقْبِـلُ تُطْـرِقُ[3]

وقد حاز الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب سنة 642هـ مدائح الشاعر بهاء الدين زهير، الذي نظم قصيدة طويلة يعدد مناقبه فيها، ويقول: (من الكامل)

ملـكٌ شَـمَخْتُ علـى الملـوك بقربـه   ولبسـتُ ثـوبَ العـزّ فيـه مُسَـرْبَلَا

ورفعـتُ صـوتي قـائلاً يـا يوسـفُ   فأجَـابَني ملـك أطـالَ، وأجـزَلا!

يـا أيُّهـا الملـك الـذي دانـتْ لَـهُ   كـلُّ الملـوك تَـوَدُّداً، وَتَوَسُّـلا!

فَعَلاهُـمُ مُتَطَـوِّلاً، وَحَبَـاهُمُ   متفضـلاً، وأتـاهمُ مُـتَمَهِّلا[4]

---

1 ديوان بهاء الدين زهير، ص253-255.

2 هو السابع من ملوك بني أيوب بمصر، بويع بالسلطنة بعد خلع أخي العادل أبي بكر سنة ست وثلاثين وستمئة، فلما تم امره في السلطنة، أخذ في أسباب تدمير ملكه، واستكثر من مشترى المماليك والأتراك. وهو أول من جلبهم إلى مصر، حتّى ضاقت بهم القاهرة، وكثر الدعاء على الملك الصالح بسببهم، وقد قال القائل: (من البسيط)

الصالح المرتضى أيوبُ أكثرَ منْ   تُـرْك بـدولـتـه يـا شـرَّ مجلوب

لا آخـذ الله أيـوبـاً بفَعْـلـتـه   فالناسُ قد أصبحوا في صَبر أيوب

(بدائع الزهور في وقائع الدهور 269/1. والنجوم الزاهرة 319/6).

3 ديوان البهاء زهير، ص175-176. والنجوم الزاهرة (337/6-338).

4 ديوان البهاء زهير، ص224-226. وانظر قصيدة أخرى يتملق فيها الشاعر ويستعطفه، ويستنزل كرمه، ص171-172. وكذلك صفحة 61-65.

وتملق الشاعر في هذه القصيدة واضح، وهي أطول من هذا، تركناها واكتفينا منها بهذه الأبيات، وارتأينا قبل أنْطوي آخر صفحة تضم شعر المديح لبني أيوب أنْ نختم موضوعنا هذا بأبيات للشاعر ابن عنين الذي حريص على ذكر فضائل الأيوبيّين، ومناقبهم، ويقول فيها: (من الوافر)

فلولا آلُ أيوبَ بن شاذي ... لكانَ لمعهد الجود أندارسُ [1]

فإنَّ النَّاس في طُرُق المَعَالي ... لهم تَبَعٌ، وهمْ للنَّاس راسُ

ملوكٌ دَأْبُهُمْ شَرَفٌ، وَمَجْدٌ ... ودأبُ سوَاهُمُ طَرَبٌ، وَكَاسُ

يُدَافع عن حمَاهمْ كلُّ ذمْر ... لَهُ في غَمْرَة المَوْت انْغمَاسُ [2]

هُمُ تَركُوا صَليبَ الكُفْر أَرْضاً ... يُدَاسُ وَكَانَ مَعْبُوداً يُبَاسُ

وَأَرْغَمَ بأْسُهُمُ آنَافَ قَوْم ... تَجَنَّبهَا لعزَّتها العُطَاسُ

أولُوا عَدْل يَمُوتُ الليثُ منْهُ ... طوىً وبجَنْب مَأْوَاهُ الكنَاسُ [3]

بأَحْلام موقَّرة إذا مَا ... تزعزعَ يَذْبُلٌ وَهَفَا قُسَاسُ [4]

بَنَوْا في ذَرْوَة العَلْيَاء بَيْتاً ... لجودهمُ حَوَالَيْه ارْتجَاسُ

فَمنْ سُمرِ الرِّمَاحِ لَهُ عِمَادٌ ... وَمِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ لَهُ أَسَاسُ [5]

ويقول: (من الطّويل)

بكُلّ فَتىً منْ آل أَيوبَ لَمْ يَزَلْ ... دفَاعاً لخَطْب أَوْ سداداً عَلَى ثَغْر

إذَا اسْتَلأَمُوا يَوْمَ النِّزَالِ حسبتَهُمْ ... أُسودَ العَرِينِ الغُلْبِ فِي غَابَةِ السُّمْرِ [6]

ويمكننا أنْ نسجل بعض ملاحظاتنا قبل أنْ نطوي موضوع المدح في هذه المرحلة، فنقول: إنّ الانتصارات التي حققها أبطال المسلمين في حروبهم المقدسة، وكانت باعثاً قوياً لهذا الشعر الذي امتزجت فيه موضوعات عديدة، منها: الحثّ على الدفاع عن حمى الأوطان، والذود عن حياضها، والتغني بالفتوحات، وتصوير بلاء المحاربين،

---

1 اندراس: ذهاب الأثروالانطماس.

2 الذمر(بالكسر): الشجاع.

3 الكناس(بالكسر): بيت الظبي في الشجر، يكتنُّ فيه، ويستتر.

4 يذبل: جبل بنجد، وقساس: جبل لبني نمير.

5 ديوان ابن عنين، ص33-34.

6 المصدر السابق، ص28. واستلأموا: لبسوا لأمتهم وهي عدة الحرب.

وتتويج كفاحهم بالتهنئات التي تخلّد أعمالهم، ويفرض موضوع آخر نفسه على هذه الموضوعات، ألا وهو هجاء الفرنج، وازدراؤهم والتهكّم بهم، ونحن حين نتحدث عن هذا التشابك لابدّ أنْ ندوّن بعض سمات هذه الأشعار:

1 – إنَّ قصائد هذا الشعر طويلة نسبياً، لما تتطلبه طبيعة الموضوع من تناول موضوعات كثيرة في قصيدة واحدة.

2 – إنَّ كثيراً من القصائد لم تصل إلينا كاملة، وإنْ وصل بعضها، فهو في الغزل، والبيت الذي خلص فيه الشاعر من الغزل إلى المدح، وكذلك أمر القصائد الطِّوال التي قد يبقى منها بيت أو بيتان، وأما القصيدة التي يحالفها الحظّ فيبقى منها بضعة أبيات لا تشمل أو تغطي جميع الموضوعات التي قيلت من أجلها القصيدة، ويقول الدكتور أحمد بدوي: "ولعل أعظم بطل في الحروب الصليبية ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم فأحاطوا به، وينظمون أسباب مجده، ويشيدون بوقائعه وجهاده، ويسجلون كل ما قام به من حركات مباركة في سبيل مجد الإسلام، وهو صلاح الدّين، فقد تضافر على رسم بطولته عدد كبير من شعراء عصره، عرفت منه زهاء خمسين شاعراً، منهم: المصري، والشامي، والعراقي، يقدمون إليه مادحين... بقي لنا مما مدح به من شعر الشعراء زهاء ألفي بيت، وليس ذلك كل ما مدح به، ولكن فُقد من ذلك قدر كبير"[1].

ونحن نتفق مع الدكتور بدوي؛ لأنَّ المتصفح للمصادر الأدبية، والتاريخية يَجِدُّ حقيقة ما ذهبنا إليه من ضياع الكثير، وبقاء القليل من الأشعار التي قيلت فيه بصفة عامّة، والمديح بصفة خاصة، وكذلك الرثاء كما سنرى، وقد يكون وراء ذلك كلّه يَدٌ خفيّة، وأهدافٌ شخصية، وأضف إلى ذلك الصراع الذي دار بينه وبين الفاطميين من جهة، والأمراء في الشام وكثير من البلاد الإسلامية من جهة أخرى، ناهيك الأحداث الأليمة التي مرّت بها البلاد الإسلامية من جرّاء الغزو التتري المغولي عليها سنة (656هـ)، وما أحدثه هذا الغزو من تدمير للحضارة، والثقافة، والدّين، وكلّ ما يمت بصلة إلى الإنسانية.

3 – تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة، مما يضعف الترابط بين أجزائها أحياناً؛ لأن هدف هذه الأشعار إيصال المعنى.

---

1 الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص234-237.

4- يمتاز هذا الشعر بلطف المعاني، و نقصد بذلك بساطة هذه المعاني، وعفويتها وعدم تعقيدها، على الرغم من استخدام الصور البيانية، والميل إلى الزينة اللفظية.

5- التكرار في المعاني، بأساليب مختلفة، تصب جميعاً في فكرة "المدح" و"التهنئة" و"الهجاء" و"التهكم والازدراء"، فالشاعر يتفنن في الإتيان بالصور المقابلة المتضادة؛ وذلك لأنه يمدح ويهجو في قصيدة واحدة.

6- إنَّ المعاني التي تشترك -غالباً- بين هذه الأشعار، هي معاني الجهاد في سبيل الله، ونشر الأمن، وتحقيق السّلام، وإقامة العدل، ذلك أنَّ الحروب الدائرة هي بين الإسلام والكفر؛ لذا فإنها تنبع من معين واحد، وتصبّ في موضوع واحد، ألا وهو مدح القادة المسلمين وهجاء الصليبيين، أضف إلى ذلك، معاني الكرم، والشجاعة، والقّوة، والعطف، والحلم، والأناة..

7- التأثر الواضح بالكتاب والسنة، وإما عن طريق(الاقتباس)، أو (التأثر بالمعنى).

8- توظيف التراث: سواء كان شعبياً أو أدبياً أو دينياً.

9- التضمين، ونعني بذلك التأثر الواضح بشعر الشعراء الكبار، حتّى لتجد في القصيدة الواحدة، وفي أبيات متتالية -أحياناً- أكثر من تضمين واحد للشاعر نفسه أو أكثر من شاعر، وسنتحدث عن هذا الموضوع في دراستنا الفنية.

10- صدق العاطفة، وقوة الانفعال، ذلك أنَّ شعراء هذه المدة الزمنية ينظمون أشعارهم بصدق وإخلاص، وصفاء نيّة وأمانة، وحب للممدوح الذي غالباً ما يكون بطلاً إسلامياً في نظرهم، فتأتي هذه الأشعار بعيدة عن التملّق -في معظمها- لا رياء فيها ولا خداع، وذلك نابع من الإحساس بالمسؤولية، ونجد بعض الشعراء قد لجؤوا إلى التملّق، والاستعطاف، واستنزال الكرم من القادة، ولاسيّما حين تتوقف الفتوحات، ويستتب الأمن.

11- سهولة الألفاظ وبساطتها؛ لأن من مهمة هذا الشعر أنْ يصل إلى قلوب الناس حتّى يجمع قلوبهم، ويوحّد كلمتهم تحت راية قائدهم المجاهد في سبيل الله.

12- قلة التكلف في هذه الأشعار، ونعني بذلك أنَّ الشاعر لا يحاول أن ينقح شعره كما هو شأن الذين نسميهم عبيد الشعر أمثال أبي تمام وابن المعتز، ذلك أنَّ هذا الشعر قريب

إلى ما يسمى (شعر المواقف)، وقد نجد كثيراً من القصائد -ومنها الطويلة-[1] -ارتجلها- أصحابها ارتجالاً دون تحضير أو إعداد أو تنقيح أو تحكيك.

13- ولا يمنع ذلك من وجود (جزالة الأسلوب)؛ لأن هذا النوع من الشعر يعيش في إطار المدح والهجاء والابتهاج بالنصر، وهذا يستدعي اللفظ القوي، والعبارة الجزلة، وعلى كلّ حال، فإنّ ذلك يعتمد على مكانة الشاعر، وخبرته، وشاعريته.

14- يعدُّ هذا النوع من الشعر فنّاً قائماً بذاته؛ لأنه كان سجلاً أميناً للعصر من خلال مشاركته الفعالة بتصوير المعارك، والحروب، وما نتج عنها من انتصارات أو هزائم أو توقيع صلح أو هدنة. ولم يسبق أنْ رأينا في أي عصر من العصور الأدبية أو التاريخية قصائد الشعراء تتوجه إلى قوادهم خالصة من الرياء والتملق مثلما رأينا في هذا العصر، ذلك أنَّ الحرب الدائرة بين المسلمين، والصليبيين حرب دينية بحتة، تهدد البلاد الإسلامية بأكملها.

وهكذا نجد أنَّ موضوع مديح القادة في عصر الحروب الصليبية لا يختلف في مضامينه وعناصره عمّا سبقه إلا من جهة الاهتمام بالصنعة، والزخرفة اللفظية، وأكثر من الاهتمام بالإبداع الفني إلى جانب اهتمامهم الكبير بإيقاظ المشاعر الدينية التي اقتضتها طبيعة العصر حينذاك.

❋ ❋ ❋

المؤلفان للفصل الرابع

الأستاذ الدكتور هاشم صالح مناع
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب
جامعة الإسراء

الدكتور عمر عبدالله العنبر
مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة
جامعة الإسراء

---

1 انظر مثلاً: (قصيدة طويلة للعماد الأصفهاني، وهي من غرر قصائده في مدح نور الدين زنكي): الخريدة (بداية قسم شعراء الشام) ص53-62.

الفصل الخامس:
رثاء الأبطال والقادة

يقال الرثاء لفظة مرادفة في معناها للفظة (التأبين) وهو مدح الرجل بعد موته، والبكاء عليه، وذكر مآثره، وتعديد مناقبه[1]، ويختلف الرثاء من شاعر إلى شاعر، بحسب صلته بالمرثي، كأَن يصاب الشاعر ببعض أهله أو أحد أولاده، أم أنْ يصاب بحبيب أو خليل، أو أنْ يفجع بشخصية أثيرة عنده سواء أكانت سياسية أو إجتماعيه أو غير ذلك، وإنَّ وجه التعبير عامة يشترك بين هذه العناصر جميعاً لإظهار مدى التفجع، والألم، والحسرة، والحزن، والشاعر له القدرة على التعبير أكثر من غيره في هذا المجال.

وشعر الرثاء إنما يقال على الوفاء فيقتضي بقوله حقوقاً سلفت، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فَجَعَ ببعض أهله، وأما أنْ يقال على الرغبة فلا؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهباً واحداً وهو ذكر ما يدل على ان الميت قد مات، فيجمعون بين: التفجع والحسرة والأسف والتلهف والاستعظام ثم يذكرون صفات المدح مبلّلة بالدموع.

ويذهب قدامة بن جعفر إلى القول:[2] "إنَّه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل: "كان" و"تولّى" و(قضى نحبه) وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى، ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير (كان) وما جرى مجراها، وهو ان يكون الحيّ وصف مثلاً بالجود، فلا يقال: "كان جواداً"، ولكن بأن

---

1 عن ثعلب: التأبين هو اذا ذكرته بعد موته بخير. وقال شعر: التأبين: الثناء على الرجل في الموت والحياة، وقال ابن سيده: وقد جاء في الشعر مدحاً للحي. ويقال لمادح الميت المؤبن لأتباعه آثار فعاله وصنائعه. وعن الجوهري: التأبين: أن تقفو اثر الشيء (لسان العرب، ابن، ورثنا) والجدير بالذكر أن (الرثاء) و(التأبين) و(الندب) تدل على معان مختلفة تدل على موقف الحيّ من الميت، فالرثاء: بكاء الميت سواء أرافقه تعديد محاسن الميت او لم يرافقه، والتأبين: ذكر محاسن الميت، وربما رافقه بكاء، وليس شرطاً، والندب: بكاؤه مع تعداد محاسنه.

2 تاريخ آداب العرب، الرافعي 3/106.

يقال (ذهب الجود) أو (فمن للجود بعده؟) ومثل:" تولّى الجود" وما أشبه هذه الأشياء"[1].

ومن أخلاق العرب أنهم كانوا لا يرثون قتلى الحروب؛ لأنهم ماخرجوا إلّا ليقتلوا، فإذا بكوهم كان ذلك هجاء أو في حكمه، ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه، أو يقتل في غير حرب من حروب التاريخ كالغارة وغيرها، فحينئذ يعدّدون المآثر ويبالغون في الفجيعة، وكأن هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت[2].

وقد أخذت قصيدة الرثاء بعد ذلك شكلاً يختلف عمّا كانت عليه من قبل، ذلك أنَّ القصيدة بعد الإسلام جمعت بين التعزية والتهنئة، وقد اختص هذا اللون بالخلفاء في تعزية من يلي عهد ابيه منهم، وكان أول من فعل ذلك عبد الله بن همّام السّلولّي حين مات معاوية بن أبي سفيان، فلم يقدم أحد على تعزية ولده يزيد إلا هو، وبذلك فتح السلولّي للناس بعده باب هذا القول[3]، وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء خاصة، حتّى قيل فيه: إنه "نوّاحة مدّاحة"[4].

ولقد تضمن شعر الرثاء منذ القدم نوعاً من المبالغة في صفات المرثي إلى جانب الاستسلام للحزن واليأس كالقول: إنَّه لا خير في الحياة بعد فقدان الفقيد[5]. ومن الثابت أنَّ مضمون قصيدة الرثاء مرتبط بأسباب الموت ودواعيه وبأسباب الحياة والأهداف المنوطة بالجهاد فيها، والآمال المعلقة على الشخص الذي نالته سهام القدر.

ولقد أشرنا في الفصول السابقة إلى قلّة الأشعار، وضياع كثير من القصائد التي عالجت الموضوعات العديدة في هذه المرحلة، ونعتقد أنَّ قصائد الرثاء أيضاً قليلة لا ترقى، ولا

---

1 نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ص 100.

2 تاريخ آداب العرب، 106/3.

3 المصدر السابق 108/3، والشعر والشعراء 634/2.

4 تاريخ آداب العرب 109/3.

5 انظر: ديوان الخنساء، ص149.

تصل الى مستوى المسؤولية، او النهوض بحجم المصيبة التي حلت بموت الأبطال آنذاك، مما يدفعنا الى القول: ان شعر الرثاء فُقد معظمه؛ لأسباب سياسية واجتماعية ودينية، ذلك أنَّ هذا النوع من الشعر ينبع من القلب بعاطفة صادقة دون تكلف أو رياء، سيأتي تعبيراً عن احاسيس وانفعالات تنهض بمستوى الفجيعة، ولما كان هذا الصدق في العواطف والأحاسيس والانفعالات، هوالسجل الأدبي الوحيد للحقائق التاريخية، فان هناك العوامل الكثيرة التي احاطت بهذا السجل، والتي كانت كفيلة بالمشاركة الفاعلة بطمس ما يضمه من أعمال أدبية، بل كانت حريصة كل الحرص على مسحها من الوجود، أضف الى ذلك سوء النوايا من الممالك التي قامت على أنقاض العصر الأيوبي، والعناصر الحاقدة على مسيرة التحرير، إلى جانب الغزو التتري الذي لا يمكن تجاهله، ولما كانت قصائد الرثاء قليلة معدودة منثورة هنا وهناك، فإننا سنحرص على تدوين أغلب ما يقع بين أيدينا، ويرقى بالمستوى المطلوب، وسنشير إلى مصادر ما لا ندوّنه ومراجعه، حتّى يسهل على القارئ الرجوع إليه.

ونبدأ جولتنا هذه بشخصية متميزة في عصرها، هي الشهيد عماد الدين أتابك زنكي[1] (ت541 هـ) الذي ارتبط اسمه بالجهاد المقدس ويفتح الرُّها، فتسنى للمسلمين بهذا الفتح كسر شوكة (جوسلين الصليبي) فبينما هو- ذات يوم- في قلعة (جعبر) نائم دخل عليه جماعة من مماليكه فقتلوه، وبموته اضطربت الأعمال، واختلت المسالك بعد الهيبة المشهورة والأمنة المشكورة، وعاثت أيدي التركمان والحرامية في الأرض فساداً، فأخذ الشعراء يرثون هذا القائد لما رأوا المفارقات بين ما كان في حياته، وبعد مماته، فهذا الشاعر الرئيس أبو يعلى التميمي يصف هذا الموقف و يرثي عماد الدّين بقصيدة مؤثرة صادقة نابعة من القلب، ولكن للعقل فيها دوراً بارزاً من منطلق استعراض انتصاراته، وأفعاله، والتغّني بمفاخره ومناقبه، وكأن الشاعر يتحدث عن قائد منتصر، يصف معاركه

1 انظر سيرته: الروضتين 27/1 وما بعدها.

لتكون حافزة له لمواصلة قتاله، إلّا أن مطلع القصيدة هو الذي يقرر تصنيف موضوع القصيدة، وهذا ما يطلق عليه رجال البلاغة (حسن الابتداء) أو (براعة الاستهلال)، ويقول: (من الطويل)

كذاكَ عماد الدّين زنكي تنافرت | سعادته عنه، وخرّتْ دَعَائِمُهُ
وكم بيت مال من نضار، وجوهر | وأنواع ديباج حوتها مخاتمُهُ
وأصْغتْ بأعلى كلّ حصن مصونة | يُحَامي عليها جنده، وخوادمُهُ
ومن صافنات الخيل كلّ مُطَهَّمُ | يَرُوع الأعادي حُليُهُ، وبراجُمهُ[1]
فلو رامت الكتاب، وصف شياتها | بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمُهُ[2]
وكم معقل قد رامَه بسيوفه | وشامخ حصن لم تفته غنائمُهُ
ودانت ولاة الأرض فيها لأمره | وقد أمنتهم كتبه، وخواتمُهُ
وامّنَ من في كلّ قطر لهيبة | يراع بها أعرابه، وأَعاجمُهُ
وظالم قوم حين يذكر عدله | فقد زالَ عنهم ظُلْمُهُ، وخصائمُهُ
وأصبح سلطان البلاد بسيفه | وليس له فيها نظير يزاحمُهُ
وزادَ على الأملاك بأساً وسطوةً | ولم يبقَ في الأملاك مَلْكٌ يقاوِمُهُ[3]

والقارئ لهذه الأبيات يلاحظ أنَّها تتحدث عن القوة، والسطوة، والخيل، والحرب وأدواتها، والعدل، والسيادة، والجاه، والعزّ، وحسن السياسة، وقوة الإرادة، ولم يتحدث الشاعر فيها عن موته؛ ولكنه بعد هذا العرض ينتقل الى رثائه الذي يدخل فعلاً في باب الرثاء، ويقول:

فلمّا تناهى ملكُهُ وجلالُهُ | وراعت ولاة الأرض منه لوائمُهُ
أتاه قضاء لا تردُّ سهَامُهُ | فلم تنجه أمواله ومغانمُهُ
وأدركه للْحَيْن فيها حمامه | وحامت عليه بالمنون حوائمُهُ

1 الصافنات: والصوافن والصُفون جمع الصّافن، والصّافن من الخيل: القائم على ثلاث قوائم. وجواد مطهم: تام الحسن. والبراجم: جمع البرجمة، وهي مفاصل الأصابع أو العظام الصغار في اليد والرجل. وحليه: ما يرى من لونه وظاهر هيئته.

2 شياتها: جمع شية، وهي العلامة.

3 الروضتين 45/1،وانظر: ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى حمزة بن القلانسي، ص286-287.

واضحى على ظهر الفراش مجدّلّا صريعاً تولّى ذبحه فيه خَادمُهُ[1]

ففي هذه الأبيات وصف لمقتله، وذكر لقاتله، واستخدام لمعجم الألفاظ الرثائيّة، ولكنه يعود مرة أخرى لذكر: قوته وسطوته وجيشه وإقامته للعدل وجهاده وما إلى ذلك، ولعل السبب في ذلك هو الإعجاب الشديد بهذا القائد الذي استشعر فيه الشاعر رمز الأمن والأمان، والسلم والإسلام؛ ويقول:

وقد كانَ في الجيش اللّهام مبيته ومن حوله أبطاله، وصوارمُهُ[2]

وسمر العوالي حوله بأكفهم تذود الرّدى عنه، وقد نام نائمُهُ

ومن دون هذا عصبة قد ترتبت بأسهمها يردى من الطير حَائِمُهُ

وكم رام في الأيام راحة سرّه وهمته تعلو، وتقوى شكائمُهُ[3]

وكم ملك للسَّفْر آمن سُبْلَهُ ومسرح حيّ لن تراع سوائمُهُ

وكم ثغر إسلام حواه بسيفه من الروم لما أدركته مراحمُهُ

فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله وينفذ في اقصى البلاد مراسِمُهُ؟[4]

وحين يصل الشاعر إلى نهاية قصيدته، وينزع إلى ضرب الحكم والأمثال، ويسوق العظات من خلال ما آلت إليه الأمم التي سادت ثم بادت، وهذا بطبيعته يقترب من الاتجاه العقلي؛ لأنه يقوم على الأدلة والبراهين الواقعية المنطقية مما يخفّف على المصاب والمفجوع، ويقول:

فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالماً إذا ما اتاه الأمر واللهُ حاتمُهُ؟

ومن رام صفواً في الحياة فما يرى له صفو عيش، والحمام يحاومُهُ؟

فإياك لا تغبط مليكاً بملكه ودعه فإنّ الدّهر لا شكّ قاصمُهُ

وقل للذي يبني الحصون لحفظه: رويدك ما تبني فدهرُك هادمُهُ

وفي مثل هذا عبرة، ومواعظ بها يتناسى المرء ما هو عازمُهُ[5]

1 الروضتين.

2 اللهام: الجيش العظيم كأنه يلتهم كل شيء.

3 الشكائم: جمع الشكيمة وفلان شديد الشكيمة، أي: شديد النفس ابيّ الحازم.

4 الروضتين 46/1.

5 الروضتين 46/1.

وهذا أبو الحكم المغربي يرثي عماد الدين أتابك بقصيدة حزينة، لا تكاد تخرج في معانيها عن سابقتها، نورد منها ما يلي: (من الخفيف)

عين لا تدّخري المدامعَ، وإبكي واستهلي دماً على فَقْد زَنْكي

لم يهب شخصَه الرّدى بعد أن كا نتْ له هيبة على كلِّ تُرْكي

فاسكبوا فوق قبره ماءَ وَرْد وانضحوه بزعفران، ومسك

أيّ فتك جرى له في الأعادي بعدما استفتح الرُّها أيّ فتك

كلّ خطب أتت به نوب الدّهـ ـر يسير في جنب مصرع زنكي

بعد ما كاد أن تدين له الرّو م ويحوي البلاد من غير شَكِّ[1]

* * *

وفي سنه ثمان وستين وخمسمئة توفي نجم الدين الأمير أيوب بن شاذي، والد صلاح الدين، وكان أميراً عاقلاً شجاعاً جواداً عاطفاً على الفقراء والمساكين، محبّاً للصالحين، قليل الكلام جداً، ولا يتكلم إلّا لضرورة[2]، ويقول أبو شامة: كان نجم الدين عدلاً مرضياً، كثير الصّلاة والصِّلات، غزير الصدقات والخيرات، يحبّ العلماء، ويميل إلى الفضلاء، وكان ممدحاً عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة، وكان لا يمرّ احد من أهل العلم والدين به إلّا حمل إليه المال، والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلّا انفذ إليه[3]. وهذه الصفات كفيلة بأنَّ تأخذ بمجامع قلوب الشعراء، يمدحونه في حياته، ويرثونه بعد مماته، ولكن كما قلت: ضنّت علينا المصادر بالمراثي والأشعار، و بخلت علينا بالأخبار، ومع ذلك فقد بقي غَيْضٌ من فيض.

ومن الشعراء الذين رثوا نجم الدّين: عُمارة اليمني، فقد رثاه بمرات كثيرة، ندوّن في بحثنا هذا ما تيّسر لنا منها، ويقول: (من البسيط)

ثغر الزّمان بنجم الدّين مبتسم ووجهه بدوام العزّ مُتَّسِمُ

1 المصدر السابق نفسه. الروضتين 46/1.

2 النجوم الزاهرة 1/67.

3 الروضتين 1/210.

أضحى بك النيل محجوجاً، ومعتمراً كأنما حلّ فيه الحلّ، وَالحَرَمُ
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر فقارعوا عنه فهو اليوم منتظمُ
وما دَرَى أحدٌ من قبل رؤيتهم إنَّ الحظوظ بلثم الأرض يقتسمُ
نامت عيون الورى في عدل سيرتهم كأَنَّ يقظتنا في عصرهم حلمُ
والناصر ابنك كافٍ كل معضلة إذا الحوادث لم يكشف لها غمم
أعزّ البأس والإحسان حوزتنا فلم يلمّ بنا خوف ولا عدمُ
تبسم الدست من أيوب عن ملك تنحطّ عن قدره الأقدار والهممُ[1]

والواضح إنَّ قصائد الرثاء إن لم تكن في رثاء ابن أو أخ وما إلى ذلك، فإنَّ العاطفة تبدو ضعيفة، مهما حاول الشاعر السيطرة على هذا الضعف، وبذل اقصى الجهود لإظهار الأحاسيس والانفعالات والتأثرات... أضف إلى ذلك أنَّها تهتم بترجمة حياة الفقيد، وتعداد أعماله، ومناقبه، ومآثره مع الاهتمام أحياناً بالمحسنات البديعية الأساليب البيانية، فهذه مرثية ثانية لعُمارة اليمني في نجم الدين، ويقول فيها: (من الطويل)

هي الصدمة الأَولى فمن بأن صَبْرُهُ على هول ملقاها تضاعف أَجْرُهُ
أذم صباح الأربعاء فإنه تبسم عن ثغر المنية فجرُهُ
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة تداعى سماك الجوّ منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى على فقد أيوب فقد بأن عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله يراع بها نيل العزيز، ومصره
إلى أنْ رماها من أخيه بضيغم فرى نابه أهل الصليب، وظفره
فلما قضى نحباً حياة ودولة بأمرك في إدراكها تم أمره
تعاقبتما مصراً اتعاقب وابل يبيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها فحللتها فمغناك مغناه، وقطرك قطره
وواخيته في البر حيّاً، وميتّاً فقبرك في دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل (البقيع) إليكما والاّ فسكان (الحُجون) و(حِجْرُهُ)[2]

1 المصدر السابق1/211. والدست: صدر البيت، والمجلس.

2 البقيع: مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة. (معجم البلدان 473/1). والحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. (معجم البلدان 221/2).

هنيئــاً لملــك مــات والعــزّ عــزّه وقدرتـــه فـــوق الرجـــال وقـــدْرُهُ
وأدرك مـــن طـــول الحيـــاة مـــراده ومـــا طـــال إلا في رضـــى الله عمـــره
وأسـعد خلـق الله مـن مـات بعـدما رأى في بنـــي أبنائـــه مـــا يســـره
شـــهيد تلقّـــى ربـــه، وهـــو صـــائمٌ فكـــان علـــى أجـــر الشـــهادة فطـــره
مضى وهو راض عنك، ولم ترم صدره لضـيق ولا جاشـت مـن الغـيظ قـدره
حمـى حـوزة الإسـلام والـدين بعـده ثمانيـــة مـــن أجلهـــم عـــزّ نصـــرُهُ
فكيـــف لجـــيش آل أيـــوب أســـده لقـد بـان خـوف الـدهر منـه وذعـره
رعـى الله نجمـاً تعـرف الشـمس أنـه أبوهـــا، ونـــور البـــدر منهـــا وزهـــره
وأبقـــى المقـــام الناصـــري فإنـــه لـــدولتكم كنـــز الرجـــاء، وذخـــره[1]

وأما مرثيته الثالثة فهي عبارة عن سرد لحياة الفقيد، وذكر مناقبه، ويحاول عُمارة أنْ يعزي أهل الفقيد بضرب مثل أو إعطاء حكمة للتخفيف من الألم، والحزن، والأسى، ويقول: (من البسيط)

صَفْوُ الحياة، وإن طَالَ المدى كَدَرُ وحـادثُ المـوت لا يبقـي ولا يَـذَرُ
ومـا يـزال لسـان الـدهر ينـذرنا لـو أثـرت عنـدنا الآيـات، والنـذر
فـلا تقـل غـرّت الـدنيا مطامعنـا فمـا مـع المـوت لا غـش، ولا كـدر
كـأس اذا مـا الـردى حيًـا الحيـاة بهـا لـم يـنج مـن سـكرها أنثـى، ولا ذكـر
كم شامخ العزّ لاقى الذل من يدها مـا أضـعف القـدر إن ألـوى بـه القـدر
في كـلّ جبـل وعصـر مـن وقائعهـا شـعواء يقطـر منهـا النّـاب، والظفـر
أودى علـــيّ وعثمـــان بمخلبهـــا ولـم يفتهـا أبـو بكـر، ولا عمـر
ومـــن أراد التأســـي في مصـــيبته فللـــــورى برســـــول الله معتـــبر
نجم هوى من سماء الدين منكدراً والـنجم مـن أفقـه يهـوى، وينكـدر
منظومـة أبحـر الجـوزاء مـن جـزع لـــه وعقـــد الثريـــا منـــه منتشـــر
وكيـف ينسـى محيـاه الكـريم ومـن نعمـــاه في كـــل عـــيش صـــالح أَثَـــرُ
جـدّدت مـن أسـد الـدين الشـهيد لنـا حزنـاً بـه يتسـاوى الصَّـبر، وَالصَّـبرُ

1 الروضتين 1/212

قــد كــان للــدّين والــدّنيا بعزمكمــا | ذكــــر يعـــبر عنـــه الصّــــارم الــــذكر
إن فــاحَ نشــر كــلام تمــدحان بــه | مســـكاً فعـــترة أيـــوب هـــي العطـــر
تخفــى ذبــال مصــابيح إذا طلعــوا | صبحاً وتنسى ملوك الأرض إنْ ذكروا
كأنمــا صــوّر الله الكمــال بهــم | شخصــاً ويوسُــفُ منه السّمعُ والبَصَـرُ
لا (شوبك) منه معصوم ولا(كرك) | ولا (خليـل) ولا (قـدس) ولا (زُغَـرُ)[1]
لــم يرتحــل قــافلاً إلّا وســاكنها | إمــــا مُبــــاحٌ حمــــاه أو دمٌ هَـــدَرُ
مــا مــات أيُــوب إلا بعــد معجــزة | في المجـد لا يؤتهـا مـن جنسـه بَشَـرُ
مضـى سـعيداً مـن الـدّنيا ولـيس لَـهُ | مـــن رتبــــه أرب بـــاق ولا وَطَــــرُ
وطــــول الله منــــه بــــاع أربعــــة | منهـا النّـدى وَالتّقـى والملـك والعمـر
واشرف الملك ما امتدت مسافته | في صــحّة أَخَواهَــا العقــل والكبَــرُ
ومــن ســعادته أن مــات لا سَــأَمٌ | يشــكوه منــه معانيــه ولا ضَــجَرُ[2]

حقاً، إنَّ أسلوب هذه المرثيه أسلوب جزل رصين، والمعاني قويّة تقوم على ضرب الحكم، ممّا يضفي جوّاً استسلامياً حزيناً لا يستطيع الإنسان دفعه، والوقوف أمامه لدرئه، ولا يجد سوى التحلّي بالصبر أمام القدر.

* * *

ونلتقي مع شخصيّة أخرى من شخصيات هذا العصر، هي شخصية نور الدين زنكي ولد الأتابك زنكي (ت 569 هـ)، ويقول ابن الأثير في حقهاّ: طبّق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله، وقد طابقت سير الملوك المتقدمين، فلم ار فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل... حتّى إنه بنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم، ولو أنه يهودي، من الظالم ولو أنّه ولده أو اكبر أمير عنده، وأما شجاعته فإليها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما فقيل له: بالله عليك، لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام، والمسلمين، فإنْ أصبت في

1 زغر: قرية بمشارف الشام. (معجم البلدان 3/143).

2 الروضتين 1/212-213.

معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال نور الدين: ومن محمود حتّى يقال له هذا؟ من قبلي من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو، ولهذا قيل فيه: (من الكامل)

جمعَ الشَّجاعةَ وَالخشوعَ لِرَبِّه ... ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ[1]

وكان نور الدين عارفاً بالفقه، سمع الحديث، وأسمعه طلباً للأجر، وبنى المدارس الكثيرة، والجوامع وفتح الطرق... وما إلى ذلك من النواحي العمرانية... وكان يكرم العلماء وأهل الدّين، ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، و يتبسط معهم، ولا يردّ لهم قولاً، و يكاتبهم بخطّ يده، وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه، وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة[2].

وقد أكثر العماد الاصفهاني من رثائه لنور الدّين زنكي، ومن ذلك قوله: (من المتقارب)

عجبتُ من الموت كيفَ أتَى ... إلى مَلك في سَجَايا مَلَكُ[3]

وكيفَ ثوى الفَلَكُ المستديـ ... ـر في الأرض وَالأرض وسط الفَلَكُ

وله أيضاً:(من السريع)

يا ملكاً أيامه لم تزل ... لفضله فاضلة فاخرهُ

غاصت بحار الجود مذ غيّبت ... أنملك الفائضة الزّاخرهُ

ملكت دنياك، وخلفتها ... وسرت حتى تملك الآخرهُ[4]

وسئل العماد الأصفهاني لنضم مرثية في نور الدّين، ولا نظن أنه ألزم الأمر؛ ولكنه التزم ذلك، بدافع ذاتي، وديني، واجتماعي، وسياسي؛ لأن عواطف الشاعر وانفعالاته لا تأتي بالإكراه أو بالطلب؛ ولكنها الأحاسيس، والانفعالات التي بدات تثور كالبركان، وخير دليل على ذلك قصيدته الطويلة التي نظمها في رثاء نور الدين، والتي تفيد حسرة وألماً

1 الكامل في التاريخ 403/11-404. والمحراب الأولى: الشديد القتال والمنازعة، الشجاع في الحروب؛ وأما الثانية: فهي مقام الإمام في المسجد.

2 الكامل في التاريخ 403/11-404.

3 الروضتين 228/1.

4 المصدر السابق نفسه.

وحزناً، وتجد فيها المعجم الرثائي، وأضف إلى ذلك التكرار والتأكيد وإظهار مدى أثره في الحياة يقول: (من الكامل)

الـــدينُ في ظُلَــم لغيبــة نـــوره ... والـــدّهرُ في غـــمٍّ لفقـــد أميـــره
فلينـــدب الاســـلامُ حـــاميَ أهلـــه ... والشـــامُ حـــافظ ملكـــه وثغـــوره
مـــا أعظـــم المقـــدار في أخطـــاره ... اذ كـــان هـــذا الخطـــب في مقـــدوره![1]
مـــا اكثـــر المتأســـفين لفقـــد مـــن ... قـــرّت نـــواظرهم بفقـــد نظيـــره!
مـــا أغـــوص الإنســـان في نســـيانه ... أو مـــا كفـــاه المـــوت في تـــذكيره؟
مـــن للمســـاجد، والمـــدارس بانيـــاً ... لله طوعـــاً عـــن خلـــوص ضـــميره؟
مـــن ينصـــر الإســـلام في غزواتـــه ... فلقـــد اصـــيب بركنـــه، وظهيـــره؟
مَـــنْ للفـــرنج ومـــن لأســـر ملوكهـــا ... مَـــن للهـــدى يبغـــي فكـــاك أســـيره؟
مَـــنْ للخطـــوب مـــذلّلاً لجماحهـــا ... مـــن للزّمـــان مســـتهلاً لوعـــوره؟
مَـــنْ كاشـــف للمعضـــلات برأيـــه ... مَـــنْ مشـــرقٌ في الـــدْاجيات بنـــوره؟
مَـــنْ للكـــريم، ومـــن لـــنعش عثـــاره ... مَـــنْ لليتـــيم، ومَـــنْ لجـــبر كســـيره؟[2]
مَـــنْ للـــبلاد، ومَـــنْ لنصـــر جيوشـــها ... مَـــنْ للجهـــاد، ومـــن لحفـــظ أمـــوره؟
مَـــنْ للفتـــوح محـــاولاً أبكارهـــا ... برواحـــــه في غـــــزوه، وبكـــــوره؟
مَـــنْ للعـــلا، وعهودهـــا مـــن للنّـــدى ... ووفـــوده مـــن للحجـــا ووفـــره؟[3]
مـــا كنـــت احســـب نـــور ديـــن محمْـــد ... يخبـــو، وليـــل الشِّـــرك في ديجـــوره؟
أعـــزز علـــيّ بليـــث غـــاب للهـــدى ... يخلـــو الثّـــرى مـــن زوره وزئيـــره[4]
أعـــــزز علـــــيّ بـــــأن أراه مغيّبـــــاً ... عـــن محفـــل متشـــرف بحضـــوره
لهفـــي علـــى تلـــك الأنامـــل إنهـــا ... مـــذ غيبـــت غـــاض النَّـــدى ببحـــوره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تجـــري رســـمه ... فضـــع العلامـــة منـــك في منشـــوره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تكشـــف كربـــه ... فـــارفع ظلامتـــه بنصـــر عشـــيره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تـــؤمن ســـربه ... وَقِّـــعْ لـــه بـــالأمن مـــن محـــذوره

---

1 الأخطار جمع الخطر: وَهُوَ القَدْر.

2 عثار الكريم: تعاسته وكبرته وسقوطه، ونعشه: إقامته، وإنهاضه.

3 الحجا : العقل.

4 الشرى: موضع تنسب إليه الأسود، والزور: الصدر.

والجيش قد ركب الغداة لعرضه فاركب لتبصره أوان عبوره

أنت الذي أحييت شرع محمّد وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد اقمت من الشريعة معلماً هو منذ غبت مُعَرَّضٌ لدثوره[1]

كم قد أمرت بحفر خندق مَعْقل حتّى سكنت الّلحدَ في محفوره

كم قيصر للروم رُمْتَ بقَسْره إرواء بيض الهند من تَامُوره[2]

أوتيت فتح حصونه وملكت عقـ ـر بلاده وسبيت اهل قصوره

أزهدت في دار الفناء واهلها ورغبت في الخلد المقيم وجوره؟

اَوَمَا وعدت القدس أنك منجز ميعاده في فتحه وظهوره؟

فمتى تجير القدس من دنس العدا وتقدّس الرّحمن في تطهيره؟

يا حاملين سريره مهلاً فمن عجب نهوضكم بحمل ثبيره![3]

يا عابرين بنعشه أنشقْتُمُ من صالح الأعمال نشر عبيره!؟

نزلت ملائكة السّماء لدفنه مستجمعين على شفير حفيره

ومن الجفاء له مقامي بعده هلا وفيت وسرت عند مسيره؟

حيّاك معتل الصبا بنسيمه وسقاك منهل الحيا بدوره

ولبست رضوان المهيمن ساحباً اذيال سندس خزه وحريره

وسكنت عليين في فردوسه حِلْفَ المَسَرَّةِ ظافراً بأجوره[4]

ولعماد الدين قصيدة لامية عجبت منها حين عرفت أنها قيلت في رثاء نور الدين، ولاسيما أنها على بحر الهزج الذي لا يناسب مثل هذه الموضوعات، وأخذت أقلب صفحات الخريدة حتّى وقفت على ما كتبه العماد في مقدمة لاميته حيث يقول: " كتبت عقيب وفاته إلى أصدقائي ببغداد أتشوّقهم، وأرثي نور الدين"[5].حينئذ التمست لهذا الشاعر والكاتب عذره، لان موضوع القصيدة في التشّوق لا الرثاء، ولكنه اقحم الرثاء إقحاماً

1 معلم: ما يستدل به على الطريق من أثرونحوه.

2 التامور: النفس وحياتها، أو الغشاء الذي يحيط بالقلب.

3 ثبيرة: ثبير جبل بين مكة ومنى ويرى من منى، وهو على يمين الداخل منها إلى مكة. وقد شبه المرثي به لثقله وعظمته. (معجم البلدان 73/2).

4 الروضتين 244/1-245. وعيون الروضتين 398/1-402. وديوان العماد، ص212-216.

5 الخريدة(بداية قسم شعراء الشام)، ص67.

بعدما نظم جزءاً كبيراً من قصيدته، و يهمنا في هذا المقام قراءة الأبيات التي تتعلق بالرثاء؛ لأن بين الموضوعين بوناً شاسعاً، يقول: (من الهزج)

لفقْـــــد الملـــــــك العـــــــاد ـــــل يَبْكـــــي المُلـــــكُ، وَالعَــــدْلُ
وقـــــد أظلمـــــــت الآفـــــا ق لا شـــــمسٌ، وَلَا ظـــــــلٌّ
ولَمّـــــا غـــــابَ نُـــــورُ الديـــــن عَنَّـــــا أَظْلَـــمَ الحَفْـــلُ
وزَال الخصْـــــبُ، وَالخَيْـــــرُ وَزَادَ الشَّـــــرُّ، وَالمحـــــلُ
وَمَـــــاتَ البَـــــأْسُ، والجُــــودُ وَعَــــاشَ اليَــــأْسُ، والبُخْــــلُ
وَعـــــزَّ الــــنَّقْصُ لمَّــــا هَــــا نَ أَهْـــلُ الفَضْـــل، وَالفَضْـــلُ
وَهَـــــلْ يَنْفُـــــقُ ذُو العلْـــــم إذَا مـــــا نَفَـــــقَ الجَهْـــــلُ؟[1]
وَإِنَّ الجِـــــدَّ لَا يُسْمـــــن حَتَّــــى يُمْـــــنَ الهَـــــزْلُ
وَمُـــــذْ فـــــارَقَ أَهْـــلَ الخَيْـــر مَاضُّـــمَّ لَـــهُ شَـــمْلُ
وَكَـــــادَ الــــدِّينُ يَـــــنحَطُّ وَكَـــــادَ الكُفْـــــر أَنْ يَعْلُـــــو[2]

ولما كان موضوع الرثاء موضوعاً إضافياً، أقحم على القصيدة، فإن التصنع واضح، والعاطفة ضعيفة، والبحر غير مناسب، وكأن العماد شعر بذلك فأراد أن يسوّغ ذلك الضعف، فقال:" ومنها اصف تضعضع حالي بعده، وأذكر لفقده عدم سروري وفقده" وأنشد يقول:

عَلَـــى قَلْبِـــي مِـــنَ الأَيَّـــا م في خفَّتهَـــــــا ثقْـــــــلُ
وَقَــــدْ حَـــطَّ عَلَـــى الكُـــرْه مِـــنَ الهَـــمُ بِـــه رَحْـــلُ
وَمَــــنْ صُـــلْتُ بِـــه في الدَّهْـــر أضْـــحَى، وَهُـــوَ لـــي صِـــلُّ[3]
تَـــــوَلَّى دُوني الـــــدُّونُ وَأَبْقَـــى العـــزَّ لـــي عَـــزلُ
وَأوْلـــى بِـــي مِـــنَ الخلْيَـــة مَـــا بَيْـــنَهُمُ العَطْـــلُ
وَمَـــــاذَا يَنْفَـــــعُ الأَعْيُـــنَ مِـــنْ بَعْـــد العَمـــى كُحْـــلُ[4]

---

1 ينفق: يروح، أي يكرُم.

2 الخريدة، ص 70. وديوان العماد، ص336-337.

3 الصلّ: الحيّة الخبيثة، أو الدقيقة الصفراء. وصلت: من صال يصول: أي وثبت به.

4 الخريدة(البداية)، ص 71. وديوان العماد، ص 337.

الذي يؤكد ما ذهبنا إليه أن العماد الكاتب قسّم عواطفه في قصيدته إلى ثلاثة أقسام: (التشوق، والرثاء والتهنئة)إذ هنأ بقصيدته هذه الملك الصالح بن نور الدين بتسلمه المُلك من بعد والده، ويقول العماد "ثم اردت أن أستدرك، وأداري الملك، فقلت" وأنشد بعض الأبيات[1]

ولا نعني بقولنا أن العماد لم يكن صادقاً في عواطفه؛ ولكنها كانت قد فترت، بدليل أنّنا لو قرأنا مطلعاً رائعاً لقصيدة أخرى له، ويرثي بها نور الدين، لوجدنا حرصه الشديد على بثّ حزنه العميق فيها، واستخدام الألفاظ الرثائية التي تدّل على الأسى والحسرة، وهذا- ما يسمّيه رجال البلاغة: (حسن الابتداء) أو (براعة الاستهلال)، ويقول فيه: (من الكامل)

الـدّينُ في ظُلَـمٍ لِغَيْبَـةِ نُـورِهِ　　وَالـدَّهْرُ في غُمَـمٍ لِفَقْـدِ أَمِيـرِهِ[2]

ويذكر العماد أنها تبلغ مئة وعشرة أبيات؛ ولكنه لا يورد سوى مطلعها الذي أثبتناه، ويعتذر عن ذلك بقوله:"وفي إيرادها تطويل، ومالي على الإطالة تعويل، وحيث عرفت حقّ إنعامه، قضيتُ قروضَه، وأَدَّيْتُ فروضه، بتخليد ذكره،وتجويد شكره، والتنبيه على قدره، والتنويه بأمره، فما أجزيه بغير الدّعاء، وإثباته في إحياء الأموات السعداء الأحياء، وما وجدت بعده من أصحابه إلّا من سعى في محو آثاره، وقابل معروفه بجحده وإنكاره، وتلاعبوا بملكه بعد هلكه، وتواثبوا على تركته بعد تركه، وكان قصده، رحمه الله، إعزاز الإسلام، واذلال الكفر، فعملوا بالضدِّ، وانفردَ كل واحد برأيه المستّبد... "[3]

وكانت أتمنى أن يطيل بقصيدته هذه؛ لأنها في نظري أفضل من قصيدته السابقة معانيها أعمق، وأسلوبها أرصن، وأقوى، وأجزل.

* * *

وقد استرعى انتباهي رثاء تاج الملوك الأيوبي (بوري) لأخيه الملك المعظم شمس الدولة(تورانشاه) بن أيوب بن شاذي الملقب فخر الدين (ت576 هـ)[4]،لأن هذا الرثاء

---

1 انظر الأبيات في المصدر نفسه.

2 المصدر السابق، ص 72.

3 المصدر السابق نفسه.

4 انظر ترجمته في: وفيات الأعيان 1/306-309. والروضتين 2/18-19. (كان أكبر من أخيه صلاح الدين، أرسله ليملك اليمن فملكها وأخضعها لأسرته، وكان أحد الأجواد الكرماء، وكان شجاعاً باسلاً عظيم الهيبة كبير النفس، واسع الصدر ممدّحا).

ليس كأيّ رثاء آخر، صحيح أنّه يدخل في بابه من حيث تعداد المناقب، والمآثر، والأعمال؛ لكنه يبقى رثاء الأخ لأخيه، ممّا يجعل العاطفة تتجلى فيه، والأحاسيس، والانفعالات تزيده حرارة وقوة، ولعل النماذج الشعرية التالية تثبت صدق ما ذهبنا إليه.

ويقول الشاعر تاج الملوك، في إحدى مراثيه: (من الكامل)

جَارَ الزّمان، وَقَلَّ فيه ناصري   فَمَن الْمجيرُ مِنَ الزَّمَان الجائر!

أبدًا أَغَضُّ مِنَ الزَّمَان بجوره   أَفَمَا لأَوَّل جُوره مِنْ آخر!

لو كان يشفي الدّمعُ غُلَّة واجد   لشفى غَليلي فَيْضُ دَمْعي الهَامر

هيهاتَ، لا يَرَدَالغليلُ، وقد ثوى   مَنْ كَانَ مِنْ عُدَدي، وخير ذَخَائِري!

يا للرِّجال لنكبة قد أَذهَبَت   جَلَدَ الجليد، وحُسْنَ صبر الصَّابر!

طَرَقَتْ فَتَى الملك المعظَّم فَانثنى   مِنْ بَعْد بَهْجَته، كَربع دَاثر

شمسٌ لدوْلتنا خَبَت أَنوارهُا   بعد الضِّيَاء، وكان نُورَ النَّاظر

جَبَلٌ هَوَى فارتَجَّت الدُّنْيَا لَهُ   فكأنَّما رَكِبَتْ جَنَاحَيْ طَائر

قَدْ كُوِّرَت شَمْسُ النَّهار لفقده   وخَبَا سَنَا القمر المُنير البَاهر[1]

مَنْ للعُفَاة تعمُّهُمْ من بعده   من راحتَيْه بكُلِّ جود غَامر![2]

مَنْ للنَّوائب يوم تفترسُ الورى   قَسْراً بأنياب لها وأظافر!

من للدَّوائر إذ تدور صُرُوفُها   في النّاس، والأيامُ ذاتُ دوائر!

مَلكٌ أزال الملكَ عنه حمَامُهُ   قَسْراً، وأسكنَهُ بحضرة قَابر

أضحى وحيداً في التّراب، كأنّه   ما سار بَيْنَ مواكب وَعَسَاكر

قد كانَ لا تعصي البريّةُ أَمْرَهُ   فانقاد مُمْتثلاً لأَمْر الآمر

مَولايَ، دَعْوَةُ وَالِه غَادرْتَهُ   وَقْفاً عَلى نُوَب الزَّمَان الغَادر!

هَلْ مِنْ سَبيل للزيارة بَعْدَها؟   هيهاتَ، حالَ الموتُ دونَ الزّائر!

لو كان خَصْمُكَ غيرَ حادثة الرَّدى   لرَدَدْتُهُ بذوابل، وَبَواتر![3]

أو كانَ يُدْرَك ثأرُ مَنْ أوْدى به   رَيْبُ المُنون لكنتُ أوّل ثائر

1 كُوِّرَتْ: ذهب ضَوْءُها

2 العفاة: طلاب المعروف.

3 ذوابل: جمع ذابل، وهو صفة للرمح، وبواتر: جمع باتر، وهو صفة للسيف القاطع.

لكنَّـهُ المـوتُ الـذي قهـرَ الـورى | مــن حيــث لا تُغنيــه قــدرةُ قَــادر
مَوْلايَ، هَـلْ لـي إنْ أفقْتُ مـنَ الأسـى | مـنْ بعـد فقـدك، في الـورى، مـن عـاذر؟
نَفَــر الكــرى عنّــي، فقلـتُ تعلُّــلاً | مَـــنْ لـــي بإبعـــاد الرُّقَـــاد النّـــافر؟
وإذا ذكرتُــك فــاض دمعــي حُرْقــةً | لــو كــان يُغنــي فـيضُ دَمْـع الـذَّاكر!
أقســمتُ: لــو أعطيْــتُ رُزْءَكَ حقَّــهُ | لغرقــتُ في بحــر الــدُّموع الزَّاخــر!
ولكنــتُ أَوَّلَ لاحــق بــك حســرةً | لـــولا التّســـلِّي بالمليـــك النّاصـــر
إنْ كــان ذاك الســيفُ فــلَّ، فَمَــا نَبَــا (م) | الحــدّان مــن هــذا الحُســام البَــاتر
أوْ كـان ذاك البحـرُ غـاض، فمـا رقـى | مــا فــاض مــن هــذا الغمــام المــاطر
أو كـان ذاك الـنجمُ غـاب، فمـا خبـت | أنـــوارُ ذا القمـــر المُنيـــر البـــاهر
فالنّـــاسُ كلُّهُـــمُ بطيـــب ثنائـــه | وبشـــكره مـــن نـــاظم أو نـــاثر
فهــو الــذي شَــملَ الأنَــامَ بعَدْلــه | مـــا بـــين بـــاد مـــنْهُمُ أَوْ حَاضـــر
وكـذلك سـيف الـدين عـاشَ مُسـلّماً | في ظـــلِّ مملكـــة وعـــزٍّ قـــاهر[1]
مـا زال يهـزمُ جيْشَ صَـرْف زمـانهم | بميـــامن مـــن رأيـــه وَمَياســـر
ملـكٌ لـه الأمـلاكُ سـعداً لـم تـزل | أبـداً تـدور علـى الـورى بـدوائر
مــا للكســير، إذا اســتغاثَ بجــوده | بــينَ البَريَّــة، غَيْــرُهُ مــن جَــابر
أفـديهما مَلِكَـيْنِ، لَـيْسَ بخـاطرٍ، | مـا عشـتُ، ذكـرُ سـواهما في خـاطري[2]

وأما المرثية الثانية فيقول فيها: (من البسيط)

لـولا الفقيـدُ الـذي أَوْهَـتْ رَزيَّتُـهُ | قُـوايَ مَـا ضَـاقَ بـي في الأَرْض مَـا اتَّسَعَا
ولا بكيــتُ دمــاً حُزْنــاً ولا أَسَــفاً | ولا تَقَطَّــعَ قلبـــي، والفـــؤادُ مَعَـــا
قــد أظلمــتْ بهجــةُ الــدّنيا لغيبَتــه | والـدَّهرُ قَـدْ عـادَ نـدْماناً لمـا صَـنَعَا
وَانشـقَّت الأرضُ، والسبعُ الشِّدادُ لَـهُ | وغـابَ مـن شمسـها، والبـدرُ مـا طَلَعَـا
حُزنـاً عليـه، وهـلْ يُغنـي عليـه أسـىً؟ | من غابَ تحتَ الثّرى هيهات ما رجَعَا!
أقـولُ لمّـا نعـى النَّـاعي إلـيَّ بـه | وليتَــه بممـــاتي قَبْـــل ذَاكَ نَعَـــى:
كيف انبعـاثُ صـروف الـدّهر في مَلَك | لـو مـارَسَ الـدّهرُ أَدْنَـى بأسـه جَزَعَـا!

---

1 يريد: أخاه أبا بكر محمد بن أيوب، الملقب بالملك العادل سيف الدين.

2 ديوان تاج الملوك الأيوبي، ص169-173.

فقال: لن ينفعَ الجيشُ اللّهامُ، ولا   حدُّ الحُسَام إذَا دَاعي الحمام دَعَا
عليك يا مالكي مني سلامُ فتىً   كأنَّه بِكَ قبلَ اليوم مَا اجْتَمَعَا
لو ينفعُ الحُزْنُ أَبْكَى مُقْلتَيْهِ دَماً   وإنَّمَا الحُزْنُ شيء قلَّ ما نَفَعَا[1]

وأما القصيدة الأخيرة لتاج الملوك الأيوبي، فهي في رثاء أخيه الملك المعظم، ومدح الملك الناصر صلاح الدين، وذكر عوده من الشام إلى مصر، ويقول فيها: (من الوافر)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ أحداثَ اللّيالي   أَيَحُنَ بجَوْرهنَّ حمى المَعَالي؟
وَمَا بيضُ السُّيُوف بمَانعَات   وَلا سُمْرُ المثقَّفَة الطِّوَال
وُجُرْدُ الخَيْل لَيْسَ بحائلات   وهلْ عندَ المنَّية من مَحَال؟[2]
وردُ الموت يُعيي كلَّ حيٍّ   فما يُثنيه حيلةُ ذي احْتيال
أَلَسْنَا القومَ نقتلُ كلَّ خَصْم   وتقتُلُنا المنونُ بلا قتَال؟!
وليس بدافع للموت أَنَّا   نُعدُّ المَشْرَفيَّةَ وَالعَوَالي
على الملك المعظَّم ما استهلَّتْ   دموعُ الغيث مُنْحلَّ العزَالي[3]
سلامٌ مثلُ ما أبقى ثناءٌ   كنشْر الرَّوْض في ريح الشَّمَال
على ملك توارثه أناسٌ   سوَى مَا فيه منْ كَرم الجمَال
تجدَّدَ مجدُهُ في كلِّ حين   وإن أمسى، وأصبحَ وهو بَالي
سقاهُ من الغَوادي كلُّ غادٍ   يُحاكي كَفَّهُ عندَ النَّوَال
لعَمْرُ أبي لقد جلَّتْ خطوبٌ   نَزَلْنَ بساحَتي ذَاكَ الجَلال
وما أيقنتُ أنَّ الشَّمْسَ تدنو   فتُحْملُ فوقَ أكتاف الرِّجَال
ولا أنَّ الجبالَ تُضامُ حتَّى   ثوى تحت الثَّرى جبلُ الجبَال
أرى الأيام غالَتْ لَيْثَ غَيْل   له بطشٌ شديدُ الاغتيال
خليلَيَّ ابْسُطَا في الحزن عذري   ولا تتعمَّدَا عَنْهُ انْتقَالي
فلو أنّي وجدتُ له نظيرًا   لخفَّ على رزيّته احتمالي!
ولكنْ أَوْجعُ النَّكبات عندي   فقيدٌ غيرُ موجود المثَال

---

1 ديوان تاج الملوك الأيوبي ، ص181-182

2 المحال بفتح الميم: الحذق، وجودة النظر، والقدرة على التصرف، والحيلة.

3 العزالي: جمع عزلاء: وهي مصب الماء من الرّواية ونحوها.

يعــزُّ علــى المعــالي أنْ يقولــوا: ... ســكنتَ التُّــرْبَ يـا شـمسَ المَعَـالي!
وَسُـمْرُ الخَـطِّ غيـرُ مُخضَّـبَات الصّـ ... ـــدُور، وَلا مُحَطَّمَـــة الأعـــالي
ولا نَهَلَـــتْ ســـيوفُك في رقـــاب ... ولا أمـــتلأتْ صـــدورٌ مـــنْ نبـــال
يعــزّ علــى الــرّدى لـو كـان قرْنـاً ... يـــرومُ لقـــاك في يـــوم النِّـــزَال
قَضَـيْتَ، فهـل سـواك جليـلُ قَـدْر ... يـــردُّ تَـــوارُدَ الخَطْـــب الجُـــلال!
ويبـــذلُ رُوحَـــهُ في كـــلِّ حـــرب ... ويبـــذلُ مالَـــه يـــومَ النَّـــوَال!
كمالُـــك كَـــانَ عُنـــوانَ المَنَايَـــا ... كَـــذَا الأَقْمَـــارُ تُكْسَـــفُ في الكَمَـــال
وإن يـكُ زَالَ عَنْـكَ الملـكُ يومـاً ... فمـــا لجميـــلِ ذكـــركَ مـــنْ زَوَال
أمـــن بعـــد القصـــور، وســـاكنيها ... رَضـــيتَ جـــوارَ سُـــكَّان الرِّمَـــال!
وممّـــا خَفَّـــفَ الحَسَـــرات علْمـــي ... علـــى إثْـــر ارتحالـــك، بارتحَـــالي
رحلْـــتَ، ومـــا مَلَلْـــتَ جـــوارَ دُنيـــا ... وهـــلْ دُنيـــا تُفـــارَقُ مـــن مَـــلال!
وكـــلٌّ يعشـــقُ الـــدّنيا، ولكـــنْ ... يـــذوقُ فراقَهـــا قبـــلَ الوصَـــال
كـــأنَّ حياتَنـــا فيهـــا مَنَـــامٌ ... وطيـــبَ العـــيْش فيهَـــا كَالخَيـــال
ســـقاكَ اللهُ مـــنْ مَلـــك تَـــوَلَّى ... جميـــلَ الـــذِّكْر، محمـــودَ الخـــلال
مضــى مــن حيــثُ لاعَــوْداً، فــأبقى ... بقلبـــــي جـــــذوةً ذاتَ اشْـــــتعَال
فلـــولا أنْ يُســـلّي الـــنَّفْسَ عَنْـــه ... صـــلاحُ الـــدّين مُـــتُّ، ولســـتُ ســـالي
ســـأغفر للّيـــالي مـــا أســـاءت ... وإن ســـات إلـــيَّ بـــه اللّيـــالي
لـــئن أفْقَـــدْنَنَي مَلكـــاً كَريمـــاً ... لقـــد أبْقَـــيْن لـــي خَيْـــرَ المَـــوَالي
مليكـــاً كفُّـــهُ في كـــلّ حـــين ... ســـحابةُ وابـــل ذاتُ انهمـــال
فكـــم مـــن مُشْكـــل أَعْيَـــا مُلوكـــاً ... فكـــانَ بـــه ســـريعَ الانْحـــلال
بعَـــوْدكَ عَـــادَ في مصـــر مِـــزاجُ الـــ ... ـــحياة إلـــى نظـــام الإعْتـــدَال
وقبلـــك كـــم مـــررْتُ بســـاحتيْها ... مـــرورَ الصَّـــبِّ بالـــدِّمَن البَـــوالي
بكـــى أَسَـــفاً عليـــكَ السَّـــامُ لمـــا ... تحقّـــق منـــكَ يـــومَ الإرْتحَـــال
تـــولّى الخيـــرُ عَنْـــهُ، وأيُّ خَيْـــرٍ ... يُرَجَّـــى مِـــن مَكَـــانٍ مِنْـــكَ خَـــالِ![1]

1 ديوان تاج الملوك الأيوبي. ص 204- 207.

وبعد أن انتهيت من عرض بعض النماذج الشعرية في رثاء بعض الملوك، أجد لزاماً عليّ أن أتناول شخصية صلاح الدّين الأيوبي (ت 589 هـ) التالية لشخصية أخيه الملك المعظم؛ التي كنت أعتقد أنها ستحظى باهتمام الشعراء أكثر مما حظيت به كلّ الشخصيات في هذا العصر، ولا سيّما إذا ما تعرفنا على بعض مناقبه ومكانته السياسية والاجتماعية والثقافية... ولكن خاب الظّنّ، وكان الأمر عكس ذلك تماماً.

ولم تذكر المصادر التاريخيه عن أيّ من السلاطين ملك ما ملكه صلاح الدين؛ لأنه بعد أنْ ألحق هزائمه (سنة 583 هـ) بالفرنج موقعة حطّين، بدأ يقتلع منهم الحصون والمدن حتّى افتتح بيت المقدس، واخلى ما بين الشام ومصر من الفرنج[1]. وكانت مملكته من الغرب الى تخوم العراق، ومعها اليمن والحجاز، فملك ديار مصر بأسرها، مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها، مع حلب وما والاها وأكثر ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره، واليمن بأسره[2]، وتجمع المصادر التاريخية والأدبية على إن صلاح الدين نشر العدل في الرعيّة، وحكم بالقسط بين البشريّة، مع الدين المتين والورع والزهد والعلم، وكان يحفظ القرآن، والحماسة، وقيل فيه لما كان في القدس: إنه كان ملكاً عظيماً يملأ القلوب روعة، والعيون محبّة، قريباً بعيداً، سهلاً محبّباً، وأصحابه يتشبّهون به، يتسابقون إلى المعروف[3]، ويقول السيوطي نقلاً عن السبكي:

وكان رقيق القلب جداً، ورحل إلى الأسكندرية بولديه الافضل والعزيز لسماع الحديث من السّلفيّ، ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين، والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ[4].

وكان صلاح الدين متواضعاً، يحب العلم والعلماء، ويجمع في مجلسه الفضلاء والنبلاء والفقراء، وكان يعيب الملوك المتكبرين، ويروى عنه أنه لم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع[5]. وأمّا كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه

1 انظر الحصون والمدن التي فتحها واخلاها من الفرنج في: النوادر السلطانية، ص 248. وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي 7/ 345-347. وحسن المحاضرة (2 /17- 18).

2 انظر:طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 347/7.

3 انظر:طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 347/7.

4 انظر: حسن المحاضرة 19/2.

5 تاريخ ابن الأثير 97/12.

أنه لما مات لم يخلّف في خزائنه غير دينار واحد، وأربعين درهماً ناصرية، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعةً ولا شيئاً من أنواع الأملاك[1].

وأما السيوطي فيقول: استمر السلطان صلاح الدين على طريقته العظيمة، ومن مثابرة الجهاد للكفار، ونشر العدل، وإبطال المكوس والظالم، واجراء البرّ والمعروف الى أن أصيب بها المسلمون[2]، وجملة القول: إنه كان فرد زمانه، وفارس عصره، كريماً، عادلاً، كثير المحاسن والأفعال الحسنة، حقّق للمسلمين ما لم يحقّقه غيره.

وبعد هذا العرض الموجز عن حياته اعتقدنا أن المصادر الأدبية مليئة بمراثي الشعراء، وكانت خيبة الأمل كبيرة حين وجدنا أن المراثي لا تعدو عدد أصابع اليد الواحدة؛ ولذا سندوّن هذه المراثي في بحثنا هذا.

وممّا قيل في وفاة صلاح الدين: "أفلت الشمس عند الصّباح، وذهبت روح الدّنيا التي ذهب بذهابها كثير من الأرواح، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حائرة، وتمثلت فيها السماء ماثرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أنْ تميد، وأصبح الإسلام، وقد فقد ناصره ثاكلاً لوحيد، فهو اعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صمّ عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر[3].

وللعماد الأصفهاني قصيدة طويلة رثى فيها صلاح الدّين الأيوبي، وعددها في ديوانه مائتان، واثنان وثلاثون بيتاً، ويقول فيها: (من الكامل)

شَمْلُ الهُدى، والمُلْكَ عَمَّ شَتَاتُهُ ... وَالدّهرُ ساءَ، وأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ

أين الذي مُذْ لم يزل مخشيّةً ... مرجوّةً رهباتُهُ وهباتُهُ؟

أين الذي كانت له طاعاتُنا ... مبذولةً، ولربِّه طاعاتُهُ؟

بالله أينَ الناصرُ الملكُ الذي ... لله خالصةً صفت نيّاتُهُ؟

أين الذي ما زالَ سلطاناً لنا ... يُرجَى نَداهُ، وتُتَّقَى سَطَوَاتُهُ؟

أين الذي شَرُفَ الزَّمانُ بفضله ... وسمتْ على الفضَلَاء تشريفاتُهُ؟

1 المصدر السابق 96/12. وحسن المحاضرة21/2.

2 حسن المحاضرة 20/2.

3 الروضتين 215/2.

أين الذي عَنَت الفرَنْجُ لبأْسِه ... ذُلّاً، ومنها ادركتْ ثاراتُهُ؟

أغلالُ أعناق العدا أسيافُهُ ... أطواقُ أجياد الوَرَى منّاتُهُ

لم يُجْد تدبير الطَّبيب وكم وكم ... أجدت لطبّ الدّهر تدبيراتُهُ

مَنْ في صدور الكفر صَدْرُ قَنَاته ... حتّى توارثَ بالصيِّاح قَنَاتُهُ

لذَّ المتاعبَ في الجهاد، ولم تكن ... مذ عاشَ قطُّ لذَاتُهُ

مسعودةٌ غدواتُه، محمودة ... روحانُه، ميمونة ضحواتُهُ

في نصرة الإسلام يَسْهَرُ دائماً ... ليطولَ في رَوْض الجَنان سناتُهُ

لا تحسبوهُ ماتَ شخصاً واحداً ... قد عَمَّ كلَّ العالمين مماتُهُ[1]

مَلكٌ عن الإسلام كانَ محامياً ... أبدًا إذا ما أسلمتْهُ حُماتُهُ

قد أظلمتْ مذ غاب عَنّا دُوُرهُ ... لمَّا خلتْ منْ بَدْره دَاراتُهُ

دُفن السَّماحُ فليس تُنْشَرُ بعدما ... أوْدَى إلى يوم النشور رُفَاتُهُ

الدّين بعد أبي المظَفَّر يُوسُف ... أقوتْ قُراه، وأقفرتْ ساحَاتُهُ[2]

جبلٌ تَضَعْضَعَ من تَضَعْضُع ركنه ... أركاننا وتهدُّنا هدّاتُهُ

ما كنت أعلم أنّ طَوْداً شامخاً ... يهوي، ولا تهوي بنا مهواتُهُ

ما كنت أعلم أنَّ بحراً طامياً ... فيما يُطَمُّ، و تنتهي زخراتُهُ

بحرٌ خلا من وارديه، ولم تزل ... محفوفةً بوفوده حافاتُهُ

مَنْ لليتامى والأرامل راحمٌ ... متعطفٌ مفضوضةٌ صدقاتُهُ

لو كان في عصر النبي لأُنْزلَتْ ... في ذكره من ذكره آياتُهُ!

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوان ربّ العرشِ بل صلواتُه

لضريحه سُقيَا السحاب فإنْ بغبْ ... تُحْضَرُ لرحمة ربِّه سقياتُه

وكعادة البيت المقدَّس يحزنُ الـ ... ـبيتُ الحرامُ عليه، بلْ عرَفَاتُهُ

من للثغور وقد عَداها حفظُهُ ... مَنْ للجهاد، ولم تَعُدْ عاداتُهُ؟

بكت الصّوارمُ والصّواهل إذ خلت ... من سَلّها وركوبها غزواتُهُ

وبسيفه صدأ لحزن مصابه ... إذ ليس تَشْفى بعده صدياته

---

1 في الديوان :"مات شخصٌ واحدٌ" على أنه فاعل، والذي اثبتناه على أنه حال.

2 أقوت : خلت وأقفرت.

يـــا وحشـــتا للبـــيض في أغمادهـــا — لا تنتضـــــيها للـــــوغى عزماتـــــه!
يـــا وحشـــة الإســـلام يـــوم تمكنـــت — في قلـــب كـــل مـــؤمن روعاتـــه!
يـــا حســـرتا مـــن يـــأس راجيـــة الـــذي — يُقْضـى الزمـان، ومـا انقضـت حسـراته!
مَـــلأَتْ مهابتُـــه الـــبلادَ فإِنَّـــه — أســـــدٌ، وإن بـــــلادَهُ غاباتُـــــهُ
مـا كـان أسـرع عصـره لمـا انقضـى — فكأنمـــــا ســـــنواتُه ســـــاعاتُه
لـم أنـس يـوم السـبت، وهـو لمـا بـه — يبـدي السُّـباتَ، وقـد بـدت غشـياته
والبشـــر منـــه تبلجـــت أنـــواره — والوجـــه منـــه تـــلألأت ســـبحاته
ويقـــول لله المهـــيمن حكمـــة — في مرضـــة حصـــلت بهـــا مرضـــاته
وقـف الملـوك علـى انتظـار ركوبـه — لهـــمُ ففـــيم تـــأخرت ركباتـــه؟
كـــانوا وقوفـــاً أمـــس تحـــت ركابـــه — واليـــوم، هـــم حـــول الســـرير مشـــاته
وممالـــك الآفـــاق ســـاعيةٌ لـــه — فمتـــى تجـــيء بفـــتحهنّ ســـعاته؟
هـــذي مناشـــير الممالـــك تقتضـــي — توقيعـــه فيهـــا فـــأين دواتـــه؟
قـد كـان وعـدك في الربيـع بجمعهـا — هـــذا الربيـــع، وقـــد دنـــا ميقاتـــه
والجنـد في الـدّيوان جـدَّد عرضـه — وإذا أمـــرت تجـــددت نفقاتـــه
والقـــدْسُ طامحـــةٌ إليـــك عُيونُـــه — عَجِّـــلْ فقـــد طمحـــتُ إليـــه عداتُـــهُ
والغـــربُ منتظـــر طُلوعَـــك نَحْـــوَهُ — حتـــى تفـــيء إلـــى هُـــداك بغاتُـــهُ
والشـرق يرجـو غـربَ عزمـك ماضـياً — في ملكـــه حتّـــى تطبـــعَ عصـــاته
مغـــريّ بإســـداء الجميـــل كأنمـــا — فرضـــت عليـــه كالصّـــلاة صـــلاته
هـــل للملـــوك مضـــاؤه في موقـــف — شـــدّت علـــى أعدائـــه شـــدّاتُهُ؟
وإذا الملـوك سـعوا، وقصّـر سـعيُهمْ — رَجَحَـتْ، وقـد نَجَحَـتْ بـه مَسْـعَاتُهُ
كـــم جـــاءه التوفيـــق في وقعاتـــه — مـــن كـــان بـــالتوفيق توقعاتـــه؟[1]

والدارس لهذه القصيدة يلاحظ أن الشاعر صادق بعواطفه وأحاسيسه، وقد وفق أيّما توفيق في أسلوبه، ومعانيه، وعرضه، وقافيته، ووزنه، وبحره، فقد استخدم الصفات

1 الروضتين 2/ 215 - 216. وديوان العماد، ص 86-91. النجوم الزاهرة 6 /60. وحسن المحاضرات 2/ 21. وبدائع الزهور 1/ 248. والبداية والنهاية 4/3-13. وانظربقية القصيدة في ديوانه، ص 91-92.

الحميدة الدينية منها والدنيوية، ولم يبالغ في خلع أيَّ صفة من صفاته، وقد ذكر بعض سيرته حتّى نقف على حقيقة هذه الأوصاف، والمناقب الحميدة، والأعمال الجليلة.

ويرثي العماد صلاح الدّين بقصيدة أخرى، ويقول فيها: (من الكامل)

مَنْ للعلا؟ مَنْ للذّرى؟ مَنْ للهُدى ... يحميه؟ مَنْ للبأس؟ من للنائل؟
طلبَ البقاءَ لمُلْكه في آجل ... إذ لم يثقْ ببقاء مُلْك العاجل
بحرٌ أعادَ البَرَّ بحراً برّهُ ... وبسيفه فُتحَت بلادُ السَّاحل
مَنْ كانَ أهلُ الحَقِّ في أيّامه ... ويعزِّه يَردونُ أهل البَاطل
وفتوحُه للقُدْس من أبكارها ... أبقتْ له فضلاً بغير مُسَاجل
ما كنتُ أستسقي بغيرك وابلاً ... ورأيت جودك مُخجلاً للْوَابل
فسقاكَ رضوانُ الإله لأنني ... لا أرتضي سُقيا الغمامِ الهَاطل[1]

ومما وقع بين أيدينا أيضاً من مراثي صلاح الدّين جزء من قصيدة للشاعر المصري جعفر بن شمس الخلافة، ويقول فيها: (من الطويل)

ألستَ ترى كَيفَ انبرى الخطبُ ثائراً ... ومدّ يداً منه إلى دافع الخَطْب
إلى الناصر الملك الذي ملئت به ... قلوب البرايا من رجاء، ومن رُعْب
كريم أتاه الموت ضيفاً لم يكن ... لينزلَهُ إلّا على السَّهل، والرّحب
ولو خابَ منه قبلَ ذلك سائلٌ ... لخابَ وَلَيسَ البخل منْ شيم السّحب
قضى فقضى المعروف، وانقرض النَّدى ... وحطت رحال الوفد في الشرّق، والغَرب
أفاضَ على الدُّنيا سجال نواله ... ففاضت عليه أعين العجم، والعُرب
ولو أنه يُبكَى على قدر حقّه ... أسالَ دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الإسلام خيراً إلهُهُ ... فما ملّ عنه من دفاع، ومن ذَبّ
تداركه بعد ابتذال فقد غَدَا ... وكانَ شديد لخوف من امنع الحجْب
واصبح للبيت المقدّس مُنْقِذَاً ... بأصلب عَزْم في مقارنة الصلب
أذلَّ لهُ الله العِدَا مُذْ أَطَاعَهُ ... وسهَّل منهمُ كَلَّ ممتنع صَعْب
سقى الخلد عند الله دار مقرّه ... يمتّع منه بالحوار وبالقرْبِ[2]

1 الروضتين 217/2. وديوان العماد الاصفهاني، ص340. والبداية والنهاية 13/4.

2 الروضتين 224/2.

هذا ما وقع تحت نظرنا من قصائد رثائية نظمت في صلاح الدين، ونعتقد أنها غير كافية ولم توفه حقّه، ومع ذلك فهي غيض من فيض، تنم على جودة القصائد التي قيلت فيه، والتي ضاعت مع مرور الزمن عليها، وقدم العهد بها، وأمور أخرى اسلفنا الحديث عنها.

* * *

ولا شكّ أن لكل ملك شعراء، يمجدون في حياته، و يعودونه في مرضه، سائلين له الشفاء، ويؤبنونه بعد وفاته، وفي الحالات جميعاً يعدّدون محاسن الفقيد، ويبالغون في ذكر مناقبه، وخلع الصفات الحميدة عليه، فهذا الصاحب شرف الدين الأنصاري يرثي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بألفاظ تفيض حزناً وأسى، وهو يعتب على الزمان الذي أودى بهذا الملك الشجاع عتاباً شديداً؛ لأنه أودى بالملك السمح المعطاء، والفصيح المقوه، وهو- أي الزمن- أول من فُجع بمن فَجَع، وخسر من أهلك. ولكن الشاعر يعزّي نفسه، مخاطباً إياها بعدم البكاء؛ لأن الملك عيسى حيّ بالقياس بسميه عيسى النبي عليه السّلام، والحياة التي يتحدث عنها الشاعر هي بقاء ذكر الملك في قلوب الناس لكرمه وعدله وجهاده ونسكه وورعه، ولم تكن المقارنة قائمة على المفاضلة أو المشابهة، وإن شئت فقل: "المقارنه الدُّونية"؛ لأنه ورد في الذكر الحكيم إشارة إلى قضية عيسى عليه السلام، يقول الشاعر: (من البسيط)

انْظر إلى حَدَثَان الدَّهْر، مَا صَنَعَا؟ ... فأَيَّ رُزْء لأكباد العُلَا صَدَعَا؟[1]

سَمَتْ إلى مَلك الأَمْلَاك صَوْلَتُهُ ... فَفَرَّقَتْ مِنْ أُمور النّاس مَا جَمعَا

ويحَ الزَّمان! لقدْ نَابَت نَوَائبُهُ ... بصَيْلَم أَكَلَتْ لَحْمَ الوَرى مِزَعَا[2]

أوْدَى بأَسْمَح مَنْ أَجْدَى، وَأَفْصَح مَنْ ... قَالَ الصَّوابَ، وَأَوْعَى مَنْ لَهُ سَمعَا

وَغَالَ مَنْ غَالَهُ فقدَانُهُ فرَقَاً ... إِنَّ الزَّمانَ لمفجُوعٌ بمَنْ فَجَعَا

لا تَبْكِهِ، فهو حيٌّ بالقِيَاسِ عَلى ... سَميِّه، وَابْكِ فِيهِ النُّسْكَ وَالورَعَا[3]

وممّا يلفت الانتباه في ديوان ابن عنين قصيدة في رثاء الملك المعظم عيسى بن الملك العادل(ت624 هـ) كان فيها صادق العاطفة، شديد الحزن واللوعة عليه، وما يخالها

1 حدثان الدهر:نوبة وما يحدث منه.

2 الصيلم :الداهية؛ لأنها تصطلم. والمزع : جمع مزعة بالضم والكسر القطعة من اللحم أو النتفة منه.

3 ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري، ص 309، وسميه :الملقب باسمه عيسى النبي عليه السلام، أي هو حيّ مثله.

القارئ إلّا قصيدة مدح لا رثاء، اللهم إلا مقدمة القصيدة التي تفيض بمعاني الحسرة على الفقيد، ويقول فيها: (من الكامل)

يـا دهـرُ، ويحـكَ مَـا عَـدَا ممّـا بَـدَا ... أرسـلتَ سـهمَ المحادثـات فأقصـدا[1]

أَغْمــدتَ ســيفاً مرهفــاً شَــفَرَاتُه ... قَــدْ كــانَ في ذات الإلـــه مُجــرَّدَا

فافعــلْ بجَهــدكَ مَــا تَشَــاءُ فــإنَّني ... بَعْــدَ المعظَّــم لَا أُبــالي بــالرَّدى

مــا خلْتُــه يفنــى وأَبْقــى بَعــدَهُ ... يــا بُــؤْسَ عَيْشــي مــا امــرَّ وأَنْكَــدَا!

لَهْفــي عَلــى بَــدْر تَغَيَّــبَ في ثَــرى ... رمــس وبحــر في ضــريح أُلْحــدَا[2]

أبقيــتَ لــي يــا دهــرُ بعــد فرَاقــه ... كبـــداً مقرَّحـــةً وجفنـــاً أرْمَـــدَا!

وجــوىً يــوجِّج بــينَ أَثْنَــاء الحشــا ... نـــاراً تزايـــدُ بالـــدموعِ توَقُّـــدَا[3]

وبعد هذه المقدمة التي جمع فيها كل معاني الرثاء من بكاء، ويأس بعد موت الملك، وأكباد مقرحة، وأجفان أصابها الرمد من البكاء والعويل، ونكد العيش، وكأن الحياة أصبحت مستحيلة من بعد فقدان قائد المسيرة، وحامي حمى الإسلام - أخذ يفيق من مصيبته هذه، ويعود إلى واقعه، ويعزّي نفسه وذوي المصاب بالحكم التي تخفّف من شدّة الحزن واللوعة على الفقيد يقول:

لــو كــانَ خَلَــقٌ بالمَكَــارم وَالتَّقَــى ... يَبْقَــى لكَــانَ مَــدَى الزَّمــان مُخَلَّــدَا

أو كــانَ شَــقُّ الجيــب يُنقــذُ مــنْ ردى ... شَــقَّتْ عَلَيــك بَنُــو أَبيــكَ الأكْبَــدا

أو كان يُغني عَنْكَ دفعٌ بالقَنَا الخَطيِّ ... غَـــادَرَت الوشـــيجَ مُقَصَّـــدَا

ولقــد تمنَّــتْ أنْ تكــونَ فــوارسٌ ... مــنْ آلِ أَيُّــوبَ الكــرامِ لــكَ الفِــدا[4]

ثم يأخذ الشاعر بعد ذلك طابع المبالغة في صفات المرثي، وتعداد مناقبه، ويقول:

كــم ليلــة قــد بِــتَّ فيهــا لا تــرى ... إلَّا ظهـــورَ الأعوجيَّـــة مرقـــدَا[5]

تحمــي حمــى الإســلام منتصــراً لَــهُ ... بعـــزائم تســـتقربُ المســـتبعدَا

ولـــرُبَّ ملهـــوف دعـــاءُ لحـــادث ... جَلّــل فكــانَ جوابُــه قَبْــل الصَّــدى

---

1 أقصد: أصاب مقتلاً.

2 ألحد : دفن وقبر.

3 ديوان ابن عنين، ص59

4 المصدر السابق، ص60

5 الأعوجية : الخيل المنسوبة إلى (أعوج) وهو فارسٌ سابقٌ مشهور.

ولطالمــا شــيمت بــوارقٌ كَفِّــه   فَهَمَــتْ ســحائبُها علينــا عَسْــجدا[1]

ثم يبدا الشاعر بتناول بطولات الملك، وإظهار شجاعته فروسيته في حروبه ومعاركه، فهذه معركة حسمها الشاعر لصالح الملك، وينهج في أسلوبه هذا نهج عنترة في معاركه، ويقول :

كــم مــورد ضــنك وردتَ وطعمُــهُ   مــرٌّ وقــدْ عــافَ الكُمــاة المَــوردَا
وعزيــز قــوم متْــرف ســربلتَهُ   ذُلّا وكــانَ الطَّــاغي المتَمــرِّدَا
اركبتَــه حَلقــات أدهــمَ قصَّــرتْ   منــه الخُطَــا مــنْ بعــد أشــقرَ أَجْــرَدَا
لــولا دفاعُــكُ بالصَّــوارمِ والقَنَــا   عــن حَــوْزَةِ الإســلامِ عَــادَ كَمَــا بَــدَا[2]

وينتقل إلى تسجيل موقف آخر حسمه أيضاً لصالحه، ولو حاول القارئ أن يقرأ هذه الأبيات بمعزل عن القصيدة لما لاحظ أنها قيلت في الرثاء، وكأنها في مدح قائد حقَّق نصراً مؤزراً، فأخذ الشعراء يتغنون بهذا النصر، ولنقرأ أبيات ابن عنين، ويقول:

وديــارُ مصــر لــو وَنَــت عزماتُــهُ   عــن نصــرها لتمكنــت فيهــا العــدَا[3]
والأمســت البــيضُ الحرائــرُ أسْــهُماً   فيهــا ســبايَا، والمَــوالي أَعْبُــدَا
ولأصــبحتْ خيــلُ الفَــرَنجِ مُغيــرةٌ   تجنــابُ مــا بــينَ "البقيــعِ"إلــى "كَــدَا"[4]

وهذا موقف آخر، يسجله الشاعر عن ثغر "دمياط":

وبثغــر دميــاط فكــم مــن بيعــة   عُبِــدَ الصَّــليبُ بهَــا وَكانــتْ مَسْــجدَا
انقــذتَها مــن خُطَّــة الخَسْــف التــي   كانــت أَحلَّتهــا الحضــيضَ الأوْهَــدا
أجليــتَ ليــلَ الكُفْــرِ عَنْهــا فَــانطوى   وأَنَــرْتَ في عَرَصَــاتِهَا فَجْــرَ الهُــدى[5]

ويحاول الشاعر أنْ يجعل قصيدته هذه سجلاً خالداً لبطولات الملك المعظم عيسى، فقدت استقصى – تقريبا- كلَّ المعارك التي خاضها الملك، وآخرها في قيساريَّة بفلسطين، ويقول:

---

1 ديوان ابن عنين، وشيمت بوارق: نُظِرَ إليها يتحقق ابن يكون الخبر منها والعسجد: الذهب، والجوهر كالدُّر والياقوت.

2 المصدر السابق، ص 60-61

3 ونت : ضعفت

4 المصدر السابق، ص 61. والبقيع: مقبرة المدينة وكداه: موقع باسفل مكة. (معجم البلدان 473/1 و 439/4)

5 المصدر السابق نفسه.

ولَقــد شَــهدتُكَ يــومَ قيســاريَّة | وَالشــمسُ قــدْ نســجَ القَتَــام لَهَــا ردَا
والكفــرُ معتصــمٌ نســور مشــرف الــ | أبــراج أُحكــمَ بالصــفيح، وشُــيِّدَا
فجعلــتَ عالِيَهــا مكــانَ أَسَاسَــها | وأَلَنْــتَ للأخشــابِ فِيهَــا الجَلْمَــدا[1]

وقد أجاد أبو الغارات طلائع بن رُزيّك الوزير المصري رثاء أحد أبطاله الذين أرسلهم إلى غزو الفرنج بغزة وعسقلان، وقلمّا نجد سلطاناً يرثي أحد قواده، ويعترف باستبساله وشجاعته، وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدلّ على صفاء سريرته، ونقاء نيته، وصدق رغبته، وقوة إيمانه، وعقيدته، وتصميمه على القتال والاستبسال، ضارباً بذلك أروع مثال على التضحية والفداء، ويقول: (من الطويل)

مَضَى طاهرَ الأَثْـوَاب مِـنْ كـلّ ريبـة | شـهيداً، كمـا تمضـي السَّـراةُ الأكَـارمُ[2]
هنيئـاً لـهُ يُسـقى الرَّحيـقَ إذا غَـدَتْ | تُحيّيـه في الخُلـد الحسَـانُ النَّـواعمُ[3]
ولـو أَنَّنـا نَبْكـي علـى فَقْـد هَالـك | لقلَّــتْ لــه منَّــا الــدُّموعُ السَّــواجمُ
ولكنّــا بعْنَــا الإلـــهَ نُفُوسَـــنَا | وَرُحْنَــا، ومَــا منَّــا عَلَــى البَيْــع نَــادمُ
تهُــونُ عَلَيْنَــا أَنْ تُصــابَ نُفُوسُــنا | إذا لــمْ تُصِــبنَا فِــي الحَيــاةِ المَــآثمُ[4]

وبعد هذه الجولة مع موضوع رثاء الأبطال، لابدّ ان نسجل بعض ملاحظاتنا وانطباعاتنا عن هذا الموضوع، فنقول:

1) إن القصائد الرثائية التي وصلت إلينا قليلة جداً، ولا تنهض بمستوى ما قدمه قادة المسلمين من تضحيات، وما حققوه من انتصارات

2) لم تكن القصائد تلح على الحزن والألم بقدر ما تلح على إطفاء صورة القداسة على الفقيد، ذلك أنَّ المصادر تُجمع على صحة ما يذهب إليه الشاعر من خلع، والصفات الدينية، والدنيوية على المرثي.

3) يحسب القارئ وهو يتصفح هذه القصائد، أنها في المدح لا الرّثاء؛ لأنّ تعداد مناقب الفقيد صادرة عن قناعة وحقيقة لا مراء فيها ولا رياء.

1 ديوان ابن عنين 439/3.

2 السراة: السادة

3 الرحيق: الخمرة، أو طيبها.

4 ديوان طلائع بن رزيك، ص 95. وانظر: ديوان أسامة بن منقذ، ص 267.

4) إنَّ شيوع المعاني الدينية واضح جلي، ذلكّ أنَّ القائد يحكم البلاد بكتاب الله وسنته، ويقيم العدل، ويجاهد في سبيل الله حقّ جهاده، كما أنَّ القائد -حينذاك -حرص على إحياء الحياة الاسلامية، وإعادة الأحكام الشرعية والتشريعية التي تقوم على أسس ربّانية سليمة، وقاعدة دينية قوية متينة قوامها الكتاب والسنة.

5) إنَّ صدق العاطفة، أي: قوة عنصر الانفعال، والذي يُعدُّ من أهم العناصر الشعرية، يبدو صافياً نقياً؛ لأنَّ الشعر منطلق من إحساس صادق، وإعجاب بقائد إسلامي، غير صادر عن رغبة في التكسب، أو في الحصول على العطايا، وهذا ينسحب على الشعراء جميعهم، ولاسيّما تاج الملوك الأيوبي في مراثيه لإخوته.

6) وإذا كان الأمر كذلك، فإن فَقْدَ قائد من القادة في هذا العصر- ولاسيّما الذين عُرفوا بتقواهم وجهادهم- يعدّ خسارة كبيرة لا تعدلها أي خسارة، ذلك أنَّ الفقيد هو الذي يحمي حمى الإسلام والمسلمين، ويحطم الشرك والمشركين، ويهزم الصّليب والصّليبيين.

7) تمتاز هذه المراثي بجزالة اللفظ، وقوة السبك، وفصاحة العبارة، فتنفذ إلى القلوب الحائرة المصابة، فتجد صدى لأساها، وكأنها رفيق يواسيها.

8) تمتاز بتكرار الألفاظ، وكثرة استخدام أساليب التوكيد، وشيوع الاستفهام والنداء والتعجّب.

9) تميل المراثي إلى الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية- أحياناً- ولاسيما عند العماد الأصفهاني الذي أولع بالبيان، وعشق البديع.

10) يميل بعض الشعراء أمثال تاج الملوك (بوري) إلى التضمين، و هذا ما سنوضحه في دراستنا الفنيّه.

11) إنَّ شيوع الحكم والأمثال والعظات والمسلّمات، مع الإلحاح على ما آلت إليه الأمم التي سادت ثم بادت، كان للتخفيف عن المصاب والمفجوع، ذلك أنَّ الإنسان لا يستطيع دفع الموت والوقوف أمامه لدرئه.

12) نلاحظ أنَّ المراثي سارت في الخطّ التقليدي لوزن قصائد الرثاء عامة التي لا تغادر البحور الأساسية المعروفة، ذلك أنَّ هذه المراثي نظمت كما هو واضح على:" الطويل- والكامل- والوافر والبسيط" وهذا ممَّا يضمن سلامة الوزن، وكماله، وتمامه، وشيوع

بحره؛ وإمكانية تحمّله للنبرة الحزينة الهادئة، أضف إلى ذلك رنين الأنين، والإنسياب الموسيقي الآسي.

13) مرّ معنا قصيدة العماد الأصفهاني التي نظمها على بحر الهزج، وهو من البحور الراقصة لا الحزينة؛ الذي لا يناسب بحقّ مثل هذه المناسبة، ولكن للعماد عذره، ذلك أنه لم ينظمها من أجل موضوع الرثاء بل جمع معه موضوعي: التشوّق، والتهنئة.

* وهكذا نرى أنه يوم كان المسلمون قائمين بالوفاء بعهود الله تعالى كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، وتأتي المحن والكوارث في كلّ مرة يتنكبون فيها الطريق السويّ المستقيم؛ لينهضوا بعدها ويلمّوا شعثهم، ويصلحوا أحوالهم، وأحداث التاريخ تتكرر كلّ يوم، فهل نتّعظ ونعتبر ونعود إلى ما خلقنا من أجله؛ لنكون أمّة وسطاً من خير الأمم، أمة الجهاد التي تعيد العزّة لنا من جديد.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] –صدق الله العظيم–

المؤلفان للفصل الخامس

الأستاذ الدكتور هاشم صالح مناع
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب
جامعة الإسراء

الدكتور عمر عبدالله العنبر
مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة
جامعة الإسراء

1 القرآن الكريم سورة المنافقون:8

الفصل السادس:
وصف المعارك والحروب

أخذ الشعر في زمن الحروب الصليبيه يتّجه اتجاهاً مفعماً بالحماسة التي ارتبطت بإيمان الشاعر القوي بالدّين ارتباطاً وثيقاً لم نعهده في العصور السالفة، ذلك أنَّ الحروب التي دارت رحاها بين المشرق والمغرب قامت على أساس ديني، ولا عجب- إذن- أن نرى الشعراء وهم يعيشون في هذه البيئة الدينية المشتعلة، والصّحوة الإسلامية العارمة التي تردّ كيد الصليبيين وأعوانهم، ويشاركون بأشعارهم، وأحاسيسهم، وعواطفهم، وأرواحهم، فمنهم من شارك بالكلمة التي هي أقوى من السلاح، تصديقاً لقول صلاح الدين الأيوبي الذي قال:" لا تظنوا إني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم(القاضي) الفاضل"[1]، ومنهم من قاتل جنباً الى جنب مع المقاتلين، ومنهم من كان له شرف الجمع بين الكلمة والقتال، وقد راح الشعراء يمجدون ملوكهم ويتغنّون ببسالتهم وشجاعتهم، ويمدحون جهادهم وتضحياتهم، وينظمون غرر قصائدهم فرحاً بانتصاراتهم، يسجلون أفعالهم ووقائعهم ابتهاجاً بنتائجهم، والذي يهمنا في هذا الموضع، هو وصف الجيوش الحربية بعددها وعدتها، وعزيمتها وشجاعة فرسانها وقوة روحها المعنوية، وتصميمها على الجهاد والاستبسال والتضحية، وحيوية حركتها وسرعتها في الكرّ والفرّ، ومن ثم الإلحاح على وصف ما آلت إليه هذه الحروب الدائرة بين الطرفين، ولا سيّما حينما تحسم المعركة لصالح المسلمين، فتؤجّج حلاوةُ الظفر العواطفَ وأحاسيسَ الشعراء، فرحاً بما نالهم من نصر، وما حقّقوه من فوز.

والشواهد كثيرة على ما ذهبنا إليه، من حرص الشعراء على وصف المعارك، وما تحتاجه من عدة وعتاد(الفرسان، والخيل، والسلاح) والإشادة بأصحابها في الجرأة والإقدام، ومن ثم تسجيل البطولات، والتغني بالانتصارات. وخير ما نبدأ به بحثنا هذا نصٌّ يتيم

---

1 الأعلام:346/3.

لابن الأثير، ويصف فيه جيش عماد الدين زنكي، وهو يحاصر الرُّها في سنة سبع وثلاثين وخمسمئة، ويخلع عليه نوعاً من المبالغة، حين يصوره وقد غطى البَرّ حتى أنَّ الناظر الى البَرّ يحسبه بحراً من السلاح، ويقول: (من الوافر)

بجيش جاش بالفرسان حتّى ظننت البرَ بحراً من سلاح

وألسنة من العذبات حمرٌ تخاطبنا بأفواه الرّياح

وأروع جيشه ليل بهيم وغرتّه عمود للصَّباح

صفوح عند قدرته ولكن قليل الصَّفْح ما بين الصّفاح

وكان ثباته للقلب قلباً وهيبته جناحاً للجناح[1]

وكما نلاحظ فإن الشاعر يتكئ في أساليبه البلاغية، ومحسناته البديعية على الطرائق المطروقة؛ لذا لم يوغل الشاعر في دقائق الصورة، ولم يضف عليها شيئاً من النضارة، واضحت باهتة مألوفة، ولكنها تبقى في إطار الصّور الشعرية العربية الحماسية؛ ولعل السبب يعود إلى أنَّ قرائح الشعراء لم تكن قد تفتّقت وتفتّحت لحدوث مثل هذه الواقعة، فكأن الشاعر، فوجئ، فأذهل، فاخذ يعتمد على رصيده المخزون،

ويبدأ القتال بين المسلمين والفرنج بعد سقوط الرُّها، وتتوالى المعارك والوقائع، وتتعالى أصوات الشعراء، فهذا ابن القيسراني يصف سيوف الفرنج بقوله: (من البسيط)

سلّوا سيوفاً كأغماد السُّيوف بها صالوا فما غمدوا نصلاً، ولا شَهروا

إنْ قَاتُلوا قُتلوا، أو حاربوا حُرِبُوا أو طَاردوا طُردوا، أو حاصروا حصروا[2]

ولكن الشاعر يبدع في وصف سيوف المسلمين، إذ يقول: (من البسيط)

والسيفُ مفترعٌ ابكارَ أنفسِهمْ ومِنْ هُنَالِكَ قيلَ: الصَّارمُ الذَّكَرُ[3]

---

1 الروضتين 37/1.

2 الروضتين 34/1. وحُربوا: سلبوا أموالهم، ونالوا الويل والهلاك.

3 الروضتين 34/1.

فيشبه السيف برجل مكتمل الرجولة، ويشبههم بالإناث والأبكار، يلتقيان فلا يسع السيف إلا أن يطرح رؤوسهم، ويطأها كما يطرح الرجلُ والنساء ويفتضّهن، وتأخذ الأحداث ابعاداً أخرى، وتتطور خطّة المسلمين في ثأرهم من الفرنج، وتتوسع دائرة المعارك والحروب، ويردّ المسلمون الفرنج الصاع صاعين، فيهزم نور الدين زنكي الفرنج بظاهر حلب سنه ثلاث وأربعين وخمسمئة، ويتغنى ابن القيسراني بهذا الفوز، بأسلوب سهل يعتمد على النغمة الغنائية، ويقول: (من الوافر)

تفي بضَمَانها البيضُ الحدادُ	وتقضي دَيْنَها السُّمْرُ الصّعادُ
وتدرك ثأرَها منْ كلّ باغٍ	فوارس من عزائمها الجلادُ
ويغشى حومةَ الهيجا همامٌ	يشدُّ بضبعه السّبع الشدادُ[1]
أظنوا أن نار الحرب تخبو	ونور الدين في يده الزناد؟
وجند كالصقور على صقور	إذا انقضّوا على الأبطال صَادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا	وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
جرت بالنصر أقلام العوالي	وليس سوى النجيع لها مدادُ
وطالت أرؤس الأعلاج خصباً	فنادى السّيف قد وقع الحصادُ
أحطت بهم، فكان القتل صبراً	ولا طعْنٌ هناك ولا طرَادُ
وللإبرنْس فوقَ الرُّمح رأسٌ	توسّد والسِّنان له وسادُ[2]

وفي سنه أربع وأربعين وخمسمئة جمع صاحب انطاكية إفرنج بلاده وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبيّة، فجمع نور الدّين من العساكر ستة آلاف فارس سوى الأتباع فنهض بهم الى الفرنج في الموضع المعروف ب (إنب)، وهم في نحو أربعمئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووجد اللعين الإبرنس مقدمهم صريعاً بين حماته

1 الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها. ويقال : أخذ بضبعيه أي أمسك بعضديه. ويشد بضبعه: يقويه.

2 الروضتين 56/1.

وأبطاله، فعُرِف وقطع رأسه وحمل إلى نور الدين الذي كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور، والذكر المشكور لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة واصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب، فكان لهذه الموقعة صدى في نفوس الشعراء الذين اخذوا ينظمون غرر قصائدهم فيها، ويصفون بطولة الجيش، وحسن إعداده وبلائه في المعركة، وما آلت إليه، ويقول ابن القيسراني في وصف هذه الحرب: (من البسيط)

هذي العزائم لا ما تدّعي القضبُ[1] ... وذي المكارم لا ما قالت الكُتُبُ
طهرت أرض الأعادي من دمائهم ... طهارة كلّ سيف عندها جنبُ
حتى استطر شرار الزَّند قادحة ... فالحرب تُضْرَمُ والآجالُ تُحْتَطبُ
والخيلُ من تحت قتلاها تقرّ لها ... قوائم خانهنّ الركض والخببُ
والنقعُ فوقَ صقال البيض منعقد ... كما استقلّ دخان تحته لهبُ[2]
والسيف هام على هام بمعركة ... لا البيضُ ذو ذمّة فيها ولا اليلبُ[3]
والنَّبلُ كالوبل هطّال وليس له ... سوى القسّ وأيد فوقها سحبُ[4]
وللظّبى ظفر حلو مذاقته ... كأنما الضرّب فيما بينهم ضَرَبُ[5]
وللأسّنة عمّا في صدورهم ... مصادر، أقلوبٌ تلك أمْ قُلُبُ؟[6]
خانوا فخانت رماح الطّعن أيديَهُمْ ... فاستسلموا وهي لا نبعٌ ولا غَرَبُ[7]
كانت سيوفهمُ أوهى حتوفهمُ ... يا رب خائنة منتجاتها العطبُ[8]

---

1 القضب جمع قضيب وهو السيف القطاع.

2 صقال البيض: خوذ الحرب المجلوّة الملمعة.

3 اليلب: الترس أو الدروع اليمانية من الجلود.

4 الوبل:المطر الشديد. والنبل: السهام

5 الضرب: العسل الأبيض الغليظ.

6 القلب :جمع القليب وهو البئر.

7 النبع: شجر تتخذ منه السهام والقسيّ. والغرب : نوع من الشجر تتَّخذُ منه السهام.

8 الحائنة: الهالك. والعطب:الهلاك

حتّى الطّوارق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها النوبُ[1]

أجظادهمُ في ثيابٍ من دمائِهِمُ مسلوبة وكأنَّ القوم ما سلبوا[2]

ومع ميل الشاعر إلى تتبع التفصيل في وصف الجيش وسلاحه، و أرض المعركة وغبارها، فإنه شديد الحرص على تسجيل حقائق الوقائع أكثر من حرصه على رسم الصورة الفنية، صحيح أنّ من أهم عناصر الأدب (الخيال) لكن وصف الشاعر لم يكن يغاير الواقع كثيراً؛ لانه يصف معركة الجهاد بين الحقّ والباطل، بين المسلمين والفرنج، يرقبها عن كثب، ويشاهد أحداثها.

ما هو ابن القيسراني كعادته- ينزع إلى استخدام الأساليب البلاغية، والمحسنات البديعية التي يوظفها الشاعر لتجسيد الصورة، وتضخيم الحوادث، وتقريب الوقائع، حتى يصف معركة وقعت بين الملك العادل نور الدين زنكي والإفرنج سنة خمس وأربعين وخمسمئة، وقد حسمها الملك العادل لصالحه بعد أن قتل البرنس، وأوقع جوسلين اسيراً: (من الطويل)

هي الثغُر أمسى بالكراديس عابساً وأصبحَ عن باب الفراديس يَفْتَرُّ[3]

على أنها لو لم تُجبْكَ إنابةً لأَرهَقَهَا منْ بَأْسكَ الخَوفُ وَالذُّعرُ[4]

فلمّا وقفتَ الخيلَ ناقعةَ الصدى على بَرَدَى منْ فَوْقهَا الوَرَقُ النَّضْرُ[5]

فَمنْ بَعْد ما أَوْرَدْتَهَا حَوْمَةَ الوَغَى وأصْدَرْتَها وَالبيضُ من عَلَق حُمْرُ[6]

وَجَلَّلْتَهَا نَقْعاً أَضَاعَ شَياتِهَا فَلَا شُهْبُهَا شُهْبٌ و لَا شُقْرُهَا شُقْرُ[7]

---

1 الطوارق:جمع الطارقة، اي : الداهية.

2 الروضتين 58/1-59. وانظر: ابن الأثير 144/11.

3 الثغر: الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو. والكراديس جمع كردوسة، وهي القطعة العظيمة من الخيل. وباب الفراديس: من أبواب دمشق. (معجم البلدان 446/2)

4 الإنابة: الرجوع عن توبة.

5 من نقع الصدى:اي الظمأ، يريد لما وقتها على بردى لتزيل ظمأها. وبردى : نهر بدمشق.

6 البيض: السيوف. والعلق: الدم

7 الشيات: جمع الشيعة، وهي العلامة.

ع لَا الـوهرُ لمَّـا كَـاثَر القَصَـبُ القَنَـا مُكَـــاثَرَةٌ في كــلّ نحـــرُ لَهَـــا نَحْــرُ
وقـــد شَـــرقَتْ أَجْرَافُـــهُ بـــدَم العــدَا إلى أنْ جَرَى العَاصي وَضَحْضَاحُهُ غَمْرُ[1]
صَـــدَعْتَهُمْ صَـــدْعَ الزُّجَاجَـــة لاَ يَـــدٌ لجَابرهـــا، مَـــا كُـــلُّ كَســـر لَـــهُ جَبْـــرُ
فـلا ينتحـل مـن بَعْـدهَا الفَخْـرَ دَائـلٌ فمـن بـارزَ"الإبْرنَـز" كَـانَ لَـهُ الفَخْـرُ[2]
وَقَـدْ أَصبَحَ البيـتُ المقـدَّسُ طـاهراً ولـيس سـوى جَـاري الـدّماء لـهُ طُهْـرُ
وَقَـدْ أَدَّتِ البـيضُ الحِـدادُ فُروضَـها فَـلَا عُهْـدَةٌ فِـي عُنْـقِ سَـيْفٍ وَلَا نَـذْرُ[3]

ونجد أنَّ ابن قلاقس- في مدحه بعض امراء الدولة المصرية- مولع في توظيف الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية، وحريص على استخدام المترادفات للفظ نفسه، من أجل رسم صورة متكاملة للفريقين المتحاربين وقد ثار غبار الحرب، وأضحى كالدُّجى، تنعدم فيه الرؤية لكثافته، سوى الخرصان[4]، التي تضيء أرض المعركة، فترى الخيل السابحة السريعة، وتكرّ وعلى ظهورها الفرسان وهم يرفعون رايات النصر، وتحلّق فوق رؤوسهم الطيور الجارحة، وفي ذلك إشارة إلى ما اعتادت تلك الطّيور من التحليق فوق الجيش المنتصر، تربصاً بالغنيمة، ويقول: (من السريع)

وَردْ بحّـــارَ الجـــود زَجَّـــارةً تَظمَـــا لأَن تُبْصـــر ظَمْآنَـــا
ولا تُلْجُـــجْ إنّ طَمّـــا مَوْجُهَـــا فَرُبَّمـــا أصْـــبَحَ طُوفَانَـــا[5]
أفتـــكُ مَـــا كَـــان بحيـــثُ القَنَـــا يَلـــفُّ بالفُرْسَـــان فَرْسَـــانَا
وَالنَّقْـــعُ قَـــدْ مَـــدَّ رُواق الـــدُّجَى وأَطلـــعَ الخُرْصَـــانُ شُـــهْبَانَا[6]
والبـــيضُ نَحـــوَ الزَّغْـــف ممتـــدّةٌ جَـــدَاولٌ تتبـــعُ غُـــدْرَانَا[7]

1 الضحضاح: الماء القريب القاع. والغمر: الماء الكثير. والعاصي: نهر في الشام. والأجراف: جمع جرف وهو حافة النهر عند شاطئه.
2 الإبرنز (بكسر الراء) : هو الإبرنس الذي قتل في هذه الموقعة.
3 معجم الادباء 19/67-69 . والروضتين 1/73.
4 الخُرصان (بالضم والكسر) :جمع الخرص، وهو القناة والسنان.
5 تلجج: لجّجت السفينة تلجيجاً. خاضت اللجة وهي معظم الماء ووسطه.
6 الشهبان: جمع الشهاب، وهو شعلة نار ساطعة.
7 الزغف: الدرع الواسعة الطويلة.

والخيـــل عقبـــانٌ تَـــرَى فَوْقَهَـــا عقْبَـــــانَ أَعْـــــلَام، وَعقْبَانَـــــا[1]
مـــنْ كُـــلِّ مَـــنْ جَـــرَّ كعـــوبَ القَنَـــا فخلتَـــــــهُ لَيْثـــــاً، وَثُعْبَانَـــــا[2]

ويصف أسامة بن منقذ معركة جيش طلائع بن رُزَّيْك في غزة وعسقلان، حين أرسله لغزوهما سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة، ويحدثنا أسامة في هذا النص عن جيوش المسلمين التي وهبت نفسها فداء في سبيل الله، وقد تحصنت، وأعدت العدة، فجابهت العدو كالسيل العَرِم المندفع، غطى الفضاء من كثرة عدده وعتاده، فهو كالليل المدلهم، تضيئه الأسنّة، وقد اهتدت به الطير، فرافقته- كعادتها- خماصاً لتعود بطاناً من كثرة الولائم فكأنهم يعدّون لها ذلك، فتعودت على ما اعتادت عليه وما أجمل الصورة التي يرسمها الشاعر في أرض المعركة حين يقول: فالغبار هو السحب، والبيض هي البرق، والدم هو المطر، والجماجم هي النبات؛ ولكنه يفرق بين بوارق والسيوف وبوارق السماء، فالأولى ينتج عنها طلب الغوث، والأخرى ينتج عنها الخير والنعيم، ويقول: (من الطويل)

رميـتَ العـدا بالأَسـد في أَجَـم القَنّـا على الجُـرْد، تقتـادُالرّدى وهـو راغـمُ[3]
بمثـل أتيِّ السّـيل، ضـاقَ بـه الفضـا وضـاقَ علـى الأعـداء منـه المخـارمُ[4]
يبـارينَ شُـهْبَ القـذف يحملـنَ مثلّهـا مـنَ الحتـف، للبَـاغي الـرَّجيم رَوَجـمُ
سَـرَايا كمـوج البَحْـر، في ليـل عثْيَـر بـــه مـــن عَـــوَاليهمْ نجـــومٌ نـــواجمُ[5]
تسـير جيـوشُ الطّيـر فـوقَ جيوشـها لَهَـــا كـــلَّ يـــوم مـــنْ عـــدَاها ولائـــمُ
فإنْ خَفَضَ الفرسانُ للطَّعن في الـوغى رمَـــاحَهمُ انقضّـــتْ عليهـــا القَشَـــاعمُ
تعـــرَّض منهـــا فـــوقَ(غزّة) عـــارضٌ سَـــحابُ المَنَايَـــا فَوقَـــهُ مـــتراكمُ

---

1 عقبان الأولى(بالكسر) : جمع عُقاب، وهو الطائر، وهنا يشبه الخيل بالعقبان، وعقبان الثانية (بالكسر) :جمع عُقاب، وهي الراية الكبيرة والعلم الضخم. والعقبان الأخيرة (بالكسر) :جمع عقاب، وهو الطائر، وهنا إشارة إلى ما كان يحدث في الحروب، كانت فيه الطيور الجارحة تحلق فوق الجيش المنتصر، وفي ذلك يقول النابغة: (من الطويل)

إذَا مَا غَزوا بالجيش حلّق فَوقَهم عصائب طيرٍتَهْتَدي بَعَصَائِب

(ديوان النابغة، ص42)

2 ديوان ابن قلاقس، ص542

3 الآجم:جمع الأجَمَة، وهي الشجر الكثيف الملتّف والجرد:جمع الأجد، وهو الفرس السباق، فصبر الشعر.

4 الأتي:السيل يأتي من موضع بعيد، والمخارم: الطرق.

5 العثير(بالكسر) : التراب. والعوالي: جمع عالية وهي أعلى القناة، أو رأسه، أو النصف الذي في السَّنان

فللنَّقْـع سُـحْبٌ، والسُّـيوفُ بـوارقٌ، وللــدَّم وَبْــلٌ، وَالنَّبَــاتُ جَمَــاجمُ
بوارقُ منها الغَوْث، لا الغَيثُ، يُرْتَجَى أَشَــائمُ لا يَــرْوَى بهـا الـدَّهرَ شَـائمُ[1]
فلـيسَ لــراجٍ غيــرَ عَفْــوِكَ مَلْجــأ وليس لعاصٍ لَمْ يُنبْ، مِنْكَ عَاصِمُ[2]

ولا تغدو الحقيقة. إذا قلنا: إن هذا الشعر، أعاد للشعر العربي القديم نضارته، واضفى عليه ثوباً من الجمال الذي يناسب عصره، وسكب الشعراء عليه رونقاً أخّاذاً مثيراً، وبثّوا فيه روحاً حماسية جديدة، وحياة تضفي جواً من الثورة المتأججة في النفوس، حتّى إنهم استطاعوا إيداع غرض جديد هو (شعر الجيوش والمعارك). ولا نكاد نقرا قصيدة في هذه المدة– ونخص قصائد مديح القادة– إلّا ونراها متوجّه بمثل هذا الشعر، ولا نقول هذا جزافاً، ولكن من خلال دراسة متأنية لشعر هذه المدّة، واستقصاء يتّسم بالجديّة، وخير دليل على ما نقول، النماذج الشعرية التي سنعرضها، وهذه معركه أخرى، يصفها لنا اسامة– هذا القائد الإسلامي الذي جمع بين السيف والقلم، وبين القتال والنظم، ويصوّر فيها لمعان السيوف في الدّجى، من شدة حدّتها ومضائها، ولا يفوته أن يقف عند صورة الخيول المتراصة جنباً إلى جنب في سطور، وأن يحافظ على (مراعاة النظير) في السيوف والرماح التي هي الشكل والنقط، ويحرص على اضفاء صورة أخرى زادت النصَ جمالاً، هي صورة الجوّ الرهيب المفعم بالخوف، وقد تعالت فيه أصوات الأبطال، وغممتهم التي لا تفهم، من شدة المعركة الدائرة، وما أجمل الصورة التي انهى بها ابياته هذه، وهي صورة القنا المنطلقة المتتابعة السريعة، وكأنها أصابع حاسب تتحرك بسرعة فائقة يقول: (من الطويل)

سَـلَلْنَا بهَـا بـيضَ السـيوف، فَـلَاحَ في شباب الدَّجى، لمَّا بَدَا لمْعُهَا، وَخَـطٌ[3]
ســيوفٌ لَهــا في كــلِّ درع وَجُنَّــة إذَا مَـا اعتلَـتْ قـدٌّ، أو اعترضـتْ قَـطٌّ[4]
ذَخَرنَــا سُــطاهَا للْفَــرَنْج، لأَنَّهــا بهـمْ دُونَ أهـل الأرض أجـدرُ أن تَسـطُو
سُــطُورُ خيــول لا تُغــبُّ ديــارَهُم لَهـا بالمَواضي وَالقَنـا الشَّكْلُ والـنَّقْطُ[5]

---

1 الأشائم: ضد الأيامن. وشائم: من شام البرق، نظر إليه أين يقصد وأين يمطر.

2 ديوان أسامة بن منقذ، ص 270-271.

3 تقول وخطه الشيب: خالطه، أو فَشَا شَيْبَهُ.

4 الجنة:كل ما وقى. والقد: الشق الطويل. والقط: القطع عرضاً.

5 تغب ديارهم: تأتيهم غبا(بالكسر)، أي تزورهم يوماً وتركهم آخر.

وحــربٌ لَهَــا الأَرواحُ زَاهقــةٌ، لمّــا تُعــاين، والأصــواتُ مــنْ دَهَــش لَغْــطُ[1]
إِذَا أريلــتْ فَرعــاً مــن النَّقــع فَاحمــاً أثيثــاً فأســنانُ الرّمــاح لَهَــا مُشْــطُ[2]
كــأنَّ القَنَــا فيهــا أنامــلُ حاســبٍ أَجَــدَّ بهــا في السـرعةِ الجَمْـعُ وَالَّلقْـطُ[3]

ولعل تجربة أُسامة هذه في المعارك وفي نظم غرر القصائد، هي ما يضفي على أشعاره جوّاً من الحماسة والإثارة والقوة والصرامة، والجدة، فالمعاني كما نلاحظ تدور في فلك المعارك والحروب، امتزجت بصدق انفعالات الشاعر وأحاسيسه، وهذا من طبيعة الشعراء الذين يجسدون نشوة النفس وطربها، أمام محكّ الأبطال، وفي رحى المعارك، فأسلوب الشاعر يتميّز بقوة السبك، والجزالة، وجودة الصياغة.

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة قام الفرنج بمضايقة حصن (حارم) ورموه بالمجانيق إلى أن ضعف وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات على الأعمال الشامية، وإطلاق الفساد فيها، فاحرقوا وخربوا ونهبوا وسبوا واسروا، إلّا أن نور الدين زنكي كان لهم بالمرصاد، فشرع في تدبير أمر الجند والتأهب للجهاد، وكان قد ورد الخبر من ناحيه مصر بخروج فريق وافر من عسكرها الى غزّة وعسقلان واغارتهم على أعمالها، فَلَم ينجُ من المشركين أحد، فَدُمِّرَتْ مراكبهم، وأسر كثير منهم، حينئذ أرسل وزير مصر أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة الى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويبدأ قصيدته بمطلع رائع، ويطلق عليه رجال البلاغة (حسن الابتداء) او (براعة الاستهلاك) يقول: (من الطويل)

أَلا هَكَــذا في الله تمضــي العــزائمُ وتمضي لَدى الحربِ السُّيوفُ الصَّوارمُ

ويتحدث الشاعر عن جيشه الذي اعده أفضل إعداد، ورسم له خطّة سيره، ولم يأل الشاعر جهداً في وصف القوة المعنوية لعسكره، ويمعن في دقائق الأمور عامة،وفيما يواجهه هذا الجيش في مسيرته خاصة، إذ يقول:

وتُغْزَى جُيُوشُ الكفر في عُقْر دَارها ويُوطــأ حَمَاهَــا، والأنــوفُ رَواغــمُ
نـذرنا مَسيرَ الجيْش في (صَـفَر)، فَمَا مَضَـى نصـفُهُ، حتّـى انْثَنَـى وهـو غَـانمُ

---

1 اللغط: الصوت والجلبة، أو أصوات مبهمة لا تفهم.

2 الأثيث: الكثير العظيم، وتقول أثّ النبات يئث:كثروالتف، فهو أثيث.

3 ديوان أسامة بن منقذ، ص 220

بَعَثْنَاهُ منْ "مصر" إلى (الشَّام) قَاطعاً — مَفَاوزَ وَخدُ العيس فيهنَّ دَائمُ[1]
وناهيكَ منْ أَرْض (الجفَار) إذا التَظَى — بجَنبيه مَشْبُبٌ منَ القَيْظ جَاحِمُ[2]
وَصَارَتْ عُيونُ الماء كَالعَين عزَّةٌ — إذا مَا أَتَاهَا العَسْكَرُ المُتَزَاحمُ[3]
فَمَا هَالَهُ بُعْدُ الدِّيار، وَلَا ثَنَى — عَزيمَتَهُ جَهْدُ الظَّمَا وَالسَّمَائمُ[4]
يُهَجِّرُ والعُصْفُرُ في قَعْر وَكْره — وَيَسْري إلى الأَعْدَاء، وَالنَّجْمُ نَائمُ[5]
إِذَا مَا طَوىَ الرَايَات وَقْتَ مسيره — غَدَتْ عوَضاً منها الطُّيورُ الحَوائمُ
تُبَاري خُيولاً مَا تَزالُ كَأَنَّهَا — إِذَا مَا هي انقَضَّتْ نُسُورٌ قَشَاعِمُ[6]
يَسيرُ بِهَا ضِرْغَامُ في كُلّ مَأْزَقٍ — وَمَا يَصْحَبُ الضِّرغَامَ إِلَّا الضَّرَاغِمُ[7]

وإن هذه القصيدة- كما نرى- تمثّل القصّة الشعرية- إن صحّ هذا التعبير- فالشاعر يحدّث صديقه في الأبيات السالفة عن خروج جيشه من (مصر) في (صفر) متوجهاً لغزو الفرنج في عقر دارهم، وقد تمّ تحديد هذا الزمن بناء على خطْة عسكرية، ولكن هذا الجيش عاد من مهمته قبل انقضاء نصف المدة المحدودة بالنصر المؤزر، ولم يعلم الشاعر القائد عن خطته العسكرية إلا بعد إنتهاء المهمة، للحفاظ على السرية.

ويشرع الشاعربعدئذ يحدّث الأمير أسامة عن المتاعب والمشاقّ التي واجهها جيشه في الذهاب والإياب، ويصف له أرض "الجفا" وما لقوا فيها من حرارة شديدة، ونضوب في المياه، ولاسيّما حين يرد العسكر التزاحم عليها مرّة واحدة، ولم يزد الظمأ والجوع والجو الملتهب الجيش إلا صلابةً وعزمًا وتصميماً على القتال، ومواصلة السير لمواجهة الأعداء، ويصف أسراب الطّيور التي واكبت مسيرة الجيش بتحليقها فوق الرؤوس، خماصاً، جرياً على عادتها، لتعود بطاناً.

1 المفاوز: جمع المفازة، وهي الفلاة لا ماء بها. والعيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة.والوخد: الإسراع.

2 الجفار(بالكسر) : أرض بين فلسطين ومصر، أولها رفح وآخرها الخشبي وكلها رمال سائلة بيض (معجم البلدان 145/2)، ومشبوب، من شبت النار: اتقدت. والتظى: تلهب. والجماجم:الجحيم.

3 عزة: من العزة، أي الرفعة والمكانة. وهناك من يقول إن "عزة" مصحفه عن (عبرة) حيث يشبه الشاعر ما تجود به عيون الماء في قلته، بما تجود به الأعين من العَبَرات.

4 السموم: الريح الحارة تكون غالباً في النهار، والجمع : السمائم.

5 يهجر: يسيرفي الهجرة، وهي نصف النهار، عند زوال الشمس.

6 القشاعم: جمع القشعم، المسن من النّسور والضخم.

7 ديوان طلائع بن رزيك، ص 92-94. وديوان أسامة بن منقذ، وانظر: الروضتين 115/1. وضرغام في الشطرالأول اسم قائد.

ولم يكتف الشاعر بهذا الوصف بل أخذ يتحدث عن عناصر الجيش من أفراد وجماعات وقبائل وعشائر، من عرب وعجم، وقد اجتمعت لمواجهة الفرنج، ويبدأ بذكر تفاصيل أرض المعركة، وما آلت إليه من تحقيق النصر لصالحهم، ويقول:

وَلَمّا وَطَوا أرضَ الشّآم تَحَالَفَتْ ... فَأَضْحَتْ جميعاً عُرْبُها وَالأَعاجَمُ

وَوَاجَهَهُم جَمْعُ الفرَنْج بحَملَة ... تَهُونُ عَلَى الشُّجْعَان منْهَا الهَزَائمُ

فَلَقَّوْهُمُ زُرْقَ الأَسنَّة، وَانْطَوَوْا ... عَلَيْهمُ، فَلَمْ يَرجعُ منَ الكُفْر نَاجمُ[1]

ومَا زَالت الحربُ العَوَان أَشَدُّهَا ... إذَا ما تلاقَى العَسْكَرُ المُتَصَادم[2]

يُشَبِّهُهُمُ مَنْ لاحَ جَمْعُهُمُ لَهُ ... بلُجة بَحُر مَوْجُهَا مُتَلاطمُ

وَعَادُوا إلى حَزِّ السُّيُوفِ فَقُطِّعَت ... رؤوسٌ، وَحُزَّتْ للفرَنْج غَلاصمُ[3]

فَلَمْ يَنْجُ منهُمْ يَوْمَ ذَاكَ مُخَيِّرٌ ... ولا قيلَ : هَذَا وَحْدَهُ اليَوْمَ سَالمُ

كَذلكَ مَا يَنْفَكُّ تُهْدى إلى العِدَا ... ولَلوَحْشِ أَعْراسٌ لَهُمْ ومَآتِمُ[4]

حقاً إنه وصف رائع، وفق فيه الشاعر أيّما توفيق، وقد ورد هذا المقطع الوصفي في قصيدة طويلة ضمت أربعة وستين بيتاً، امتازت بالتماسك بين اجزائها وتسلسل الانتقال من خاطر إلى خاطر، وترتبط أبياتها بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، حتى ليخيّل إليك أنك تقرأ رسالة منثورة لا قصيدة منظومة[5].

وهذا الوصف لا يعتمد على الخيال كثيراً بل يقوم على وصف الوقائع التاريخية الحقيقية، ويحاول الشاعر في قصيدته أن يحلق في الخيال، لكنه يبقى أسيراً، مشدوداً للواقع؛ لأنه يراقب جيشه عن كثب في المعركة- معركة الحقّ والباطل- بين المسلمين والفرنج. فكان أميناِ في نقل المعلومات التاريخية عن حروب تلك الأيام، وحماسة المسلمين، ونضالهم، وجهادهم، وتضحياتهم.

وإذا كنا نعيش في هذا الجو من المعارك، فإن الشعراء يستخدمون معجم الحروب والقتال، أكثر من اعتمادهم على إستخدام الألفاظ الرقيقة الشفافة. كما أنَّ نزوع الشاعر

---

1 نجم:ظهر

2 الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة.

3 الغلصمة: اللحم بين الرأس والعنق.

4 ديوان طلائع بن رُزَيك ص 97- 98. و ديوان اسامة بن منقذ، ص 268. والروضتين 115/1.

5 ديوان طلائع بن رُزَّيك، ص 20.

إلى الأساليب البلاغية والمحسنات البديعية التي من شأنها تضخيم الحوادث، والغلو في المبالغة والبعد عن الواقع، كلّ ذلك لم يجعل الشاعر يخرج عن واقعيته، وصدقه في تصويره للمعارك والحروب، "فلم تجر معركة صغيرة او كبيرة إلّا وجدنا الشعر راصداً، والقوافي مصوّرة، والأدب مرآة عاكسة بصدق وأمانة جميع من كان يجري ويضطرب"[1] وها نحن نلتقي مرة أخرى مع الشاعر القائد طلائع بن رُزَّيْك وهو يصف قوة جيشه وعدته وعتاده حين جهزه غازياً الفرنج، ولا أحسب أن رساماً ماهراً لا يحسن رسم هذه اللوحة عند قراءته هذه الابيات، التي تمثل في نظري شريطاً سينمائياً أُعدّ إعداداً جيداً، يقول: (من الطويل)

بَرَزْنَـا لَـهُ كَالّلَيث فَارَقَ غيلَهُ — وَعَادَتُهُ كَسْرُ الفَرَائس وَالهَصْرُ[2]

وَسِرْنَا إليه حينَ هَابَ لقاءَنَا — وَبَانَ لَهُ مِنْ بَأْسنَا البُؤْسُ والشَّرُّ

وثيرُ حَشَايَانَا السرّوجُ، وقُمْصُنَا الدُّ (م) رُوعُ وَمَنْصوبُ الخيام لَنَا قَصْرُ

تَرَى الأَرضَ مثلَ الأُفْق، وَهْي نُجُومُهُ — وإنْ حَسَدَتْهَا عزَّهَا الأَنْجُمُ الزُّهْرُ

وهمُّ المُلوك :البيضُ وَالسّمرُ كَالدُّمى — وَهمَّتُنَا: البيضُ الصَّوَارمُ وَالسّمرُ[3]

صوارُمنَا حُمْرُ المَضَارب مِن دَم — قَوائمُهَا مِنْ جُودنَا نَضرةٌ خُضْرُ

نَسيرُ إلى الأعداء والطَّيْرُ فَوْقَهَا — لهَا القُوتُ مِنْ أَعدَائنَا، وَلَنَا النَّصْرُ

فَبَأْسٌ يَذُوبُ الصَّخْرُ مِنْ حَرُّ نَاره — وَلُطْفٌ لَهُ بالماء يَنْبَجسُ الصَّخْرُ[4]

وَجَيْشٌ إذا لاَقَى العَدوُّ ظَنَنْتَهُمْ — أُسُودَ الثَّرَى عَنَّتْ لَهَا الأُدْمُ وَالعُفْرُ[5]

تَرَى كُلَّ شَهْم في الوَغَى مثْلَ سَهْمه — نُفُوذاً، فَمَا يَثْنيه خَوفٌ وَلَا كُثْرُ

هُمُ الأسدُ منْ بيض الصَّوَارِم وَالقَنَا — لَهُمْ في الوَغَى النَّابُ الحَديدَةُ وَالظُّفْرُ

يَرَوْنَ لَهُمْ فِي القَتْلِ خُلداً، فَكَيْفَ بالـ — لقَاءِ لقومٍ قَتْلُهُمْ عِنْدَهُمْ عُمْرُ[6]

---

1 مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، لبكري الشيخ أمين، ص132.

2 الهصر: الكسر

3 الدمى:جمع دمية، وهي الصورة المنقولة من الرخام والتماثيل.

4 ينبجس: ينفجر.

5 الأدم من الظباء: المشربة بياضاً. والأعفر منها: ما يعلو بياضه حمرة.

6 ديوان أسامة بن منقذ، ص246-247.

وحتى نكون منصفين في حق القائد طلائع بن رزيك، لابدّ أنْ نقرأ أبيات للشاعر الأمير أسامة بن منقذ وهو يصف بطولة جيش طلائع الذي استطاع أنْ يهزم جيوش الفرنج في معاركه البحرية على ثغر دمياط سنة ثلاث وخمسين، وأنْ يحقق نصراً مؤزراً للمسلمين، و نحن أمام معركة بحرية قلّما نجد لها نظراً، ويصف فيها الشاعر الأساطيل وكأنها الموج المتلاطم، ويشبّه هذه السفن السوداء وهي تحمل الفرسان بسرعتها، وحسن أدائها، وقيامها بواجبها، بالخيل السابحة، ثم يعود ليشبّهها بالطيور في سرعة كرّها على العدو، ويزيد الصورة جمالاً حين يضيف تحكم الفرسان بتلك الأساطيل، حتى يصل بنا إلى حسن نتائج المعركة، حيث تحول لون الماء من كثرة الدماء، وأصبح البر– أي الشاطئ– مليئاً بالسهامات، ولم يقف عند هذا الحدّ، بل أخذ يتتبع الفارين من البحر، والعائمين بعد أنْ تحطمت اساطيرهم، السفن المحملة بالأسرى وقد اقتادها المسلمون، ويقول: (من الطويل)

غَـزَوْتَهُمُ في أَرْضِـهِمُ، وبلادهـمُ ... وجَحفَلهـمُ في عَرْضِـهَا مُتَـزَاحمُ

فـأفنيتَهمُ قَـتْلاً، وَأَسْـراً بأَسْـرهم ... فَنَـاجيهُمُ مُسْتَسْـلمٌ أَوْ مُسَـالمُ

فَلَمَّـا أَبَـادَتْهُم سُـيُوفُكَ، وَانْجَلَـتْ ... عَـن الأرض مـنْهمْ ظَلمـةٌ وَمَظَـالمُ

غَـزَوْتَهُمُ في البحـر، حَتَّـى كأَنَّمَـا الـ ... أسـاطيلُ فيـه مَوْجُـهُ المُـتَلاَطمُ

بفرسـان بَحْـر، فَـوْقَ دُهْـم، كَأَنَّهـا ... عَلَـى المـاء طَيْـرٌ، مَـا لَهُـنَّ قَـوَادمُ[1]

يُصَـرُفُهَا فُرْسَـانُهَا بأَعنَّـة ... جَرَتْ، حَيْثُ لَمْ تُوصل بهنَّ الشَّكَائمُ[2]

إذَا دَفَعُوهـا قُلتَ:فُرْسَـانُ غَـارَة ... سَـرَوْا بجيَـاد، مـا لهـنَّ قَـوَائمُ

يسـوقُ أسـاطيلَ الفـرَنْج إلـيهمُ ... حمـامٌ، وطيـرٌ للْفـرَنْج أشَـائمُ

دمَـاؤُهُمُ في البحـر حُمْـرٌ سَـوَابحٌ ... وَهَـامُهُمُ في البَـرِّ سُـحْمٌ جَـوَاثمُ[3]

فَلَـمْ يَخْـفَ في فَـجٍّ مـنَ الأَرضهَاربٌ ... ولَـمْ يَـنْجُ في لُـجّ مـنَ المـاء عَـائمُ

1 الدهم: يريد السفن السوء. والقوادم: ريشات في مقدم الجناح.

2 الشكائم: جمع شكيمة، وهي في اللجام: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

3 السحم: جمع الأسحم، وهو الأسود.

وعــادَ الأســارى مُــرْدَفِينَ، وَسُــفْنُهم تُقَــادُ، كَمَــا قَــادَ المهــارِي الخَــزَائِمُ[1]

ولم يكن الشاعر أسامة وحده الذي شبّه السفن البحرية بالطّيور– على الـرغم مـن جمـال صورته– فهذا المهذب بن الزير يشبه السـفن أيضـاً بـألوان الغربـان، وقـد فعلـت مـا تفعلـه العقبـان الجارحـة بـالطيور، بقصـيدته التـي نظمهـا في هـذه السـنة نفسـها، ويقـول: (مـن الكامل)

وكــأنَّ بَحْــرَ الــرُّوم خُلْــقَ وَجْهُــهُ وَطَغَــتْ عَلَيْــه منابــتُ المَرْجَــان
ولقـد أتـى الأسـطولُ حـينَ غَـزَا بمَـا لَــمْ يَــأْت في حــين مــنَ الأحْيَــان
إذْ في السّــوابغ تُحَطِّــمُ السُّــمْرُ القَنَــا والبــيضُ تُخْضَــبُ بــالنَّجيع القَــاني
في مــــأزق وردُ الوريــــد مكفــــل فيــــه بَــــريِّ الصَّــــارم الظَّمْــــآن
وعلــى غنــاء المَشْــرَفِيَّة في الطُّلــى وآلهــام رَقْــصُ عَــوَالي المُــزّان[2]
وجعلــــتَ في أعنــــاقهم أَغلالَهُـــم وسَــــحَبْتَهُمْ هَوْنَــاً عَلَــى الأَذقَــان[3]
ومَلكــتَ رقَّ ملــوكهمْ، وتــركتَهُم بالــــذُّلّ في الأَقْيَــــاد، والأَشْــــجَان
قَمَّصْــتَ قَوْمَصَــهُمْ رِدَاءٌ مِــنْ رَديّ وقرنــــتَ رأسَ برُنسِــــهِمُ بِسِــــنَانِ[4]

ويستشف القارئ نتيجة هذه المعركة مـن خـلال قـراءتـه البيـت الأول مـن هـذا الـنص، أو مطلع القصيدة، والذي يقول فيه:

عُقِــدَتْ بِنَصْــرِكَ رَايــةُ الإِيمَــانِ وَبَــدَتْ لِعَصْــرِكَ آيــةُ الإحْسَــانِ

ليريح أعصاب القارئ أو السامع، بدلاً من أن يترقب القصّة بكاملها حتّى يـرى النتيجـة، والملاحظ على شعر الحـروب الصـليبية بصـفة عامـة حـرص الشـعراء علـى ذكـر نتـائج الحروب بعد حسمها، وتعداد خسائرهم، ولا سيما ذكر اسماء ملوك الفرنج؛ الذين يقعون في الأسر، أو يقتلون، فها هو يذكر الأسرى وبأعنـاقهم أطـواق الحديـد، وقـد اقتيـدوا بـذلّ

1 ديوان أسامة بن منقذ ص271- 272. ومردفين: من أردفته: اذا أركبته خلفك. والخزائم: جمع الخزامة، وهي حلقة من شعر تجعل في ثقب أنف البعير. والمهاري: جمع المهرّية، وهي الإبل المنسوبة الى مَهْرَة بن حَيْدان في غرب اليمن، قيل: إنها كانت لا يعْدَل بها شيء في سرعة جريانها.

2 المران: جمع المرانة، وهي الرماح اللدنة في صلابة، أو هو شجر تتخذ منه الرماح. وعوالي: بإظهار كسر الياء لضرورة الشعر.

3 الأغلال:وهو طوق من الحديد او الجلد يُجعل في اليد أو في العنق. والهون : الذّل.

4 الروضتين الى 1/207-208، والخريدة (قسم بداية شعراء الشام)،ص 55- 56 وقمصت: البسته القميص.

وهوان، وعلى رأسهم قومصهم القائد، بعد أنْ وضع رأس برنسهم الأمير على سنان الرمح، زهواً بالنصر، واستخفافاً بالفرنج، وسخريةُ من ملوكهم وأمرائهم.

ويعجبني وصف ابن سناء الملك حين يمدح الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب "حماة"[1]، عندما عزم على فتح بلاد المغرب، ويظهر الشاعر نظمه في ثوب فني تزينه الصورة الجميلة، تتأجج بالحماسة والبأس، والفخر، والعزة، والإباء، فجاء قوياً رصيناً ذا جزالة، معتمداً على معجمه الحربي الذي يقوم على كثافة السلاح وقعقته، وصراع الأبطال وغمغمتها، واحتدام المعارك وتاججها، وحرص الفرسان على خوض غمارها، والاستبسال من أجل حسم المعركة لصالحهم، وتعفّ نفوس الفوارس عن كسب المغانم، بقدر حرصهم على سلب الفوارس، ونهب النفوس، وقطع الرؤوس، وإراقة دماء الفرنج، (من الطويل)

لكَ الجحفلُ الجرَّارُ، والبيضُ، والقنا ... تَخُطُّ خطوطَ النَّصْر حتّى على التُرب

بـه كُـلَّ وثَّـاب إلـى المـوت بَاسـلٌ ... ومَـنْ ذَا يـردُّ الأُسْدَ عَـنْ عَـادَة الوَثْـب؟

يَعفُّـنَ عَـنْ كَسْـب المَغَـانم في الـوَغَى ... فلـيسَ لَهُـمْ غَيْـرُ الفَـوارس مـنْ كَسْـب

وَيشْـغَلُهُم سَـبْيُ الأُسُـود عَـنْ المَهـا ... وَيُلْهـيهم نَهْـبُ النُّفُـوس عَـن النَّهْـب

لَهُـم مُعْجـزٌ في الطَّعْـن وَالضَّـرْب بـاهرٌ ... فَلَا طَعْنَ في طَعن وَلَا ضَـرْبَ في ضَـرْب

وَيُرْهِـبَ مـنْ أَسْـيافهمْ قَبْـلَ سَـلّهَا ... وَرُبَّ سيوف قُطّعَـتْ وَهْـيَ في القُـرْب[2]

فَمُـدْنُ الأعَـادِي غيـرُ محميَّـة الحِمَـى ... بِهـمْ وَقُـراهمْ غيـرُ آمنـةِ السِّـرْبِ[3]

ويبدو الشاعر ابن قلاقس ضعيفاً في أحاسيسه وانفعالاته، التي تنعكس بشكل أساسي على تكوين الصورة الشعرية، ومن عادة الشعراء حين يتحدثون عن المعارك أنّهم يكسرون حواجز الواقع، فيطلقون عنان خيالهم، فيأتون بصورة واقعية هائلة مروّعة، تشعرنا وكأننا نعيش جو المعارك والحروب الدائرة، فنرى ضراب السيوف، وطعان

---

1 هو ابن شقيق صلاح الدين، انظر الى الروضتين 8/2.

2 الشطر الأول يعني فيه أنَّ السيوف تقضي على العدو، وهي في غمدها لشدة الخوف منها، والشطر الثاني يعني فيه أن هناك من تهترئ سيوفهم، وهي في أغمادها لأنهم لا يستخدمونها، وإنما يقتنونها اقتناء لتزيين والتشبه بالرجال.

3 ديوان ابن سناء الملك (10/2).

الرماح، وجريان الدماء، وجثث القتلى ونسمع صهيل الخيل، وأنين الجرحى، وغمغمة الأبطال، وقعقعة السلاح ولعل السبب يعود في ذلك إلى أنَّ ابن قلاقس وغيره من الشعراء لم يكونوا من الفرسان او الكماة الشجعان؛ لينقل لنا صورتَه وواقعَه كما فعل: عنترة، والمتنبي، و طلائع بن رزيك، وأسامة بن منقذ، والعماد الأصفهاني وغيرهم، والنقرأ معاً بعض الأبيات التي نظمها ابن قلاقس في مدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ست وستين وخمسمئه: (من المنسرح)

أَيُّ محلّ سَمَا فَمَدَّ لَهُ ... علاءَه سُلَّماً، وَمَا صَعدَهُ

بالجيش كالعارض الأَحَمِّ إِذَا ... أَتْبَعَ في الجَوِّ يَرْقَهُ بَرَدَهُ[1]

غَابَ يغاب القَنَا فَأَطْلَعَهُ ... فَتْكُ حُسَام يغيبُ مَنْ شَهدَهُ

وَرَاعَ حَتّى دَعَوْهُ ثَعْلَبَهُ ... وَرَاعَ حَتَّى دَعَوْا به أَسَدَهُ

بدائعٌ في الحروب ولّدها ... من فطْن لا تزال مُتَّقَدَهُ

لو كَشَّرَ الارتياحُ هِزَّتَهُ ... لكشَّرَتْ من عَدُوِّه رَعَدَهُ[2]

نجمٌ عَلَا نُورُهُ فأوشكَ أَنْ ... يَفْقَأ بالضوء عَيْنَ مَنْ جَحَدَهُ

وصارمٌ الحَدَّ فَوْقَ صَفْحَتِهِ ... تَجْري ميَاهُ الفرنْد مُطَّردَهُ[3]

هَذَا، وَمَا عَوْدُهُ لخاطمه ... يوماً وَلَا عُودُه لِمَنْ خَضدَهُ[4]

سَائِل بِهِ مَنْ نَضَتْهُ عُرَّتهُ ... فَمَاتَ مِن خَوفِهِ وَمَا غَمَدَهُ[5]

ولإبن الساعاتي قصيدة رائعة في وصف غارة قام بها صلاح الدين على حصن قرب صفد يسمى: "حصن المخاضة" كان بيد الفرنج وذلك سنة خمس وسبعين وخمسمئة، وقد انتشر الوباء بين الناس بسبب تعفن جيف القتلى، حتى كان الحرّ شديداً، ويقول: (من الطويل)

---

1 العارض الأجم: ما اعترض في الأفق فسدّه من السحاب الأسود.

2 الارتياح: النشاط. ورعد(بالكسر) : جمع رعده، وهي رعشة في الجسم تكون من فزع أو مرض.

3 الفرند (بكسر الفاء والراء وسكون النون) :السيف، أو هو جوهره ووشيه.

4 العود بفتح العين وسكون الواو: الجمل المسن. يقول إنه لعزته لا يقدر أحد على أن يحطّم جمله ولا يكسر عوده، والخضد:لكسر في الرطب واليابس.

5 ديوان ابن قلاقس، ص 247. ونظته: جردته وألقته. وعرته: شدته في الحرب

وَقَفْتُ عَلَى حِصْنِ "المخاضِ" وإنَّهُ لموقفُ حقّ لا يُوازيه مَوْقِفُ
فلم يبدُ وجهُ الأرض بَلْ حَالَ دونَهُ رحالٌ كَآسَاد الشَّرَى وَهْيَ تَرْجفُ[1]
وجرداءُ سلهوبٌ، ودرْعٌ مُضَاعَفٌ وأبيضُ هنديٌّ، ولدنٌ مُثَقَّفُ[2]
وَمَا رَجَعَتْ أَعْلَامُكَ الصُّفْرُ سَاعَة إلى أَنْ غَدَتْ أَكْبَادُهَا السُّودُ تَرْجفُ
كَبَا مِنْ أَعالِيهِ صَليبٌ وَبيعةٌ وَسَادَ بِهِ دينٌ حنيفٌ ومصحفُ[3]

ولقد استحال على المشاهد من خلال هذه الصورة أنْ يرى الأرض؛ لإنها غطيت بالفرسان الشجعان، والخيل السابحة الطويلة، والدروع القويّة، والسيوف الحادة، والرماح المقوّمة، والأعلام المرفرفة.

ولم يتجاوز الشاعر في هذه الصورة حدود الواقع؛ لأن المشاهد في الحقيقة والواقع لا يستطيع أنْ يرى أرض المعركة حين يلتقي الفريقان، ويحتدم القتال، في حرب تتلاقى فيها الفرسان والرحّالة لا الآلات ومراكب النيران.

ويصف ابن سناء الملك بعض المعارك التي وقعت بين صلاح الدين والفرج سنة خمس وسبعين وخمسمئة، وأسر صلاح الدين بعض فرسانهم وشجعانهم، ويمعن الشاعر في وصف المعركة ووقوع ملوكهم في الأسر بأسلوب شائق يجذب السامع أو القارئ المتابعة القصيدة، ويقول: (من الطويل)

وَلَمّا رَأَوهُ أَدبَرُوا حينَ عَايُنوا أعنَّة خيل لا تعودُ، ولا تُثْنَى
وَقَدْ وَقَفُوا لكن لأسْر رِقَابِهِم وقطف رؤوس منهمُ آنَ أَنْ تُجْنَى
ثَبَتَّ لهم والسيفُ قَدْ كَرِهَ الطُّلَى وجالدْتَهم، وَالقرْنُ قد سئِمَ القِرْنَا
مَضَى مَلْكُهم في أَوَّل الأمر هارباً يُحسُّ قَفاهُ الطَّعنَ فيه وَلَا طَعْنَا
يحيل عناق مَا نَجا مَن نَجَا بِهَا ولا فَازَ مَنْ كَانَ الفرارُ له حصنَا
وما زال أَعمَى العين، والقلب فانثني وقَرعُ العَوَالي قَدْ أَصَمَّ لَهُ الأَذْنا
وقد أَنِفَت منْهُ الماضي لِجُبنِه فَلَمَّا نَجَتْ حَوباؤهُ شكرَ الجُبْنَا[4]

1 أي: والأرض تزلزل. والآساد: جمع الأسد. والشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل، فيقال: "هوكأسد الشرى".

2 الجرداء السلهوب: الفرس السباقة الطويلة. والمثقف: الرمح المقوم. اللدن:اللين.

3 الروضتين 2/11-12 ديوان ابن الساعاتي 2/409.

4 الحوباء: النفس

ولـم يَقْـرَعِ النَّـاقوسَ بَعْـدَ انهزَامـه ولكنّـه مـنْ بَعْـده قَـرَع السِّـنَّا[1]
وأضـحى أسـيراً (بادويـلُ) وغيـرهُ قـرونُ ملـوك كـم أَبَـادوا لهـم قرْنَـا
أسـارى جُبـارى لا يُـرَجُّنَ فدبـةً ولا يـأملون الـدَّهْرَ فكـاً ولا أَمْنَـا[2]

ثم يعود الشاعر ليصف لنا كيف تحَوُّلَ الديار من احتلال الشرك إلى عتق الإيمان بعد أنْ كانت تضرب فيها الأجراس على الكنائس، ويقول:

أقـامَ بـدار الفكـر تُجْبَـى لـه الجِـزَى وتـودّى لـهُ القَتْلَى وَتُسْبَى لَـهُ الحَسْـنَا
عَفَـتْ وَخَلَـتْ مـن سَـاكنيهَا ديَـارُهُمْ فَـلَا معقـلٌ يُنْشَـأ، ولا منـزلٌ يَغْنَـى
أقمـتَ بِهَـا التَّوْحِيـدَ للهِ وحـدَهُ وأَنْسَيْتَ فِيهَا الـرُّوحَ، وَالأَبَ، وَالابْنَا[3]

والجدير بالذكر أنَّ كثيراً من القصائد تحرص على تتبع نتائج المعارك، بل تمعن في وصف القتل والدمار الذي ألحقه المسلمون بالكفار، وبأسلوب يتسم بالازدراء والسخرية، ولم نحرص في موضوعنا هذا- لطبيعته- على إعطاء المزيد من النماذج التي تصف ما بعد انتهاء المعارك، إلَّا حين تدعو الضرورة، خشية أنْ نخرج الموضوع عن موضوعيته وهدفه.

ونلتقي مع الشاعر فتيان الشاغوري، وهو يصف جيش صلاح الدين حين تصدى لنزول الفرنج على دمياط وهزمهم عنها، ولسنا نشك في أنَّ الشاغوري قد استفاد من صور من سبقوه[4]، ولكننا في الوقت ذاته لا ننقصه حقّه في إبداع صوره، وقوة تركيبه، وجزالة لفظه، فها هو يصور الجحافل في أرض المعركة، وكأنها أسود، وموضعها غابة من أسلحة القنا والقنابل، ويزيد الصورة جمالاً حين يجعل الرايات المشرعة ظلاً للجيش، وقد علا هذا الظلّ ظلٌ آخر، وهو ظلّ الطيور لمرافقة التي حجبت الشمس، وتنتظر الأعراس والولائم لتعود بطاناً، ولننظر الى الصورة الرائعة التي أبدع فيها، صورة الظلام من ظلّ الرايات والطيور التي حجبت الشمس، والدروع التي شكّلت كتلاً من السّحب، ممّا يزيد الجو اظلاماً؛ ولكنه يهيئ لينبجس النور من وجوه الفرسان التي شبهها بالبدور، وكنت

---

1 قرع السن: كناية عن شدّة الندم.

2 ديوان ابن سناء الملك 323/2. وجبارى : من جبر العظم بعد كسره.

3 المصدر السابق 323/2. والروح والأب والابن : الثالوث المقدس عن النصارى

4 انظر بعض أبيات المتنبي في : شرح ديوان المتنبي 240/2.

أعتقد أنَّها صورة مغايرة للواقع ولاسيما انه يصف معركة يحتدم فيها القتال، ولابدّ من مثار النقع أنْ يغير وجوههم؛ ولكن الشاعر له طرائقه في التعبير، ومن ثم لم يشر الى النقع في أبياته إلا بعد أنْ حسمت المعركة لصالح المسلمين، يقول:(من الطويل)

يسيرُ بجيشٍ يُرْجِفُ الأَرضَ بَأْسُهُ ... وَتَبدُو لَهَا في كُلِّ قُطْرٍ زَلازُلُ

جَحَافِلُهُ أُسْدٌ تَزْأَرُ في الوَغَى ... وَمَا غيلُها إلّا القَنَا وَالقَنَابلُ[1]

خَميسٌ لَهُ الرَّايَاتُ ظلٌّ وَفوقَهُ ... منَ الطَّيرُ ظلٌّ يَحجبُ الشَّمْسَ سَادلُ[2]

دُرُوعُهُمُ سُحْبٌ تَلُوحُ خِلالَهَا ... وُجُوهُهُمُ فَهْيَ البُدُورُ الكَوامِلُ[3]

ويلحّ الشاعر إلحاحاً كبيراً على إظهار قوة هذا الجيش وبأسه، فيعود ليقول: هم الأسد، إلّا أنَّ موضعهم إذا ساروا ليلاً غابة من السيوف المشرفية والرماح الرقيقة، ويشبه أطراف رماحهم وهي تأفل في أكباد الاعادي بنجوم الليل التي تغيب بسرعة، ويقول:

هُمُ الأَسْدُ إلّا عِيصَهُمُ إذَا ... سَرَوا مَشْرَفياتٌ، وَسُمْرٌ ذَوَابلُ[4]

أَسِنَّتُهُم وَاللَّيلُ نَقْعٌ نُجُومُهُ ... رُجُومٌ بِأَكْبَادِ الأَعَادِي أَوَافِلُ[5]

ويحسم في النهاية المعارك لصالح المسلمين، إذ يقول:

وَطَارَتْ رُؤُوسٌ مِنْهُمُ قَوَانِسٌ ... إلى حَيْثُ صَارَتْ فِي الهِيَاجِ القَسَاطِلُ[6]

ويردف وصفه هذا بوصف معركة أخرى بحرية وقعت على ثغر دمياط، ويذكر فيها عدد الفرنج الذي زاد على كلّ تقدير، ومعهم خيولهم ورواحلهم، ويأتي الشاعر -بهذا الأسلوب التهويلي حتّى يظهر قوته من خلال ذلك الإظهار، وما إن رأى الفرنج الأسد وبأيديها الرماح والسيوف المشرعة، حتى خيّم الموت عليهم، ففازوا بهزيمة نكراء، فقد حلّ بهم الضرب والطعن والقتل والأسر والسبي، وما خلا رأس من ضرب سيف، ولا

---

1 الغيل: مفرد الأغيال والغيول، وهو موضع الأسد. والقنا: الرماح. القنابل: جمع القنبلة وهي الطائفة من الناس، ومن الخيل تطأهم وتعبر صفوف الأعداء. تزأر: بتشديد الهمزة وفتحها.

2 الخميس: الجيش الضخم. وسادل: المرخي، من سدل الثوب: أرخاه.

3 ديوان فتيان الشاغوري، ص 317.

4 العيص: الشجر الملتف. الشرفيات: السيوف. والسمر: الرماح. الذوابل: الرقيقة.

5 ديوان فتيان الشاغوري، ص 318. والأسنة: أطراف الرماح. والرجوم: جمع الرجم، وهو ما يرجم به، والأوافل: التي تغيب، من أفل يأفل: غاب.

6 ديوان فتيان الشاغوري، ص 318. القوانس: جمع القونس، وهو اعلى الرأس، او أعلى بيضة الحديد، والقساطل: جمع القسطل، وهو الغبار.

صدر من طعنة رمح، وراحت قشاعم السماء على اختلاف أنواعها وألوانها، تملا بطونها من أشلاء الملوك وجثث القتلى، يقول:

وَلَمّا أَتَوْا دمْيَاطَ كالبحر طَامِيَاً ... وليس لَهُ من كثرة القوم سَاحلُ
يزيدُ على الإِحْصَاء وَالعدِّ جمعُهمْ ... أُلوفُ أُلُوفُ خَيْلُهُمْ وَالرَّواحلُ
رَأَوْا دُونَها أُسْدَاً بأَيديهمُ القَنَا ... وبَيْضاً رقاقاً أحمَتْها الصَّياقلُ
ضيوفُهُمُ فيهَا نُسُورٌ قَشَاعمٌ ... وَغُبْشٌ لأشلاء المُلُوك أَوَاكلُ [1]
ودارُوا بهَا في البَحْر من كُلّ جانب ... وَمنْ دُونَها سَدٌّ من الموتِ حَائلُ
فَعَادُوا عَلَى الأَعْقَاب مِنْهَا هَزيمَةٌ ... كأَنْهُمُ ذُلّاً نَعَامٌ جَوَافِلُ
فَلَا رأسَ إلا فِيهِ بالضَّربِ صَارمٌ ... ولا صدرَ إلا فِيهِ بالطَّعْنِ عَمِلُ [2]

لقد اولع بعض شعراء هذا العصر بسهولة اللفظ وعدم تعقيد الصورة، والاعتماد على البديع من جناس وطباق، و كان ذلك على حساب العمق الشعري، والقيمة الفنيّة من خلال تحجيم الخيال، وعدم إطلاق عنانه ليسبح في عالم الحروب والملاحم، ولنقرأ: معاً نصاً شعرياً لابن سناء الملك من قصيدة في مدح صلاح الدين الأيوبي وتهنئته بنصر حطين سن ثلاث وثمانين وخمسمئة، يقول فيه: (من الخفيف)

قَصَدَتْ مَحْوَكَ الأَعَادِي فَرَدَّ اللّـ ... ـهُ مَا أَمّلوهُ عَنْكَ وَعَنَّا
حَمَلُوا كَالجبَال عظْماً وَلَكنْ ... جَعَلَتْهَا حَمْلَاتُ خَيْلِكَ عهْنَا
جَمَعُوا كَيْدَهُم وَجَاؤوكَ أَرْكَا ... نَاً فمَنْ هَدَّ فَارِسَاً هَدَّ رُكْنَا
لَمْ تُلاق الجُيُوشَ منْهُمْ ولكنّـ ... ـكَ لاقَيْتَهُم جَبَالاً وَمُدْنَا (م)
كُلُّ مَنْ يَجْعَلَ الحَديدَ لَهُ ثَوْ ... بَاً وَتَاجاً وَطَيْلَاناً وَرُدْنَا
خَانَهُ ذلك السِّلاحُ فَلَا الرُّمْـ ... ـح يغنِّيولَا المُهَنَّدُ ظَنَّاً
وتولَّتْ تِلْكَ الخيولُ ولم يُثْـ ... ـنَ عليها بأَنَّها لَيْسَ تُثْنَى
وتصيدْتَهُم بحلقة صيد ... تجمعُ الليثَ وَالغَزَالَ الأَغَّنا
وَجَرَتْ منهمُ الدِّماءُ بحاراً ... فجرت فوقها الجزائرُ سُفْنَا
صَنَعَتْ فيهمُ وليمةَ عُرْس ... رَقَصَ المَشْرَفِيُّ فيها، وغَنَّى

1 القشاعم: جمع القشعم، وهو النسر الذكر العظيم. والغبش: جمع اغبش وهو المائل الى السواد، واراد بها السّباع.

2 ديوان فتيان الشاغوري،ص 319. وعامل: السنان في رأس الرمح.

ظـــلَّ معبـــودُهمْ لـــديكَ أســـيراً مستضـــاماً فاجعـــل لـــه النَـــارَ سِـــجْنَا
وحـوى الأسـر كـلَّ مَلْـك يَظَـنُّ الـدَّ هْـــرَ يفنـــى، وَمُلكَـــهُ لـــيسَ يَفْنَـــى
رقَّ مـــنْ رَحْمَـــة لـــه القيـــدُ، وَالغُـــلُّ عليـــــــه فَكُلَّمَـــــــا أَنَّ أَنَّـــــــا
واللعـــينُ الإِبـــرنسُ أَصْـــبَحَ مَـــذْبُو حَ يَمِـــينِ لَـــمْ تُعْـــدِمِ الـــدِّينَ يُمْنَـــا[1]

فالمعنى في هذه الأبيات بسيط يدور حول حرص العدو على محو الإسلام، وقد جمع العدة، وأعدّ الرجال، ولكن كل ما جمعوه من حديد، وخيل، ورجال لم ينفعهم، ولم يسعفهم، بل كان وبالاً ودماراً، ويقرر الشاعر أنَّ أسلحتهم لم تُجْدهم نفعاً، فلا رماحهم صدقت ولا سيوفهم فعلت، فباءت جموعهم بالإخفاق ولم يحصدوا من حملاتهم غير العار والدمار، فقد استطاع الملك أنْ يجمعهم في ساحة الحرب، وكان الليث الهزبر، وكانوا فيها الغزلان والخفافيش، و سالت دماؤهم فكانت كالبحار من شدة القتل و كثرة العدد، وكانت ضحاياهم تطفو فوق برك الدماء كأنها السفن فوق الماء، حتّى إن الملك استطاع ان يجعل معبودهم اسيراً مقهوراً، أضف أنَّ كلّ ملوكهم وقعوا في الأسر، في حين أنهم كانوا يتعالون، و يتسامون، ويفخرون بأنَّ ملكهم لا يفنى، وعظمتهم لا تزول، ووقع الإبرنس في الأسر ووضع الغُل في يديه فرقَّ له الغُل، واشفق عليه الحديد من كثرة ما كان يئن ألماً، وحرقةً، وعذاباً، وأخيراً وقع الإبرنس في شرّ أعماله، فاستدعاه صلاح الدين ليذبحه برَّا بيمينه، مما زاد الإسلام هيبة في نفوس أعدائه، وخصومه.

وممّا يلاحظ القارئ على هذه القصائد- كما قلنا سابقاً- أنَّ الشعراء لم يتوقفوا عند إعطاء نتيجة الحرب بل كانوا يحرصون كل الحرص على إتمام المعنى والصورة عن طريق متابعة الوصف بعد إنتهاء المعركة؛ لإعطاء صورة واضحة عما آلت إلى المعركة بعد أنْ حسمت لصالح المسلمين.

ويذكرنا ابن العماد الأصفهاني في وصف معركة من معارك صلاح الدين سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة بأبي تمام والمتنبي من حيث خلق الأجواء البطولية، فهو ينفعل مع الحدث، ويصف الجزيئات الصغيرة التي تتحد معاً لتبدع في خلق الصورة الكلية.

1 ديوان ابن سناء الملك 2/340-342.

ولقد وفق في ابتداع الصورة التي نقلها للسامع أو القارئ وكأنه يعيش مع الشاعر في قلب المعركة، فيرى الجيشين المتحاربين، ويشاهد الضّراب والطِّعان، ويسمع قعقعة السلاح، و غمغمة الأبطال، ويبقى السامع مشدوداً بأسلوب الشاعر الشائق حتّى يصل به إلى نهاية المعركة، وينقله معه إلى إتمام مشاهدة النتائج بعد أنْ حسم الحرب لصالح المسلمين على الإفرنج- على طريقة عنترة في منازلته لاعدائه- وذلك نابع من احساسه بالمسؤولية، وانخراطه بسلك السياسة، وقربه من قائد المسيرة صلاح الدين، فهو فارس من فرسان هذه المعارك لذا جاءت ألفاظه منقاة، وأسلوبه في غاية القوّة والإبداع، عاش الشاعر بعمق مع جلبة الحرب، ووظف خبرته وثقافته، فأبدع بتوفير الدّقه في رسم صوره، وتجسيم خياله،فأثبت أنّه شاعر لفروسية؛ لأنّه لم يغادر معنى من معاني معجم الحرب إلاّ برع في نظمه، ومن مثل: السيوف، والرماح، والدماء، والخيل، والفرسان، والجيوش، والذئاب، والأسود، والأسرى، والقتلى وما إلى ذلك. ويقول ابن العماد في وصف هذه المعركة: (من الطويل)

سَحَبْتَ عَلَى (الأَرْدُنِّ) رُدْناً مِنَ القَنَا ... رُدَيْنِيَّةٌ مُلْداً وَخَطِّيَّةً مُلْسَا[1]

وَنِعْمَ مجَالُ الخيل "حطِّينُ" لَمْ تَكُنْ ... مَعَارِكُهَا للجُرْدِ ضِرْساً وَلَا دَهْسَا[2]

غَدَاةَ أُسُودُ الحَرْبِ مُعْتَقلُو القَنَا ... أَسَاوِدُ تَبْغي مِنْ نُحُور العِدَا نَهْسَا[3]

أَتَوْا شُكُسَ الأَخْلَاق خُشْناً فَلَيَّنَتْ ... حُدُودُ الرِّقَاق الخُشْن أَخْلَاقَها الشِّكْسَا[4]

طَرَدْتَهُمُ في المُلْتَقَى، وَعَكَسْتَهُم ... مُجيداً يحْكُم العَزم طَرْدَكَ، وَالعَكْسَا[5]

فَكَيْفَ مَكَسْتَ المُشركينَ رُؤُوسهُمْ ... ورأْيُكَ في الإحسان أنْ تُطْلقَ المَكْسَا؟[6]

بَواقعَة رُجَّتْ بَها أَرْضُ جَيْشهِمْ ... ومارتْ كَمَا بُسَّتْ جبَالُهُم بَسَّا[7]

---

1 الردن: طرف الثوب، وملدا:جمع أملد، وهو الغصن اللين الذي يهتز ويتمايل، والخطية: الرماح المنسوبة إلى الخط، والمُلْس: جمع ملساء.

2 حطين:موضع بين طبرية وعكا. والضرس: الأكمةالخشنة. والدهس: المكان السهل ليس برمل أو تراب، والمعنى:كان جنودك يحاربون وينتصرن، ولا يبالون بأرض المعركة جبلية كانت أو يآ جبلية.

3 يريد بالبنهس: الأخذ بمقدم أسنانها وتنتفه نتفاً.

4 شكسا: اي صعبة. والخشن: الجافي، الجلف. والحدود: جمع الحد. والرقاق: السيوف. يمدح الشاعر جنود صلاح الدين بأنهم حاربوا قوماً خشناً أخلاقهم صعبة فانتصروا عليهم وتمكنوا من تليينهم والغلبة عليهم بحدود سيوفهم الخشونة.

5 والمعنى: لقد فروا منه عند التقائه بهم، فتوغل بين صفوفهم، حتّى تجاوزها فارتدوا لينالوا عقابهم.

6 المكس: ما يأخذه أعوان السلطان.

7 بست: فتت وصارت كالهباء المتطاير في الهواء. ومار: مال واضطراب.

بطـونُ ذئـاب البَـرِّ صَـارَت قُبُـورَهُمْ وَلـمْ تَـرْضَ أَرضٌ أنْ تَكُـونَ لَهُـم رَمْسَـا[1]

وَحَامَـتْ عَلَـى نَـار المَواضـي فَرَاشُـهُمْ لتُطفَـا فَـزَادتْ مـن خُمُـودهُمُ قَبْسَـاً[2]

وَقَـدْ خَشَـعَتْ أَصْـوَاتُ أَبْطالهـا فَمَـا يَعي السَّمْعُ إِلَّا من صَليل الظُّبى هَمْسَا[3]

تُقَـادُ بِـدَأمَاء الـدِّمَاء مُلُـوكُهُمْ أُسَـارىَ كَسُـفْن اليَـمِّ نيطَـتْ بهَـا القَلْسَـا[4]

سَـبَايَا، بِـلادُ الله مَمْلُـوَةٌ بِهَـا وَقَدْ عُـرضَتْ نَخْسَاً، وَقَـدْ شُـرِبَتْ بَخْسَـا

يُطَـافُ بِهَـا الأَسْـوَاقَ لاَ راغِـبٌ لَهَـا لكَثْرَتَهَـا، كَـمْ كَثْـرَة تُوجِـبُ الوَكْسَـا[5]

شَـكَا يَبَسـاً رَأْسُ البُـرُنْس الـذي بـه فَنَـدَّى حُسَـامٌ حاسِـمٌ ذَلِـكَ اليُبْسَـا[6]

حَسَـا دَمَـهُ مَاضـي الغِـرارِ لِغَـدْرِهِ وَمَـا كَـانَ لَـوْلَا غَـدْرُهُ دَمُـهُ يُحْسَـى[7]

ويشـارك ابـن سـناء الملـك بحـظ وافـر مـن أشـعاره في هـذه المعـارك الـدائرة والحـروب الطاحنة، ويتحدث في قصيدته هذه، عن أخلاق القائد صلاح الدين وبأسه وقوته، ويصـف معركته مع الفرنج، وقد استخدم فيها كل أنواع الأسلحة حينذاك، مستخدماً اسلوباً سهلاً لا تعقيد فيه، على الرغم من أنَّه وظف المعجم الحربي الـذي يوظفه غيـره؛ لكنـه يمتـاز بنمطه الخاص الذي يميزه من غيره.

وبمقارنة بسيطة بين هذه السينية، وسينية ابن العماد، يظهر الفرق بوضوح مع أنَّ السينيّتين نظمتا على بحر الطويل، ونخص بالذكر صخب السينية الأولى ورقة هذه السينية، وعلى كلّ حال، فإنّ ذلك يعتمد على موهبـة الشـاعر، وتجربتـه، وثقافتـه وقربـه مـن الحادثـة، ودرجـة الانفعال بها.

ولا نـريد من القـارئ أنْ يأخـذ كلامنـا علـى أنَّ هـذه القصـيدة خاليـة مـن الصـور، بـل علـى العكس تماماً؛ فإنه لا يكاد يخلو بيت مـن الأبيـات، مـن صـورة أو تشـبيه أو مـا إلـى ذلـك، ولنقرأ معاً هذا النص لنتبين حقيقة الأمر، ويقول الشاعر: (من الطويل)

1 الرمس: القبر.

2 دار المواضي: لمعان السيوف، وهنا يشبههم الشاعر بالفراش الذي يحوم حول النار في خفة حلومهم.

3 الظبى: جمع ظُبَة، طرف السيف، وحدّه.

4 الدأماء: البحر. والقلس: الحبل الضخم في قلوس السفن، أي: تقاد ملوكهم في بحر من الدماء يخوضون أسرى كأنهم سفن نيطت بالقلس، أي: ربطت وشدّت.

5 الوكس: البخس في الثمن.

6 البرنس: قائد الفرنج. وشكا رأسه اليبس: كان عنيداً، فأبطل السيف عناده

7 الروضتين 101/2. ومعجم الادباء 19/24-27. وديوان العماد، ص 234-335. وحسا دمه: شربه. والغرار: حدّ السيف.

ومــن شــادَ داراً للجهــاد فأصــبحتْ بهــا الــرمُح بينــي، والحُســامُ يُهَنْــدَسُ
ويرســـلُ عزمـــاً للأعـــادي مبكِّـــراً فيأتيـــه فـــتحٌ للأعـــادي مغَلّـــسُ [1]
لراحتــه تُحْنــى القســيُّ، وبعضُــها هـــلالٌ لـــهُ فـــوقَ السّـــماء مُقَـــوَّسُ
يُرىَ جَدلاً في حَوْمَة الحَرْب ضَاحكا فَلَا القَلبُ منخوبٌ، ولا الوجهُ مُعْبِسُ [2]
أَغَــارَ عَبُــوسَ الوَجْــه فيهــا جُــوادُه ومـــنْ عَجَـــب أَنَّ الجَـــوَادَ يُعـــبِّسُ
تطيـــرُ إليـــه طالبـــات أمَانَـــهُ وَمُمْتَـــذرات منـــه أَيْـــد وأرْؤُسُ
وفي كفّــه مــاض مَضــى، وكأنّــه مـنَ الـبرق يَجْنـي أوْ مـنَ النّـار يَقْبسُ
وكـم أَسْلَمُوا مـنْ خَوفِه وَهْـوَ مُغْمَدٌ وَلـــوْ أَلْصَـــرُوا نيرَانَـــهُ لَتَمَجَّيسُـــوا [3]
لَــهُ جَحْفَــلٌ جــرَّ القَنَــا فَتَعثَّــرَتْ قَنَــا الخَــطّ إلَّا أَنَّهــا لَــيْسَ تَــنْفَسُ [4]
وَكُـــلُّ حصـــان بالحديـــد مُلـــثَّمٌ عَلَيْـــه كَمـــيٌّ بالحَديـــد مُقَلْـــنَسُ
تَزاحَمَــت الأَبْطَــالُ فيــه فَخَرُقَــت ثيَــابٌ لَهَــا مــنْ عَهْــد دَاوُد تُلْــبَسُ [5]
وأظلـمَ فيهـا النَّقْـعُ واشـتكت الظُّبَـى فَأَصْـــبَحَ فيهـــا المَـــوتُ لا يَتَـــنَفَّسُ
ومن خوفه الشَّمْسُ المنيرَةُ في الضُّحى تَمــوتُ و في نَقْــع الحَــوَافر تُــرْمَسُ [6]
تَــرَى بيضَــهمْ بَعــدَ الِّلقَــاء كأَنَّمــا أَحَـاطَ بِهـمْ مـنْ أَسْهُم القسُ قنـدسُ [7]
خيـــولُهُمُ أَمَّـــا عَلـــى كُـــلِّ قَلْعَـــةٍ فَتَطْفُـــو وَأَمَّـــا فِـــي الـــدِّمَاءِ فَـــتُغْمَسُ

ويتحدث الشاعر عن أخلاق البطل في المعارك وخططه، وذلك أنَّه يعلـم الأعـادي بموعـد الحرب، ويقول:

أَمَـــرْتهُمُ يُنْـــذرُوا قَبْـــلَ حـــربهمْ ولـم تَـرْضَ أنَّ الجَيْشَ في السِّرِّ يَكْبسُ
وَغْنَـاكَ عَـنْ كَيْـد الأعـادي احتقَرُهـا فَمَالَـــكَ فـــيهمْ مُخْبَـــرٌ يَتَجَسَّـــسُ
لأعـدائِكَ الوَيْـلُ الطَّويـلُ أمـا دَرَوْا بأَنَّـكَ شَـمْسٌ نُورُهَـا لَـيْسَ يُطْمَـسُ؟ [8]

1 اغلس: دخل في ظلمه آخر الليل. والمعنى: أنَّه يرسل كتائبه إلى أعدائه في أول النهار، فيعودون بالنصف في آخر الليل.

2 منخوب: منتزه، نقول: إنه لمنخوب القلب، أي: لا فؤاد له.

3 أسلموا: دانوا بالإسلام. وتمجسوا:دانوا بالمجوسية.

4 تنفس: أصلها تتنفس، أي:تتصدع.

5 أشارهنا إلى دروع الحديد.

6 ترمس : تقبروتدفن.

7 البيض: المراد بها الخوذ. والقندسة: خشبة للبنائين يستعملونها في بناء القناطر.

8 الديوان (174/2-175).

ولا تزال تتجول مع الشاعر ابن سناء الملك، و نتصفح ديوانه، حتّى نلتقي بنصوص رائعة، منها هذا النصّ الذي يصف فيه جيش صلاح الدين بأسلوب يقوم على المحاورة، وهذا الأسلوب يعطي الوصف حيوية وحركة، ويزيد الصورة قوةً وجمالاً، ولاسيّما حين يأتي بالأضداد، وهو ما يسميه رجال البلاغة "الطباق" وهو وجود ضدين معاً، وحينئذ، تنشأ الحركة عن الدين، وتتجسد الصورة، ويقول: (من الطويل)

إذَا مَا صَلَاحُ الدِّين سارَ بجيشه ... فليسَ الحمَى، إنَّ أَمَّهُ الجَيْشُ بالحمَى [1]

تكاثفَ فيه النَّقْعُ، وَاسْتُلَّت الظُّبى ... بآفَاقِه حَتَّى أَضَاء، وَأَظْلَمَا

طَليعَتُهُ الوحْشُ الضَّوَاري مُشبحَةٌ ... وَسَاقَتُهُ الطَّيْرُ الجَوَانِحُ حُوَّمَا [2]

يقولُ الذي يَلْاهُ: كَمْ فيه فَارساً؟ ... فَيُخبِرُهُ المَهْزُوم: كَمْ فيه ضَيْغَمَا؟

وَكَمْ فيه من يلقى الكميَّ مقنعاً ... بفَرْحَة مَنْ يَلقى الحَبيبَ مُعَمَّمَا؟

وكم فيه مَنْ يَرْمي بَبَعْضِ سِهَامِهِ ... فَيَتْرُكُ دِرْعَ القِرْنِ بُرْداً مُسَهَّمَا؟ [3]

حقاً، إنها صورة جميلة معبّرة، مؤثرة أخاذة، ولكن الذي يسترعي انتباهنا هي تلك الصورة التي رأيناها كثيرا ما تتردد عند الشعراء الذين أولعوا بها، وهي صورة الطير التي تحوّم فوق الجيش أو ترافقه خماصاً، لتعود بطاناً، وكأنه تعوّد على هذه الولائم التي عوّدها المسلمون عليه في حروبهم ووقائعهم.

ويعجب الشاعر ابن سناء الملك بصلاح الدين الأيوبي، و يأخذ على عاتقه تسجيل بطولاته بأشعاره لتكون سجلاً تاريخياً يسطّر بها تلك الأحداث والوقائع، وما آلت إليه بانتصار المسلمين على الكفر والطغيان، فها هو يخلّد لنا بقصيدته الميمية معركة من معاركه البطولية، ويصف لنا فيها تحرك جموع صلاح الدين في الصباح، وهم يشرعون سيوفهم الحادة، وقد غطاهم الغبار، حتى أصبح الصباح ظلاماً، وساء صباح الفرنج؛ لأنه صباح فيه الرماح هي النجوم، وأما الجيش فيشبه بالأسود الغاضبة، وبالطيور الجارحة الجائعة، لا يشتكون من شدائد المعارك قوة وشجاعة وبسالة، تعفّ نفوسهم عن كسب الغنائم، بقدر حرصهم على كسف الغنانم، بقدر حرصهم على كسب المغانم

1 والمعنى: لم يعد الحمى محمياً بعد أن اقتحمه صلاح الدين.

2 مشيحة: مقاتلة.

3 ديوان ابن سناء الملك (273/2). وبرداً مسهماً: ثوباً ثَقَبَتْه السهام.

التي هي نفوس الفرسان وأرواحهم، وكانت سيوفهم كفيلة بالتحدث عنهم، ونائبة عن صمتهم، بجزّ الرؤوس من الأعناق، وما من نائم إلّا وأيقظه الدم، حتى أصبحت الديار التي احتلها الكفار تعود إلى أصحابها المسلمين موطوءه سهلة، تحولت فيها الّاعشاب من الإخضرار إلى الحمرة من كثرة ما أريق فيها من دماء الأعداء، ويقول: (من الطويل)

طَلَعَتْ عَلَيْهِمُ بالصَّبَاح مِنَ الظّبى ... يُحيطُ به ليْلٌ مِنَ النَّقْع مُظْلِمُ[1]

فَسَاءَ صَبَاحُ المنذَرين، لأنَّه ... صباحٌ بِهِ زُرقُ الأسنَّةُ أنْجُمُ

وجيشٌ به أُسْدُ الكريهة غُضَّبٌ ... وإن شئتَ عقبَانُ المنيَّة حُرَّمُ

يَعفُّونَ عَنْ كَسْب المَغانم في الوَغَى ... فَلَيسَ لَهُم إلّا الفَوَارسَ مَغْنَمُ

إذَا قَاتَلُوا كَانُوا سُكُوتاً شجاعةً ... ولكن ظُبَاهُمْ في الطُّلى تَتَكَلَّمُ[2]

ضَرَبْتَ بهمْ قوماً نياماً جهالة ... فلا نائمٌ إلَّا وأيقظَهُ الدَّمُ

أَلفْتَ ديارَ الكُفْر غَزْواً فَقَدْ غَدَا ... جوادُك إذْ يَأْتِي إليْهَا يُحَمْحِمُ[3]

شننتَ بِهَا الغَارات حتَّى نباتُها ... وأعشابُها مِنْ حُمْرَةِ الدَّمِ عَنْدَمُ[4].

وما أجمل ما يقوله الشاعر، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وجنى المسلمون ثمارها، وعمّ الإسلام ديارها، وفرّ منها كفارها:

فَكَم قَدْ أَقيمَتْ جُمْعَةٌ ناصريَّةٌ ... بهَا وَمصلّيها الخَميسُ العَرَمْرَمُ

وكَم بَيعَةٍ قَدْ أَصْبَحَتْ وَهْيَ جَامِعٌ ... وكَمْ كَافِرٌ أَضْحَى بِهَا وَهْوَ مُسْلِمُ[5]

ودخلت سنة الخير على المسلمين سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، حين عزم السلطان صلاح الدين على قصد الكرك، فالتقى مع الفرنج في طبرية، فاقتتلوا قتالاً شديداً، و تحقق النصر والظفر على ذلك الخبث، وكان "هناك عتاة، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولو الأثرة عثرى، والقوامس قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد"[6]، وفكّت رابطة

---

1 الظبى:جمع ظَبَة، وهي حدّ السيف، والنقع : الغبار

2 الطلى: الأعناق

3 يحمحم الفرس: يصوّت إذا طلب العلف.

4 العندم: شجرٌيُتَّخذُ منه صبغٌ أحمر

5 ديوان ابن سناء الملك (292/2).

6 النص للعماد الأصفهاني، انظر: الروضتين (78/2).

العقد، فأخذت المدن تتهادى كالعرائس تخطب صلاح الدين، فهاجت عواطف الشعراء وأحاسيسهم، تزفّ البشرى، و تنقل وقائع الزفاف فها هو ابن سناء الملك يشارك في نقل وقائع احتدام المعارك في الكرك وغيرها من المدن، ويصف لنا السيف الذي وضع في رقاب الأعداء، وقد صبغ بدمائهم فغاب لونه، ويهدد الشاعر الفرنج، بقوله: لا تظنّوا أن صلاح الدينْ سلَّ عليكم سيفه بكفّه، بل لقد سلّ عليكم كَفَّهُ بسيفه، لأَنَّ الفعلَ لليد لا للسيف، وإِنَّ سيوفَهُ قد اخضرّت من شدّة الصقل حتّى صارت كالبقل خضرة، ولسوف يرعى بها الرؤوس كرعي الظِّباء للبقل، وما أجمل الصورة التي يصور بها السيوف وهي تقد نعال الحديد في أسفل أغمادها، من حدتها وتوقدها، ورغبتها في أن تحزّ الهامات قبل ان تصقل، وأن تخرج من غمودها بلا سلَّ، ويقول: (من الطويل)

إِذَا رَاسَلَ الأَعْدَاء يَوْمَاً فَإِنَّمَا ... كتائبُهُ كَالكُتب وَالخَيْلُ كَالرُّسل

لَهُ صَارمٌ يَشْفي به الدِّينُ صَدْرَهُ ... وَيُنْجزُ وَعْدَ النَّصْر منه بلَا مَطل

يُغَيِّبُ عَنَّا لَوْنَهُ بنَجيعه ... فَمَا يتحلَّى سَيْفُه حُلَّةَ الصَّقْل

فَلَا تَحْسَبُوا بالكَفّ جَرَّدَ نَصْلَهُ ... وَلكنَّهُ قَدْ جُرِّدَ الكَفُّ بالنَّصْل

ظُبَاهُ كَمثْل البَقْل لَوْنَاً، وَإِنَّها ... لترعى العدَا رَعْي الظُّبا وَرَقَ البَقْل

حدادٌ عدَاةٌ للْحَديد تَقُدُّهُ ... منَ البُعْد حَتّى كُلّ غمد بَلَا نَعْل[1]

تكادُ تَقُدُّ الَهامَ منْ قَبْلِ طَبْعِهَا ... وَتَخْرُجُ مِنْ سِجْنِ الغُمُودِ بِلا سَلُ[2]

الوطيس، تم التجهيز لها بدّقة، ولم يملّ الشاعر بعد هذا الوصف من التغني، وتجسيد قوة هذا الجيش الذي شرع الشاعر بتسجيل معنوياته، وقوة عزيمته، مبتدئاً باستفهام عن (الكرك) التي فقدت أولادها، قائلاً: ألن تعود إلى الإنجاب مرة أخرى؛ لما لحق بها من الهلاك والدمار، بعد أنْ كان هؤلاء الأبناء كالعقد يحمونها، وأوهاها جيش صلاح الدين، وأصبح كالقيد لها؛ إنّها صورة جميلة حقاً، وكان العقد يجمّلها، فاضحى الغُلّ يطوّقها، نعم، إنَّه الجيش الذي صام عن الطعام والشراب، فورد ظمآن ليسد ظمأه بأرواح الأقران، وجوعه بسلب نفوس الفرسان الشجعان، ويقدم أرواحه للموت في سبيل الله، بسرعة تفوق سرعة السّهام في انطلاقها، ويقول:

---

1 النعل: حديدة من أسفل غمد السيف.

2 ديوان ابن سناء الملك (223/2).

هَـل الكَـرَكُ الثَّكْلـى بأولادهَـا انتهَـتْ ... عَـن النَّسْـل ممَّـا جُرِّعَتْـهُ مـنَ الثَّكْـل؟
وَكَـانُوا لَهَـا كالعقـد لكنَّـهُ، وَهَسـى ... وَأَضْـحَى لَهَا جَيْشُ ابـن أَيـوبَ كَالغُـلّ
أَتـاهُمُ بمثـل الرّمـل يُثْقُـلُ خَـيْلَهُمْ ... إلـى الأُفْـق مَا فـوْقَ الطَّريـق منَ الرَّمْـل
عسـاكر أرواحُ العسـاكر شُـرْبُهُا ... ولـيس لَهَـا غيـرُ الفَـوَارس مـنْ أَكْـل
إذَا مَـا انحنـوا للحمـلْ حَـاكَوْا قسيّهمْ ... عَلَـى أَنَّهُـم للمَـوْت أَجَـرىَ مـنَ النَّبْـل
يكلّفُهُـم غَـزوَ الفَـرَنْجِ بِـدَارِهِمْ ... وَيَسْـهُلُ إِلّا أَنَّهُـم لَـيْسَ بِالسَّـهْلِ[1]

ويستعرض الشاعر شاعريته من خلال نفسه الطَّويل، بأسلوب جزل، وتراكيب حسنة السبك، وحرص على إيصال المعاني المنشودة بوضوح وجلاء، وقوة إيحاء، فها هو يكمل وصفه لأرض المعركة التي امتلأت أرضها بالجيف والجثث والقتلى حتّى سدّت سبلها، فكانت فراش الأرض، وموطئاً لأرجل الجيوش، وأما الجياد فإنها تخاف من أنْ تتعثر بالرماح التي انقصفت في أجساد الأعداء الى نصفين، كما أنها تخشى أنْ تنغرز أرجلها بالوحل من كثرة الدماء، وهي لا تخالف امرك- يا صلاح الدين- بل تنطلق ولو كانت مقيّدة لتلحق بمن عاديته، بل لو جرّت أرجلها لانطلقت غير آبهة بذلك ولسعت كما يسعى الثعبان دون أرجل، وكذلك الأمر في السيوف المتعطشة لدماء الأعداء، والمشرئبة لأعناق الفرسان وتسعى بلا أرجل ولا راجل؛ وكانت النتيجة الحتمية لتلك البلاد والقلاع والحصون، فقد جنى محتلوها ثمار الشّر والعدوان والجريمة، وأضحى برنسهم يلعن أيامه الجميلة التي قضاها مع عروسه، وتقابله عروسه أيضاً باللعن والشتم والسباب، وتحقق النصر والجلاء المسلمين وعمّ الموت والبلاء على الكافرين الآتمين، ويقول:

إذَا كنـت مـن قـتلاكَ تمـلأُ سُـبْلَها ... فكيـفَ يَسيرُ الجَيْشُ فيها بـلا سُـبْل؟
جيـادُهُمُ تَخْشَـى العثَـارَ مـنَ القَنَـا الـ ... ـقَصيف، وتَخْشَى في الدّماء منَ الوَحْـل
وَمَـا خَالَفَتْـكَ الجُـرْدُ قَـطُّ، وإنَّهـا ... لَتَلْحَـقُ مَـنْ عَادَيْتَـهُ، وَهْـيَ في الشَّـكْل[2]
وَأَرْجُلُهَـا لَـو قُطِّعَـتْ لَسَـرَتْ بِمَـنْ ... عَلَيْهَا لَهُـمْ، وَالصِّـلُ يَسعَى بـلا رجُـل[3]

---

1 ديوان ابن سناء الملك (224/2).

2 الشكل: القيد والربط.

3 الصّل: الحيّة.

جَنَى أَهلُ تلكَ القَلعَةِ الشَّرَّ إِذْ رَأَوْا هَوَاديهَا كَالبَاسِقَاتِ مِنَ النَّخْلِ[1]
غَدَا بَعْلُهَا الإِبْرِنْسُ يَلْعنُ عُرْسَهُ بهَا وَهْيَ لَا تَنْفَكُّ مِنْ لَعْنَةِ البَعْلِ
يَرَى الخَيْلَ والفُرْسَانَ يَغْشَونَ رُوحَهُ فَيُضطرُ لاسْتعماله غَفْلَةَ الغُفْلِ
وَقَدْ رَجَمَتْهَا المنجنيقَاتُ إذا رَمت لشيخ لَعين كَافر جَاهلٍ رَذْلِ
فَماتَتْ، وَمَا قَد مَاتَ يُفْتَح ملكُهُ فَخَلّفَهَا تَبكِي الفُرُوعُ عَلى الأَصْلِ[2]

ولم يتوقف الشاعر عند نهاية هذه المعركة، بل أخذته الحمية، فأخذ على عادة الشعراء الفرسان– من أمثال عنترة– يتنقل من وصف معركة إلى معركة أخرى بلهفة، وحماسة شديدتين، مع حرصه على تماسك أجزاء القصيدة، وترابط أفكارها، وتسسل عناصرها، والتحام أجزائها، فهاهو ينقلنا لنشاهد موقعة جديدة، وذلك حين فتح صلاح الدين نابلس[3]، وأمطرها بوابل من سهامه، ووميض بيضه، واغشاها بليل جيشه، وقتام نفعه، فارتوت الأرض بالدماء، وعانقت القنار الجماجم، وتكسرت الصلبان، وأصبح جيش الفرنج بين قتيل في أرض المعركة وجريح يصيح أنينا، وهارب تلحقه السهام، وطريد بلا مأوى، وأسير مثقل بالسلاسل، وصوت الحقّ يعلو ويرتفع على المآذن، ويقول:

فَنَابُلس لمَّا أنْ نزلتَ برَبْعهَا أَقَامَتْ بهِمْ حقَّ الضِّيَافَة وَالنُّزُلِ
أَحَسُّوا بطلٍ للخريف فجاءَهم ربيع من النَّبل المسدَّد كَالوَيْلِ
ولم أرَ أرضاً جادَها الغَيثُ قبلَهَا وتُصبحُ تشكُو بَعْدَهُ غُلَّةَ المَحْلِ
وما شَرِقُوا بالماء والرِّيق إذْ رأوا جيوشَك لكن بالفوارس والرَّجْلِ
شببتَ وقودَ الحرب بالبيض والقنا عليهم فقد أضحتْ دماؤُهُم تَغْلي
وما أُغْمدَتْ عنهم سيوفُكَ أو أَتَتْ على الغرِّ والشَّيْخ المُغَفَّل والكهلِ
يعانقُ في قتلاهُمُ فيه عابد الـ (م) ـصليب –بَلَا حُبٍّ لَهُ– عابدُ العجْلِ

---

1 هواديها: المتقدمات من الخيل.

2 ديوان ابن سناء الملك (224/2).

3 ويخالف الشاعر حقيقة تاريخية ذلك أنَّ كثيراً من المدن، مثل: عكا، ويافا، والناصرة، وقيسارية، وغيرها قد فتحت عنوة بالسيف، أما نابلس فقد فتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان وأجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان؛ لأن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين- لكنها بقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده. انظر الروضتين (87/2-88)، ونحن نعرف أنه من عادة الشعراء أن تاخذهم نشوة الظفر والفتح. ويبدو أنَّ الشاعر قد رأى المدن تهاوى بعضها وراء بعض عنوة وسلاماً، فأخذته الحمية فراح يتغنى بهذه البطولات.

أَبْـدَتَ النَّصَـارىَ وَاليَهـودَ بمعـرَك ... ومـا جَـاء هـذَا قـطّ في سـالف النَّقْـل
وكانـت بهـم تلـكَ الـبلادُ تَنَجَّسَـتْ ... فَنَـابَ دمٌ مـنهمْ عَـن المـاء في الغَسْـل
ولـم يبـقَ إلّا مـن سـبىَ الجيشُ مـنهمُ ... وإن كان يَسْبي الجيش بالحُدُقِ النُّجْلُ
عـذارى أسـارى كُبّلـت بشـعورهَا ... فَجَرَّحَهـا في السّـاق والمعصـم العَبْـلُ
وقـد شُـغلَتْ عَـنْ أَهْلهَـا بإِسـارها ... وأَنْـتَ بشُـكر الله في أَشْـغَل الشُّـغْل
تكبِّـرُ فيهـا اللهَ في الجـامع الـذي ... جَمعـتَ بـه بَـيْنَ الفَريضَـة والنَّفْـل
وصـلّيْتَ فيهـا جمعـةٌ بجماعَـةٍ ... تناديـك للإسـلامِ يـا جـامعَ الشَّـمْلِ[1].

ونختم معارك صلاح الدين يوصف معركة (بَيْسَان)[2] التي وقعت سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة وقد فتحت عنوة بالسيف، وواصفها هو الشاعر ابن الدهان الموصلي الذي يبدا أبياته هذه بوصف حال البلاد، وكيف أصبحت في مأمن يؤمها الجميع، ثم يعرج على دراسة نفسية الاعداء من حيث إعدادهم العدة، وخوفهم من معارك الحق، ويدرس في المقابل نفسية صلاح الدين، ويوضح معنوياته العالية وعزيمته القوية، وتصميمه الأكيد على منازلة الأعداء وفلّ جموعهم، وتشريدهم من أوطانهم، وقتل فرسانهم، وأسر أمرائهم، من أجل إعلاء كلمة الحق، ونشر العدل والأمان، ويقول: (من الطويل)

وكانت حمى أرضُ الفرَنْج فأصبَحَتْ ... سـبيلاً لأبنـاء السَّـبيل مُـذَلّلا[3]
خَشـوْا أَنْ يُلَاقُـوا جَحْفَـلاً كـلُّ فـارس ... يعدّونَـهُ منْـهُ خَميسـاً وَجَحْفَـلا
ولـوْ أَنَهّـمْ أَضـعَافهم حـينَ جَمَّعُـوّا ... جمـوعَهُمُ مَـا كـدَّرُوا لَـكَ مَـنْهَلا
وهابُوك حتَّى الفَارسُ الشَّـهْمُ مَنْ رأىَ ... بجَيشـكَ نَـاراً أو تأَمَّـلَ قَسْـطَلا[4]
وَلَـو أَنَّهُـمُ كَالرَّمـل أو عـددِ الحَصَـى ... لمـا بيَّنُـوا إذْ عَـايَنُوكَ كـلّا ولَا[5]

ويبدأ بوصف هذه المعركة الكبيرة التي وقعت بين صلاح الدين والفرنج في بيسان بغَوْر الأردن،وبقوله:

وفي يـوم "بيسـان"سَـقَيْتَهُمُ الـرَّدَى ... وغـادَرْتَ أَخْـلَافَ المنيَّـة حُفَّـلا

1 ديوان ابن سناء (224/2-225).

2 مدينة بالأردن بالغور الشامي، بين حَوْران وفلسطين. (معجم البلدان 527/1).

3 السبيل : الطريق. وأبناء السبيل : أبناء الطريق الذين قطع عليهم الطريق.

4 القسطل:الغبارعامة، وهنا : غبارالحرب.

5 ديوان ابن الدهان الموصلي، ص42-43. وقوله: (كلا ولا) كنايةٌ عن القلة.

وَطئْـتَهُمْ رُغْمـاً فَلَـمْ يُغْـنَ حَشْـدُهُم ومَـنْ ذَا يـردُّ السَّـيْلَ مـنْ حَيْـثُ أَقْـبَلا
بخيــل إذا اَوْلَيْتَهَــا الــنَّجْمَ حَلَّقَــتْ إِليـــه وَإِنْ أَوْطَأْتَـــهُ الحَـــزْنَ أَسْـــهَلَا
وضـرب يَقـدُّ البيضَ كـالبيض عنـدَهُ وطعـن يُريـك الزَّغْـف بُـرْداً مُهَلْهَـلا[1]
وكـــم أســـمرٍ أَوْرَدْتَ أَوْرِدَة العِـــدَا وكـم أجْـدَلٍ عـافٍ قَرَيْـتَ مُجَـدَّلا[2]

وينتقل إلى ذكر نتائج المعركة، وقد نصّب صلاح الدين قاضياً ليحكم في مصير هذه المعركة:

فَقَسَّـمْتَهُم في المُلتَقَـى قسْـمَ جَـائر وإنْ كُنْـتَ فـيهمْ عـادلاً وَمُعـدَّلا
قتـيلاً صـريعاً، أو جريحـاً مُضَـرَّجاً وخِـلَّاً طريـداً، أو أسـيراً مُكَـبَّلا[3]

أقول: قوله(قسمتهم قسم جائر) لا يعني تمرّده، ولكنه لما رآه قد قسمهم الى قتلى وجرحى وهاربين وأسرى، سمّى ذلك (جوراً) وإن لم يكن صلاح الدين جائراً بل كان (عادل معدّلا)، ثم أخذ يلحّ إلحاحاً شديداً على وصف ما آلت إليه الجموع لغفيرة من الفرنج بأسلوب ساخر تهكمي:

تَولـوا عـن النّـار التـي أَوقـدَتْ لهـمْ مـنَ الحَـرْب علْمـاً أَنَّهـا لَـيْسَ تُصطَلى
وأشـجعُهُم مَـنْ حَـاوَلَ العَـيْشَ مُـدْبراً مـنَ الخُضْـر لمـا عَـايَنَ المـوتَ مُقْبلا[4]
وَفَـاتُوا القَنَـا مُسْـتَعْظمينَ قتـالهُم مـنَ الـذُّل وَالإرْغَـام مَـا كَـانَ أَقْـبَلا
فـإنْ لَـم يُجَلِّلْهُـمْ إسـارٍ ومقتـلٌ فَقَـد رَكبُـوا خْـزْيَ الفـرار المُجَلَّـلا
وَمَـا كَـانَ ذَاكَ الفـوتُ بَعْـدَ اقتِـرَابِهِمْ مـن المـوتِ حَـوْلاً بَـلْ كِتَابـاً مُـؤَجَّلا[5]

وإن هذه المعارك البطولية التي خاضها صلاح الدين وأضرابه استحقت من الشعراء كلمة ثناء وشكر، وجذبت قرائحهم، لينظموا غرر قصائدهم، وليسجلوا بها التاريخ المشرق في جبين العصور الإسلامية، وليجسدوا بها أسمى آيات النصر والظفر والفوز، وليخلدّوا

---

1 الزغف: الدرع الواسعة المحكمة.
2 ديوان ابن الدهان الموصلي، ص43-44.
3 ديوان ابن الدهان الموصلي، ص44.
4 الحضر: إسراع الفرس في عدوه.
5 ديوان ابن الدهان الموصلي، ص44-45.

بها أمجاد أمة إسلامية خاضت الوقائع و الحروب والمعارك من أجل إعلاء كلمه الحق، ونشر العدل، ولينقلوا الحقائق بلا كذب، أو مراء، أو زيف.

وكان من واجبنا أنْ نقف وقفة أطول مما وقفنا، و دراسة متأنية أكثر ممّا درسنا، وتحليلاً أعمق ممّا حلّلنا، ونخص بالذكر معارك صلاح الدين لولا أن طبيعة الموضوع اقتضت ذلك، ورغبتنا في مواصلة وصف الشعراء للحروب ووقائع البقية الباقية من سلاطين العصر الأيوبي.

وننتقل الى قائد آخر من القواد الذين استحقوا مدائح الشعراء، وتسجيل حروبهم هو الملك العادل محمد أخو صلاح الدين الذي اشتهر ببسالته في الحروب براً وبحراً وبحسن تدبيره وسياسته، والنص الذي بين ايدينا لأخيه الشاعر تاج الملوك بوري، وهو مقتبس من قصيدة طويلة في مدحه، يتناول فيها اموراً كثيرة صادفته حين خرج من مصر إلى ان وصلت دمشق، منها هذا الوصف الذي يتحدث فيه عن مجابهة وقعت بين جيشه وجيش الفرنج؛ وكان الشاعر حريصاً على إظهار قوة جيش المسلمين، وحسن إعدادهم، وما إن حصلت المجابهة، واحتدمت المعركة حتى رأينا غبارها وقد حوّل جوّها إلى ظلام دامس لكثافته، لكن السيوف الحادّة، والدروع المتينة المحكمة النسيج أضاءت هذا الظلام، واستطاعت السيوف جني ما غرسوا، وجاءت النار على الأخضر واليابس، فلم تبق ولم تذر، وخلفت الديار قفاراً، وجعلتها أطلالاً، يقول:(من البسيط)

واستقبَلوا أَصُلاً أَرْضَ "السَّراة" عَلى الـ ... جُرْد الجيَاد، وَعُدَّتْ للْوَغَى العُدَدُ[1]

واسْتَلأَمُوا حينَ حَلُّوا "القريتين" ضُحىً ... وكلُّ لأُمَةِ حرب تحتها حيدُ[2]

فكانَ يوماً إذا اشتدَّ الظَّلامُ به ... منَ العجاج أَضَاءَ البيْض وَالزَّرَدُ[3]

ويوم غارتنَا أَنَّهُ أَبداً ... وَقَدْ تَيَقَّظَ قَوْمٌ بَعْدَ مَا رَقَدُوا

وأَقْبَلَ "الشُّوبَك" الممنوعُ جَانِبُهُ ... وَقَدْ أَطَافَتْ به الطَّعَّانَةُ النُّجُدُ[4]

---

1 أي استقبلوا أرض السراة وقت الأصيل، أي العشي. والسراة: سلسلة جبال في الجزيرة العربية تمتد من الشمال الى بلاد اليمن جنوباً، وهي الحاجزبين تهامة ونجد، ومنها اسم بلاد الحجاز.

2 استلأموا: لبسوا اللأمة وهي الدِّرع. والحيد: ما شخص في من نواحي الشيء. يريد: أن كل الأمة حرب يرتديها شجاع قوي شامخ كالجبل. والقريتان: قرية كبيرة من أعمال حمص(معجم البلدان: قريتان).

3 الزرد الدرع المزرودة، أي: محكمة النسج، مثبتُهُ.

4 الشوبك:قلعة حصينة معروفة في أطراف الشَّام. (معجم البلدان:الشوبك)

ثُـمَّ اجْتَنَيْنَـا ببِـيض الهنْـد مَـا غَرَسُـوا وَالنَّـار مَـا زَرَعُـوا فيـه، وَمَـا حَصَـدُوا
ثُـــمَّ ارْتَحَلْنـــا، وَخَلّفْنَـــا دِيَـــارَهُمُ بَلَاقِعـــاً، لَـــيْسَ إِلّا البُـــوم وَالوَتَـــدُ[1]

وهذا النّظام المصري جبرائيل بن ناصر بن المثنى السلمي يتغنّى بقوة جيش الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، ويجعل الشاعر الجيش أكثر إظلاماً من الليل نفسه؛ لأن الليل يضيع فيه من كثافته، في حين ان غبار الحرب تحجب نجوم السماء لكثافتها أيضاً، ويرسم صورة أخرى هي صورة الليل الذي سكنت فيه المشاعل او أطفئت، وكان عوضاً عنها تلك المشاعل المضيئة عن وقع حوافر الخيل المُنْعَلَةَ، ويبدو لي أن الأرض وعرة فيها صوان وحجارة صلبة، حتّى يصدر عنها مثل ذلك، أما الرايات فيصوّرها لكثرتها، واختلاف ألوانها، وتتابعها، وكأنها أفاع تأوي الى جحورها في تتابع منتظم، يقول:(من الطويل)

بجـيش يضـيعُ الّليـلُ فيـه إذَا سَـرَى وَتُخْفِـي نجـومَ الجـوُ منـه القَسَـاطلُ[2]
إذَا مـا خَبَـت فِيـه المشـاعلُ عَاضَـهَا مـنَ أيـدي الجيـاد المُـنْعَلَات مَشَـاعلُ[3]
وتَطَّـــردُ الرَّايَـــاتُ فيـــه كَأَنَهَـــا أفـــاع إلـــى أوكـــارهنَّ جَوَافـــلُ
فَما لاحَ ضوءُ الصّبح حتّى تحكمَتْ لهُـــم في أَعَـــاديهم قَنَـــاً وَمَنَاصـــلُ
كـأَنَّ مُثَـارَ النَقْـعِ سُـحْبٌ، وبيضَـهُم بُـــرُوقٌ تَـــلالا فيـــه، وَالـــدمُ وَابِـــلُ[4]

انها حرب حامية الوطيس- كما يصورها الشاعر- فَوَقْع حوافر الخيل، وجلبة الرجال، ولغط الأبطال، واصطكاك لجم الحديد، وغبار المعركة المتصاعد في السماء كأنه السحب، ولمعان السيوف كأنها البرق، و جريان الدم وتناثره في كل مكان كأنه المطر، كل ذلك من مكونات عناصر الحرب الضروس، وينهي الشاعر هذه الحرب مع تنفس الصباح بعد أن حكّم جيش ممدوحه الرماح والسيوف في الأعادي.

ونعرج بعد ذلك على الرعيل الثاني في الأسرة الأيوبية، و نستعرض بعض النماذج الشعرية التي وصفت حروبهم.

---

1 ديوان تاج الملوك الأيوبي، ص 136-137-والبقيع: مفرد البلاقع، الأرض القفر. والبوم والوتد: كناية عن الخراب الذي لحق بهذه الديار.

2 القساطل: جمع القسطل وهو غبار الحرب.

3 خبت:خمدت وسكنت وطفئت.

4 الخريدة(قسم شعراء مصر) (2/140-141).

فلبهاء الدين زهير وصف رائع لمعركة جرت بين المسلمين بقيادة الملك الكامل ناصر الدين أبي الفتح محمد بن الملك العادل والفرنج، وتمكن المسلمون من انتزاع ثغر دمياط سنة ثماني عشرة وستمئة بعد جهاد دام ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً[1]. ويصرح الشاعر عن هذه المعركة بأنها كانت شديدة عتيدة، وقد شبه ليلة غزو المسلمين للعدو بليلة النحر لكثرة ما نحر فيها من جنود الأعداء، وذهب إلى أبعد من ذلك، حين أخذ يتغنى بهذه الليلة، وكأنه عجز عن تسميتها، فراح يشبهها بليلة القدر، يقول: (من الطويل).

وليلـــةِ غَـــزْوٍ للعـــدوُ كأَنَّهَـــا	لكثـرة مَـنْ أردَيْتَـهُ لَيْلَـةُ النَّحْـر
فيـا ليلــةً قَــدْ شَــرَّفَ اللهُ قَــدْرَهَا	وَلَا غَــزْوَ إنْ سَــمَّيْتَهَا لَيْلَــةُ القَــدْرِ[2]

ثم يخوض الشاعر بعمق حين يبدأ بوصف الأساطيل والجيش والخيل، ويفصل ذلك فيقول: لقد استطعت أيها الملك بخيولك السريعة وأساطيلك المرعية أن تسدّ على الأعداء طرق البَّر والبحر، وتضطرهم للإستسلام والإذعان، ولقد كانت أساطيلك في عظمتها وهولها كأنها الأساطير، وكان جيشك الجرار مَهُولاً مهيباً كأنه الليل المدلهم الذي تجد أصحابك فيه هم نجومه وكواكبه الساطعة، ويستطرد في القول الى وصف حالة الجيش، قائلاً: وباتت جنودك جنود الله- حُبّاً في الجهاد- مرابطة فوق الخيول الضوامر المهيأة لخوض المعارك، ويضيف للصورة جمالاً حين يصف هذا الخيول بأن أنواراً ساطعة تشع من جباهها فتضيء الطريق للسُّرَاة تغنيهم عن مطلع الفجر، يقول:

سَـدَدْتَ سَـبيلَ الـبرِّ والبَحـر عَـنْهُمُ	بسَــابحَة دُهْــم وَسَــائحَة غُــرّ[3]
أَسَاطيلُ لَيْسَـتْ في أَسَاطير مَنْ مَضَـى	بكُــلِّ غُــرَاب رَاحَ أَفْتَـكَ مــن صَـقْر
وجـيش كمثـل الَّليــل هَـوْلاً وَهَيْبَـةٌ	وإنْ زَانَــهُ مَــا فيــه مــنْ أَنْجُــم زُهْــر
وبَاتَــتْ جُنُــودُ الله فَــوْقَ ضَــوَامرٍ	بأَوْضَـاحِهَا تُغْنِـي السُّـرَاةَ عَـنِ الفَجْـرِ[4]

1 انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور 1/262.

2 ديوان البهاء زهير، ص 101.

3 سابحة دهم: الخيول السود. وسائحة غرّ: الطيور البيض.

4 ديوان البهاء زهير، ص101. والسراة : الماشون ليلاً. وأوضاحها: جمع وَضح، وهو البياض والضوء.

ونلاحظ أن الشاعر يلحّ إلحاحاً شديداً على أن هذه المعركة هي معركة دينية، ويركز على العناية والرعاية الإلهيه لجيش المسلمين، لجهادهم وصبرهم وعزيمتهم، فكان النصر من عند الله:

فَمَا زِلْتَ حتَّى أَيَّدَ اللهُ حِزبَهُ ... وَأَشْرَقَ وَجْهُ الأَرْضِ جَذْلانَ بالنَّصرِ

ثم يعود الشاعر ليصف وقائع المعركة، فيروي لنا أنَّ الملك نثرتهم فوق الأحَيْدب نثرة، ارتوت منها السيوف الظماء، والرماح العطشى، وشبعت من لحومهم ذئاب الفلاة الطاوية، ونسور الفضاء الخاوية، ويتعجب الشاعر من ذلك اليوم، ويقول ما أجله، وأعظمه، يوم دخل المسلمون بجيوشهم المظفّرة دمياط فتطايرت الأعلام في كل مكان بسرعة و شدة وعنف مزدانة بالنصر مرفرفة بالفوز والأمان:

فَرَوَّيْتَ منْهُم ظَامِىءَ البيض وَالقَنَا ... وَأَشْبَعْتَ منْهُمْ طَاويَ الذِّئْب وَالنَّسْر

فللَّه يَوْمُ الفَتْحِ يَوْمَ دُخُولِها ... وَقَدْ طَارَت الأَعْلامُ مِنْهَا عَلَى وَكْرِ[1]

ولكن الشاعر من شدة إعجابه أخذ يفصّل في صورة ذلك الجيش المنهزم قائلاً:

وَجَاءَ مُلُوكُ الرُّوم نَحْوَكَ خُضَّعاً ... تُجَرِّرُ أَذْيَالَ المَهَانَةِ وَالصُّغْر

فَمَنَّ عَلَيْهِمُ بالأَمَان تَكَرُّماً ... عَلَى الرّغم منْ بيض الصَّوَارم والسُّمر

لَكَ اللهُ مَنْ أَثْنَى عَلَيْكَ فإنَّمَا ... مِنَ القَتْلِ قَدْ أَنْجَيْتَهُ أَوْ مِنَ الأَسْرِ[2]

وعلى الرغم من جمال هذه الصورة فإني أرى أنَّ هذه القصيدة اعتمدت على النغم الهادئ الذي يخلو من إيقاع الحماسة الذي يجسّد صوت الحرب والجلبة والضوضاء، فهي أقرب إلى التآلف في النغم الذي عني به الشاعر كثيراً ورصّعه بالجناس تارة، والطباق مرة أخرى، ولا نعتقد ان شاعراً من الشعراء استطاع ان يبدع في تكوين صورة للحرب، او ان يخلق جواً بطولياً مثلما فعل أبو تمام في قصيدته المشهورة في فتح عمورية، أو مثلما فعل المتنبي بقصائده في مدح سيف الدولة الحمداني، وتمجيد بطولته وفروسيته. ولسنا بصدد تعليل هذه الظاهرة ولكننا ارتأينا أن نثبت هذه الحقيقة ولا سيّما ونحن نتحدث عن الحروب والمعارك والفروسية، وما إلى ذلك.

1 ديوان البهاء زهير، ص102.

2 المصدر السابق نفسه.

وقرأنا في القصيدة السابقة ان الملك الكامل صاحب مصر قد دخل حرباً بحرية مع الفرنج، على ثغر دمياط، وفي السنة نفسها توجه الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل صاحب الشام، ومعه الملك الأشرف موسى صاحب حمص، لنصرة أخيهما الكامل في هذه المعركة، وما أن وصلا حتّى أخذت غرر القصائد تنظم فيهم، خاصة بعد زوال الفرقة والخلاف، وخلق جو المحبة والوئام بينهم، فهذا الشاعر ابن عنين يمدح الملك المعظّم عيسى، ويصف معركته مع الفرنج على هذا الثغر، بقصيدة طويلة يستهلها بهذا المقطع الرائع الذي يطلق عليه رجال البلاغة "حسن الابتداء" يقول فيه: (من الطويل)

سَلُوا صهواتِ الخَيْلِ يَوْمَ الوَغَى عَنَّا ... إذا جُهِلَتْ آياتُنَا وَالقَنَا الّلدنْنَا[1]

ثم يشرع في ذكر مكان الموقعة، ويصف اجتماع الفرنج على الرأي، والدين، ومع ذلك لم ينفعهم العزم والهمة والرأي والدين والأنصار والصليب العدة والعتاد، وكان المسلمون لهم بالمرصاد، ويسرد لنا الشاعر قصة هذه الموقعة، وما آلت إليه دون تحيّز، وكأنه يذكر هذه الحوادث، ليسجلها التاريخ، يقول:

غَدَاةَ لَقينا دُونَ دمياطَ جَحفَلاً ... مِنَ الرُّوم لا يُحْصى يقيناً وَلا ظَنَّاً

قَد اتفَقُوا رَأْياً وَعَزْماً وَهمَّةً ... وديناً وإنْ كَانُوا قَد اخْتَلَفُوا لُسْنَا

تَدَاعوْا بأنصار الصَّليب فَأَقْبَلَتْ ... جموعٌ كأَنَّ الموجَ كَانَ لَهُمْ سُفْنَا

عَليهمْ مِنَ الماديِّ كُلُّ مُفَاضَةٍ ... دِلاصٍ كقولِ الشمسِ قَدْ أحكمت وَضنّا[2]

نلاحظ ان الشاعر ينهج في وصفه هذا نهج الشعراء الجاهليين في إبراز قوة الخصم ليظهر قوة القرن الآخر، حتّى لو لم يتعرض لوصفه، ويتابع وصفه قائلا:

وأَطمَعَهُم فينَا غُرُورٌ فأَرْقَلُوا ... إلينَا سِراعاً بالجيَاد وَأَرْقَلْنَا[3]

فَمَا بَرحَتْ سُمْرُ الرِّمَاح تَنُوشُهُم ... بأَطرَافهَا حَتّى اسْتَجَارُوا بِنَا منَّا

سَقَيْنَاهُم كَأْسَاً نَفَتْ عَنْهُمُ الكَرَى ... وَكَيْفَ يَنَامُ الَّليْلَ مَنْ عَدمَ الأَمْنَا؟

لَقَدْ صَبَرُوا صَبْراً جميلاً وَدَافَعُوا ... طَويلاً فَمَا أَجْدَى دفَاعٌ ولا أَغْنَى

لَقُوا الموتَ منْ زُرْق الأَسنَّة أَحمرا ... فألقوْا بأيديهمْ إلَيْنَا فأَحسنَّا

1 ديوان ابن عنين، ص29. وَالقَنَا اللدن: الرماح الليّنة.

2 الماذي: كل سلاح من الحديد. والدِّلاص: الدرع الملساء الليّنة. والدرع الموضونة: الدرع المقاربة النسج أو المنسوجة بالجواهر.

3 أرقل: أسرع.

وَمَــا بَــرِحَ الإحْسَــانُ منَّــا سَــجِيَّةُ　　تــوارثَهــا عَــنْ صــيد آبائنــا الأَبْنَــا[1]

مَنَحْنَــا بَقَايَــاهُمْ حَيَــاةً جَديــدَةً　　فَعَاشُــوا بأَعْنَــاق مُقَلَّــذَة مَنَّــا

ولَــوْ مَلَكُــوا يَــأْتَلوا في دمَائنَــا　　ولوغــاً وَلكنَّــا مَلَكْنَــا فَأَسْــجَحْنَا[2]

وَقــدْ جَرَّبُونَــا قَبْلَهَــا في وَقَــائع　　تَعْلَــم غُمــر القَــوْم منَّــا بهَــا الطَّعْنَــا[3]

فَكَــمْ مِــنْ مَليــك قَــدْ شَــدَدْنَا إِسَــارَهُ　　وَكَــمْ مِــنْ أَسِير مِــن شَــقَا الأسـر أَطْلَقْنَـا

أَســودُ وغــىَ لَــوْلا قَــاعُ سُــيوفنا　　لَمَــا رَكبُــوا قَيْــداً وَلاَ سَــكَنُوا سـجْنَا

سَــرَىَ نَحْــوَ دمْيَــاط بكُــلِّ سمَسْــذَع　　نجيب يـرى وِرْدَ الـوَغَى المَـوردَ الأَهْنَـا[4]

فَـأَجْلَىَ عُلُـوجَ الـرّوُم عَنْهَـا وَأُفْرِحَـتْ　　قلــوبُ رجــال حالفــتْ بَعْــدهَا الحُزْنَــا

وَطَهَّرَهَــا مِــنْ رِجْسِــهِمْ بحُسَــامِهِ　　همامٌ يَرى كَسْبَ الثَّنَا المغنم الأَسْنى[5]

وهكذا نرى ان الشاعر يصور قوة المسلمين وإيمانهم وصبرهم وجهادهم في سبيل الله، وما ألحقوه من قتل وأسر وسبي، وما حقّقوه بنصرهم من حماية المسلمين؛ لأَنَّ الفرنج كما يشير الشاعركانوا عازمين على الانتقام وولوغ دمائنا، ولكن نصرنا كان لهم رحمة؛ لأننا احسنّا العفو، ونشرنا العدل.

ونلتقي مع الشاعر ابن عنين أيضاً، ومع ممدوحه نفسه، وفي المناسبة ذاتها؛ ليصف لنا بلاء ذلك الملك وفرسانه، حين التحم الجيشان، وخيّم الموت على الأعداء، وشرقت الرماح بالدّماء، وعزفت السيوف عن أغمادها، وفرّ الجبان، وبقى الشجاع الذي وهب نفسه لأرض المعارك وتنحّى الوضيع، وثبت من زكا أصله وطاب، وكان نتيجة ذلك أن تركوا الأعداء جثثاً هامدة، تتقاذفها الأمواج، فترمي بعضها على الشاطئ طعاماً للذئاب، وتبقي البعض الآخر غذاء للحيتان، يقول: (من الطويل)

ومســتخبر عنَّــا وَمَــا مِــنْ جَهَالَــة　　كَشَــفُتُ العطــا عنــهُ فَــزَالَ ارْتيَابُــهُ

وَأَذْكَرْتُــهُ أَيَّــام دمْيَــاطَ بَيْنَنَــا　　وَبَــيْنَ العــدَا والمَــوْتُ تَهْــوي عُقَابُــهُ

وَجَيْشــاً خَلَطْنَــاهُ رحابــاً صــدورهُ　　بجَــيْش مِــنَ الأعــداء غُلْــب رقَابُــهُ

1 الأبنا: أي الأبناء.

2 أسجح:أحسن العفو.

3 الغمر:من لم يجرب الأمور.

4 الميذع:واحد السماذع، وهو الشجاع.

5 ديوان ابن عنين، ص30-31.

وَقَــدْ شــرقتْ زُرْقُ الأَسـنَّة بالـدِّمَا وَأَنْكَــرَ حــدُّ المَشْــرَفِيِّ قَرابُــهُ[1]

وَعَــرَّدَ إِلَّا كــلَّ ذمْــر مغــامس ونكَّــبَ إِلَّا كــلَّ زَاكٍ نصَــابُهُ[2]

تَركْنَـاهُمُ في البَحْـرِ وَالبَـرِّ لُحْمَـةً تقاســمهمْ حِيتَانُــهُ وَذِئَابُــهُ[3]

ويطـل علينـا الشـاعر في القصـيدة نفسـها بمعركـة أخـرى ليجسّـد بطولـة الملـك عيسـى، ويصف لنا نثر جماجم الفرسان الأقوياء على الوادي، وكيف ذلَّـل الملكُ ملوكَ الأرض بسيوفه ورماحه، حتّى ترك ديار الفرنج خراباً دماراً، يقول:

ويومـاً على "القَيْمُـون" مَاجَتْ متُونُـه بــزُرْق أَعَاديــه وَغصَّــتْ شــعَابُهُ[4]

نَثَرْنَـا عَلَـى الـوادي رُؤُوسًـا أَعـزَّةً لكُــلّ أخــي بَــأْس منيــع جنابُــهُ

وَرضْنَا مُلوكَ الأَرْض بالبيض والقَنَا فَــذَلَّ لَنَــا مــنْ كــل قطــر صــعَابُهُ

فَكَــمْ أَمْـرَد خَـطَّ الحُسَـامُ عَـذَارَهُ وَكَــمْ أَشْـيَب كَـانَ النَّجيـعَ خضَـابُهُ[5]

وَكَــمْ قَــدْ نَزَلْنَــا ثَغْــرَ قَــوْم أعــزَّة فلــم نَرْتَحــل، حتّــى تَـدَاعى خَرَابُــهُ

وَكَـمْ يَـوْمِ هَـوْلٍ ضَـاقَ فيـهِ مجَالُنَـا صَــبَرْنَا لَــهُ والمَــوْتُ تَهْـوي عُقَابُـهُ[6]

وما دمنا نتحدث عن المعركة التي وقعت على ثغر دمياط، فلنقرأ بعض أبيات من قصيدة للشاعر ابن النبيه نظمها في الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل- حين قدم مع اخيه الملك المعظّم عيسى- يسجل فيها تلك الأحداث والوقائع، وما ألحقه جيش موسى بالروم، حتى أن الرماح اختصت بالكلى والصدور بالرؤوس الأعناق، وقد تطيّب البحر من دمهم إذ كانوا قرابين، وأخذ الموج يرقص من شدة الفرح: (من البسيط)

1 القراب: واحد القُرُب والأقربة، وهو الغمد.

2 عرّد: فرّ. والذمر: واحد الأذمار، وهو الشجاع. والمغامس: الذي يرمي نفسه في وسط الحرب أو الخطب. ونكّب: عدل وتنحى. والزاكي: النامي الطّيب. والنصاب: الأصل.

3 ديوان ابن عنين، ص. 20. واللحمة: واحدة الّلحم: ما يطعمه البازي مما يصيده.

4 القيمون: حصن قرب الرملة، من أعمال فلسطين. (معجم البلدان 424/4).

5 العذار: جانب اللحية، الشعر الذي يحاذي الأذن. والنجيع من الدم: ما كان مائلاً إلى السواد.

6 ديوان ابن عنين، ص21.

لله مــــنْ ثَغْــــر دِمْيَــــاط وَبَرْزَخهَـــا	فَـتْحٌ لَــهُ تفـتحُ السَّــبْعُ السَّــماوَاتُ
يَـوْمٌ عَلَـى الـرُّوم تُنْشـى ريحُـهُ سُـحُباً	أَمْطَــارُهُنَّ مُصـــيبَاتٌ مُصـــيبَاتُ
رأَوْا جُيُــوشَ بَنِــي أَيُّــوبَ يَقْــدُمُهَا	لَيْــثٌ لَــهُ في جُيُــوش الشِّــرْك هَجْمَـاتُ
فَللرِّمَــاح كُلَاهُــمْ أَوْ صُـــدُورُهُمُ	ولَلصَّـــوَارم أَعْنَـــاقٌ وَهَامَــــاتُ
تَخَلَّـقَ البَحْـرُ ذَاكَ اليَـوْمَ مِـنْ دَمِهِـمْ	وَالمَــوْجُ تُرْقصُــهُ فِيــه المَسَــرَّاتُ[1]

ونلتقي مع ابن النبيه في نص آخر يمدح فيه الملك الأشرف، ويبيّن فيه قوة جيشه وتصميمه على القتال، و يذكر فيه قصة فتاة عذراء نادته من بعيد فلبّى نداءها، وهذه القصة تذكرنا بقصة المرأة الزبطرية، حين استنجدت بالمعتصم قالت: (وامعتصماه!) فخلّصها من محنتها وانتصر في حربه مع الروم وحرق عمّوريّة. وحين نعود الى نص ابن النبيه نراه يشير إلى الفرنج وقد سماهم: (بني الأصفر) كما سماهم أبو تمام بقصيدته العصماء في مدح المعتصم، وهم ينظرون إلى الأعلام الأيوبية ذات اللون الأصفر، وقد غطّى الغبار الكثيف تلك المنطقة من كثرة الفرسان والأفراس التي تحيط بملكها كما أحاطت الأسود بالليث القويوكان الفضاء مليئاً بالرماح والسيوف اللامعة من حدتها ومضائها، فأعملت السيوف في رقابهم، وكانوا من شدة الخوف والفزع والرعب وسرعة هزيمتهم يطلبون الأمان، والاستسلام، فلم يسحب فارس منهم سيفاً ولا طعنَ برمح، ولم تحمل قوائم الفرس صاحبها، ويقول: (من البسيط)

يَـا يَـوْمَ دمْيَـاطَ مـا أَبْقَيْـتَ مِـنْ شَـرَف	لمَـــنْ تَقَـــدَّمَ إلَّا أَنْـــتَ هَادمُـــهُ
عــذراءُ نَــادَتْ عَلَــى بُعْــد فَأَنْقَــذَهَا	مَلِـــكٌ غَيــورٌ مَصُـــوناتٌ كَرَائمُــهُ
رَأَتْ بَنُــو الأَصْــفَر الأَعْــلامَ طَالِعَــةٌ	وَالنَّقْـعُ يُرمِـدُ عَـيْنَ الشَّـمْسُ فَاحمُـهُ
وَالجَـيْشُ يَلتَـفُّ قُطـرَاهُ عَلَـى مَلِـك	كَالَّلَيْـــث يَـــزْأَرُ حَوْلَيْـــه ضَـــرَاغمُهُ

1 ديوان ابن النبيه المصري، ص 361. وتخلّق: تطيب بالخَلُوق.

والجَوُّ يَبْكي سهَاماً كُلَّمَا ضَحكَتْ عَنْ كُلّ بَرْق يَمَانيٍّ غَمَائمُهُ
و كُلُّ طرْف إذَا طَالَ الطّرَادُ بـه يَطيرُ منْ جلده لَولا شَكَائمُهُ
وَدُون دمياطَ بَحْرٌ حَالَ بَيْنَهُمَا منَ الظُّبى لَيْسَ يَنْجُو منْهُ عَائمُهُ
صَاحُوا الأَمَانَ فَلا سَيْفٌ نَضَتْهُ يَدٌ مِنْهُم وَلا حملتْ طِرُفاً قَوَائِمُهُ[1]

ويصل بنا الشاعر الى نهاية المطاف ليقول: عاد الفرنج بعارهم إلى ديارهم، فلم يخل بيت من بيوتهم الَّا وأقام مأتماً على قتيل، أوجريح، أو طريد، أو أسير، حتّى إن القساوسة تبكي أسرى الملوك، وكان ذلك نتيجة لما جنته أيديهم من غدر وظلم، يقول:

عَادُوا بخزْي إلى أَوْطَانهمْ وَمضَوْا فَكُلُّ بَيْت تَلَقَّاهُمْ مَآتمُهُ
تَبْكِي القُسوسُ عَلَى مُلُوكِهِمُ وَذَاكَ ذُلٌ قَضَى بِالعَدْلِ ظَالِمُهُ[2]

ونعود مع الشاعر ابن عنين لنقرأ نصاً جميلا، نظمه في معركة من معارك الملك المعظّم عيسى الذي قيل عنه:"إنه كان فارساً شجاعاً، وكثيراً ما كان يركب وحده لقتال الفرنج، ثم تتلاحق به المماللك والجنود"[3]، والشاعر يميل في نصه هذا إلى الأسلوب الشعري القديم، ويستشف القارئ هذا من خلال قراءته للأبيات، إلّا أنه يضفي عليه من روح عصره، وفي قراءتنا لمعاني الفاظه ما يغنينا عن التعليق والتعقيب عليه، يقول: (من الكامل)

الخائضُ الغَمَرَات في رَهَج الوَغَى وَالحَرْبُ حاسرةٌ بغير قَناع[4]
والقومُ بينَ مردَّع بدمائه ومعرَّد بذَمائه مُنْصَاع[5]

1 ديوان ابن النبيه. ص456-457.

2 ديوان ابن النبيه، ص459.

3 الأعلام (108/5).

4 رهج الوغى :غبار الحرب. وقناع (بالكسر).

5 مردع: ملطخ. وعرّد: هارب وفار. والذماء :بقيّة الروح.

في موقـــف ضَـــنْك كربـــه طعمُـــهُ حُـــبسَ الفَـــارسُ منْـــهُ في جعجـــاع[1]

بمطَـــيَّهم نَهْـــد كَـــأَنَّ مـــــرورَهُ ســـيلٌ تَـــدافعَ مـــنْ مُتـــون تـــلَاع[2]

او لَقـــوة شَـــغوَاءَ حَقَّـــقَ طرفُهـــا مـــنْ رأس مرقبـــة طَلَـــىّ في قَـــاع[3]

ومهنَّـــد يَبْـــدُو عَلَـــى صَـــفَحاته رَقْـــرَاقُ مَـــاء فـــوقَ نَمـــل سَـــاع

ومثقَّـــف إن رَامَ مُهْجَـــةَ فَـــارس لَـــمْ تَحْمِهَـــا مَوْضُـــونَةُ الأَدْرَاع[4]

فكـــأنَّ مُحْكَمَـــةَ السَّـــوَابغ عنْـــدَهُ مـــنْ نسْـــج خَرْقَـــاء اليَـــدَيْن لَكَـــاع[5]

بجنـــان مضَّـــاء العَـــزَائم رَأْيُـــهُ في الحَـــرْب غَيْـــرُ الفَتئـــل الضَّعْضَـــاع[6]

وَكَأَنَّمـــــا يَخْتَـــــالُ في غَمَراتهـــــا وَالنَّقْـــعُ قَـــدْ سَـــتَر الـــدُّجَى بلفَـــاع[7]

لَيْـثُ الشَّـرَى فِـي مَـتْنِ أَجْـدَلَ كَاسِـرٍ يَسْـــطُو بِصـــلٍّ في ثِيَـــابِ شُـــجَاعِ[8]

ويصف فتيان الشاغوري جيش الملك الأشرف موسى أبي الفتح ابن الملك العادل، ولما نزل الطور لغزو الفرنج هناك، واستغل الشاعر في وصفه هذه المعركة اسم الملك، والمكان الذي وقعت فيه الحرب، ليوظف قصّة سيدنا موسى (عليه السلام) مع فرعون، ويقول: (من الطويل)

وَجَـيْش لُهَـام حَلَّـقَ الطَّيْـرُ فَوقَـهُ ستُضْـحي لَكُـمْ أَحْشَـاؤُهُنَّ نَوَاويسَـا[9]

وَرَمْـي سـهَام عَـنْ قسـيٍّ بنَبْضـهَا تُغَـادرُ مَـنْ رامَتْـهُ في التُّـرْب مَرْمُوسـاً[10]

---

1 الجعجاع: الموضع الضيق الخشن.

2 مطهم: التام الحسن، نقول: جواد مطهم: أي : تام الحسن. والنهد : الفرس الحسن الجميل الجسم.

3 اللقوة الشغواء: العقاب الأنثى لزيادة منقارها الأعلى على الأسفل. والطَّلى: واحد الأطلاء، وهوولد الظبية.

4 الموضونة: الدرع المقاربة النسج. وهنا يصف دروع الأعداء.

5 الدروع السوابغ: الطويلة، والخرقاء: التي لم تحسن عمل الشيء. ولكاع: من اللكع، وهو العبد، والأحمق، والصبي الصغير، وصف الشاعر الدروع بعدم الجودة والإتقان خلافاً للواقع، إذ أنها كانت جيدة لانها خرّقت من كثرة ما عانت من طعنات أسلحة المسلمين.

6 الضعضاع: الرجل بلا رأي ولا حزم. والجنان : القلب.

7 النقع : الغبار. وغمرات الحرب: شدائدها. اللقاع(بالكسر): الكساء وما يشبهه.

8 ديوان ابن عنين، ص23-24. والصلّ: الحية التي لا تقبل الرقى. والشجاع: الحيّة الجريئة الشديدة، والرجل الشجاع أيضاً.

9 الجيش اللهام: العظيم، أي جيش يلتهم كل شيء.الناووس: مقبرة النصارى، أو تابوت من حجر.

10 نبض فلان في قوسه: حرّك وترها لترّن. والنابض: الرامي، ومرموساً: مدفوناً.

كــأَنَّ كُمــاةَ التُّــرك عنْــدَ نــزَالهمْ ... مَلائكــةٌ بالشُّــهْب تَرْمــي الأَباليسَــا
وَقَدْ جَالَت الأَكْرَادُ بالسُّمْر، والظُّبى ... تَصيدُ المُلوكَ الصَّيدَ، والأُسْدُ الشُوسَا
إذَا العَـرَبُ الشُّـمُّ الأُنُـوف تَتَمَّـرُوا ... بـه كَـانَ كُـلٌّ بـالمُثَقَّف دعِّيسَـا[1]
وَلَيْسَ لمُوسَى منْ عَصًا غَيْرُ صَارم ... تَكُبُّ عَلَى الأَذْقَان ضَرَبَاتُه الرُّوسَا[2]
وَثُعْبَانُـهُ الـرُّمْحُ الأَصَـمُّ لسَـانُهُ ... يُنَضِّـضُ في سُـمِّ المنيَّـة مَغْمُوسَـا[3]
وَيُزْجـي سَـحَاباً مـن سَنَابك خَيْلـه ... بلَمْع الظُّبى و البيض تَجْلو الخَنَاديسَا[4]
وَقَـدْ نَطَقَـتْ بِالنَّصْـرِ سُـيُوفِهِ ... كَمَـا أُخْرِسَـتْ رَنَّـاتُهُنَّ النَّوَاقِيسَـا[5]

ونختتم موضوعنا هذا بنصّ لبهاء الدين زهير يمدح فيه السلطان الملك الصالح نجم الدين بن محمد (المالك الكامل) بن أبي بكر (الملك العادل) بن أيوب سنة اثنتين وعشرين وستمئة يتحدث فيه عن بطولة الملك الذي عرف بشجاعته وعفته، وعدله وكرمه، ويبيّن فروسيته من خلال حنين خيله الي الطِّراد، وفرح جيشه لحميته وقوته، حتى إنَّ الرماح ترقص طرباً، والبيض تصفّق ابتهاجاً، ثم يشبهه الشاعر بالليث الباسل وهو مُرْتَدٍ درعه السابغة التي أحكم نسجها، وهو في الوقت ذاته بدر يتلألأ، قادر على سدّ ظمأ الرماح من دماء الأعداء، ويقول:(من الكامل)

أبـداً نَحـنُ إِلـى الطِّـراد جيـادُهُ ... فَلَهَـا إليْـه تَشَـوُّفٌ وتَشَـوُّقُ
يُبْـدي لسَـطْوَته الخَمـيسُ تَطَرُّبَـا ... فَالسُّـمْرُ تَـرْقُصُ، وَالسُّـيُوفُ تُصَـفِّقُ[6]
في طَـيِّ لأُمَتِـهِ هزَبْـرٌ بَاسِـلٌ ... تَحْـتَ العَريكَـة منْـهُ بَـدْرٌ مُشْـرِقُ[7]

---

1 دعيسا(بالكسر) : دَعَسَهُ بالرمح: طعنه.

2 الاذقان: جمع الذقن، مجتمع اللحيّين من اسفلهما. والروسا: أراد الرؤوس.

3 نضض: تحرك، ومنها:حيّة نضاض ونضاضة: الكثيرة الحركة.

4 الحناديس: مفردها الحندس، وهو الليل، وتجمع ايضاً على الحندس.

5 ديوان فتيان الشاغوري ص 224- 225.

6 الخميس: الجيش العظيم. سمي بذلك لأنه يتكوّن من خمس فرق.

7 آللآمة: الدرع. والهزبر: من أسماء الأسد. والعريكة: الطبيعه.

يُـرْوي القَنَـا بـدَم الأَعَـادِي في الـوَغَى فَلَــذَاكَ تُثْمِــرُ بــالرؤوس وَتُــورِقُ
يَمْضــي فيقــدُمُ جَيْشُــهُ مِــنْ هَيْبَــة جَــيْشٌ يَغَــصُّ بــه الَزَّمَــانُ وَيَشْــرَقُ
مَــلأَ القُلُــوب مَهَابَــةً وَمَحَبَّــةً فَالبَــأْسُ يُرْهَــبُ وَالمَكَــارم تُعْشَــقُ
سَــتَجُوبُ آفــقَ الــبِلادِ جِيَــادُهُ وَيُــرى لَــهُ فِــي كُــلِّ فَــجٍّ فَيْلَــقُ [1]

ويعجبني في هذا النص صورة أبدع الشاعر في تجسيدها، وذلك حين يشبه القنا بالنبات فجعلها ترتوي في الحرب من دماء الأعداء، فيكون منها ما يكون من النبات الغضّ الطّري المرتوي في الربيع من زهر وورق الاخضرار يانع، وفي الصيف من ثمار كانت هنا رؤوس الأعداء المرفوعة على سنان الرماح، وكأنها ثمار الأشجار.

المؤلفان للفصل السادس

الأستاذ الدكتور هاشم صالح مناع
قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب
جامعة الإسراء

الدكتور عمر عبدالله العنبر
مساعد عميد كلية الآداب لشؤون الجودة
جامعة الإسراء

1 ديوان البهاء زهير، ص177.

الخاتمة

وفي الختام

ولا بدّ من توضيح أهم تجليات الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية في ختام هذا الكتاب:

1) إنَّ الصراع الدائر بين المسلمين والفرنج، والاستعداد لخوض المعارك في كلّ لحظة، والدخول في الحروب معهم، اعطى المسلمين تجربة فيها، وتمرّساً في ضروبها، وخبرة في وقائعها، ممّا جعلهم يتفوقون بصناعة أدواتها، ويبدعون في تصميمها، ويخطّطون لتطويرها.

لذا نجد الشعراء حذقوا في وصف السلاح وعدة الحرب، وابدعوا في تصورّها وتصويرها، وأمعنوا في دقائق أنواعها، وأشكالها، وأحجامها؛ وقد كان موضوع الحرب شغل الشعراء الشاغل، فلا تخلو قصيدة من وصف جيش، او فارس، أو فرس، أو سيف، او رمح... ومعلوم أن الجيش هو أداة النصر أو الهزيمة، وهو الذي يمثل أقطاب المعركة، فالروح المعنوية، والعدة، والعتاد، والإعداد هي في الواقع أساس النصر، و هي العناصر التي ألّح الشعراء عليها في نظمهم.

2) إنَّ هذا الشعر نظم بانفعال صادق، إذْ تفاعل صاحبه مع قضية دينية مصيرية، وكان النزاع فيها بين الحقّ والباطل، بين الإسلام والكفر، وكان ابتهاجاً وتعبيراً عن استرجاع أرض إسلامية اغتصبت عنوة، فكان لابدّ من الجهاد في سبيل الله الذي هو فريضة على كلّ مسلم، وتحرير مقدسات المغتصبة، والديار المسلوبة، من أجل إعلاء كلمة الحقّ، ونشر العدل.

3) لقد كان هذا الشعر سجلاً أميناً للوقائع والأحداث التاريخية، ووصفاً حيّاً للمعارك، والحروب الدائرة، مع خلوّه من التملق والنفاق، فلم تعهد شاعراً- في هذه المدة

الزمنية- زيّف الحقائق، أو حابى السلاطين في قلب نتائج المعارك والحروب، بل كان ينظم أشعاره من خلال جهاده، فهو في قلب المعركة جندي وهب نفسه في سبيل الله.

4) إنَّ هذا الشعر ليس وطنياً أو قومياً فحسب ليبقى محصوراً بين جدران الحواجز السياسية، فقد حطّم كل الجدران، و تجاوز كل الحدود والحواجز، فهو شعر خالد، يدعو للجهاد في سبيل الله، وسيظل كذلك مادام هناك كافر طاغ مُعْتَد أثيم؛ لأن الكفار لا تردعهم إلا هذه اللغة، لغة الجهاد والقوة، أَوَلَيْسَ في القرآن الكريم ذكر لهذا كله، ويقول الله تعـــــالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ (الأنفال 60).

5) لم تكن أشعار هذا الموضوع قائمة بذاتها، بل كانت ضمن موضوعات شتى. فالشاعر يبدا قصيدته بذكر مناقب الممدوح، من كرم وشجاعة، او انه يسبق ذلك بغزل أو نسيب... كما هي عادة الشعراء في العصور السالفة... ثم يعرض لوقائعه، ومعاركه، وحروبه.

6) لا يقف الشعراء عند حدّ وصف المعركة بل يحرصون كلّ الحرص على حسم المعركة، وبيان نتائجها، وتتبع ما بعد ذلك.

7) جاء الشعر مؤثراً في النفوس، مثيراً للمشاعر، ملهياً للعواطف، ومحرّكاً للنخوة، موقداً للحميّة والحماسة.

8) وقد جاءت العاطفة صادقة امتزجت بانفعالات الشعراء، وأحاسيسهم، وهذا من طبيعتهم حين يجسدون نشوة النفس وطربها أمام محكّ الأبطال في رحى المعارك.

9) كانت المعاني حماسّية، ثائرة، متأججة،مشتعلة، تدور في فلك المعارك والحروب الدائرة، وضراب السيوف، وطعان الرماح، و صهيل الخيل، ووقع حوافرها، وأنين الجرحى و غمغمة الأبطال، ولَغَط الفرسان، وقعقعة السلاح، وهتك فروج الدّروع،

ومُثار النقع القساطل، وتحويم الطّيور الجارحة على ارض المعركة، والتي رافقت الجيوش خماصاً لتعود بطاناً، وجريان الدماء، وجثث القتلى، وأنين الجرحى، وصفوف الأسرى، واصطكاك القيود والأغلال... وما إلى ذلك.

10) تفنّن الشعراء بتوظيف الأساليب البلاغية عامة، واستنباط التشابيه خاصة، وكذلك الأمر في استخدام المحسنات البديعية عامة، والتركيز على الطباق والجناس خاصة، وهو ما يجسّد الصورة، ويجسّم الألفاظ، ويضخّم الحدث، ويقرّبه إلى الواقع، ويبثّ فيه الروح والحياة، ويحافظ على التناغم الموسيقا.

11) إنَّ معجم هذه الأشعار يتميّز بسهولة فصله عن الأنماط الشعريّة الأخرى، بل عن أبيات القصيدة نفسها.

12) كانت ثمّة شيوع لبعض الألفاظ الغريبة، والتشبيهات المعقّدة، وكأنها تنزع إلى لغة العصور الأدبية السالفة؛ لما تتصف به من المقوّمات الفنيّه وما تحتويه من القيم الأدبيه.

13) أما الأسلوب، فقد تميّزت ألفاظه بالرصانة، وتراكيبه بحسن السّبك، وجودة الصياغة، وإيصال المعاني المنشودة بوضوح وجزالة ألفاظ، وقوة إيحاء؛ لتناسب قعقعة السلاح، وغمغمة الأبطال ولغطهم، وحمحمة الخيول، وصهيلها.

14) حرص الشعراء على اختيار الأوزان الشعرية التي تناسب مثل هذه الموضوعات، كاستخدام بحور بعينها في هذه النصوص:

فقد اكثروا من النظم على البحر الطويل، ثم تلاه على وجه الترتيب البحر البسيط والبحر الكامل البحر الوافر. وهناك قصيدة واحدة على الخفيف لابن سناء الملك، وأما البحر السريع والبحر المسرح، فهناك قصيدة واحدة على كل منهما لابن قلاقس وكان لنا فيهما رأي ذكرناه في موضعه.

*وأخير لا بّد من القول: إنَّ من الجدير بالذكر أنَّ هذه النصوص لو رجعنا إليها في قصائدها، لوجدنا أنها تختلف في تناغمها الموسيقي عن بقية أجزاء أصولها الكاملة، وذلك لطبيعة موضوعها وسيطرتها، وشدة تأثيرها على النفوس، ممّا جعلها خالدة تستأثر بالإعجاب إلى الأبد.

تراجم الشعراء

* الأبيوردي :محمد بن أحمد الأبيوردي القرشي الأموي أبو المظفر، كان من الأدباء المشاهير، راويةً نسابةً شاعراً، ويقال : كان من أخبر الناس بعلم الأنساب. وللشاعر ديوان مطبوع. وقيل : إنّه كان متصرفاً في فنون جمّة من العلوم، فصيح الكلام حاذقاً في تصنيف الكتب، فريد دهره ووحيد عصره، اتصل بخلفاء عصره ومدحهم. توفي سنة (507هـ/ 1113م) بأصفهان مسموماً [1].

* أسامة بن منقذ : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مُقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشَّيْزَري الملقّب مؤيد الدولة مجد الدّين، وكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شَيْزَر وعلمائهم وشجعانهم، له تصانيف كثيرة في فنون الأدب، وسكن دمشق ثم انتقل إلى مصر، فبقي فيها مؤمرًا مشارًا إليه بالتعظيم إلى أيّام الصالح بن رزيك، ثم عاد إلى الشام وسكن دمشق، ووفد على السلطان صلاح الدين سنة (570 هـ)، ومدحه، وكان صلاح الدين يفضّل ديوانَه على سائر الدواوين. يقال إن أسامة كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب في الجاهلية، وتوفي سنة 584هـ/ 1188م[2].

* إسحاق المُصّعبي : هو إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب، المُصّعبي الخزاعي، أبو الحسن، صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون، والمعتصم والواثق والتوكل، وكان وجيهاً مقرباً من الخلفاء، وتوفي سنة (235هـ/ 850م) ببغداد[3].

* الأسعد بن ممّاتي :(أبو المكارم)، هو الشاعر أسعد بن الخطير بن مهذب بن زكريا ابن ممّاتي، من أسيوط، كان ناظرًا للدّواوين المصرية، وتولّى ديوان الجيش، ثم ديوان المال، وحظي عند القاضي سمكانة عالية، ممّا أكثر عليه من بعض الحساد المؤامرات،

---

1 انظر: وفيات الأعيان 444/9. والنجوم الزاهرة 206/5-207. وديوان الأبيوردي (مقدمة المحقق) 121/7. وحسن المحاضرة 356/1. وسير أعلام النبلاء 192/2-283. ومعجم الأدباء 226/17-234. وشذرات الذهب 18-48/20 وطبقات السبكي 81/6-84.

2 انظر:معجم الأدباء 188/5-245. ووفيات الأعيان 195/1-199. وديوان أسامة بن منقذ، (بتحقيقنا)، (طبعة جديدة)، ص1141، وديوان أسامة بن منقذ (مقدمة المحقق د. أحمد أحمد بدوي)، ص539. وسير أعلام النبلاء165/21-167. وشذرات الذهب 279/4. ولباب الآداب (مقدمة المحقق)، ص 1623. والنجوم الزاهرة 107/6. والبداية والنهاية 331/12. والخريدة(قسم شعراء الشام) 498/1-547. ومختصر تاريخ دمشق 258/4-261.

3 انظر: الكامل في التاريخ 420/6-427 وما بعدها 18/7 وما بعدها. ووفيات الأعيان 25/2، و 85/6. والأعلام 292/1.

والدسائس، فهرب إلى الشام، وتوفي هناك سنة 606 هـ/ 1209م، يقال:أنّه كان شاعراً أديباً فضلاً[1].

* امرؤ القيس: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، وصاحب المعلقة المشهورة[2].

* البحتري : هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري الطائي، ولد سنة 206 هـ/ 821م اتصل بأبي تمام ولزمه، وترسم خطاه، وحذا حذوه، فطار في الآفاق ذكره، وكان أبو علاء المعري، ويقول: (الشاعر البحتري)، وتوفي سنة 284هـ/ 898م[3].

* أبو بشر الحوّاريّ(العميد) : من المعرّة، وهو من شعراء الخريدة[4].

* البلغوي : من شعراء الروضتين[5].

* بهاء الدين زهير: (أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى الأزدي المكي)، القوى المنشأ، المصري الدار، ولد سنة 581هـ/ 1185م بوادي نخلة قرب مكة. وربي بصعيد مصر بقوص. وقرأ الأدب وسمع الحديث وبرع في النظم والنثر، وله الشعر الرائق الفائق، وكان كاتباً وشاعرًا ومشهورًا معروفاً، ورئيساً فاضلاً، حسن الأخلاق. اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب في حياة أبيه الملك الكامل. توفي سنة 656هـ/ 1258م[6].

* تاج الملوك الأيوبي (بوري) : هو تاج الملوك أبو سعيد بُوري بن الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان الملقّب مجد الدين، الأخ الأصغر للسلطان صلاح الدين الأيوبي، ولد سنة 556هـ/ 1163م وتوفي سنة 579هـ/ 1184م حين كان مع أخيه صلاح الدين لما حاصر حلب، فأصابته طعنة بركبته، فمات على إثرها، بقرب حلب، وهو صاحب الشعر الرقيق والنظم اللطيف، والفهم الشريف[7].

---

1 انظر: لخريدة (قسم شعراء مصر) 1/100-112. وشذرات الذهب 5/20. وحسن المحاضرة 1/565 ومعجم الأدباء 6/100-126. ووفيات الاعيان 1/210-213.

2 انظر:الأغاني 9/77-107. وطبقات الشعراء ص1317. والشعروالشعراء، ص3756. وخزانة الأدب 1/325-328.

3 انظر:الأغاني21/39-57. وطبقات الشعراء لابن المعتز، ص393-394 . ومعجم الأدباء 19/248-258.

4 انظر: الخريدة (قسم شعراء الشام) 2/87.

5 انظر: الروضتين 2/42. (لم أعثرعلى ترجمة له، وقد أورد صاحب الروضتين بعض أشعاره).

6 انظر: وفيات الأعيان 2/332 . والنجوم الزاهرة 7/62-63 . وديوان البهاء زهير(مقدمة المحقق)، ص512. والبداية والنهاية 13/211-212 . وحسن المحاضرة 1/567 و 2/233.

7 انظر: وفيات الأعيان1/290-292 . والروضتين6/95-96. ومقدمة محقق ديوان تاج الملوك الأيوبي، ص996. والنجوم الزاهرة 6/95 و 96. والبداية النهاية 12/313. وشذرات الذهب 4/265. والوافي بالوفيات 10/320-323. والخريدة (البداية)، ص 134-139.

* أبو تمام: هو حبيب بن أوس الطائي. ولد سنة 188هـ/ 804م،وتوفي بالعراق سنة 231هـ/ 846م. وكان صاحب مذهب في المطابق والمجانس، اشتهر به، ونسب إليه، وكان من شعراء المعتصم[1].

* جبرائيل بن ناصر بن المثنى السلمي النظام المصري كان معلماً بدمشق على باب جيرون، ثم عاد إلى مصر، له شعر جيد، وتوفي في سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة[2].

* جرير : هو جرير بن عطيّة بن حذيفة من تميم، ولد سنة 110هـ/ 728م. وكان أغزل الناس في الشعر، اتصل بالولاة، والأمراء، والخلفاء. وهو من أشهر شعراء النقائض في العصر الأموي[3].

* جعفر بن شمس الخلافة: هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة (أبو عبدالله محمد بن شمس الخلافة) الملقب مجد الملك الشاعر المشهور، ولد سنة 543هـ/ 1148م وكان فاضلاً حسن الخط، وكتب كثيراً، وخطّه مرغوب لحسنه وضبطه، وله ديوان شعر أجاد فيه، نقل صاحب وفيات الأعيان من ديوانه بعض الأبيات، وللشاعر مدائح في سلاطين بني أيوب. وتوفي سنة622هـ/ 1225م[4].

الجلياني (الحكيم أبو الفضل) : هو عبد المنعم بن عمر بن عبدالله بن أحمد بن خضر ابن مالك بن حسان الجلياني الغساني الأندلسي، ولد سنة 531هـ/ 1136م، وكان أديباً فاضلاً، وطبيباً حاذقاً، وَبَرَعَ في الأدب، وصناعة الشعر، ومدح صلاح الدين الأيوبي، وتوفي سنة 602هـ/ 1205م بدمشق[5].

* الجويني : هو فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد، ومدح صلاح الدين الأيوبي، وتوفي سنة 586هـ/ 1286م[6].

---

1 انظر:الأغاني 303/16-317. وطبقات الشعراء لابن المعتز، ص282-286. والموازنة بين ابي تمام والبحتري(مقدمة المحقق).

2 انظر الخريدة (قسم شعراء مصر) 140/2-142.

3 انظر: الشعروالشعراء، ص283-289. والأغاني 890/3. وطبقات الشعراء، ص75-121.

4 انظر:وفيات الأعيان 362/1-363. وشذرات الذهب 100/5.

5 انظر: الروضتين 104/2-105. و 116/2. وفوات الوفيات 407/2-409. وسير أعلام النبلاء 476/21. وديوان المبشرات والقدسيات لعبد المنعم الجلياني (مقدمة المحقق)، ص5-108.

6 انظر:معجم الأدباء 946/43. والروتين 104/5-105. و 9/2.

*ابن الحجاج : أبو عبدالله بن الحجاج الكاتب الشاعر المشهور، وكان فرد زمانه في فنِّه، عذب الألفاظ، مدح الملوك والأمراء، وتوفي سنة 391هـ/ 1001م[1].

*أبو حسن السخاوي: هو علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي أبو الحسن المقرئ النحوي، ولد حوالي سنة 558 هـ / 1162م. وكان فقيهاً مفتياً إماماً في القراءات، والتفسير، والنحو واللغة، لام الشاطبي، ثم سكن دمشق، وتصدر للإقراء وانتفع الناس به، وله مصنفات كثيرة، وتوفي بدمشق سنة 643هـ/ 1245م[2].

*أبو الحكم المغربي (الحكيم) : هو عبيد الله بن المظفر بن عبدالله بن محمد الأهلي الحكيم الأديب المعروف بالمغربي، أصله من أهل المرية بالأندلس، ومولده ببلاد اليمن سنة 486هـ/ 1093م، ويقال: إنه كان كامل الفضيلة، جمع بين الأدب والحكمة، وله ديوان شعر جيد. وتوفي سنة 549هـ/ 1154م[3].

*ابن الخياط :هو أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة (ابو عبدالله التغلبي الدمشقي) الكاتب الأديب الشاعر. ولد سنة 450هـ/ 1058م بدمشق، خرج منها في صباه إلى حماة، ثم إلى حلب وطرابلس، ومدح الملوك هناك. تخرّج بدار العلم. ونزل صور سنة ٤٨٤هـ ومدح وإليها، وحين عاد إلى دمشق صحب الوزير هبة الله الاصفهاني، فاتخذه كاتباً وتوفي سنة 517هـ/ 1123م[4].

*دعبل الخزاعي: هو دعبل بن علي الخزاعي، ولد سنة 148هـ/ 246م، شاعرٌ مطبوعٌ، هجّاء، خبيث اللسان، وله قصيدة تائية مشهورة في أهل البيت من أحسن الشعر، وأسنى المدائح، وتوفي سنة246هـ/ 860م[5].

---

1 انظر: وفيات الأعيان 168/2-172. ويتيمة الدهر 299/30. ومعجم الادباء 206/10-236.

2 انظر: وفيات الأعيان 340/1-341. وحسن المحاضرة 412/1-413. والنجوم الزاهرة 354/6. وشذرات الذهب 222/5-223. وذيل الروضتين، ص 129. والبداية والنهاية 170/13.

3 انظر:وفيات الأعيان 123/3-125. والروتين 46/1. وشذرات الذهب153/4.

4 انظر:وفيات الاعيان 145/1-147. وديوان ابن الخياط (مقدمة المحقق)، ص54. وسير إعلام النبلاء 476/19-482. والخريدة (بداية شعراء الشام) ص143-226. وشذرات الذهب455/54. والنجوم الزاهرة226/5. وعيون التواريخ142/12-146. وتاريخ دمشق 361/2-362. ومختصر تاريخ دمشق 276/3. وتهذيب تاريخ دمشق 271/70.

5 انظر:الشعروالشعراء، ص 539-541 والأغاني45/21-68. وطبقات الشعراء لابن المعتز، ص 264-268. ومعجم الأدباء 99/11-112.

*أبو دلف العجلي: هو القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي أحد قواد المأمون، ثم المعتصم من بعده، كان كريماً جواداً ممدّحاً شجاعاً، أخذ عنه الأدباء والفضلاء، توفي سنة 552هـ/ 1128م[1].

* ابن الدّهان : هو أبو الفرج مهذب الدين عبدالله بن اسعد الموصلي الحمصي الشافعي الفقيه النحوي (الشاعر)، ولد سنة 522هـ/ 1128م، ونشأ في الموصل ثم قصد مصر، ومدح طلائع بن رُزَّيك، وقفل بعدئذ من مصر إلى حمص يدرس علوم الشريعة واللغة العربية، ويقال : كان علامة زمانه في علمه، ونسيج وحده في نظمه، وإنّه ممن عقم الدهر بمثله، واشتريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم اخرج بحره قلائد اللؤلؤ والمرجان، ويقال أيضاً: إنّه كان فصيحاً فقيهاً، فاضلاً أديباً شاعراً، غلب عليه الشعر واشتهر به، وتوفي سنة 581هـ/ 1185م[2].

* راجح بن إسماعيل الحلّيّ (أبو الوفاء) شرف الدين الشاعر : من أهل الحلة، تردّد إلى بغداد، واتصل بولاتها، وهاجر إلى حلب وحظي عند الأيوبيين في دمشق، وسار شعره ومدائحه للملوك، واستقر بدمشق، ومات فيها سنة 627هـ/ 1229م[3].

*الرشيد بن بدر النابلسي : هو أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن المفرج بن بكار الشاعر المعروف بابن النابلسي، وكان مقيماً بدمشق، ولابن عنين فيه عدة مقاطيع هجو، وتوفي سنة 619هـ/ 1222م بدمشق[4].

* زهير بن أبي سلمى :شاعر جاهلي مشهور أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، ويقال: إنّه شاعر الشعراء، وحكيمهم في الجاهلية[5].

---

1 انظر: وفيات الاعيان 478/73. والأغاني 246/8-267. والأعلام 179/5.

2 انظر: الخريدة (قسم شعراء الشام) 279/2-294. وديوان ابن الدهان الموصلي (مقدمة المحقق)، ص5-16. ووفيات الأعيان 57/3-61. والبداية والنهاية 317/12. وسير أعلام النبلاء 176/21-177 الروضتين 1/ 128- 129و 2/ 29 -30. شذرات الذهب 4/ 270. والنجوم الزاهرة 100/6. طبقات الشافعية الكبرى 7/ 120 (انظر الحاشية).

وتاريخ دمشق (جزء من عبادة بن أوفى _عبد الله بن ثوب) ص375 - 380 وتهذيب تاريخ دمشق 295/7-298.

3 انظر : حسن المحاضره 566/1 . والنجوم الزاهرة 275/6. وحاشية صفحة 343. وفيات الاعيان 10/4. وشذرات الذهب 123/5. والأعلام 10/3.

4 انظر: وفيات الاعيان 266/5. وفوات الوفيات 192/3-194 .و الروضتين 118/2و 194. وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص 173-175.

5 انظر: طبقات الشعراء، ص 15- 19. والشعروالشعراء، ص 57- 67. والاغاني 298/10-323. خزانه الادب 5/3-15.

*ابن الساعاتي(بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم الخراساني) : الشاعر المشهور، خراسان الأصل، ولد ونشأ في دمشق، وكان أبوه يعمل الساعات فيها، وقد برع بهاء الدين في الشعر، ومدح الملوك، وسكن مصر، وتوفي بالقاهرة سنة 604هـ/ 1207م[1].

سبط ابن التعاويذي :(مجد الدولة والدين أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبدالله)، نشأ في حجر جده، وكان شاعر وقته، لم يكن فيه مثله، جمع شعره بين جزالة الألفاظ، وعذوبتها، ورقّة المعاني وقتها، وهو في غاية الحسن والخلاوة، وكان كاتباً في ديوان المقاطعات ببغداد، وعمي في آخر عمره، وله في عماه أشعار كثيرة، ويرثى بها عينيه ويندب زمان شبابه وتصرفه، وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل عماه، وقد مدح سلاطين عصره، وتوفي سنة 553/ 1158[2].

*سعادة الضرير الحمصي: هو سعادة بن عبدالله الأعمى من أهل حمص، ويعرف بسعادة، ويكتب على قصائده سعيد بن عبدالله، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولّداً. كان شاباً ضريراً، وتوفّرت بصيرته، وإن ذهب بصره، وسافر إلى مصر في أول مملكة السلطان الناصر صلاح الدين، وعاد بوفر وافر، وغنى ظاهر، وهو محظوظ مرزوق من نظم الأشعار[3].

*ابن سعدان الحلبي: من شعراء الروتين[4].

السمؤال بن عادياء : شاعر جاهلي حكيم، وهو صاحب الحصن المشهور الذي يعرف ب (الأبلق) [5]

*ابن سناء الملك:هو السعيد ابو القاسم هبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك المصري الشاعر المشهور، صاحب الديوان البديع للموشحات، الذي سماه (دار الطراز)، وكان أحد

---

1 انظر وفيات الاعيان 395/3-397. وشذرات الذهب 13/5-14. وسير اعلام النبلاء 471/21-472. مقدمة ديوان ابن الساعاتي، ص 15-44.

2 انظر وفيات الاعيان 466/4-473. والروضتين 123/2. النجوم الزاهرة 57/6 و58 و105. وشذرات الذهب 281/4. و معجم الادباء 235/18-250.

3 انظر الخريدة(قسم شعراء الشام) 406/1-432. والروضتين 12/2.

4 انظر: الروضتين 274/1 - 44/2. والبداية والنهاية 306/12.

5 انظر: طبقات فحول الشعراء 279/1 و281و 285. والاغاني 22/ 108- 118. و طبقات الشعراء ص 70-71.

الفضلاء الرؤساء النبلاء، كتب بديوان الإنشاء مدّة، وكان بارع الترسل والنظم، توفي سنة 608هـ/ 1211م[1].

*الشاتاني: (الحسن بن سعيد بن عبدالله أبو علي علم الدين) كان فقيهاً، غلب عليه الشعر، وأجاد فيه واشتهر به، ولد سنة 510هـ/ 1116م. ونزل من شاتان إلى الموصل واستوطنها، وخدم دولة أتابك زنكي، وولده محمود الملقب نور الدين. وكان يتردد منها إلى بغداد، ليتصل بالوزير أبي المظفر بن هبيرة الذي كان كثير الإقبال عليه، والإكرام له، وتوفي سنة 579هـ/ 1183م[2].

*أبو شجاع يعقوب بن علي بن إبراهيم بن أبي زهران الموصلي :ذكر ابن الشعار الموصلي أنَّ الشاعر قد ولد سنة593هـ/ 1196م في الموصل، وكان شاباً حسناً من حفّاظ القرآن الكريم، ومن أهل التدوين والخير، وتوفي سنة 643هـ/ 1245م في الموصل[3].

*الشريف الرضي: هو محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضى العلوي الحسيني الموسوي، ولد سنة 359هـ/ 970م في بغداد، كان ابدع أبناء الزمان، وقيل: إنه أشعر الطالبين، وتوفي سنة 406هـ/ 1015م في بغداد[4].

*الشريف المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجوانب، ولد في مصر سنة 525هـ/ 1131م، ولي نقابة الأشراف، له مجموعة من التصانيف، وتوفي في مصر سنة 588هـ/ 1192م[5]

*ابن الشعار الموصلي :هو المبارك بن أحمد بن حمدان بن أحمد بن علوان الموصلي، أبو البركات، كمال الدين المعروف بابن الشعار، مورخ أديب، حفظت بفضله أخبار

1 انظر وفيات الاعيان 6/61-66 . و معجم الأدباء 19/ 265-271. والخريدة(قسم شعراء مصر)1- 64- 99. وسير اعلام النبلاء 21/ 480-481 وشذرات الذهب 5/ 35- 36. وحسن المحاضرة 1/565. ابن سناء الملك حياته وشعره، ص 43-168. و دار الطراز في عمل الموشحات(مقدمة المحقق)، 9-22.

2 انظر: وفيات الاعيان 2/ 113_ 114. الخريدة(قسم شعراء الشام)2/316 _ 384. والنجوم الزاهرة 6/ 58. والروضتين1/ 271. وطبقات الشافعية7/ 61-62 وتهديد تاريخ ابن عساكر4/ 180.

3 انظر: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية ص 188- 189.

4 انظر: وفيات الاعيان 4/ 414-420. ويتيمه الدهر3/ 131- 151 والاعلام 6/ 99.

5 انظر: فوات الوفيات 1/ 294. والخريدة (قسم الشام) 1/ 117. والوافي بالوفيات 2/ 202 والاعلام 6/ 31.

شعراء عصره، مولده في الموصل سنة 593هـ/ 1197م. ووفاته في حلب سنة 654هـ/ 1256م. من تصانيفه: عقود الجنان في شعراء هذا الزمان)[1].

*شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور: قيل: إنّه كان في خدمة خاله نجم الدين (الوزير) في القاهرة، وذكر أنّه خرج إلى بوصير في خدمته، ولم نقف على ترجمة كاملة لحياته[2].

*الصاحب شرف الدين الأنصاري: هو شرف الدين أبو محمد عبدالعزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور، ولد في دمشق سنة 586هـ/ 1190م. وهو عربي صميم، من قبيلة أوس الأنصارية، كان الشاعر معجباً بأبيه، فقد كان والده من الأعيان الأفاضل الرؤساء – أخذ العلم عن كبار العلماء، رحل إلى بعض البلاد إلى أنْ استقر به الأمر في حماة، ولقي الإقبال، والتشجيع من ملوكها، فأمّة طلبة العلم، حتّى إنه لقب بشيخ شيوخ حماة، مدح كثيراً من الملوك، ويقول الصفدي: لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمئة، وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين، وما رأيت له شيئاً إلّا وعلقته لما فيه من النكت والثوريات الفائقة، والوافي الممكنة، والتراكيب العذبة، واللفظ الفصيح، والمعنى البليغ، وتوفي سنة 662هـ/ 1263م[3].

صفي الدين الحلي: عبد العزيز بن سرايا بن علي الطائي شاعر عصره، نشأ بين الكوفة وبغداد، رحل إلى الشام ومصر وغيرها، تقرب من ملوك الدولة الأرتقية ومدحهم، له ديوان شعر ومؤلفات أخرى. وكانت ولادته سنة 677هـ/ 1278م[4].

*طلائع بن رُزيّك: هو أبو الغارات الأرمني القائد الشهير في مصر، أصله من الشيعة الإمامية في العراق، ولد سنة 495هـ/ 1101م. قدم مصر فقيراً، فترقّى في الخدم حتى استقل بأمور الدولة بالقوة، وكان وزيراً للخليفة الفائز بنصر الله، وتزوّج الخليفة العاضد ابنة طلائع ثم قتله العاضد سنة 566هـ/ 1160م، كان طلائع يكاتب أسامة بن منقذ، ويرسل له القصائد يحثّهفيها على أن يتوسط لدى نور الدين محمود حتّى تجتمع

---

1 انظر: وفيات الاعيان 6 / 65. وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص 68. والأعلام 5 / 269.

2 انظر: الروضتين 2 / 205 _ 206. وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية ص 240 (الحاشية).

3 انظر: فوات الوفيات 2/ 354- 363. وذيل الروضتين ص 231. و طبقات الشافعية 8 / 258. النجوم الزاهرة 7/ 214 - 215. وشذرات الذهب 5/ 309. وديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري(مقدمة المحقق) ص 13-45.

4 انظر: فوات الوفيات 2/ 335- 350. و النجوم الزاهرة 10/ 238. والأعلام 4/ 17-18

كلمة سوريا ومصر على جهاد العدو المشترك، ولكن هذه القصائد لم تثمر ثمرتها، ولم يصغ نور الدين إليها[1].

*أبو الطيب المتنبي :هو أحمد بن الحسين الجعفري الكوفي الكندي الشاعر الحكيم، صاحب الأمثال السارة والحكم البالغة، والمعاني المبتكرة، وهو أشهر شعراء العربية. كانت ولادته سنة 303هـ/ 915م. وتوفي سنة 354هـ/ 965م[2].

عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي(السعدي التميمي الصقلي ابو المعالي) المعروف بالقاضي الجليس، ولد سنة490هـ/ 1079م. وكان شاعراً اديباً من أهل مصر، وكان فضله مشهوراً، وشعره مأثوراً، وهو أوحد عصره في مصر نظماً ونثراً وترسلاً وشعراً،. توفي سنة561هـ/ 1166م[3].

*عبدالله بن همام السلولي: شاعر إسلامي من مرّة بن صعصعة، أدرك معاوية، وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك، وكان يقال له:"العطار" لحسن شعره. توفي نحو سنة 100هـ/ 718م[4] .

* عبد يغوث بن وقّاص الحارثي: شاعر جاهلي يماني وفارس معدود، كان سيد قومه من بني الحارث وقائدهم: توفي نحو 40ق.هـ/ 584م[5].

* عرقلة الكلبي: هو أبو الندى حسان بن نمير، شاعر عربي أصيل، عاش في دمشق، ويقول صاحب الخريدة:"لقيته في دمشق شيخاً خليعاً مائلاً إلى القصر اعور، مطبوعاً،

---

1 انظر: وفيات الأعيان 2/ 526- 530. النجوم الزاهرة 5/ 345- 346. وشذرات الذهب 4/ 177. وحسن المحاضرة 2/ 205_ 215. والخريدة (قسم شعراء مصر) 1/ 173_ 185.والروضتين 1/ 115- 120. و سير اعلام النبلاء 20/ 397-399. وديوان طلائع بن رزيك(مقدمة المحقق) ص 3-25. وديوان اسامة بن منقذ، ص 207 غيرها من الصفحات. و ديوان عرقله الكلبي، ص 9و 32 و54. وديوان ابن الدهان الموصلي، ص 112_ 130 و219-229.

2 انظر: وفيات الاعيان 1/36. و يتيمة الدهر1/ 111-224. و معاهد التنصيص 1/ 27 وما بعدها. والوساطة بين المتنبي وخصومه (مقدمة المحقق).

3 انظر: فوات الوفيات 2/ 332-335. وحسن المحاضرة 1/ 563. والنجوم الزاهرة 5/ 292. والبداية والنهاية 12/ 251. والخريدة (قسم شعراء مصر) 1/ 189- 204 والروضتين 1/ 141.

4 انظر: وفيات الاعيان 6/ 290 291. والشعروالشعراء، ص 412-413. والأعلام 4/ 143.

5 انظر: الاغاني 16/254-264. والأعلام 4/187.

حلو المنادمة، لطيف النادرة، معاشراً الأمراء، شاعراً مستطرف الهجاء". توفي سنة567هـ/ 1171م [1].

*ابو العلاء المعري:هو أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري، شاعر فيلسوف، ولد سنة 363هـ/ 979م، سمى نفسه:" رهين المحبين" وتوفي سنة 449هـ/ 1057م[2].

*علي بن الحسن بن الريحاني ابو الحسن:هو علي بن الحسن بن علي بن عبدالسلام بن المبارك بن محمد بن راشد السعدي التميمي، ومن أهل مكة، ذكر أنه من بني تميم. التقى به صاحب الخردة مرارًا بالشام، وقد وفد على صلاح الدين في سنة سبعين وخمسمئة. وهو من شعراء الخريدة[3].

*علي بن عرام:هو السيد أو الحسن بن علي بن أحمد بن عرام الربعي شيخ من أهل الأدب، مقيم بأسوان فوق قوص، ملك من الأدب الخلوص، ومن الشعر الخصوص، وقد كتب ديوانه في زمانه إذ طلبه صاحب الخريدة، ورآه، فوجده شعراً لطيفا، ونظماً فائقاً رائقاً، رائعاً شائقاً. توفي سنة 580هـ/ 1184م[4].

*العماد الكاتب الاصفهاني:هو محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله بن علي أبو عبد الله، ولد في أصفهان سنة 519هـ/ 1125م، ونشأ بها، وقدم بغداد شاباً، وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية. ثم عاد إلى أصفهان، فتفقه بها، وبعدئذ رحل إلى بغداد، واشتغل بصناعة الكتابة وبرع فيها ونبغ، وانتقل إلى دمشق سنة 562هـ، وتمكن من تولي المدرسة النورية الشافعية سنة 567هـ، ويقال: إن هذه المدرسة تنسب إليه، وتسمّى :"العماديّة "، ثم تولّى الإشراف على ديوان الإنشاء. توفي سنة 597هـ/ 1200م[5].

*عمارة اليمني:هو عمارة بن علي بن زيدان اليمني نجم الدين أبو محمد، من اليمن، ولد سنة 515هـ، كان فقيهاً شاعراً ماهراً، دخل مصر سنة خمسين وخمسمئة، ومدح

---

1 انظر: وفيات الاعيان 4/ 148. وشذرات الذهب 4/ 220. والنجوم الزاهرة 64/6. وفوات الوفيات1/ 313- 318. والخريدة(قسم شعراء الشام) 1/ 178-229. وديوان عرقلة الكلبي (مقدمة المحقق).

2 انظر:وفيات الأعيان 133/1-116. ومعجم الأدباء 107/3-218.

3 انظر:الخردة (قسم شعراء الشام) 44/3-45.

4 انظر:الخريدة (قسم شعراء مصر) 165/2-173.وحسن المحاضرة 565/1.

5 انظر: معجم الادباء 19/ 11- 28. وسير اعلام النبلاء 21/ 345 - 350. ووفيات الاعيان 147/5-153 وشذرات الذهب 4/ 332- 333. والنجوم الزاهرة 178/6- 179. والبداية والنهاية 13/ 30. وحسن المحاضره 164/1- 565. والروضتين(في كثير من المواضع)1/ 133 وما بعدها. وسناء البرق الشامي(مقدمه المحقق) ص 2-4. وطبقات الشافعية 6/ 178- 183.

الخليفة الفائز، ووزير الصالح بن رزيك واستوطنها، فلمّا أزال السلطان صلاح الدين دولة بني عبيد، اتفق عمارة هذا مع جماعة من الرؤساء على إعادة دولتهم، فعلم بهم السلطان، فأمر بشنقهم، ومن حملتهم عمارة هذا، وذلك في سنة 569هـ/ 1173م. يقال: إنه اتهم بالزندقة والكفر[1].

*عمر بن الفارض: هو شرف الدين أبو القاسم عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل المصري، ولد في القاهرة سنة 576هـ/ 1180م. كان حسن النظم، متوقد الخاطر، يسلك طريق التصوف، وينتحل مذهب الشافعي، أقام في مكة مدة. توفي سنة 632هـ/ 1234م[2].

*عنترة: هو عنترة بن شداد العبسي من مضر، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، وهو صاحب المعلقة المشهورة التي تسمّى "المذهبة"[3].

*ابن عنين: هو شرف الدين محمد بن نصر، كوفي الأصل دمشقي المولد، كان خاتمةالشعراء، لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه، وكان غزير المادة من الأدب، مطلعاً على معظم أشعار العرب، وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس. طاف في بلاد كثيرة ومدح ملوك دولة بني أيوب توفي سنة 630هـ/ 1232م[4].

*فتيان الشاغوري: هو أبو محمد الشهاب فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الأسدي المعروف بالشاغوري المعلم، ولد في نانياس في ساحل الشام سنة 530هـ/ 1135م، وهاجر منها إلى دمشق بسبب الاحتلال الصليبي. وكان فاضلاً وشاعراً ماهراً، خدم الملوك ومدحهم وعلّم أولادهم. توفي بدمشق سنة 615هـ/ 1218م[5].

*فخر القضاة نصر الله بن بُصاقة: هو نصرالله بن هبة الله بن عبد الباقي بن هبة الله ابن الحسين بن يحيى بن علي، العز، الكاتب، الرسائلي فخر القضاة المعروف بابن بُصاقة، ولد في قوص سنة 577هـ/ 1181م (وقيل غير ذلك) نشأ في مصر، وعمل في خدمة الملك

---

1 انظر: البداية والنهاية 276/12. ووفيات الأعيان 431/3-436. والخريدة (قسم شعراء الشام) 101/3-139. والروضتين 224/1-226. والنجوم الزاهرة 70/6-71. وشذرات الذهب 234/4-235. وحسن المحاضرة 406/1 و564. والبداية والنهاية 276/12-277.

2 أنظر:وفيات الأعيان 454/3-456. وحسن المخاطرة 518/1. وشذرات الذهب 149/5-153. والنجوم الزاهرة 288/6-291.

3 انظر: الشعروالشعراء ص 130- 135. والأغاني 8/ 237_ 425. و ديوان عنترة بن شداد (مقدمة المحقق ودراسته).

4 انظر: وفيات الاعيان 5/ 14-18. وفوات الوفيات 2/ 195و196و314. و ديوان ابن عنين (مقدمه المحقق) ص 3_ 43.

5 انظر: وفيات الاعيان 4 / 24-26. وشذرات الذهب 5/ 63-64. والنجوم الزاهرة 6/ 226. اعلام النبلاء 22/ 143-144. الخريدة (شعراء الشام) 247/1-259. و ديوان فتيان الشاغوري(مقدمة المحقق) ص 5- 13.

المعظم عيسى بن الملك العادل، وولده من بعده، ويقال:إنه كان أكتب أهل زمانه بلا مدافع، وأعرفهم بالقواعد الإنشائية واجودهم ترسلاً، واحسنهم عبارة، وأولهم باعاً، وله ديوان شعر ورسائل. توفي سنة 650هـ/ 1252م[1].

* أبو فراس الحمداني:هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني، فرد دهره، وشمس عصره ادباً ومجداً، وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور، سائر بين الحسن والجودة. ويقال بدء الشعر بملك وختم بملك، وقد شهد له المتنبي بالتقدم. ولد سنة 320هـ/ 932م. وتوفي سنة357هـ/ 968م [2].

* الفرزدق: هو همام بن غالب المجاشعي من تميم، كان شاعراً من الأجواء النبلاء. وهو من شعراء النقائض في العصر الأموي. توفي سنة 110هـ/ 728م [3].

* أبو الفضل حميد الحلبي:من شعراء الروضتين[4].

* القاضي الفاضل:هو أبو علي عبدالرحيم بن القاضي الاشرف بهاء الدين بن علي بن السعيد اللخمي، وزير من أئمة الكتاب، ولد في عسقلان، بفلسطين سنة 529هـ/ 1200م. كان من وزراء صلاح الدين الذي قال: "لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل"[5].

* ابن قسيم الحموي:هو مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي، ابو المجد، شاعر معروف، ولد في حماةنحو سنة 500هـ/ 1106م، تضع طفولته الاولى في مسقط رأسه، وحفظ القران الكريم، ودرس الدين واللغه والأدب، اتصل بالشعراء يعني شوي وطارحهم شعره، ولا سيما الشاعر ابن منير الذي كانت تربطه به صداقه متينه. يقال: انه كان متشيعاًحسن الحال، قانعاً بعمله في احد مساجد حماة، لم يكثر المدح، وإنما أكثر شعر الغزل الذي استنفد اكثر ديوانه. له مدائح كثيره في زنكي (الأتابك) وابنه نور الدين.

---

1 انظر: فوات الوفيات 4/ 187- 192. وشذرات الذهب 5/ 252. والبداية والنهاية 13/ 184. حسن المحاضرة1/ 567. وبيت المقدس الصليبية ص 225.(حاشية رقم 1).

2 انظر:وفيات الأعيان 2/58-64. ويتيمة القدس 1/35/88. والأعلام 2/155.

3 انظر: الاغاني 21/ 299- 327. والشعر والشعراء ص 289- 301. وطبقات الشعراء ص 75 وما بعدها. طبقات فحول الشعراء 2/ 298 وما بعدها.

4 انظر:الروضتين 2/44

5 انظر: وفيات الأعيان 158/2-163. والنجوم الزاهرة 156/6. وشذرات الذهب 324/4-327. وحسن المحاضرة 564/1. والخريدة (قسم شعراء مصر) 35/1-54. وصبح الاعشى (أورد القلقشندي كثيرًا من خطبه) انظر مثلا 496/6-500. والأعلام 346/3.

أورد صاحب الروضتين طائفة من أشعاره. اما صاحب الخريدة فقد اطلع على ديوان شعره استخرج منه عدد من القصائد رتبها على الحروف. توفي سنه 541 هـ/ 1146م[1].

* ابن قلاقس هو نصر الله بن عبد الله بن علي الأزهري الإسكندري الملقب القاضي الاغر، الشاعر المشهور، ولد سنة 532 هـ/ 1137م. كان شاعرا مجيداً وفاضلاً نبيلاً، رحل إلى صقلية، وبقي فيها نحو عامين ثم رحل إلى اليمن للإشتغال بالتجارة، فمات غرقاً، إذ غرق في المركب بالقرب من عَيْذاب (وهي بليدة على شاطئ بحر جدة) سنه 567هـ/ 1171م[2].

* ابن القيسراني:هو محمد بن نصر بن صغير بن داغر المعروف بابن القيسراني الحلبي الأديب الشاعر. نشأ في قيسارية فنسب إليها. وسكن دمشق وامتدح الملوك الكبار. يقال:إنه تولّى إدارة الساعات على باب الجامع الاموي، ثم سكن حلب مدة ووليّ فيها خزانه الكتب، وتردّد على دمشق، صحب نور الدين زنكي، وله فيه قصائد كثيرة. قيل: انه اشعر رجل بالشام. غزير الفضل، له معرفة تامة باللغة والأدب كان وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في عهد الملك العادل نور الدين ولهما القصائد الطنانه في مدحه، وكانا يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التي جرت بينهما. واتفق موتهما في سنة واحدة سنة 548هـ/ 1153م[3]

* مجد الدين محمد بن الظهير الإِرَبْلي: هو محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن ابي شاكر، مجد الدين ابو عبد الله ابن الظهير الإربَلي الحنفي، ولد في إربل سنة 602هـ/ 1205م. كان من أعيان شيوخ الأدب، وفحول المتأخرين في الشعر، له ديوان شعر من مجلدين. توفي سنة 677هـ/ 1278م في دمشق. وقد جمع المرحوم الشيخ عبد القادر المبارك قصيدة للشاعر في الحكم، سماها "الصبر مطية النجاح"[4].

---

1 انظر: الروضتين 32/1. والخريدة (قسم شعراء الشام) 433/1-480. والأعلام 222/7.

2 انظر: وفيات الأعيان 385/5-389. وشذرات الذهب 224/4. وحسن المحاضرة 324/1. ومعجم الأدباء 226/19-228. وسير أعلام النبلاء 546/20. والخريدة (قسم شعراء مصر) 145/1-165 وديوان ابن قلاقس - مقدمة المحققة ص15-79.

3 انظر: سير اعلام النبلاء 20/ 224- 226. و معجم الادباء 19/ 64- 81. والبداية والنهاية 12/ 230. النجوم الزاهرة 5/ 202. وشذرات الذهب 4/ 150- 151. الروضتين 1/ 91 ص 59. وفيات الاعيان4/ 458-461. وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني. وعيون التاريخ 12/ 456-461.

4 فوات الوفيات 3/ 301- 310. وشذرات الذهب 5/ 359. والبداية والنهاية 13/ 282- 283. والوافي بالوفيات 2/ 123- 127. و"الصبر مطية النجاح" جمع الشيخ عبد القادر المبارك.

* مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي ابو المظفر (قاضي الطور) اشتغل بالتدريس، فدرّس في المدرسة المعظمية بدمشق. له شعر قاله في خراب بيت المقدس سنة 616هـ/ 1219م[1].

* أبو محمد عبدالرزاق بن رزق الله الرّسْعني: ولد الشاعر سنه 589/ 1193م في راس العين بالجزيرة بين حرّان ونصيبين، ونسب إليها، حفظ القرآن، وسمع الحديث، وأخذ الفقه، قدم الموصل سنة 623هـ/ 1226م. له تصانيف في التفسير والفقه والعروض وغيرها. ويقال: إنه كان فقيهاً محدثاً، شاعراً فاضلاً. توفي سنة 661هـ/ 1262م[2].

* محمد بن المبارك القرقساني الخطيب: تولي القرقساني خطابة البيت المقدس، وكان ذا فضل وأدب، حافظاً للقران الكريم، وشاعراً نظم ارجوزة في النحو[3].

* ابن مطروح الاسيوطي: هو جمال الدين ابو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح المصري، احد الشعراء المجيدين، وصاحب التصانيف المفيدة في الأدب. ولد سنه 592هـ/ 1195م في اسيوط وتوفي سنة 649هـ/ 1251م في مصر[4].

* ابن المعتز: هو عبدالله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي. ولد سنة 247هـ/ 861م، وبويع بالخلافه بعد خلع المقتدر، مكث في فيها يوماً وليلة فقتله الاتراك سنة 296هـ/ 909م وكان شاعراً مشهوراً[5].

* المعتمد بن الأنصاري:صاحب التراسل[6].

* ابن منير الطرابلسي: هو ابو الحسين احمد بن منير بن احمد بن مفلح الطرابلسي الشرفاء. ولد الشاعر في طرابلس سنة 473هـ/ 1080م، ونشا وترعرع فيها، ودرس في دار الحكمة (دار العلم) بطرابلس، وحفظ القران الكريم، وتعلم اللغة والأدب ونظم الشعر. خرج من بلده إبان الحصار الصليبي لها، ولجأ إلى دمشق، وكان ضمن جماعة

1 انظر: النجوم الزاهرة 6/ 245. والبداية والنهاية 13/ 83. وشذرات الذهب 5/ 66 وذيل الروضتين ص 116.

2 انظر: شذرات الذهب 5/305-360. وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية ص243 حاشية رقم (1)

3 انظر: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية ص131 حاشية رقم (2).

4 انظر: وفيات الاعيان 6/258-266. وحسن المحاضرة 1/567.وشذرات الذهب 5/247-249، النجوم الزاهرة 7/24. والبداية والنهاية 13/ 182.

5 انظر: الاغاني 10/ 286- 296. و طبقات الشعراء لابن المعتز(مقدمة المحقق) ص 8 -14. ومقدمة ديوان اشعارالاميرابي العباس ص 41- 209. والأعلام 4 / 118.

6 انظر: الكامل في التاريخ 11/22-24.

من اهالي مدينته طلبوا الامان من الصليبيين قبل سقوطها بأيديهم سنة 302هـ ويقال: انه بلغ من العلم درجة جعلته مقبلاً على عقد مجالس لتدريس الأدب واللغة في مدينة حلب، إنه شاعر أديب بارع، وشاعر محسن مفلق، مليح الشعر، حسن الطبع. تصل بأمراء دمشق. يقول ابو شامة: كان ابن القيسراني وابن منير يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع الذي جرت بينهما. توفي في حلب سنه 548هـ/ 1153م [1].

* المهذب بن الزبير: هو ابو محمد الحسن بن علي بن ابراهيم الزبير، الملقب بالقاضي المهذب، لم يكن احد في زمانه اشعر منه، وله شعر كثير، ومحل في الفضل أثير، توفي سنة 561هـ/ 1165م [2].

*ابن النبيه المصري: هو كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد الأديب الشاعر البارع، صاحب الديوان المشهور، مدح بني أيوب، واتصل بالملك الأشرف موسى وكتب له الانشاء، و سكن في نصيبين. وتوفي فيها سنه 619هـ/ 1222م [3].

*نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي: من شعراء الروضتين [4].

*نجم الدين يوسف بن المجاور الوزير العزيزي: هو ابو الفتح الوزير الاديب من الشعراء المعروفين، فارسي الاصل من شيراز. مولده في دمشق، انتدبه صلاح الدين معلماً لابنه العزيز عثمان. لما توفي صلاح الدين، واستقل العزيز بالسلطنة فوض إلى نجم الدين جميع امور دولته. توفي في دمشق سنة 601هـ/ 1204م [5].

* نشو الدولة أبو الفضل :هو احمد بن عبد الرحمن بن علي بن المبارك السلمي من دمشق من بنى نفاذة، شاب محب للفضل، عاش ستين عاماً، وتوفي سنه 561هـ/

---

1 انظر: الخريدة (قسم شعراء الشام) 1/ 76- 95. ووفيات الاعيان 1/ 156- 160. ومقدمة الديوان ص 5-57. والبداية والنهاية 231/12. والروضتين 1/39-51 وغيرها من المواضع. و سير اعلام النبلاء 20 / 223- 224. وتهذيب تاريخ دمشق 2/ 100 - 102. ومختصر تاريخ دمشق 3/ 306 307. وشذرات الذهب 4/ 146-147. والنجوم الزاهرة5/299 وعيون التواريخ 12/467.

2 انظر: وفيات الاعيان 61/1. و فوات الوفيات 1/ 337- 341. و معجم الادباء9/ 47- 69. وشذرات الذهب 4/ 197.والخريدة (قسم شعراء مصر) 1/204-221.

3 انظر : وفيات الاعيان5/ 336. وفوات الوفيات 3/ 66-73. والنجوم الزاهرة 243/6. وشذرات الذهب85/5. وحسن المحاضرة 566/1. ومقدمة الديوان ص 15- 19. وسير أعلام النبلاء 22 / 178. وبدائع الزهور في وقائع الدهور 1/ 259.

4 انظر:الروضتين 12/2.

5 انظر:الأعلام 227/8.

1165م. له مدائح كثيرة في السلطان صلاح الدين واولاده وأخيه العادل وغيرهم، وكان هذا الشاعر أحد المشهورين بحسن النظم[1].

* النظام المصري: هو جبرائيل بن ناصر بن المثنى السلمي، كان يعمل معلماً في دمشق، عاد إلى مصر عند المملكة الصلاحية فيها، ثم قصد اليمن، وعاد إلى مصر، وكان مستقيم الحال، مثمر المال، صلبه والي قوص وقتلوا وسلب ما له سنة 573 هـ/ 1177م[2].

*هبة الله بن وزير :هو النجيب أبو المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد المصري، يقال :إنه من أهل الإجادة. ويروي عن العماد الأصفهاني انه لقيه في مصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة، ثم عاد إليها سنة ست وسبعين فأخبر انه مات[3].

*وجيه بن عبد الله بن نصر ابو المقدام التنوخي: كان شاعراًفصيحاًتوفي سنة504هـ/ 1110م[4].

*ابو يَعْلى التميمي الرئيس: هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي العميد الدمشقي المعروف بابن القلانسي (ابو يعلى)، اديب شاعر مترسل مؤرخ، جامع تاريخ دمشق وسماه الذيل، تولى رئاسة ديوان دمشق مرتين وفيها توفي سنة 555هـ/ 1106م[5].

*يوسف البراعي :من شعراء الروضتين[6].

---

1 انظر: الخريدة(قسم شعراء الشام) 1/ 329- 334. الروضتين 2/ 11 وفيه (نقادة) والكامل في التاريخ 457/11.

2 انظر: الخريدة (قسم شعراء مصر) 140/2.

3 انظر: الخريدة (قسم شعراء مصر) 145/2. وما بعدها. ووفيات الأعيان 66/6.

4 انظر: النجوم الزاهرة 200/5.

5 انظر: الروضتين 1/45. والنجوم الزاهرة 5/332. وشذرات الذهب 174/4. وسير أعلام النبلاء 388/20 (رقم 262) والوافي بالوفيات 148/11. وذيل تاريخ دمشق (مقدمة المحقق) ص (ك_ق).

6 انظر: الروضتين 2/45

المصادر والمراجع

❋القرآن الكريم

❋ أدب الحروب الصليبيه د. عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربي، ط 2، بيروت 1984.

❋ الأدب العربي من الانحدار الى الازدهار، د. جودت الركابي، دار الفكر، ط1 دمشق 1982.

❋ أطلس تاريخ الاسلام د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة 1407/ 1987

❋ الاعلاق الخطيرة، ابن شداد، تحقيق زكريا عبّارة، وزارة الثقافة، دمشق 1991.

الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط 5، بيروت 1980

❋ الأغاني، ابو فرج الاصفهاني، تحقيق لجنة من الأدباء، دار الثقافة،ط6 بيروت 1983.

❋ الإنباء في تاريخ الخلفاء، ابن العمراني، تحقيق قاسم السامرائي ليدن 1973

❋ بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، تحقيق محمد مصطفى، مكتبه عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، القاهره 1395/ 1975

❋ البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، ط 6، بيروت 1406/ 1985

❋ بيت المقدس في ادب الحروب الصليبية، د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، دار البشير، عمان 1409/ 1989

❋ بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، جمع وتحقيق وتقديم د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، دار البشير، عمان 1409/ 1989

❋ تاج العروس، الزبيدي.

❋ تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط4، بيروت 1394/ 1974

❋ تاريخ آداب اللغة العربية.،جورجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983.

❋ تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط4، بيروت 1984.

❋ تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات) (مصر والشام) د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة 1984

* دار الخلفاء السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، ط 4، القاهرة 1389/ 1969 .
* تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، تحقيق الأب انطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت 1403/ 1983
* تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق مجموعة من المحققين، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. (دار الفكر).
* تجارب الأمم، مسكوية، تحقيق ها، ا
ف، امده آمدروز، مطبعة شركة التمدن الصناعية القاهرة 1914/ 1915 .
* تهذيب تاريخ دمشق(لابن عساكر) هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، ط2، بيروت 1399 _1979 .
* الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية،د. حامد غنيم ابو سعيد القاهرة 1393/ 1973 .
*الحروب الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية ط3، القاهرة 1978 .
* الحروب الصليبيه و اثرها في الادب العربي في مصر والشام، محمد سيد كيلاني، مكتبة مصر، القاهرة 1949 .
* حسن المحاضره في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 1 القاهرة 1387/ 1968 .
* الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية، د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط2، القاهرة 1979 .
* الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، د. أحمد احمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة 1972 .
* خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الاصفهاني:
_ قسم شعراء الشام، تحقيق د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) دمشق 1375_ 1388/ 1955 _1968 .

_ قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد امين و شوقي ضيف وإحسان عباس، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة 1951 .

* خزانة الأدب البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخنجي ط1 القاهرة 1406 /1986

* خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، دار القاموس الحديث، بيروت (د. ت) .

*دار الطراز في عمل المؤشرات، ابن سناء الملك، تحقيق د. جودت الركابي، دار الفكر، ط3، دمشق 1980/ 1400 .

* دراسات في النص الشعري، د. عبده بدوي، دار الرفاعي، ط2، الرياض 1984/ 1405 .

* الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، محب الدين بن الشحنة، تحقيق يوسف بن إليان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1909 .

* ديوان الأبيوردي(أبو المظفر محمد بن احمد بن إسحاق)، تحقيق د. عمر الأسعد مؤسسة الرسالة ط2، بيروت 1407 / 1987 .

* ديوان اسامه بن منقذ، تحقيق د. احمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، ط2، بيروت 1403/ 1983 .

* ديوان اسامه بن منقذ، تحقيق د. هاشم صالح مناع، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع_ دبي 1996 (وهذا هو المعتمد في بحثنا) .

* ديوان امرؤ القيس، تحقيق محمد ابي الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، القاهرة 1984 .

* ديوان الامير ابي فراس الحمداني(رواية ابن خالويه وروايات أخرى) تحقيق د. محمد التونجي، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية بدمشق، دمشق 1408/ 1987 .

* ديوان البهاء زهير، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم و محمد طاهر الجيلاوي، دار المعارف، ط2، القاهرة 1982 .

* ديوان تاج الملوك الايوبي (بوري)، تحقيق د. محمد عبد الحميد سالم، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 1408/ 1988.

*ديوان ابي تمام (شرح الخطيب التبريزي)، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، ط5، القاهرة 1987.

* ديوان ابن الخياط، تحقيق خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق 1377/ 1958.

* ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمع وتحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني ومكتبه المدرسة، ط2، بيروت 1972.

*ديوان ابن الدهان الموصلي، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد 1388 1968.

* ديوان ابن الساعاتي، تحقيق انيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت 1938.

* ديوان سبط ابن التعاويذيّ، تحقيق د. س. مرجليوت، مطبعة المقتطف، القاهرة 1930.

* ديوان ابن سناء الملك، تحقيق محمد ابراهيم نصر ود. حسين محمد نصّار، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (وزارة الثقافة) القاهرة 1388/ 1969.

* ديوان الشريف الرضى، تحقيق أحمد عباس الأزهري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1310/ 1893.

* ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري، تحقيق د. عمر موسى باشا، المطبعة الهاشمية(مطبوعات مجمع اللغه العربية بدمشق)، دمشق 1387/ 1967.

* ديوان (الوزير المصري) طلائع بن رزيك، جمع وتحقيق د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1377/ 1958.

* ديوان عرقلة الكلبي(ابو الندى حسان بن نمير) تحقيق احمد الجندي، (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) مطبعة دار الحياة، دمشق 1390/ 1970.

* ديوان عروة بن الورد والسموءل، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت (د. ت).

* ديوان عماد الدين الاصفهاني، جمع وتحقيق د. ناظم رشيد، مطابع جامعة الموصل 1404/ 1983.

* ديوان عنترة، تحقيق محمد سعيد مولي، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت ودمشق 1403/ 1983.

* ديوان عنترة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1404/ 1984.

* ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، ط2، بيروت(د. ت).

* ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق)، المطبعة الهاشمية، دمشق 1387/ 1967.

* ديوان ابن قلاقس، تحقيق د. سهام الفريح، مكتبة المعلا، ط1 الكويت 1408/ 1988.

* ديوان المبشرات والقدسيات، للجلياني، تحقيق د. عبد الجليل حسن عبد المهدي، دار البشير، عمان 1409/ 1989.

* ديوان ابن منير الطرابلسي، جمع وتقديم د. عمر عبد السلام تدمري، دار الجبل، ط1، بيروت 1986.

* ديوان مهيار الديلمي، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة(د. ت).

* ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد ابي الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، القاهرة 1985.

* ديوان ابن النبيه المصري، تحقيق عمر محمد الأسعد، دار الفكر، ط1، بيروت 1969.

* ذيل تاريخ دمشق، ابو يعلى حمزة بن القلانسي، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان، ط1، دمشق 1403/ 1983.

* الذيل على الروضتين(تراجم رجال القرنين السادس والسابع) أبو شامة، شهاب الدين المقدسي الشافعي تحقيق السيد عزة العطار الحسيني الدمشقي، دار الجيل،ط 2، بيروت 1974.

* رحلة ابن جبير، ابو الحسين بن جبير، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت (د. ت).

* الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة شهاب الدين المقدسي الشافعي دار الجيل، بيروت (د. ت).

* زهر الآداب وثمر الألباب، ابو اسحاق الحصري القيرواني، مكتبة المحتسب ودار الجيل، ط4، بيروت 1972 .

* سنا البرق الشامي، الفتح بن علي البنداري، تحقيق د. فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة 1979 .

* ابن سناء الملك حياته وشعره، تحقيق محمد ابراهيم نصر، مراجعة د. حسين نصار، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1387/ 1967 .

* سنن الترمذي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، ط2، بيروت 1403/ 1983 .

* سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت(د. ت) .

* سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1401- 1405/ 1981- 1985 .

* السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، القاهرة 1975/ 1955 .

* الشافي في العروض والقوافي، د. هاشم مناع، دار الفكر العربي ودار الوسام، ط2، بيروت 1989 .

* شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت(د. ت) .

* شرح الأربعين النووية، النووي، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية، بيروت (د. ت) .

* شرح ديوان ابي تمام، ايليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت 1981 .

* شرح ديوان ابي الطيب المتنبي، ابو البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت 1980 .

* شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت 1357/ 1938

* شرح الكافية البديعة، صفي الدين الحلي، تحقيق د. نسيب نشاوي، (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) دار المعارف للطباعة، دمشق 1403/ 1983 .

* الشعر الجاهلي_ خصائصه وفنونه،د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة بيروت 1983.

* شعر الجهاد في الحروب الصليبيه في بلاد الشام، د. محمد علي الهريفي، مؤسسة الرسالة،ط3، بيروت 1400/ 1980.

* الشعر والشعراء،ابن قتيبة مطبعة بريل، ليدن 1902.

* شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، أحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، (سلسلة كتب التراث- 65) العراق 1978.

* صبح الاعشى، القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة 1963.

* الصبر مطيّة النجاح(قصيدة في الحكم، لابن الظهير الإربلي) جمعها وفسر ألفاظها الشيخ عبد القادر المبارك، قدم لها وضبطها أ. د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر دمشق 1410/ 1990.

* صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت(د. ت).

* صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، د. محمود إبراهيم، دار البشير،ط 2، عمّان 1408/ 1988.

* طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1 القاهرة 1388/ 1968.

* طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحي، إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي، دار النهضة بيروت 1968.

* طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، دار المعارف، ط4، القاهرة 1981.

* طبقات فحول الشعراء،ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة 1980.

* علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت 1404/ 1984.

* علم المعاني،د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت 1404/ 1984.

❋ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د. محمد قرقزان، دار المعرفة، ط1، بيروت 1408/ 1988.

❋ عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، وزارة الثقافة والإعلام، العراق 1977.

❋ عيون الروضتين، ابو شامة، تحقيق احمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق 1991.

❋ الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1395/ 1975.

❋ الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الكاتب الاصفهاني، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965.

❋ فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت 1973.

❋ فيض القدير (شرح الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي) للمناوي، دار الفكر للطباعة، ط2، دمشق1391/ 1972.

❋ القضايا القومية

في شعر المراة الفلسطينية،د. هاشم صالح مناع، شركة كاظمة للطباعة، الكويت 1984.

❋ القلاع ايام الحروب الصليبية، فولفغانغ مولّر، ترجمة محمد وليد الجلاء، دار الفكر، ط2، دمشق 1404/ 1984.

❋ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت 1402/ 1982.

❋ كتاب جمهرة الأمثال أبو هلال العسكري، تحقيق محمدأبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، ط2، بيروت 1408/ 1988.

❋ كتاب الصناعتين، ابو هلال العسكري، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت 1404/ 1984.

❋ لباب الآداب، اسامة بن منقذ، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة 1407/ 1987.

❋لسان العرب، ابن منظور.

* المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1358/ 1939.

* مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت (د. ت).

* مختصر تاريخ دمشق لإبن عساكر، للإمام محمد بن مكرّم المعروف بابن منظور، مجموعة من المحققين، دار الفكر، ط1، دمشق.

* المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والمملوكي، د. عبد الجليل حسن عبد الهادي، مكتبة الأقصى، عمان 1981.

*مروج الذهب، المسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت 1948/ 1386.

*المزاهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد ابي الفضل إبراهيم وآخرين، المكتبة العصرية، بيروت 1986.

*مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت 1978/ 1398.

* مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك،د. سعيد عاشور، دار النهضة العربية، بيروت 1972.

* معاهد التنصيص، عبد الرحيم بن احمد العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت 1367/ 1947.

* معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار الفكر، ط3، بيروت 1400/ 1980.

* معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1404/ 1984.

* معجم ما استعجم، البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب،ط3، بيروت 1403/ 1983.

* معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت 1979.

* معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1376/ 1957.

* مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، ابن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال، الجزء الأول مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة 1953 . والجزء الثاني المطبعة الأميرية، القاهرة 1957 .

* المفضليات، الضبي، تحقيق احمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط3، القاهرة 1964 .

* الموازنة بين ابي تمام والبحتري، الآمدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت 1363/ 1944 .

* النثر في العصر الجاهلي، د. هاشم مناع، دار الفكر العربي، ط1، بيروت 1993 .

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب) وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة(د. ت).

* نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط3، القاهرة 1398/ 1978 .

* نهايه الأرب في فنون الأدب، النويري، تحقيق د. سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1405/ 1985 .

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية(سيرة صلاح الدين)، بهاء الدين بن شداد، تحقيق د. جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط1، القاهرة 1964 .

الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، مجموعة من المحققين، بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت.

* الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد ابي الفضل إبراهيم وعلي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية، بيروت 1386/ 1966 .

* وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1986 .

* يتيمة الدهر، الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط3، بيروت 1393/ 1973 .

قائمة المحتويات